الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

سلسلة علوم اللسان عند العرب 1

السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة

ENAG EDITIONS

حلقة عبد الرحمن الحاج صالح
اللسانية-جامعة الجلفة

01 02 05 / 12

الإيداع القانوني : 2012 - 490

ردمك : 3 - 171 - 00 - 9931 - 978

© موفم للنشر – الجزائر 2012

الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة

موفم للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن هذا الكتاب الذي نقدمه لكافة اللغويين العرب وكل من له اهتمام بالتراث اللغوي العلمي العربي هو أول حلقة لسلسلة من الدراسات في النظريات والمفاهيم الأساسية التي بني عليها هذا التراث وما يرتبط بذلك من المناهج الأصيلة في تدوين اللغة وفي التحليل اللغوي[1].

والذي نقصده من التراث اللغوي العلمي هو ما تركه لنا العلماء العرب القدامى من أعمال جليلة انطلقت كما هو معروف من دراسة القرآن للحفاظ على لغته وذلك بطريقة علمية وهو الاستقراء للنص القرآني واختراع نظام من الاعجام والنقط لتصحيح القراءة **وظهر هذان العملان معا**[2]. وأحس هؤلاء الباحثون حينئذ بضرورة الرجوع إلى كلام العرب لنزول القرآن بلغتهم ولمواصلة ما أبدعوه من هذه الطريقة الموضوعية. فشرعوا في السماع المباشر من أفواه العرب. وقد حصل هذا السماع أيضا بطريقة علمية. فالذي نقصده من هذه الدراسة الأولى هو التثبُّت من ذلك بالنظر المتأني فيما قاموا به من سماع وتسجيل وتدوين وكيف تم كل ذلك.

هذا وأردنا أن لا تكون دراستنا للجانب الأهمّ من هذا التراث **وهو الأصول العلمية التي امتازت بها علوم اللسان عند العرب عن غيرها، مقطوعة الصلة عما ظهر في زماننا من النظريات العلمية في العلوم اللسانية**. وذلك في كل واحد من الكتب التي سيصدر من هذه السلسلة. فحاولنا القيام بمقارنة بين ما قاله العلماء العرب القدامى وما قاموا به من بحوث وما توصلوا إليه من أفكار ومناهج التحليل وما يقوله العلماء المحدثون في مختلف نظرياتهم ومذاهبهم كالبنوية المعاصرة الأوربية منها والأمريكية وكالنحو التوليدي والتحويلي وكنظرية

---

(1) – وقد سبق وأن تناولنا بعض ما سيأتي في هذه السلسلة في رسالتنا للدكتوراه عنوانها «علم اللسان العربي وعلم اللسان العام» (بالفرنسية) وفي كتاب بالعربية عنوانه : بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (الجزائر 2007).

(2) – وهذا مما لا شك فيه وكون النقط للنص القرآني قديما جدًا (قبل عهد عبد الملك بن مروان) هو دليل على قدم النحو العربي.

الخطاب وغيرها. ولابد ههنا أن أوضّح مرادي من ذلك: فالمقصود من هذا ليس هو أن نأخذ كل ما يقوله المحدثون من علماء اللسانيات وننطلق منه كأصول ثم ننظر ما الذي يوافق ذلك فيما جاء به العلماء القدامى من أقوال فنحكم على بعضها بالصحة لموافقتها لها وبعضها بالخطأ (بل بالبدائية!) لمخالفتها [3]. فهذا تعسف محض لأن النظريات والمذاهب ليست هي الحقائق العلمية التي يجتمع على صحتها كل العلماء[4]. ومن جهة أخرى فهناك أصول علمية مجمع عليها في زماننا **بين جميع العلوم** لا في علوم اللسان فقط فهي التي يجب أن تكون كالمحك في اختبار الصفة العلمية لأي فكرة ولأي مذهب ولأي منهج تحليل لعمومها وانطباقها على جميع المعارف ولعدم الخلاف فيها. ومثال التعسّف المشار إليه اتخاذ مفهوم المقطع الصوتي حقيقة علمية لا خلاف فيها، هذا من جهة واتخاذ الجانب الصوتي (الأكوستيكي) وحدهُ كمرجع دون الجانب الحراكي المُحدث للصوت، لتحديد هذا المقطع وجميع الظواهر المتعلقة بإحداث الكلام من جهة أخرى. ثم اتهامهم العلماء القدامى بعد ذلك، بعدم معرفتهم لما هو أساسي في الصوتيات. وكتبنّي تصنيف الحروف الغربي ورفض التصنيف العربي بدلا من أن نبيّن أن ذاك وجهة نظر اعتُمد فيها على اعتبارات غير اعتبارات العلماء العرب وليس بالضرورة حقيقة علمية[5].

كما أن المقصود ليس هو إسقاط هذه المذاهب والنظريات الحديثة على المذاهب العربية القديمة: لا نريد النظر فيما أخرجه القدامى وفي أعيننا نظارات خاصة بالعصر الذي نعيش فيه فنطمس الرؤية القديمة بالرؤية الجديدة ولو من بعض الجوانب. وكل يعرف أن لكل عصر نظرة خاصة وتصورًا خاصًا للظواهر وكيفية خاصة للكشف عن أسرارها. والمنظور العربي يتميّز بلا شك في هذه العلوم اللسانية عن المنظور الغربي الحديث ثم لابد أن نعرف أن الكثير مما هو موجود عند الغربيين ورثوه عن الحضارة اليونانية مثل مفهوم المقطع الذي سبق ذكره.

---

(3) -- فهذا موقف الأب فلايش في جميع ما كتبه عن التراث اللغوي العلمي عند العرب. أنظر: H. Fleish, La conception phonétique des Arabes d'après le Sirr al-Ṣināʿa d'Ibn Djinni. Z.D.M.G, 108 (1958), 74-105.

(4) -- ونحن لا ننكر أبدًا ما للعلوم اللسانية الحديثة من قيمة فهي عظيمة حقًا وننوّه بما جاء به العلماء الغربيون إلا أن التقليد لا يفيدهم ولا يفيدنا في شئ.

(5) -- ولنا في ذلك أعمال مخبرية تدلّ على صحة ما ذهبنا إليه. أنظر كتابينا في ذلك: بحوث ودراسات في علم اللسان وبحوث ودراسات في اللسانيات العربية.

أصول البحث العلمي في التراث اللغوي كما يجب أن تكون في نظرنا:

قد اعتمدنا في تحرير هذه الدراسة على مجموعة من الأصول سنعرضها على القارئ الكريم فيما يلي مع بعض الأمثلة حتى تتضح أكثر وتتبين فوائدها. فالذي حملنا على اعتماد هذه الأصول- في جميع أعمالنا الخاصة بالتراث- هو ما لاحظناه عند الكثير من معاصرينا من العرب ومن غيرهم كميلهم إلى الاكتفاء بما يقوله المتأخر عن المتقدم والتهاون بما قاله المعني بالأمر نفسه والاقتصار بما رُوي عنه وعن مذاهبه وأفكاره ولو بعد قرون، كل هذا مع وجود النص الأصلي وقد يتعارض هذا النص بما قاله الآخرون تعارضا شديدا ثم الاعتماد على الحكايات التي يحكيها مؤلفو كتب الأدب وكتب الطبقات حول عالم قديم فقد ينسب هؤلاء إلى العلماء القدامى أقوالا لم يقلها أحد منهم ومذاهب لم ينقلوها عنهم مباشرة أو لم يقولوا بها. ويكفي أن يرجع الباحث إلى ما تبعثر من أقوال هؤلاء العلماء في مختلف المصادر الموثوقة حتى يتبين ذلك بوضوح وقد يصلون بذلك إلى بناء النظريات حول هذا التراث والحكم عليه بأحكام يشوبها الكثير من التعسف.

وأوضح مثال على ذلك هو ما تأوّله أحد النحاة المتأخرين ممن ألف في طبقات الأدباء وهو أبو البركات بن الأنباري في كتابه:الإنصاف في الخلاف بين البصريين والكوفيين. فقد بيّن المرحوم الدكتور محمد خير الحلواني من جامعة اللاذقية أنّ الكثير مما نسبه هذا الرجل إلى الفراء أو غيره من الكوفيين من الأقوال والآراء خطأ لم يقله أحد منهم وذلك بالرجوع إلى نصه الأصلي الذي وصل إلينا وهو كتاب معاني القرآن وبعض الكتب الأخرى. وقد عاش الناس معتمدين بكل اطمئنان على هذه الأقوال منذ قرون وقِسْ على ذلك المئات من الأمثلة. وسنتعرض لبعض ذلك بعد ذكرنا للأصول التي اعتمدناها في أعمالنا الخاصة بالتراث اللغوي.

1) فيما يخص الرواية ومدى ثقة الباحث فيها:

1- **ضرورة الرجوع إلى ما قاله القائل** هو نفسه أي **إلى نص قوله أو أقواله مما وثق** والامتناع الباتّ من الاكتفاء بما رُوِى عنه [6] .

(6) - أما ما نلاحظه في زماننا من الاكتفاء بذكر قول أحد الأئمة في اللغة بذكر ما رواه السيوطي أو أبن الانباري أو غيرهما مع وجود النص فهو بعيد جدا عن العلم.

فإن لم يوجد فلا بد من الاعتماد على ما رواه عنه **أصحابه الذين سمعوا منه** مباشرة ولا يعتمد على كلام أحدهم دون الآخر.وإن لم يمكن كل هذا فسيبقى كل قول حول هذا القائل من قبيل التخمين والافتراض أو مجرد افتراء . وقد تقوم مقام النص الأصلي أفعال المنسوب إليه القول (7) وقد تنافى هذا القول وهذا كثير الوقوع في التراث العربي.

وهذا هو الأصل الأساسي الذي لابد من الاعتماد عليه الاعتماد المطلق وهو الاعتماد على الحجج الموثوقة **وهي الوثائق التاريخية** الصادرة من المعني بالأمر لا غير.

2- **ضرورة الاعتداد في التصديق لما يُرْوَى** من الأحداث ومن الأقوال **بأن يكون «من أكثر من وجه»**. أي بالروايات الصادرة من مصادر مختلفة لا تكون منقولة بعضها عن بعض **والرفض لكل ما ينفرد به راوٍ** إذا خالف بذلك كل الروايات الأخرى أو خالف أقوال المعنى بالأمر أو أفعاله وكل ما تركه لنا من آثار.ولا سيما إذا كان طعنا صريحا يمس أخلاق القائل وسُمْعته أو يحطّ من قيمته العلمية.

3- **ضرورة الاصطفاء للمصادر وتخيُّر ما أجْمع العلماء قديما وحديثا على صحته** وعدم التخليط بين الكتب العلمية التي شهد على ذلك **جميع** الاختصاصيين وبين الكتب الشبه العلمية التي ألفت في الغالب للتسلية وهي التي احتوت على الكثير مما يسلو به القارئ كالحكايات والمسامرات فاختلط فيها الصحيح والزائف، الحوادث الحقيقية والخُرافات والأساطير ولا بد من التحفظ الشديد مما ترويه ومما تنفرد به من الأخبار.

4- **الرفض لكل مصدر كمرجع للرواية يتّضح أن أكثره كذب** وافتراء مُتَعمَّد ولو وجد فيه بعض ما روى في غيره. ولا سيما إذا كان المؤلف معروفًا بالسيرة الشاذة كالميل إلى الأهواء أو بالمجون أو كان معروفا بالكذب بإجماع أهل عصره.

2) فيما يخص الفهم لما قصده بالفعل أصحاب النصوص:

5- **ضرورة تقديم النص الأصلي لقول قائل على شرحه في محاولة فهمه** ومعنى ذلك أنه لا بدّ من أن يُبدأ بالنص الأصلي قبل النظر في شروحه والامتناع من الاكتفاء في **فهم هذا القول** بما جاء بعده من شروح الشارحين ومن ثم **فلا بد من ألا يقتصر الباحث على**

---

(7) – أفعال يكون شهدها ورواها أكثر من واحد أو تركت أثرا وسنرى فيما يلي مثالا لذلك.

تأويل المتأخر لأقوال المتقدم دون الرجوع إلى صاحب هذه الأقوال هو نفسه وما قاله عنها أصحابه الذين تتلمذوا عليه مباشرة.وهذا قد يخص أكثر تحديد المصطلحات التي استعملها صاحب النص.

6- **التمسك بمبدأ التصفّح الكامل** للنص الواحد أو لعدّة نصوص ليتمكن الباحث من إدراك المقصود الحقيقي في استعمال صاحب النص لألفاظ خاصة أو للتعليق أو الحكم على قول من أقواله. ولا يكتفي في ذلك بالرجوع إلى بعض ما يوجد في نصوصه وترك البعض الآخر وقد يكون مهما.

7- **الاعتماد بعد هذا التصفح الكامل للنص** على طريقة تحليلية استنباطية ترمي إلى استخراج لا المعاني الوضعية لألفاظ النص بل **المعنى المقصود** من كل لفظة في كل النص إن كان المقصود واحدًا أو في مواضع مختلفة منه إن تعددت المعاني المقصودة من الكلمة الواحدة. وهذا لا يبيّنه بكيفية دقيقة إلا مجموع السياقات التي ترد فيها الكلمة. والطريقة التي استخدمناها لهذا الغرض سميناها **بالمقارنة القياسية الدلالية**. وسنتطرق إليها فيما يلي.

فبعد إجراء هذه العمليات الاستنباطية على النص، يمكن للباحث أن يبحث عما قاله الآخرون من العلماء القدامى أصحاب الشروح أومن الذين حاولـوا تحديد معاني المصطلحات التي وردت في التراث.والسبب في ذلك هو التفادي من الانطلاق بفكرة مسبّقة قبل الخوض في البحث إذ لا بد من **النظر المباشر** في المعطيات التي هي النصوص الأصلية.

8- **الاعتداد الجدّي المستمر بعامل الزمان** في تحوّل رؤية العلماء وتصوراتهم ومفاهيمهم وما يحصل بالتالي لمصطلحاتهم – حتى في النحو واللغة**!** – من تحوّل معانيها.

9- **ضرورة التمحيص الموضوعي الدقيق للنظريات اللسانية الحديثة** إذْ لا يجوز أن تقبل أي نظرية كليا أو جزئيا إلا كآراء وافتراضات خصوصا إذا استخرجت من النظر في لغة أوروبية وذلك لتفادي التخليط بين المفاهيم العربية القديمة وبين ما ظهر من الأفكار والمناهج في اللسانيات الحديثة بل وتفادى **إسقاط هذه الأخيرة على الأخرى وجعلها أصلا والأخرى فرعًا عليها** [8].

(8) – وهو سلوك عام في أيامنا مع الأسف فيطبق الباحث البنوية على العربية أو النحو التوليدي كما هما دون أي نظر فيها.

ومن ذلك ضرورة النظر في مفهوم المعيار اللغوي وفيما عيب على المعيارية دون التمييز بين العلمية منها والتعسفية. ونحن في أشدّ الحاجة إلى كل ذلك لان القضايا اللغوية ولا سيما ما يخص اللغة العربية قديما وحديثا لها علاقة وثيقة بما يسمى بالمعيار اللغوي.

وها هي بعض الأمثلة :

1- فيما يخص الأصول 1 و2 و3 : فهناك فكرة لها خطورتها قد بُنيَت على أصل واحد منفرد وهي رواية رواها الجاحظ، فيما يزعم، عن الأصمعي وهي قوله: «جلستُ إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعتُه يحتجّ ببيت إسلاميّ» «قال: وقال مرةّ: لقد حسن هذا المحدث حتى هممت أن آمر فتياننـــا بروايته» (البيان، 1، 321). فاشتهر هذا الذي نُسب إلى الأصمعي فأخذ ذلك صاحب الأغاني (وقد نقل كلام الجاحظ:انظر الأغـــاني، 8، 285) ونسج عليه حكايات بنيتْ كلها على الاستهتار المزعوم لأبي عمرو وخلف وغيرهما بالقديم[9] ونبذ كل محدث (والتخليط عنده بين الإسلامي والمولد). ومن هذه الخرافات ما نسبه إلى أبي عمرو أنه قال: «لو أدرك الأخطل يوما واحدًا من الجاهلية ما قدَّمتُ عليه أحدًا» ونقل بدوره ابن رشيق هذا الكلام وقال: «لقد حَسُنَ هذا **المُولَّد** حتى هممتُ أن آمر صبيـــاننا بروايته». ويواصل صاحب العُمدة: «يعني بذلك شعر جرير والفرزدق **فجعله مولَّدًا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضْرمين وكان لا يعدّ شعرًا إلا للمتقدمين**.... هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي [10] أعني أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولّدون»(العمدة، 1، 105).

وقد اسْتُنْتِجَ من هذا في عصرنا أن جميع اللغويين في زمان أبي عمرو كانوا يفضّلون في جمعهم للشعر وروايته القديم على المحدث. ومما يدل على عدم صحة ما نسبوه من هذا الكلام عدم وجود كلمة «مولّد» في الكتب القديمة ككتاب سيبويه ومجاز القرآن وحتى معاني

---

(9) – ونقل مثل هذا الكلام أيضا ابن قُتيبة في كتاب الشعر والشعراء قال: «فقد كان الفرزدق والأخطل يُعدُّون محدثين. وكان يقول أبو عمرو بن العلاء: لقد كثر هذا المُحدث وحسُن حتى لقد هممت بروايته»(ص7). فكأنه تحرّج وغيّر ما قاله الجاحظ فلم ينكر أن أبا عمرو روى شعر معاصريه.

(10) – ابن الأعرابي تتلمذ على المفضل الضبى بصفة خاصة.

القرآن للأخفش ولم تظهر إلا بعد دخول القرن الثالث **بمعنى المحدث الصادر من غير الفصيح** –عند ابن السكيت مثلا– ولا تُطلق أبدًا في ذلك الوقت على شعر الإسلاميين فقد حصل تخليط ظاهر في كتاب الأغاني والموشح بين الإسلامي الفصيح وبين المولَّد بهذا المعنى.

أما أبو عمرو بن العلاء فقد **نسب إليه الأصمعي نفسه** إنشاد شعر للإسلاميين والاحتجاج ببعضه فيما وصل إلينا. وذلك مثل قوله: «حدّثني أبو عمرو بن العلاء قال: سمعت **جندل بن الراعي**(11) يُنشد بلال بن أبي بُرْدَة :

نَعُوسٌ إذا دَرَّتْ جَرُوزٌ إذا غدتْ   بُوَيْزِلُ عامٍ أوْ سَديسٌ كَبازِلِ

(كتاب الإبل للأصمعي، 86 في نشرة هفنر)

وقال: أنشدنا أبو عمرو بن العلاء [لدَرَّاج بن زُرْعة الضبابي (12)]:

إذا أُمُّ سِرْياح غدَت في ظعائن   جوالسِ نَجْدٍ فاضت العين تدمعُ

(نفس المصدر، 181 وفي اشتقاق الأصمعي ، 120-121).

وقال: **وأنشدنا أبو عمرو هذا البيت لمالك بن الحارث الهُذَلي احتجاجًا** في القُرء أنه الوقت:

كرهتُ العَقْر عَقْرَبني شُلَيْل   إذا هبّت لقارئها الرياحُ

(الأضداد لابن السكيت، 56)

قال أبو عبيدة: سُئِل أبو عمرو بن العلاء: أىّ قيْسٍ أذكَر؟. **فأنشد للفرزدق:**

ومَنْ يَكُ عن قيسٍ بن عَيْلان سائلاً   ففي غطفان عِزُّ قيس وخيرُهـا

هم حاملوهـا والفوارس منـهـم   وفاتِكُهم منهـا ومنه بـدورهـا

(الديباج، 142)

---

(11) - الطهوى من تميم. اشتهر بهجائه للراعي.
(12) - ابن قطن بن الأعرف.قتله عبد الملك بن مروان وهو في السجن.

وقال أيضا: وسمعت أبا عمرو يقول: سقفت الباب مثل سقفت عينه وأنشد **لرؤبة:**

وما اشتلاهما سفقة للمُنْصفِق (فعلت وأفعلت، 116) وغير ذلك[13]. كما كان أبو عمرو صديقا حميما لذِي الرُّمَّة وكان يستنشده شعره (أنظر الديوان، القصيدة 1، 34 نبَّه على ذلك محققه). ويروي ابن عساكر أنه روى ديوانه (14، 87). وجاء في كتاب الإبل للأصمعي أن أبا عمرو كان ينشده رؤبة عن العجاج (111).

وقال أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء: «وكان جرير أشبه بالأعشى منه بامرئ القيس **ومن شبّه فحول الإسلام** بفحول الجاهلية شبه جريرًا بالأعشى» (الديباج،5). أفبعد هذا نقول بعدم اكتراث أبي عمرو وأصحابه بالإسلاميين؟ وأمثلُ هذا الكلام (الموثوق) يوحى إلى عدم اعتداد أبي عمرو بشعر الإسلاميين كحجة؟

وأكبر دليل على أن أكثر ما جاء في هذا الذي يسمونه بكتاب «فحولة الشعراء» (وهو من وضع المرزباني نفسه) هو عدم اكتراث صاحبه بما كان يريده اللغويون من كلمة «مولّد» (في زمان ابن السكيت وأبي حاتم وكذلك هو عند الجاحظ) وهو المقابل للفصيح السليقي فيما يخص الفصحى كما رأينا منذ حين وإعطاؤه لهذا اللفظ معنى المُحْدَث في مقابل القديم أيا كان. فهذا لا يمكن أن يرتكبه مثل الأصمعي ولا أبو حاتم أبدًا. ثم كيف يسأل أبو حاتم عمّن هو أشعر:بشار أم مروان ويجيبه الأصمعي بتفضيله بشارًا! (47) وهذا يتفق مع ما جاء في الأغاني في ثناء الأصمعي على بشار وجعله «خاتمة الشعراء»! (الأغاني 3، 143، 150). وكيف يقول هذا الأصمعي وهو المعروف بتشدّده في قبول المعطيات من فصحاء العرب؟ وتخيّره للفصيح السليقي؟

ثم في الأقوال التي نُسبت إلى الأصمعي في «فحولة الشعراء» من جهة وفي البيان للجاحظ من جهة أخرى تناقض صارخ: فمن جهة يقول عن عمر بن أبي ربيعة **أنه سمع أبا عمرو بن العلاء يحتج في النحو بشعره** ويقول إنه حجة (56-57) ومن جهة أخرى يصرّح أنه لم يسمع أبدا أبا عمرو يحتجّ ببيت إسلامي.

---

(13) - أنظر أيضا إنشاده للإسلاميين في كتاب فعلت وأفعلت لأبي حاتم (رؤبة 116 ولأبي ذهْبل الجمحي132-133 وعبد الله بن الزُبير وكتاب الاختيارين 100و110 والمنتخب لكراع النمل (الأخطل 615) وغير ذلك.

ومثال آخر من ذلك: ما جاء في هذا الكتاب المزعوم: «حدّثنا الأصمعي قال: الكميت بن زيد ليس بحجة لأنه مولّد وكذلك الطرماح» (39-40) «وليس الكميت بحجة لأنه من أهل الكوفة فتعلم الغريب وروى الشعر وكان معلمـــا فلا يكون مثل أهل البدو...» (46).

ولا يصعب على أي باحث أن يتبيّن أن هذا القول هو مجرد افتراء على الأصمعي لأن هذا الكتاب قبل كل شيء أكثره مأخوذ من كتاب الموشح للمرزبـــاني وقد جمع شخص مجهول في وقت جد متأخر (بعد تأليف خزانة الأدب) كل الأقـــوال الدائرة حول الفحـــول ومن هو فصيح من الشعراء مما هو منسوب في أكثره إلى ابن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي. هذا ولنا نصّ صريح لابن دريد قد يزيد تصريحـــاته شبهة إذ يدلّ على أن ابن دريد قد ألهم المرزباني وهو قوله عند روايته لما قيل عن «أبرق وأرعد» والاستشهـــاد على ذلك: «فقال الأصمعي: الكميت جُرْمُقاني من أهل الشـــام ولم يلتفت إليه» (الاشتقاق، 447) وقال في الجمهرة: «فقال: الكميت جُرمقاني من أهل الموصل! وكأنه لم يره شيئا». (مادة رعد) وقـــال ذلك أيضا عن الطرماح. ولهذا الكلام منطلق صحيح: قـــال ابن السكيت في كلامه عن أبرق وأرعد: «فقـــال الأصمعي: **ليس قول الكميت بحجة، هو مولّد**» (إصلاح المنطق، 193) أي قوله هذا مولّد لا كل ما قـــاله الكميت! وأدل دليـــل على ذلك أن **الأصمعي هو الذي صنع ديوانـــه** أولا واستشهد بالكثيـــر من أشعار الكميت والطرماح أيضا **وكيف يمكن أن يحكم عليهما بكونهمـــا غير حجة ويتخذهما حجة** هو وكل اللغويـــين في زمانه!![14]. وأخذ هذا أيضا أبو الفرج الأصفهاني **قبل المرزباني** وحاك على ذلك حكايات حول اقتباسهما للغريب من غيرهما من الشعراء! وكل هذا فظيع وفي كتاب «الأغاني» ما هو أفظع بكثير من هذا.

وعلى هذا فلابد أن نحتاط كل الاحتياط عند رجوعنا إلى الكتب الأدبية وكذلك كتب الطبقات لأن الكثير مما ترويه هذه الكتب من أخبار هو غير موثوق بصحته لأنهم يتقبلون

---

(14) – راجع فيما يخص استشهاده بشعر الكميت: خلق الإنسان 182 و187 وكتاب الإبدال لابن السكيت 4 و37 وكتاب أبي العميثل:10 مرات ومجاز القرآن: 29 مرة! والطرماح: كتاب الإبل 66 و72و 96 و97 و113 و140 وكتاب الإبدال 21 وغير ذلك كثير جدا وهذا لا يخص فقط الكميت والطرماح بل قد اتهم أيضا القحيْف وقال: «إنه ليس بفصيح ولا حجة» (54) واستشهد بشعره مع ذلك أبو عبيدة في مجازه (2، 108 و2، 84) وأبو زيد في نوادره (176 و208) وذكره ابن سلام في طبقاته وكذلك هو ابن قيس الرقيات الذي قال عنه: «إنه ليس بحجّة» وذكره أيضا ابن سلام (647-655).

غالبا كل شيء طريف مستطرف ولو كان على حساب الحقيقة ولا يكفي في التثبُّت أن نرجع إلى أكثر من مصدر إذا توالى صدورها الواحد بعد الآخر فيكون قد نُقل الخبر على التوالي. والعبرة في ذلك هو الرجوع إلى المصدر الأول الأقدم الذي شهد فيه العلماء المعاصرون لصاحبه بالثقة والأمانة العلمية وذلك مثل كتاب ابن سلام الجمحي(15) (لأنه هو نفسه عالم وأي عالم). كما أن هناك كتاباً لفهرسة الكتب جعله صاحبه، زيادة على ذلك، كتاب طبقات وهو الفهرست لابن النديم **وهو من أوثق ما وصل إلينا بإجماع العلماء** فلا يُشبه بذلك غيره من كتب الطبقات. فيجب ألا نقبل من هذه الكتب أي خبر أو أي قول إذا انفرد به صاحبه وخاصة إذا خالف صراحة كل ما جاء في غير ذلك الكتاب من الأخبار(16).

أما كتب الأدب فينطبق عليها ما ينطبق على غيرها إلا كتابان اثنان ينبغي ألا يوثق بهما في نظرنا وهما كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني والموشح للمرزباني. أما الأول فقد كاد يجمع العلمـــاء القدامى على أنه «يأتي بأعاجيب بـــ «حدثنا» «وأخبرنا» (ميزان الاعتدال، 3، 123) وعن النَوْبَخْتي «أن أبا الفرج الاصفهاني أكذب الناس» (نفس المصدر). ويكفي للتأكّد من ذلك أن نقارن بين ما يحكيه من الأحداث وما قاله عن هذه الأحداث -إن وجدت- المؤرخون أو غيرهم من المؤلفين الموثوقين. والتناقض بيّن جدا بين ما يحكيه عن العلماء والشخصيـــات الاسلامية البارزة وبين ما يقوله غيره عنهم وهو يخلط بين أسماء من يحكي عنهم ويخلط بين زمان وآخر ويجرؤ على أشنع من ذلك. والموشح يشبهه إلى حدّ بعيد. وكلا الكتابين – يحتاج – والأغاني أحوج- إلى أن ينظر فيهما بجدّ حتى نقي أنفسنا من هذه الكارثة التي نزلت بنا وهي:الرجوع الدائم إليهما والاعتماد عليهما كمصدرين موثوقين في البحث العلمي الخاص بتراثنا.

2) وفيما هو راجع إلى طريقة المقارنة القياسية الدلالية:

إن البحث في المعاني التي يقصدها مؤلف في نص أو في كتاب لا يمكن، في نظرنا، أن يكتفي الباحث بما له من حاسة لغوية أي بما يعرفه جيدا من لغته أو أن يكتفي بما تمدّه

---

(15) ويشترط في ذلك أن تحذف كل النصوص التي أضافها المحقّق إلى النص الأصلي لأنها مأخوذة من الأغاني وبعضها من الشعر والشعراء.

(16) ونقل الخبر الواحد عبر العصور في هذه الكتب لا يُعتبر حجة.

المعاجم إذ العثور في المعاجم على كل المعاني التي يمكن أن يقصدها المستخدمون للغة هو من المستحيل، هذا في زمان معين أما إذا مرّ على اللغة برهة من الزمان فيحتاج الباحث أن يتتبع تحوّل الكلم التي تهمه من حيث معناها **في النصوص أنفسها**.

فنحن مضطرّون إذن أن نعود **إلى النصوص** ولابد من منهج للتحليل نسير عليه بطمأنينة. والذي نعرضه ههنا على القراء الكرام هو نوع من الطرائق التحليلية الدلالية الغاية منها هو الكشف عن المعاني التي قصدها المؤلف بالفعل في استعماله لعبارات معينة في نص معين وتحديدها تحديدا دقيقا حتى لا تلتبس بغيرها. فهي طريقة تشخيصية للمعاني أي **استكشافية** للمعنى المقصود في نص معين وقد تكون زيادة على ذلك **بُرهانية:** الغاية منها حينذاك أن يُستدلّ بها على صحة ما يُذهب إليه من الافتراضات حول المعنى المقصود ويمكن أن يكون الأمر كذلك للدقة المنطقية التي تتصف بها بعض هذه العمليات الاستكشافية.

إن هذه الطريقة قد بُنِيَتْ على مفهوم **الاستغراق** (Distribution) كما يفهمه علماء اللسانيات الحديثة ويسميه النحاة العرب قديما بـــ «**قسمة الموقع**» أو المواقع (شرح الرماني للكتاب) وهو عند العرب أوضح وأبين لأن المفهوم النظري المحدث يعني به المحدثون **استفراغ جميع ما يمكن أن يحيط بوحدة لغوية في الخطاب** أو كل ما تحتمله من سياق لفظي ذي دلالة.

فإن كنا نعتمد على «قسمة المواقع» لاستخراج المقصود الدلالي فإن ذلك لا يعني أننا نعتمد على نظرية الدلالة الاستغراقية Distributionnal Semantics لأننا مقتنعون أن المعنى المقصود من كلمة معينة لا يمكن أن يُحدّد بما تختص به من خواص استغراقية (أو موقعية) الفئة التي تنتمي إليها هذه الخواص. لسبب بسيط وهو عدم وجود تواز تام بين التصاريف المختلفة للدال الواحد وتصاريف مدلول هذا الدال. أما قول اللسانيين: «كل فرق يحصل بين تركيبين فله ما يناسبه من فرق في المدلول»[17]. فهذا صحيح إذا كنا نعني بذلك **أن هناك تناسبًا**، مَبْدئيًا، **بين تصرّف الدال والمدلول بتصرف أغراض المتكلم**. غير أننا نريد بطريقتنا شيئا آخر وهو الكشف لا عن الأغراض الذاتية البلاغية التي يريد المتكلم والكاتب تحصيلها

(17) — انظر: «الطريقة الحديثة في دراسة المدلولات» للساني الروسي أسبريان.

في خطابـــه **بل المعنى الموضوعـــي** (غير الذاتي) **الذي هو مراد المتكلـــم** عند استعمالـــه لمفردة معينة. وعلى هذا فالذي نريد أن نستغله بالتمام هو ما يحصل من التناسب بين تغيُّر السياقات التي تحيط بمفردة معينة من جهة (ما تحتمله من المواقع) ومن جهة أخرى تغيّر مدلول هذه المفردة.

ومع ذلك فإننا سنستعين كثيرًا في هذا بطرق الأداء البياني المختلفة المعروفة عند العرب بل وسنتحصل بذلك على معلومات ذات القيمة الكبيرة فيما يخص اكتشاف المعاني المقصودة.

بُنِيَت طريقتنا على أسس لغوية منطقية من تلك التي تخص العلاقات الدلالية (العلاقات بين المعاني في المنطق الطبيعي) والهدف هنا هو إثبات المعاني التي قصدها اللغويون العرب عند استعمالهم لمصطلحاتهم عبر العصور. وها هي ذي أوصافها:

فيما يخص الألفاظ المترادفة (Synonyms) والمتضادة[18] (Antonyms) والأجناس (Hyponyms) وأفراد الجنس (Co-hyponyms) وغير ذلك فإن هذه المفاهيم تعتمد على هذه العلاقات: علاقة المطابقة وعلاقة التضاد وعلاقة الاشتمال أو الاندراج وهكذا.

نقول عن س وص أنهما مترادفان إذا كان وإذا كان فقط يظهران في نفس الموقع في داخل خطابين متطابقين أو متشابهان ويكون تساوي مدلولهما قد ثبت، من جهة أخرى، على أساس تساوٍ سياقي أو مرجعي أوسع.

فمن المناهج التي يمكن أن تصل بنا إلى اكتشاف المعنى المقصود هو الإحصاء في النص الواحد لكل العبارات أو القِطَع من الخطاب التي لها نفس المدلول وتكون فيها مفردة نسميها $م_0$ [19] (وهي التي نبحث عن معناها) تتعاقب مع عدة مفردات أخرى (كأن تقوم مقامها في تراكيب أخرى) $م_1$، $م_2$،...... $م_ع$. فإذا كان من بين هذه المفردات مفردة يكون لها معنى قد يتفق بأحد معاني المفردة التي تحملها $م_0$ ونسميه س فيمكن أن نفترض أن هذا المعنى هو الذي يقصده المتكلم في استعماله لـــ $م_0$ في هذه السياقات.

---

(18) – وهي غير الأضداد في العربية (هما هنا لفظان لكل واحد مدلول هو ضد المدلول الآخر لا غير).
(19) – فهذه تحتمل أكثر من معنى يمكن أن يقصده المتكلم.

وللتثبت من ذلك فَعلَيْنا أن نبرهن على أن جميع العبارات: $ع_0$، $ع_1$...$ع_ع$ ونسميها: «سياقات مكتنفة» هي متساوية في المعنى ويرجع ذلك إلى التبيين بأن كل هذه السياقات لها نفس المرجع وأنها تنتمي إلى مجموعة واحدة من السياقات. وهو ما نسميه بالسياق المرجعي.

أما اكتشافنا للمفردات المتضادة والأجناس وما تحتها فيمكن لذلك أن نلجأ إلى نفس الموازاة بين العبـــارات (كما يقول علماؤنا القدامى: حمل شيء على شيء وهو ما سمي في الرياضيات الحديثة بالـــ: Bijection). ومثل ذلك $م_0$ و$م_1$ فإذا كانا متضادّين في المعنى فلا يتحقق ذلك إلا إذا كان وفقط إذا كان يظهران في عبارتين متكافئتين من حيث السياق ولا يختلفان إلا بوجود **النفي** في أحدهما.

وسنحاول أن نطبق هذه الطريقة في تحليلنا لمفهوم الفصاحة في الفصل الأول من الباب الأول إن شاء الله.

3) التمحيص للنظريات اللسانية: سنكتفي بمثال واحد:

حقيقة المعيار اللغوي وماهيته من الناحية العلمية

ليس الغرض من علوم اللسان الحديثة،كما هو معروف، أن تتخيّر في تناولها العلمي للظواهر اللسانية الخاصة بلغة من اللغات معيارًا معيّنا لهذه اللغات بتحكم كامل فليس لنا أن نفضّل كيفية خاصة في تأدية لفظ منها على غيرها وليس للغوي الموضوعي أن يختار مما يسمعه ويدوّنه من الكلام المنتمي إلى تلك اللغة ما يعتبره هو وبسبب غير علمي صوابا وغيره خطأ. فهذه المواقف لا تمتّ بسبب إلى العلم إطلاقا.

ومن جهة أخرى فإنّ وضع النحو العربي عند العرب كان لسبب ديني اجتماعي وهو المحافظة على لغة القرآن وكذلك كان الغرض من وضع النحو للغة السنسكريتية لغة النصوص المقدسة عند الهنود واللغة اليونانية لغة النصوص الأدبية القديمة. فالقرار هو من حق الشعوب هنا ولا دخل للعلم فيه. نعني بذلك اختيار معيار لغوي معين وتفضيله على غيره.

أما الوصف الموضوعي لهذه اللغات من جهة واستنباط الحدود لها من جهة أخرى فهذا قد يكون موضوعيا غير مرتبط بأي مجتمع فالمهمّ هو أن نتفادى الخلط بين هذا العمل الذي

أدى إلى **تحليل موضوعي لهذه اللغــات** وبين الغرض الذي دفع بعض العلماء إلى القيام به فهما شيئان مختلفان.

وقد يكون السبب الذي يدفع الواصف للغة إلى أن يفضل ويختار بعض الألفاظ أو العبارات أو كيفية معينة في النطق على غيرها هو تفضيل فئة معينة من المجتمع وقد تكون هذه الفئة غالبا الطّبقة الاجتماعية الحاكمة أو ذات السؤدُد السياسي أو الاقتصادي على غيرها وذلك مثل لغة البلاط الملكي في زمان فرنسوا الأول في فرنسا في القرن السادس عشر. فقد أصدر قانونا يقتضي بأن تكون لغة أهل باريس وضواحيها (وهي لغة البلاط الملكي) هي اللغة الرسمية للدولة وذلك في سنة 1539 وأن يُقْتصر على استعمالها هي وحدها في الأحكام والمحاكمات والمدارس. وكان الغرض من ذلك التوحيد اللغوي الثقافي وإضعاف تأثير اللهجات أو اللهجات الأخرى (وكانت كثيرة جدا في ذلك الزمان في أوربا كلّها بالنسبة إلى كل اللغات المتفرعة من اللاتينية وغيرها). وكان بعض الكتاب والشعراء قد كتبوا ونظموا أشعارهم بلهجتهم الخاصة ومنهم أهل باريس. فصار هؤلاء بذلك النموذج ولغتهم المعيار الذي يجب اتباعه وتم ذلك بالتمام في القرن السابع عشر. وحرّرت في ذلك الزمان كتب كثيرة تصف لغة هؤلاء الكّتاب والشعراء وتحاول أن تفرض هذه اللغة على جميع المثقفين وهكذا كان. وإلى مثل ذلك صارت سائر اللغات في أوربا حيث فرضت لغات الفئات السائدة (مع بقاء اللهجات في الاستعمال غير الرسمي في سائر البلدان إلا في فرنسا).

فكل هذا سلوك اجتماعي سياسي محض **لا علاقة له بالعلم** وهو **اختيار** تختاره فئة اجتماعية أو أمة بأجمعها ولا يوصف الاختيار الاجتماعي بأنه علمي (إلا أنه قد يكون حقًا). لأن البحث العلمي في اللغة خاصة ليس من أهدافه أن يفرض معيارًا لأسباب سياسية أو دينية أو غير ذلك فالعلم إنما هو المعرفة الموضوعية التي لا يشوبها أي اعتبار اجتماعي إذ الأحكام العلمية هي أحكام على **الواقع على حقيقته** والحقائق العلمية يتساوى في الاعتراف بها الخلق كله. ومن ثم خلّط اللسانيون التابعون للتيار السوسوري أو السلوكية الأمريكية بين تحصيل المعرفة الموضوعية العامة -على اختلاف أنواعها- وبين **الوصف** المجرد للظواهر وحَصَرُوا العلم فيه فكل ما هو علمي في هذا الميدان عند هؤلاء **فلا بد أن يكون عندهم من قبيل الوصف** وكل معرفة موضوعية عن اللغة فلا يمكن أن تحصل إلا بالوصف للظواهر

اللغوية وهذا غير صحيح كما سنراه فيما يلي وقد يكون هذا الاعتبار صحيحاً فقط عندما يُضيفون: «**كما هي وكما تحدث في الواقع لا كما يريد الباحث أن تكون بل كما تريده جماعة الناطقين باللغة المعنية في اعتبار العلم الضابط**».

وذلك لأن الوصف للظواهر ولاسيما بالطريقة المعهودة عند اللغويين الوصفيين ليست الجانب الوحيد الذي يتصف به التحصيل للعلم. إذ للعلم جانب آخر لا يقل أهمية وهو **الوصف للأعمال** لا للظواهر أي التحديد والترتيب الدقيق لكل العمليات اللازمة للوصول إلى نتيجة معينة وذلك مثل المنطق الصوري والحساب والجبر وحساب المثلثات وعلم ضبط العمل الآلي (Cybernetics) وعلم الحاسوب (Computer science) وغير ذلك **وكلها علوم** وقد كان بعض الفلاسفة يسمّى المنطق منها «بالعلم المعياري» ويعني بذلك أن الغاية منه ومن الرياضيات هو الضبط لما يلزم من العمليات لتحقيق غاية أو الحصـــول على نتيجة معينة ويقتضي هذا البحث الوصف أيضا غير أنه لا يرتبط بالظواهر بل يخص العمل الذي هو في مقابل الظاهرة ويعني بالعمل ما كان يقصده العلماء العرب ممـــا نسميه اليوم عملية أو حسابا (Calcul=Computation). (أو ليست الرياضيات علما؟) وهذه البرامج التي يبحث الحاسوبي عن اللغات الحاسوبية (البرمجيات) التي ستوضع على أساسها البرامج -وهي الخورزميات (Algorithmes). أيُعقل أن يخرج ذلك من البحث العلمي أي من المعرفة الموضوعية: فأين يكمن التحكم فيه وأي ذاتية توجد فيه؟ وقد يقول القائل إنها علوم تطبيقية! وليس الأمر كذلك لأن التطبيق هو الاستثمار لما اكتشف في مختلف العلوم والبحث العلمي التطبيقي هو البحث عن أنجع الطرق لاستغلال ما أثبته العلماء من القوانين أو الأوصاف أو العناصر أو ما اخترع من المناهج والطرائق ويدخل في ذلك البحث في النحو التعليمي وهو البحث عن أنجع الطرق للاستفادة من النحو العلمي (وهو ميدان من ميادين اللسانيات).

فأما النحو العلمي فلا يمكن أن ينحصر فقط في وصف نظام لغة معينة واستخراج وحداتها[20]. فاللغة أداة للتبليغ ولها نظام عُرْفي أي نظام خاص بها متواضع عليه فالمعرفة العلمية لهذا النظام لا تقتصر على معرفة تصنيفية تحصر عناصر اللغة بتحديد الأوصاف

---

(20) – ولا يعنون بالنظام أو البنية عند الوصفيين إلا كيفية تقابل الوحدات لا غير.

الذاتية وكيفية تقابلها بل تتجاوز ذلك إلى معرفة **كيفية مجراها**[21] في **استعمـــال المتكلم لها** لأن اللغة وضع واستعمال أي نظام واستعمال المستعمل لهذا النظام. ولهذا **ضوابط** تضبط هذا الاستعمال.

أما الصواب والخطأ اللذان يوصف بهما الفعل أو العمليـــات التي يراد بها تحقيق غرض معين فلا تعسف فيهما في حدّ ذاتهمـــا إنما التعسف يكون في ماهية الغرض أما الحكم بالصواب أو الخطأ على مســـار العمل لتحقيقه فلا. ولا بدّ منْ التمييز هنـــا بين الضوابط وبين المهارة في إجرائهـــا والعمل بهـــا ومن جهة أخرى فإن ضوابط النحو ليست تعسفية لأنها تَرْسُم مســـار العمل المؤدي إلى كلام عامة النـــاطقين باللغة المعنية إذا كانت مستنبطة من عـــامتهم حقيقةً **وهو المعيار الذي قصده علمـــاء النحو العربي ليس إلا.**

وليست هذه الضوابط قوانين لظواهر معينة أي أحداث معينة تحدث على كيفية خاصة بل هي قوانين ومُثُل تتحدد على مثالها العمليات التي تحدثها وهي أحداث الكلام المنطوق والمسموع الذي ينتمي إلى لغة معينة ذات المعيـــار المعيّن. فهذه الأحداث هي ظواهر إلا أنه لا يكفي أن نصفها كظواهر بل لا بد من أن نعرف أيضا **على أي مثال** (Modèle) **تحدث**. والمُثُل هي **من أهمّ ما يتكون منه العلم «الضـــابط» المتجاوز للعلم «الواصف»**. ثم البحث عن أي المثل هي المتواضع عليها والأكثر استعمـــالا هو جانب آخر من البحث اللساني، فالجانب العلمي الضابط لحدوث الأحداث **المستهدفة** وخاصة التي يُحدثها الإنسان (كمجموع أفعاله ومنها الكلام) لا تقلّ أهمية عن الجانب الوصفي لحدوث الأحداث[22].

---

(21) – قارن ذلك بعبارة تكثر على لسان العلماء القدامى: «مجاري كلام العرب»

(22) – والوصف بمعناه العام لا يقابل الضبط لأن المثال يمكن أن يوصف فالذي يقابل الضبط هو الوصف للظواهر كظواهر لا كمجموع عمليات مرتبة تفضي إلى نتيجة. وتسمّى الضوابط أيضا قواعد إلا أن المقصود منها في اللسانيات هو هذه السلسلة من العمليات المرتبة المؤدية إلى توليد عبارة تنتمي إلى جنس معين. فالوصف لهذه العمليات هو الجانب الآخر (الذي لا تعرفه البنوية).

الخطة التي سنسير عليها في هذا الكتاب إن شاء الله

سنحاول في بداية هذه الدراسة أن نتبيّن بكيفية واضحة ما هو المعيار اللغوي العربي الذي شغل العلماء العرب زمانا طويلا قاموا في أثنائه بتحريات ميدانية للسماع من أفواه الناطقين بهذه اللغة وكانوا يسمونهم بفصحاء العرب فما كانوا يعنون بهذه الفصاحة؟ وهل كانت المقياس الذي اعتمدوا عليه للتمييز بين هؤلاء وبين غيرهم؟ وما هي المناطق من شبه الجزيرة العربية والعصور التي كانوا ينتمون إليها؟وكيف تغيّر الوضع اللغوي عبر العصور؟

وسنواصل البحث بعد ذلك عن العربية التي كان يُنطق بها في ذلك الزمان فهل كانت كما ادّعى بعضهم «لغة مشتركة أدبية» نزل بها القرآن ونُظِم بها الشعر وبجنبها لهجات عربية يتخاطبون بها في مخاطباتهم اليومية؟وهذا في الحقيقة افتراض محض وسنحاول أن نبين بطلانه.

وبعد ذلك نخوض ميدان السماع والمسموع بقصد التعرّف الكامل على محتوى هذا المسموع ثم صحة سماعهم وهل كان يستوفي الشروط التي تجعل منه سماعا موضوعيا علميا.

ثم ما هي الانتقادات التي وجهت إليهم قديما وحديثا وما قيمتها من الناحية العلمية وما هي أوصاف هذا السماع الموضوعية التي قد خفيت على الكثير من معاصرينا.

وفي الأخير سنتطرق إلى التحريات الميدانية الواسعة التي قاموا بها لتحقيق هذا السماع ومن قام بذلك بالضبط وأين؟ ومتى؟ وما هي المناهج التي ساروا عليها في سماعهم والتقنيات التي لجأوا إليها في هذا العمل وغير ذلك. إن شاء الله وبعونه.

الباب الأول

العربية ومعيارها اللغوي: محاولة تحديده بمقاييس موضوعية

من المعروف أن انتشار الإسلام في القرن الأول من الهجرة كان سبباً في امتزاج العرب بغيرهم وتداخلهم وتعايشهم في حواضر الإسلام التي بناها المسلمون كالكوفة والبصرة وحصل ذلك حتى في مدن شبه الجزيرة كمكة والمدينة وبعض القرى القديمة وأن هذا الاختلاط أثر أيمّا تأثير في العربية التي صارت في أفواه الأجيال الحضرية الجديدة على غير ما كانت عليه قبل هذا العصر. فظواهر الاتصال اللغوي (Linguistic Contact Phenomenon) بين الفئات اللغوية المختلفة قد وصف جزءا منها العلماء وخاصة الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وذلك بالنسبة إلى العجم الذين دخلوا الإسلام و بدأوا يتعلّمون العربية (بتعايشهم مع العرب). أما بالنسبة إلى أبناء العرب الذين ترعرعوا في القرى والمدن فإن لغتهم –ولغة الذين تعربوا من العجم– كانت قد اختلفت فيما بينهم. يتكلمون بحسب «النازلة من العرب» في كل قرية ومدينة. قال الجاحظ «وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة من العرب ولذلك كان الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر» (البيان18/1). فهذا الكلام ربما يُفهم منه أن العرب الذين استوطنوا هذه الأمصار قد كانت لهم لغات مختلفة في غابر الزمان فهل هذا معناه أن العربية التي أتى بها العرب إلى هذه القرى كانت لهجات مختلفة ومتباينة؟ وما بال الشعر جاء بلغة موحّدة ولغة القرآن؟ فهذا يفسره الكثير من الناس في زماننا بوجود «لغة أدبية مشتركة». وسنرى أن هذا القول هو مجرد افتراض .

ويمكن أن نقول إن بعد الفتح الإسلامي ونشوء العاهلية الإسلامية إلى زمان سيبويه كان الوضع اللغوي كما وصفه القدامى، كما يلي: كانت، في ذلك الزمان، ثلاثة أنواع من اللغات :

– عربية كان يتكلم بها معظم العرب ويسميهم سيبويه «فصحاء العرب» وكان هؤلاء يسكنون في البوادي والحواضر على حدّ سواء إلى غاية الربع الأخير من القرن الثاني كما سنراه.

–عربية بدأت تظهر عند بعض أبناء العرب والموالي في المدن خاصة ووصفت باللحن أي بالخروج عن كلام العرب في بعض صفاتها في الأول. وكثر هؤلاء شيئا فشيئا حتى غلب عددهم على عدد «الفصحاء» في المدن:وستسمي هذه اللغة بـــ «الكلام الملحون»(1) و«كلام المولدين» بعد أكثر من قرن من ظهورهم.

– لغات «علجية» (Pidgins) خاصة بالعجم وسماها الجاحظ بـــ«كلام العلوج» بالعربية (البيان، 162/1).

وسيكتب للنوعين الأول والثاني أن يؤثر أحدهما في الآخر وسيتحوّل كل واحد منهما. فقد كثر عدد الناطقين بالملحون واحتاجوا منذ زمان مبكر إلى من يلقّنهم العربية غير الملحونة لاحتياجهم المسيس إلى ذلك. وتحوّلت العربية على ألسنتهم شيئاً فشيئاً حتى كادت تصير لغة أخرى كما تحوّلت العربية الفصحى التي كانوا يتلقونها بالتلقين عند المثقفين منهم إلى «لغة ثقافية مشتركة Cultural koinè» بين جميع الناطقين بالعربية وبكيفية نهائية بعد اختفاء السليقة اللغوية في نهاية القرن الرابع. وتقابلها (إلى الآن) لهجات محلية منطوقة غير مكتوبة. وقد سميت بلغة العامة منذ نهاية القرن الثاني. ووصفها بعض العلماء في كل طور من أطوارها بالنسبة إلى بعض البلدان (في كتب لحن العامة خاصة). وقد عرفنا من هذه الأوصاف أن أول تغيير حصل هو السقوط لبعض العلامات الإعرابية وكان ذلك قدظهرمنذ أقدم العصور بظاهرة الوقف– عند السكوت– فاطّرد حتى في دَرْج الكلام بعد التحوّل الكبير الذي بدأ بظهور الإسلام. وكانت في العربية العفوية (عند فصحاء العرب الذين لقيهم سيبويه) الكثير من الاختزال واختلاس الحركات والإدغام وقد وصف ذلك بدقة(2) اللغويون الأولون وسيبويه خاصة(3). ثم حصل تغيير لبعض حركات بناء الكلمة (مثل فَعَل وفَعُل وفَعِل وغير

---

(1) – أو الدارج ثم العامّي.
(2) – وهذا شئ يجهله أكثر المعلمين في زماننا.
(3) – انظر فيما يلي ماقاله الأصمعي عن التخفيف لحركات الإعراب وماقاله سيبويه أيضا.

ذلك) وهذا اهتم بوصفه اللغويون من الكوفة مثل أبي يوسف ابن السكّيت وغيره (إصلاح المنطق وكتب لحن العامة).

وقد سبق أن قلنا بأن هذا التحول اللغوي للعربية على ألسنة من سموهم «بالمولدين» (في بداية القرن الثالث) قد أدّى إلى ظهور حركة كانت ترمي إلى معالجة ما نتج من أمور خطيرة دينية واجتماعية وسياسية عقب هذا التحوّل، منها: النطق الخاطئ لنصّ القرآن وبالتالي تغيير معانيه عن جهل وبدون قصد وبُعْد الذين دخلوا في دين الإسلام عن فهم القرآن والسنة بعدم إتقانهم للغة القرآن.وكان من حظ هذه الأمة أن ألهم الله بعض أفرادها إلى طريقة علمية بحتة لم يسبقوا إليها إطلاقا وهو استقراؤهم للنص القرآني كلمة كلمة والنظر قبل كل شيء في أحوال الإعراب من رفع ونصب وجرّ واستكشاف العناصر الأوّلية للكلام ثم استنباط بعض القواعد الأساسية كرفع ما سموه بالفاعل–هي تسمية قديمة جدا لأنها تسمية على المعنى وكذلك المفعول (ويدل ذلك على سذاجة التصوّر النحوي في ذلك العهد البعيد)[4]. وهذا أداهم إلى اختراع نظام من العلامات الخطّية للدلالة على الإعراب. وكان في أول أمره نظاما من النقط والعرب هم الذين اخترعوا بالفعل هذه الطريقة لأن النقط الذي استعمله السريان والعبريون، قبل ذلك،لم يكن يدل عند هؤلاء على الحركات لذاتها.

إن أول مشكلة تواجه الباحث فيما يخص «العربية الفصحى» هو السؤال عن أوصافها كمعيار (Norma)[5] أي السؤال عما هو المعيار الذي كانت تنتمي إليه «العربية» التي جعلها اللغويون والنحاة العرب موضوعا لتدوينهم ودراساتهم وما هي المقاييس التي اعتمدوا عليها لحصرها وتحديدها وسؤال آخرله علاقة بذلك: على أي أسس من الصفات والمميزات كانوا يعتمدون للتعرف على الناطقين الذين كانوا ينطقون بهذه العربية بالذات فرضوا بهم كممثلين حقيقيين لهذا المعيار اللغوي فأخذوا منهم اللغة **واستطاعوا أن يميزوا بينهم وبين غيرهم.**

فالذي سنقوم به الآن هو الإجابة عن هذه الأسئلة بقدر المستطاع بمحاولة التحديد لهذه المقاييس وفوق كل شيء بمحاولة تحديد «الإحداثيات المكانية الزمانية» الخاصة بالمعيار

---

(4) – فسيلاحظ بعد ذلك العلماء أن الفاعل ليس اللفظ الدال على فاعل الفعل بل اللفظ المسند إلى لفظ الفعل.

(5) – أي كوضع اجتماعي يتبعه أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه (كالقوانين والمؤسسات والعادات الهامة وغير ذلك).

اللغوي الذي كان يهمّهم. ثم سننظر أيضا في مختلف الآراء والنظريات والافتراضات التي ظهرت في زماننا هذا حول هذه «العربية الفصحى» وسنترك علماءنا الأولين يتكلمون ونُنصت إليهم بإمعان لأنهم هم الذين عاشوا في ذلك العهد البعيد وكانوا **المشافهين** مباشرة لأولئك العرب الذين أخذوا منهم اللغة.

تحديد العربية التي دوّنها اللغويون العرب الأولون

إن اللغويين العرب يطلقــون على هذه العربية اسم«الفصيــحة» ثم«الفصحى»وهي لغة المدونة (Corpus) العظيمة التي قضوا السنين الطوال في جمعها.

إلا أنه لابد من التنبيه أن سيبويه (وكل من ذكرهم من اللغويين في كتابه) لا يسمى العربية بأي شيء مما هو مشتق من مادة |ف.ص.ح| ويكتفي بتسميته إياها«بالعربية» ليس غير ولا يطلق صفة الفصيح إلا على الناطق. ولا يستعمل أيضا لفظة «المولّد» ليطلقها على غير الفصيح ولا على الألفاظ غير الفصيحة كما سيفعله بعده في القرن الثالث أبو حاتم السجتستاني وابن السكيت والجاحظ وغيرهم.

فسنحاول، على هذا، أن نحلّل هذا المفهوم الهام الذي تدلّ عليه لفظة «الفصاحة» في استعمال اللغويين العرب لها من أول ما حصل لهم ذلك إلى يومنا هذا ونعتبر هذه اللفظة والمفهوم الذي تدل عليه عند هؤلاء كالمفتاح الذي سيفتح لنا أبوابا كثيرة فيما يخص المفاهيم العلمية العربية الخاصة بتصور العرب للعربية وبعلوم اللسان عامة. وقد استغلقت ألفاظ ومصطلحات كثيرة (كما سنراه) على الناس في زماننا وربما أُعطيت تصورا آخر على ممر الزمان ولا سيما في زمان الانحطــاط والجمود الفكري العربي.

أما المقاييس التي يمكن أن نعتمد عليها للإجابة عن هذه الأسئلة فهي في نظرنا، كالتالي:

- **مفهوم الفصاحة كمقياس هي في ذاتها،**
- **المقاييس المكانية الزمانية للفصاحة،**
- **المقاييس الصورية اللسانية للفصاحة.**

وسنتطرّق إلى كل واحد منها فيما يلي إن شاء الله.

الفصل الأول

مفهوم الفصاحة

I – تحديد مفهوم الفصاحة كمصطلح نحوي لغوي

كما قلنا في مقدمتنا فإن اللغة وضع واستعمال أي نظام واستخدام لهذا النظام: فاللفظ والمعنى شيء في الوضع وشئ آخر في الاستعمال. وبالنسبة للمعنى خاصة فإن للفظ مدلولا تحدده المعاجم وقد لايكون هو المقصود في نص من النصوص ولاسيما النصوص العلمية القديمة في تراثنا ولا يمكن أن يعرف ذلك بالتحقيق إذ لا توجد قواميس لكل المصطلحات العلمية القديمة تصف كل ما قصده العلماء بدقة واستفاضة وبحصركل الأمثلة. وحتى يصفو لنا المجال المفهومي الخاص بالنحاة الأوائل سنبدأ بتحديد مفهوم الفصاحة الذي قصده هؤلاء النحاة أنفسهم ثم نتطرق إلى ما يدّل عليه هذا اللفظ في اللغة من جهة وعند علماء البلاغة القدامى من جهة أخرى.

ولذلك سنحاول أن نكشف عن كل الوحدات الدلالية للمفردات المشتقة من مادة |ف.ص.ح.| بحسب ما تقتضيه السياقات التي وردت فيها هذه العناصر اللغوية ونعتمد في ذلك على طريقة **المقارنة (أو المقايسة) الدلالية** بين هذه السياقات بحمل بعضها على بعضها لاستنباط المعاني المقصودة بالفعل بذلك **التناظر للنصوص** أو السيياقات بالذات.

فهذه الطريقة تنتمي إلى «التحليل البنوى اللمدلول» التي تعرضنا له في مقدمتنا وسنلجأ إلى كتاب سيبويه أولا (وكتب من عالج مسائل البيان مثل الجاحظ وغيرها من العلماء) وهو أقدم كتاب وصل إلينا في النحو ولأنه يحتوي **على أقدم تصوّر علمي لغوي عربي وهو في اعتقادنا أكثر الأعمال العلمية أصالة في ميدان العربية**. ولا توجد في هذا الكتـــاب تعريفات كثيرة فيما يخص المصطلحات التي يستعملها صاحبه. وهذا هو سبب لجوئنا إلى طريقة المقايسة الدلالية التي تقتضي المسح الكامل للنص.

أما اللغويون والعلماء الذين جاءوا بعده بقليل فسنستغل ما قالوه حول هذا الموضوع لأنهم كانوا هم أيضا في حاجة الى فهم ما تركه الأولون فجاءت أعمالهم أكثر وضوحا بسبب العدد الكبير من التعريفات التي وردت فيها وإن كان أكثرهـا مشوبـا بوجود الاستعمالات الجديدة للمصطلحات القديمة مع مجئ الكثير من التعريفات على طريقة المنطق. وكان سبب ذلك تأثير المنطق اليوناني -لأول مرة- على الفكر العربي (منذ زمان ابن السراج كما سنراه) إلا أن هذا التأثير قد يعوق فهمنا للمفاهيم الأصيلة التي ترجع إلى هؤلاء العلماء المبدعين إذ وقع إسقاط بعض المفاهيم اليونانية على هذه المفاهيم العربية الأصيلة. ولذلك ينبغي أن نبدأ دائما بالنظر العلمي حسب ما تقتضيه الطرائق الحديثة في التحليل النصّي السياقي (القرآئني) ولا نلجأ إلى التعريفـات إلا بعد أن نتحقق **ممّا قصده بالفعل صاحب النص** في استعماله لمصطلح معين ولا نكتفي بما تعطيه القواميس من التعريفات. وسنرى أن اللجـوء الى تعريفـات الشراح للنص وتعليقـاتهم لا تفضي إلى مقاصد صاحب النص بالضرورة وقد لا ترفع عنها الغموض مثل ما يمكن أن نستفيده من طريقة المقايسة الدلالية. وليستْ هذه الطريقة جديدة إلا في صياغتها الدقيقة لأن بعض العلماء العرب قد لجأوا إلى ذلك بالفعل في تفسير القرآن وفي هذا الإطار قالوا : «لايفسر القرآن إلا القرآن» ومعنى ذلك أن الكثير من الآيات إذا تشابهت في ألفاظها مع شيء من الاختلاف قد تفضي المقايسة فيما بينها إلى إلقاء الضوء على ما قصده سبحـانه وتعالى فيما غمض في بعضها[1] عند من يجهل أسباب النزول (خاصة).

يمكن أن نبدأ بجمع كل العبارات الواردة في الكتاب من تلك التي تتضمن مفردة من المفردات التي تنتمي إلى مادة |ف.ص.ح.| ثم ننظر أولا في جميع القرائن التي وردت فيها وهي السياقات الداخلية وثانيا في جميع السياقات الخارجية التي وردت فيها الجملة. وذلك مثل ما يلي:

---

(1) - ولذلك مصطلحات في أصول الفقه تدلّ على أنواع الغموض كالمشكل والمجمل وغيرهما وهو عمل علمي عظيم وقد يرقى فيفوق ما تحصل عليه علم الدلالة الحديث.

نظائر من النصوص تتضمن عبارة «فصحاء العرب»

سمعنا	العرب الفصحاء	يقولون...أو يجعلونها زايا خالصة	111/1 و 44/2 426/2
سمعنا	ذلك من فصحاء العرب	لا يعرفون غيره	2/2
	وقد فتح قوم فصحاء	فقالوا...	276/2
سمعنا	فصحاء العرب	يقولون... أو أنشدوا	477/1 و 147/2 و 148

يبدو من هذا **التناظر للنصوص** أن كل العبارات التي تحتوي على مادة |ف.ص.ح| (صفة «لفصحاء العرب») لهاسياق **مرجعي** واحد وهو السماع لهؤلاء العلماء (السماع والمسموع) فإذا نحن بحثنا في الكتاب عن المواقع التي يكون لها نفس السياق تحصلنا على مجموعة كبيرة جدا -تغطي كل الكتـاب- وتأتي في كل صفحة وتأتي فيها لفظة «العرب» وهم المسموع منهم أوضمير «هم» الدال عليهم ثم على مجموعتين محدودتين تأتي في موقع المسموع في إحدى المجموعتين: «مَنْ تُرْضَى عربيتُهم» وفي الأخرى: «الموثوق به أو بهم أو بعربيتهم» وهما كالتالي :

سمعناه	ممن	ترضى	عربيته	(160/2)
وقال	قوم	ترتضي	عربيتهم	(269/2)
وقد قال	قوم من العرب	ترضى	عربيتهم	(193/1)
ويقوله أيضا	قوم من قيس وأسد ممن	ترضى	عربيتهم	(262/2)
في لغة	من	ترتضي	عربيته	(204/2)

سمعنا	العرب	الموثوق بهم	1/198و 405
سمعنا	ــــ	من نثق بهم من العرب يقول	2/269
سمعنا		من يوثق من العرب يقول	2/199
أنّ ناسا	من العرب	يوثق بعربيته	1/63
أنا سمعنا	من	يوثق بعربيته	1/77
سمعناه	ممن	يوثق بعربيته	1/36و158
سمعنا	ممن	نثق به من العرب	2/269
سمعناه	من بعض العرب	الموثوق بهم	1/161-210 263-375
بلغني	عن العرب	الموثوق بهم يقولون	1/381
حدثني بذلك أبو الخطاب	عمن	يوثق من العرب	1/275
و قال ناس	ــــ	يوثق بعربيتهم	2/264
أن ناسا	من العرب	يوثق بعربيتهم	1/63
لم تكن	العرب	الموثوق بعربيتهم تقوله	1/226
وزعم أبو الخطاب أنه سمع	من العرب	من يوثق به من العرب يقول	2/48
حدثنا بذلك يونس	عمن	يوثق به من العرب	1/255

أحصينا 45 عبارة في كتاب سيبويه جاءت على هذه الصورة: سماع أو قول سمع من عربي أو مجموعة محدودة من العرب ممن يوثق بعربيتهم.

وهناك سياق مرجعي مماثل لهذا إلا أنه يحتوي على نفي السماع لمسموع معين أو قلته.وهذه أمثلة منه :

- بحروف غير مستحسنة ولاكثيرة **في لغة من ترتضي عربيته**(404/2)
- ولا أعلم أحدا يميل هذه الألف إلا **من لايؤخد بلغته** (264/2).
- وهذا بعيد **لا يتكلم به العرب** (402/2).
- إلا أنه **ليس يقوله أحد من العرب** (47/2).
- **ليس أحد يقول**: يا فلا (33/1).
- **لا تتكلم به العرب** (95/2).
- **هذا لا يكون وهو خطأ لا تقوله العرب** (95/2).
- لم تكن العرب الموثوق بعربيتهم تقوله (226/1).

يمكن أن نستنتج من هذه العمليات الحملية (حمل النظير على النظير فيما يخص النصوص) ما يلي :

1- إن تكافؤ المواقع الدلالية اللفظية (على أساس تكافؤ السياق المرجعي في المجموعات المذكورة) **يلزم منه** تكافؤ المقاصد. فالمقصود من «فصحاء العرب» هو نفس ما يقصده سيبويه ممن «ترضي عربيتهم» و«العرب الموثوق بهم أو بعربيتهم». **إذ تقع كل من هذه العبارات موقع الأخرى** فكل هؤلاء هم جماعة معينة من العرب.

2- إن سيبويه لا يستعمل هذه الأوصاف باطراد فقد لاحظنا أن المسموع إذا خرج عن الوجه الذي يكثر على ألسنة العرب وسمع من عربي واحد أو من أفراد قلائل فان كانوا من الفصحاء أو الموثوق بعربيتهم نبّه على ذلك صاحب الكتاب بهذه الألفاظ في أحيان كثيرة

(لادائما). أما إذا كان المسموع كثيرا في الاستعمال فلا يذكر سيبويه هذه الأوصاف ويكتفي بذكر لفظة «العرب» فقط وهو الغالب عند ذكره لما سمعه إلا أن هذا يقتضي أن يكون هؤلاء هم بالضرورة فصحاء وممن ترضى عربيتهم ويوثق بعربيتهم.

3- ويلزم من ذلك أيضا أن تكون هناك جماعة من العرب (الأقحاح أو بالولاء) «لايؤخذ بلغتهم»وفي كلامهم بالعربية أشياء لايتكلم بها العرب ويعتبرها النحاة ومن عايشهم من غير النحاة الميزة الأساسية لغير الفصيح من العرب.

ويمكننا أيضا أن نستفيـــد من النظر في النصوص بالنظر في كيفية استعمـــال العلماء اللفظة المعينّـــة من خلال ما استعملوه من أساليب التعبير فهاهوذا الجاحظ وأسلوبه غني بالصور البيانية التي لابد أن تكون لها دلالة. فسنلجأ في النص التالي إلى التزويج بين الشيء وضده وهذا قد يمكنّنا من أن نعرف بالضبط ما يقصده الكاتب من لفظة معينة ترد في كلامه. يقول :

«فمن زعم... جعل **الفصاحة واللكنة** 1 **والخطأ والصواب 2**

والإغلاق والإبانة 3 والملحون والمعرب سواء 4 (البيان،162/1)

فالأزواج 2-3-4 التي تتضمن كل واحد منها ضدّين هي نوع من الإطـــالة (redundancy) أو التثنية بالنسبة إلى الزوج1ومن ثم يتضح المقصود: فالفصاحة تقابلها اللكنة **أولا** ويحدّدها الجاحظ هو بنفسه في مكان آخر : «يقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب **وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول**» (البيان،39/1-40)[2] وهي بمنـــزلة الخطأ و الإغلاق والملحون كما أن الفصاحة بمنزلة الصواب والإبانة والمُعْرَب. قال الجاحظ - الذي هو من هو وكان تتلمذ على أكبر النحاة واللغويين العرب وعاشرهم معاشرة طويلة (فلا شك أنه لاحظ كيف كانوا يتعاملون مع العرب الذين كانوا يريدون الأخذ منهم) :

(2) -- ويقول أيضا : «اللكنة أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية» (578//2).

«والعتّابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ... يعني إفهـامك حاجته **على مجاري كلام العرب الفصحاء**». وأصحاب هذه اللغة[3] لا يفهمون قول القائل منا: «مكرهٌ أخاك لا بطل» و«إذا عزّ أخاك فهُنْ». ومن لم يفهم قولهم: «ذهبت إلى أبو زيد» و«رأيت أبي عمرو».ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه **بهرجوه ولم يسمعوا منه** لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت و اطّردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجيرة» (البيان،162/1-163).

فهذه العبارات التي ذكرها الجاحظ الغريبة عن العربية هي أول ما يجعل اللغوي يبتعد عمن يفهمها من العرب فضلا عمن يستعملها لأنها خارجة تماما عن النظام اللغوي النحوي الذي ألفوه وتعوّدوا أن يسمعوه من الفصحاء. ويكون ذلك تغييرا لمعيار العربية (وربما سميّ فسادًا لأنه يفسد النظام الذي هي عليه العربية).وعلى هذا الأساس عرّف المبرّد الشخص الفصيح هكذا: «**كل عربي لم تتغيّر لغته فصيح على مذهب قومه**» (الفـاضل،113). ويبدو لنا هذا التحديد على جانب كبير من الموضوعية إذ استطاع النحاة أن يحصروا هذه التحولات التي أصابت العربية في ألسنة بعضهم وقرروّا أنها من صفات غير الفصيـح **إذ لا تنتمي إلى اللغة التي يعرفهـا هؤلاء الذين سموا بفصحـاء العرب** والذين ترتضي عربيتهم في هذا المجتمع بالذات: **يرتضيها كل هؤلاء الفصحاء لا اللغويون والنحاة وحدهم**: فهذا يسمى بالاستحسان عندهم وهو استحسان كل فصحاء العرب لما يسمعونه من لغتهم والاعتراف منهم بالتالي أن **هذا الذي يستحسنونه هو من لغتهم**. ويسمى سيبويه ما طرأ من تغيير في لغة غير الفصحاء **خطأ ولحنا** كما رأينا وليس في ذلك أي خروج عن الوصف الموضوعي العلمي لأن المعيار كما قلنا هو أيضا ظاهرة ويجب أن توصف جميع الظواهر ويوصف ما يطرأ على هذا المعيار من تغيير ولا يضر العلم أن يسمى خطأ لأنه غير صواب بالنسبة لما تعـارفه وتواضع عليه الناطقون بلغة من اللغات في استعمالهم لها.

---

(3) — يعني الفصحى.

فاتضح من هذا أن هناك مدلولين اثنين للفظ الفصاحة وهما :

- **صفة من يرتضي لغتَهُ كلُّ من ينطق بنفس اللغة على أصلها بدون تغيير**
- **وبالتالي عدم وجود لأي شيء في لغته لا ينتمي إلى لغة هؤلاء الناطقين**

وكلا هذين المدلولين يخص **السلامة اللغوية**(4).

إلا أن هناك أيضا معاني أخرى تدل عليها لفظة «فصيح» وما يشتق منها. فقد يكثر العلماء من القرن الثالث من استعمال صفة التفضيل : أفصح وربما يستغرب أن تكون للسلامة اللغوية درجات. فالكلام إما أن يكون سليماً أو غير سليم. والحق أن للفصاحة مدلولا آخر غير السلامة اللغوية. ويمكن ههنا أيضا أن نستعين بأسلوب الجاحظ. فقد ذكر أن الفصاحة تقتضي الفهم لما هو فصيح من الكلام وحده وعدمها يقتضي الفهم لغير الفصيح.فالفصاحة هي أيضا **إبانة** (5). وهذا ما يؤكده هذا النص للجاحظ أيضا زيادة على ما ذكرنا.

«**كلما كانت الدلالة /أوضح وأفصح/1 وكانت الإشارة / أبين وأنور/2 كان أنفع وأنجع/3** » (البيان1/75).

فالأزواج 1و2 هما، هذه المرة، من قبيل التزويج بالمرادف (لا بالضدّ). فالفصيح إذن هو أيضا **الواضح والبيّن** من زاوية أخرى. ويؤكد هذا الذي يستخرج من النصوص وحدها ما ذكره من التحديدات العلماء ممّن تتلمذ على أولئك الفطاحل من النحاة (إلى غاية القرن الرابع). وذلك مثل عبد القاهر الجرجاني الذي أدرك جيدا ما كان يقصد هؤلاء النحاة، قال: «ولم يعلموا أن المعنى في وصف الألفاظ المفردة **بالفصاحة أنها في اللغة أثبت وفي استعمال الفصحاء أكثر** أو أنها أجرى على مقاييس اللغة والقوانين التي وضعوها وأن الذي هو معنى الفصاحة **في اللغة هو الإبانة عن المعنى بدلالة قولهم:** «فصيح وأعجم وقولهم:

---

(4) – سنرى فيما بعد أن النظر إلى السلامة اللغوية يمكن أن يكون سلوكا علميا محضا إذا **روعي فيه سلوك الناطقين كلهم أو أكثرهم** فالتحكم هو التخطئة أو التصويب بدون رجوع إلى استعمال الناطقين أنفسهم.

(5) – وجميع اللغويين القدامى أشـــاروا إلى ذلك بالرجــوع إلى المعنى الوضعي (--المعجمي) لمادة | ف.ص.ح | فصح اللبن /افصح إفصاحا إلخ. أنظر اللسان.

فصح الأعجم وفصح اللحان» (دلائل الإعجاز، 353). إن هذا التحديد المستفيض الدقيق يشتمل على أكثر المدلولات للفظة «الفصاحة» التي استعملها كمصطلح النحاة الأولون ومن جاء بعدهم[5]. والجدير بالملاحظة أن الجرجاني هو ابن زمانه مهما كان فهو يطلق صفة الفصيح لا على الناطق فقط بل على ما ينطق به أيضا. وقد شاع ذلك منذ نهاية القرن الثاني[6]. وقد علمنا من كلام عبد القاهر أن الفصيح من المفردات هو ما ثبت في اللغة أي ما سمعه بالفعل الثقات من اللغويين وما كثر منها في استعمال الفصحاء ثم ما كان خاضعا للمقاييس الخاصة بالعربية التي ينطق بها هؤلاء الفصحاء وأن الفصاحة هي، زيادة على ذلك، **الإبانة** ومدلـــول **الإبانة** والوضوح مرتبط **بمفهومي كثرة الاستعمال والشيوع** وبالتالي بدرجات الفصاحة. فكلما كان اللفظ أوضح بكثرة من يستعمله قيل عنه إنه أفصح. وسنرى أن هذا المدلول هو المقياس الأساسي الذي اعتمد عليه النحاة **لإثبات اللفظ المسموع وإقراره كلفظ عربي ولفظ ثابت في كلامهم** ينتمي إلى لغتهم [7].

وقد أدرك بعض العلماء الذين جاؤوا بعد عبد القاهر هذه المدلولات التي قصدها القدامى في استعمالهم للفظة الفصاحة إلا أنهم خصصوها بما ينطق به الفصيح فقط.وقد عني بمدلول الوضوح وكثرة المستعملين البلاغيون بصفة خاصة. يقول الجاربردي (توفى في 746هـــ) في شرح الشافية: «فإن قلت: ما يقصد بالفصيح؟ وبأي شئ يُعلم أنه غير فصيح... قلت: **أن يكون اللفظ على ألسنة الفصحاء الموثوق بعربيتهم أدور واستعمالهم أكثر**»[8]. وقال ابن الأثير في المثل السائر: «إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين وأعنى بالظاهر أن تكون اللفظة مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون **مألـــوفة الاستعمال** بين أرباب النظم والنثر...» (65-66). وقال بهذا الصدد: «الفصيح هو

---

(5) – على هذا كان من الممكن أن نبدأ بذكرها إلا أنّ المسح الكامل لنصوص العلماء الأولين يجب أن يسبق كل نظر في التحديد لأنه نظر فيما قصده بالفعل صاحب النص ثم إنّ مثل هذه التحديدات الدقيقة الشاملة التي تصدر من علماء قد تعمقوا في علوم اللسان العربي قد لا نحظى بالعثور عليها بل قد نعثر –غالبا– على تحديد هو أبعد شيء عما قصده القدامى.

(6) – من أوائل من فهم هذا نذكر الأخفش والفراء.

(7) – ومفهوم «انتماء» العنصر اللغوي أو صفة له إلى نظام لغوي خاص وعدم انتمائه إلى ذلك النظام هو **الوصف الموضوعي العلمي** لمفهوم الفصيح وغير الفصيح (اللاحن) بالنسبة للعربية.

(8) – ذكره السيوطي في المزهر: 187/1.

فصيح عند الجميع» (65). اكتفى ابن الأثير من المدلولات التي ذكرها الجرجاني بذكر المدلول الذي كان يهمه بل اهتم بجانب واحد منه وهو عدم الغرابة وبالنسبة «لأرباب النظم والنثر» فقط. فهكذا تحوّل مفهوم الفصاحة اللغوية إلى مفهوم خاص بالبلاغة فقط وسبق أن بيّن الجرجاني أن المفهوم اللغوي للفصاحة ليس هو المقصود عند أهل البلاغة. فهذا الذي حدّدناه هي الفصاحة اللغوية المحضة وهي غير مفهوم الفصاحة الذي قصده الخفاجي مثلا في كتابه «سر الفصاحة» فهذه الفصاحة السليقية التى اتصف بها أولئك العرب وتلك هي فصاحة يكتسبها أي متعلم للعربية في أي وقت.

وذكر أحد من وضع حاشية على شرح القزويني وهو ابن يعقوب المغربي أن «الجاري على لسان بعضهم أن الفصاحة هي كون الكلمة **جارية على الاستعمال المشهور المتقرر عمن يوثق بعربيتهم**» (مواهب الفتّاح،76/1). فهذا يخص الفصاحة اللغوية القديمة **لأنها مقيّدة بالعرب الفصحاء الموثوق بعربيتهم** أي بما سمع منهم ودوّنه علماء اللغة.

وكان ذكر قبل ذلك وعلّق عليه ما تقرّر عند البلاغيين من استعمال مقاييس ثلاثة ليعرف ما الذي كان مستعملا بكثرة عند العرب وسنتحدث عنها عند كلامنا عن تطور هذا المفهوم بعد القرن الرابع (أنظر فيما يلي).

عرفنا بما سبق أن مصطلح «الفصاحة» وما يشتق منه كان يقصد منه عند النحاة واللغويين في زمان سيبويه المدلولات الآتية:

1- صفة مَنْ تُرتضَي عربيته: أي كون الناطق العربي الفصيح «تُرْضى عربيته ويوثق بلغته ويؤخذ بها» **ويتم ذلك باستيفاء مايأتي:**

2- السلامة اللغوية: أي كون هذا الناطق ينطق بكلام «عربي» بالتمام سليما عن الخطأ اللغوي **الذي لا يعرفه الفصحاء** إطلاقا فالخطأ من **الناحية العلمية المحضة هو عدم انتماء العبارة** الموصوفة بذلك **الى كلام العرب**[9] ليس إلا. وهو حاصل على لسان غير الفصيح ممن كان يعيش في ذلك الزمان ويتكلم بالعربية وهو اللحن أي ما «ليس من كلام العرب»

(9) - سنذكر المقاييس الزمانية المكانية لهؤلاء العرب في الفصل القادم.

على حدّ تعبيرهم القديم. واعتمد النحويون في التمييز بينهما على مقاييس قد ذكروا منها[10] عجز الفصحاء عن فهم ما يقوله غير الفصيح لعباراته الملحونة وخاصة رفع المفعول وجر الفاعل وغير ذلك مما لا يمكن أن يسمى عربيا ويحصل ذلك كلما كان الإعراب ضروريا لحصول الفهم.

3- **الاستعمال الكثير المعروف من كلام الفصحاء** ومن ثم وضوح الكلام بالنسبة لهم: أي كون هذا الناطق يتكلم بالواضح من الكلام بالنسبة لجميع أفراد المجتمع العربي الفصيح ولما يستعمله أكثر العرب الفصحاء. ومن أجل ذلك وبسبب وحدة اللغة يمكن أن يتم التفاهم التام أو يكاد بين جميع الفصحاء. وفي ذلك درجات:ما يكون «عربيا كثيرًا» أو«أكثر وأعرف» وما هو أقل من ذلك. وقد يكون غريبا على بعضهم إذا اختصّ اللفظ بمدلول خاص مثل الألفاظ التي أعطاها الإسلام معني خاصا. وهذا لايمنعه من أن يكون فصيحا لاشتهاره بين الفصحاء (بعد ظهور الإسلام) وهكذا هو أيضا كل ماقيس على كلام العرب.

4- **السليقية الخاصة بالفصيح:** كون الناطق الفصيح - أيا كان بدويا أم حضريا كما سنراه- اكتسب العربية الفصيحة من بيئته التي نشأ فيها أي أن تكون لغته الأولى وألا يكون تعلّمها من ملقّن. ثم بعد النصف الثاني من القرن الثاني ألا يكون الفصيح أطال الإقامة في الأماكن التي كان يكثر فيها الكلام الملحون فيأخذ من هذه البيئة اللحن بالسليقة أيضا.أما عن مفهوم السليقية فيقول أبو مِسْحَل في كتاب النوادر: «يقال: رجل نحوي وسليقي فالسليقي على وجهين: أحدهما أن يكون **الفصيح من الأعراب**[11] **الذي يتكلم بسليقيته، وسليقته هو الطباع**. قال الشاعر في ذلك:

ما إنْ تواقفها نحويّة حدُثٌ لكنْ سليقية كالفجر غرّاءُ

والوجه الآخر أن يكون قرويا (حضريا) **لحانا يتكلم بسليقته** فهي **سليقة الخطأ** ومن ثم قالوا: فلان يقرأ بالسليقية إذا لم يعرب قراءته وإنما عنى بهذا أهل القرى ممن لا فصاحة فيهم» (342/1) فهناك سليقية الفصحاء وسليقية غير الفصحاء.

---

(10) – وهناك مقاييس أخرى سنذكرها فيما بعد.
(11) – هذا صار لازما في زمان أبي مسحل إذ لم يبق أي واحد في الحضر على فصاحة أسلافه.

والمدلول الأول أساسي يمكن أن يكون كالشرط لكل ما سبق من الصفات التي تتضمنها هذه المدلولات الثلاث وهو ملازم لها. ولم يذكر سيبويه شيئا كان يمكن أن يشير إلى ذلك[12] إلا أن أفعاله هي الناطقة عن ذلك وهو **امتناعه من السماع على الإطلاق** ممن لم تكن **العربية بالنسبة له** «**لغة المنشأ**» (البيان للجاحظ70/1) **وذلك كبشار بن برد** وأبي نواس وأبي العتاهية وغيرهم مع أنهم كانوا من أشعر الناس. فبالنسبة إلى علوم اللسان الحديثة هم سليقيون في لغة منشأهم وكذلك هو حكم الناطقين باللهجات بأي لغة كانت **فمقياس اختيار من يؤخذ بلغته** فيها هو سليقية الناطق في اللهجة أو اللغة المعنية بالأمر وترك المولّد أياكان.

وقال الجاحظ عن **المولّد**[13] الذي لا يؤخذ بلغته: «إن المولد **لايُؤْمَن عليه الخطأ** إذ كان دخيلا في ذلك الأمر وليس كالأعرابي[14] الذي إنما يحكي الموجود **الظاهر الذي عليه نشأ** وبمعرفته غذي» (الحيوان 4، 183-184) وقال أيضا: «لولا مخالطة طول السامع للعجم وسماعه للفـــاسد من الكلام لما عرفه. ونحن لم نفهم منه إلا للنقص الذي فينا» (البيان162/1). وزعم أصحابنا البصريون عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: «لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج وكان -زعموا- لا يبرئهما من اللحن» (163).

وجاء في كتاب الإيضاح لأبي بكر بن الأنباري: «حدثنا الأصمعي عن سليم بن اخضر عن ابن عون قال: كنت أشبه لهجة الحسن بلهجة رؤبة بن العجاج» (اللهجة هنا هي جرس الكلام) (17).

فالفصيح **الذي يجوز** عند علماء العربية **الأخذ بلغته** هو إذن الناطق الذي اكتسب ملكته اللغوية في العربية الفصيحة (لغة القرآن) بالسليقة أي في أثناء نشأته بدون تلقين وفي بيئة من السليقيين الناطقين بتلك اللغة فكذلك هو الأمر تماما في زماننا بالنسبة لأي لغة وأي لهجة وهذا ما يقره علماء اللسانيات. **وليس في معنى الفصاحة عند سيبويه أكثر مما يعنيه علماء**

---

(12) - مهما كان فإن هذا المفهوم كان معروفا في زمانه فهو يذكر هذا اللفظ كمثال:»قالوا سليقي للرجل الذي يكون من أهل السليقة» (71/2). هذا ولايميز بعض المحدثين بين السليقتين. ونحن لانقصد بالنسبة للعربية إلا الأولى.

(13) – لم يأت هذا اللفظ في كتاب سيبويه. وسنرى أن المولد عند علماء العربية ليس بالضرورة كل إسلامي.

(14) -- أو الحضري الفصيح السليقي قبل الجاحظ وسوف نرى أن الكثير ممن استقر في المدن في الصدر الأول كانت تؤخذ منه اللغة وخاصة الشعراء الأمويين وبعض المخضرمين بين الدولتين.

اللسان في زماننا ولم يقصد سيبويه من كلمة الفصاحة معنى الخلوص من العناصر اللهجية أبدًا كمـــا يدّعيه بعضهم (وسنتكلم عن ذلك فيما بعد).

وقد يكون السليم اللغة في العربية من غير هؤلاء أي من غير السليقيين (ويسمى فصيحا عند غير النحويين) من أبلغ الخطباء وأشعر الشعراء ولا يؤخذ بلغته إذ قد يتغلّب عليه منشؤه اللغوي الذي نشأ عليه بلغة أخرى في وقت الاسترسال أي في حالة الأنس عند مخاطبته لأفراد أسرته أو أحبائه أو عامة الناس في الحياة العادية. وأغلب ما تكون لغة التخاطب التي يستخدمها ملحونة ولا يلجأ إليه لوجود الكثير ممن هو سليقي- في وقت معيّن- يمثل تماما، من حيث اللغة، الجماعة من الناطقين باللغة المعنية بالأمر -وهي هنا عربية القرآن- ولو كانوا غير بارعين في خطاباتهم من حيث البلاغة لأن المقصود هنا هو السلامة اللغوية العفوية لا البلاغة.وقد يكون غير السليقي مماثلاً له في سلامة لغته لكن هذه السلامة قد لا تستمرّ في كل الأحوال من الحياة كما قلنا.وهذا ينطبق على جميع أنواع اللغات قديما وحديثا وفيما سيأتي من الزمان.

وعلى هذا فلا علاقة إطلاقا بين السليقة[15] كما تصوّروها وبين الجنس أو العرق كما يزعم بعض المحدثين[16] إذ قد لاحظ العلماء العرب أنه قد تتوفر الظروف لأن ينشأً أي إنسان مهما كان عرقه في بيئة غير بيئته الأصلية فيكتسب (في صغره)لغة هذه البيئة بالسليقة مهما كان وعلى هذا فلا ترادف عبارة «العربي الفصيح» ههنا «العربي القحّ» على الإطلاق.

فهذا الذي حاولنا أن نوضحه مما قصده علماء العربية الأولون[17] من استعمالهم لكمة فصيح كمصطلح لغوي نحوى إلا أن للفصاحة معاني أخرى عند غير النحويين ثم إن المفهوم اللغوي هو نفسه قد تطوّر وتحوّل إلى مفاهيم أخرى عبر الزمان وسنتطرق إلى كل هذا فيما يلي.

---

(15) - كما حددها أبو مسحل وفهمها علماء العربية.
(16) - انظر كتاب: فصول في فقه اللغة للدكتور رمضان عبد التواب، ص 95.
(17) - وفهم جيدا الفارابي هذا الذي قصده هؤلاء العلماء إذ يقول : «إنه ينبغي أن يؤخذ عن الذين تمكنت عادتهم لهم على طول الزمان... وأما من كان لسانه مطاوعا على النطق بأي حرف شاء مما هو خارج عن حروفهم وبأي لفظ شاء...فإنه لا يؤمن أن يجرى على لسانه ماهو خارج عن **عاداتهم** الممكنة **الأولى** فيعوّد ما قد جرى على لسانه فتصير عبارته خارجة عن عبارة الأمة ويكون خطأ ولحنا وغير فصيح» (كتاب الحروف، 146).

II – تطور مدلول الفصاحة كمصطلح عند اللغويين في القرن الثـالث وما بعد ذلك

I – معنى اللغة الفصيحة

رأينا أن سيبويه لا يطلق صفة الفصاحة إلا على الناطقين لا على كلامهم فكلما ثبت عنده أن ما سمعه من الكلام من العرب هو حقيقة عربي فانه يكتفي بوصفه كذلك إلا أنه يعتمد في ذلك على المقياس الذي أشرنا إليه وهو كثرة العرب الفصحاء الذين يستعملون هذا الذي سمعه. فيجب عنده إذن أن يكون المسموع شائعا معروفا مأنوسا لفظا ومعنى مفردة كانت أم تركيبا أم حرفا ومخرجا، يقول: «هو عربي جيد كثير» (15/1 و27) «وهذا النحو كثير»(43) «والوجه الأكثر الأعرف النصب» (49) «فهذا عربي حسن والأول أعرف وأكثر»(78) «إلا أن أعربه وأكثره» (79) «وهي لغة للعرب جيدة» (314) «لا يتكلم به العرب ولا يستعمله ناس كثير» (402) «وأكثر العرب تقول» (320/2) «والذين لا يميلون في الرفع والنصب أكثر العرب وهو أعمّ في كلامهم» (264/2). وكثيرا مايكون الضرب من الكلام مطردا لا يوجد غيره في كلام كل العرب. يقول: «كما أن التنوين والنون عربي مطرد» (101/1) «فأما «أمام» فكل العرب تذكّره» (35/1) «إذا قلت فيه فَعُل لزم بناء واحدا في كلام العرب كلها» (235/1). «وذلك في لغة جميع العرب» (256) «وغير الهاء الذي تكلم به العامة» (312) **ويعنى بالعامة الأكثرية الساحقة من العرب الفصحاء.**

وعلى هذا فإن لثبـوت اللغة درجات من حيث الكثرة والشيـوع أي كثرة من يستعمل هذا الضرب من الكلام. وقد استعمل سيبويه اسم التفضيل في لفظ الفصـاحة مرتين: في هذا النص«هذا جحر ضب خرب» فالوجه الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس ولكن بعض العرب يجرّه» (217/1) وفي هذا النص: «أنشدنا هكذا اعرابي من أفصح الناس» (52/2).

ويكون العربي أفصح عند سيبويه عندما يكون كلامه أبين وأوضح بالنسبة لأكثر العرب. ولا يطلق سيبويه كما قلنا على كلامهم بأنه فصيح أو أفصح بعدُ بل يصف الكلام الفصيح دائما بأنه «عربي» أو«عربي جيد» أو«كثير» أو«أعرب وأكثر».

وكذلك هو الأمر بالنسبة لشيوخه فليس في كتابه أي كلام منسوب إلى أحدهم يتضمن هذا الاستعمال وكذلك بالنسبة لمعاصريه وأتباعه فيما تركوه لنا. أما اللغويون الذين تتلمذوا على أبي عمرو بن العلاء كأبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي فلسنا على يقين من أن يكون قد صدر منهم ذلك غير أننا نعلم أن الأخفش تلميذ سيبويه (توفي بعدهم بقليل) كانت له لقاءات كثيرة معهم ولم نعثر فيما وصل إلينا من كتبه على شيء من ذلك (وحجمه كاف ليحتوي كلامه على استعمال مثل هذا). فهو يقول عما سمعه من العرب «بأنه كثير في كلام العرب» (معاني القرآن، ص272) أو هو «اللغة الكثيرة» (78) أو«اللغة الشاذة القليلة» (42) «وذلك قليل قبيح... وقد سمعنا من العرب الفصحـــاء» (26) «وهي قليلة رديئة لا تكاد تعرف» (50) «وزعم أبو زيد أنه سمع أعرابيا فصيحا من بلحارث...» (113). فكل هذه المصطلحات استعملها سيبويه ويسمى أبو عبيدة هذا الذي يقول عنه سيبويه أنه «كثير» «بالمستعمل». يقول: «فهذا المستعمل» (267/1) «والمستعمل في الكلام...» (مجاز القرآن،276/1). ونعتقد أنّ عبارة «لغة فصيحة» و«أفصح اللغات» هي عبارات أحدثها وأكثر من استعمالها العلماء الذين تتلمذوا على هذا الجيل وخاصة على الفراء.

فقد تتبعنا ما يقوله الفراء في«معاني القرآن» وما رواه فيه عن شيخه الكسائي فلم نعثر إلاعلى مصطلحات مطابقة لمصطلحـــات البصريين أو قريبة منهـــا في ميدان السماع وما يخص لفظة الفصـــاحة وما يشتق منهـــا. يقول الفراء: «أكثر في كلام العرب» (معاني القرآن، 205/1) «وهذه اللغة كثيرة» (215/1) و«ذلك عربي كثير في الكلام» (61/1) «والرفع أكثر في كلام العرب» (226/3) «وزعم الكسائي أن العرب تؤثر الرفع» (245). إلا أنه قال أيضا **وربما لأول مرة في تاريخ النحو**: «وهي **لغة** يمانية **فصيحة**» (229/3) ولا ندري هل نسب ذلك إلى الكسائي أو غيره من العلماء.

وتتبعنا أيضا كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت فتبيّن لنا أن صفة «الفصيح» قد صارت عند هذا اللغوي الكوفي توصف بها اللغات فلا يكتفي بأن يقول: «هذا عربي» أو«عربي كثير». ولا ننسى أنه سمع ونقل الكثير من لغويّ البصرة مثل أبى زيد وأبي عبيدة والأصمعي زيادة على ما ينقله من شيوخه من اللغويين الكوفيين (كأبي عمرو الشيباني وابن الأعرابي وغيرهما).

فيبدو أنه عمّم –مع معاصريه كما سنراه– هذه العبارة: «فهذه اللغة الفصيحة» وتتلوها على الفور اللفظة التي يكتفي بتسميتها: «لغة». وذلك مثل: «وتقول هي اللبؤة ولبوة لغة» (إصلاح المنطق، 146). «وفَكاك الرقبة، هذه اللغة الفصيحة والكسر لغة» (162) «في جِوار الله فهذه الفصيحة والضمّ لغة» (174). وقد يذكر الكلمة الفصيحة دون التأكيد على أنها الفصيحة مكتفيا في ذلك على قوله« [الآخر] لغة». وذلك مثل: «وهي الكَلِمة والكِلْمة لغة» (168) «وهي الحَصِبة والحَصْبة لغة» (16-169). وقد يستبدل لفظة لغة في نفس السياق بعبارة توضح ما يقصده من اللغة: «هي المَعِدة وبعض العرب يقول المَعْدة» و«هي السَّفِلة ومن العرب من يخفف ويقول السِّفْلة» (165) «وهي اللَّبِنة التي يبنى بها ومن العرب من يقول لِبْنة» (169). وقد يصف الكلمة التي تقابلها «لغة» عنده بأنها **الأكثر وأن اللغة المقابلة هي القليلة**. مثل : «أما فو وفي وفا فإنها تقال في الإضافة ... وربما قالوا ذلك في غير الإضافة وهو قليل. وقال العقيلي: إن كنت ذا طُبّ فطُبّ لعينيك **وأكثر الكلام** إن كنت ذا طُبّ وطِبّ. فيه ثلاث لغات» (84) «وخثَر اللبن.. يخثُر. قال الفراء : وخثُر قليلة في كلامهم» (207).

ويصف أيضا ما يكثر استعماله وتقابله لغة أخرى بأنه «الكلام» أو«الكلام المستعمل» (وقد سبق أن رأينا ذلك في مجاز القرآن لأبي عبيدة) ومثال ذلك: «هو جَهاز العروس وقال بعضهم : هو جِهاز العروس والكلام الفتح» (104) و«وقد نَقَمت عليه أنقِم والكسر لغة والفتح الكلام» (188) «قال الكسائي رجل نِشْوان اللخبر ونَشوان هو الكلام المستعمل» (140).

وفيما جاء عنه قد يقابل الفصيح و«الكلام» أو«كلام العرب» أو«الكلام المستعمل» (كلام العرب الأكثر) لا لعبارة «لغة من اللغات» (أي الكلام لبعض العرب وقد يكون عددهم قليلا) بل كلام ينسبه إلى «العامة» (وهي غير العامة بمعنى أكثر الناس)[18] ويسميهم أيضا «المولَّدين». وظهرت هذه الكلمة (مع كلمة «العامة» بهذا المعنى) في بداية القرن الثالث (توجد في كتب الجاحظ وأبي حاتم السجستاني وكل معاصريهم ولا أثر لها قبل ذلك بهذا

---

(18) - وسنرى أن سيبويه لا يستعمل هذه اللفظة إلا للدلالة على الأكثرية الساحقة من الناطقين الفصحاء من العرب.

المعنى). ومثال لذلك: «الفراء : هو الشَّمَع: هذا كلام العرب والمولّدون يقولون شَمْع بإسكان الميم» (97) «وهو السَّيْلَحون الذي تقوله العامة السالِحون» (163) «هي المُلاءة والعامة تقول ملاة بدون همزة» (147). ومثل هذا العنوان لأحد فصول كتابه: «ما جاء على فَعَلْت بالفتح وما تكسره العـــامة وتضمه وقد يجئ في بعضه لغة إلا أن الفصيـــح الفتح» (188).

وجاء «الفصيح» على صيغة التفضيل أيضا عنده وذلك في قوله: «بأسنانه حَفْر بالتخفيف وهو أفصح من حَفَر وبنو أسد يقولون حَفَر» (180). وجاء ذلك أيضا في عنوان آخر وهو: «ما جاء على فَعَل فكان هو الأفصح وجاء بالضم» (207). فهذا يدل على أن ما يوصف بالأفصح يقتضي أن يكون مـــا يقابله فصيحا هو أيضا وربما يكون «لغة» إلا أنه لا يمكن أن تكون «لغةً رديئة» بل «لغة عربية جيدة». وهناك عنوان ثالث مهمّ جدا لدقته وما يمكن أن يستنتج منه من معان مفيدة.وذلك هو قوله (عنوان في ص 208):

«ما جاء على فَعِلْت فكان هو الفصيح لايتكلم | العرب بغيره

ومنه ما جاء على فَعِلْت و**كان الفصيح الأكثر| ومن العرب** من يفتح».

إن هذا التناظر لأجزاء هذه العبارة من جهة وما مرّ من الكلام من جهة أخرى يمكن أن نستنتج منه أن صفة الفصيح تنطبق، ابتداء من ابن السكيت، أو قبيل ذلك بقليل على:

1- كلام العرب وضروبه التي **لا يتكلم الفصحاء بغيرها** فلا توجد إلا في هذا الكلام وعلى صورة واحدة وهو ما يسميه سيبويه بالمطَّرد (في الاستعمال) وهو جلّ ما يوجد في اللسان العربي.

ويقابله كل لسان أعجمي من جهة والكلام الملحون بالعربية من جهة أخرى ويسمى أصحاب الكلام الملحون بالمولّدين أو العامة (بعد سيبويه لا قبل).

2- ضروب من كلام العرب يكثر استعمالها وقد يكون بعضها أكثر استعمالا من بعض ويسمى بالفصيح (لكثرته فقط وذلك قبل القرن الثالث) وقد يتعادلان وكلها تسمى«لغات» عند سيبويه وشيوخه وأصحابه. «ولغات فصيحة» وغيرها «لغات» فقط في عهد ابن السكيت وبعض من جاء بعده.

3- مثل ذلك إلا أنه قليل في الاستعمال فهو كما قلنا«لغات» فقط بعد سيبويه. وبعض هذا القليل قد يوصف بأنه قبيح رديء وسنرى في الباب الثاني ما هو السرّ في ذلك. وأما اللحن فهو ما يسمع من المولد ولا يتكلم به فصحاء العرب.

ويؤكد مفهوم الفصيح كما فهمه ابن السكيت أحد العلماء الذين تخصصوا في دراسة الملحون وبيان ما يقابله من الفصيح (ما اصطلحوا عليه«بلحن العامة»). وهو ابن هشام اللخمي (المتوفَّى في 577 هـ). قال في كتابه: «وأكنيته فهو مُكْنى» ليست فصيحة[19] إلا أنها ليست بخطأ ولا يجب أن تلحق بها العامة لكونها **لغة مسموعة**»(114). وهذا يصفه سيبويه بأنه عربي إلا أنه مسموع من عدد قليل من فصحاء العرب.

وقد تنسب بعض هذه الضروب من الكلام إلى جماعة معينة من العرب في إقليم معيّن مثل بني تميم أو نجد أو أهل الحجاز أو العالية أو مختلف القبائل العربية

وسنرى قريبا أن المراد باللغات ليس عند سيبويه (حتى النصف الأول من القرن الثالث) اللهجات بمعنى اللغات المحلية (Dialects).

2- معنى اللغة الجيّدة (أو العالية) عند علماء القرن الثالث :

رأينا أن كثرة المستعملين الفصحاء (الذين لا يعرفون الكلام الملحون) لضرب من ضروب اللغة هو المقياس الوحيد الذي اعتمد عليه سيبويه ومعاصروه في جعله عبارة معينة هي «الأكثر والأعرف» (أي اللغة الفصيحة في اصطلاح من جاء بعده). وقد لاحظ هؤلاء القدامى أن أئمة القراءات [20] (وأكثرهم من النحاة) قد قرأوا أحيانا (قليلة) بأشياء تكثر في كلام العرب ولم تكن هي الأكثر إذ نقلوا ما سمعوه من التابعين والصحابة الذين نقلوا ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يتجاوزوه وقال سيبويه بهذا الصدد: «.... إلا أن القراءة لا تخالف لأن القراءة سنة» (الكتاب، 94/1) وقال الأخفش أيضا: «إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر» (القمر، 49) يجوز فيه الرفع وهي اللغة الكثيرة غير أن الجماعة **اجتمعوا على النصب**. وربّما اجتمعوا على الشئ كذلك مما يجوز والأصل [=الأكثر] غيره» (معاني القرآن، 78).

---

(19) – انظر قول ابن السكيت فيما يلي : «فهذه اللغة الفصيحة» ويسمّي الأخرى «لغة» فقط. وقد يكون ذلك سبباً في نفي صفة الفصاحة عن اللغات القليلة الاستعمال عند بعض من جاء بعد القرن الرابع.

(20) – لفظة «إمام» : هذا اصطلاح من نقل القراءة عن الصحابة أو التابعين واعترف بإمامته في ذلك.

وقال أيضا الفراء: قالوا: «معذرة» (الأعراف4).... وأكثر كلام العرب أن ينصبوا المعذرة **وقد آثر القراء رفعها** ونصبها جائز[أي في العربية] (معاني القرآن، 399/1 وقرأ حفص بالنصب).

وتغيّر تماما هذا الموقف في نهاية القرن الثالث. فقد قال ابن خالويه(21) في شرح الفصيح: «وقد أجمع الناس جميعا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك» (نقله السيوطي في المزهر،213/1). وبالفعل فقد ذكر الطبري قبل ابن خالويه ثم أبو جعفر النحاس (المتوفي في 338): بأن «القرآن إنّما يأتي بأفصح اللغات» (إعراب القرآن 455/2).

وأما ابن السكيت فقد رأيناه يجعل الأفصح من اللغــات هو الأكثر أي الذي يستعمله العرب أكثر(22)ومع ذلك يقول: «يقــال ضَلَلْتُ يــا فلان فأنت تضِلّ ضَلالا وضَلالة. قال الله جل وعز: «قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنمــا أضِل علَىَ نفسِي» (سبــأ50). فهذه لغة أهل نجد وهي الفصيحة. وأهل العالية: ضَلِلْت أضَلُّ» (206-207). وقال: «تقول: سخِرت من فلان فهذه اللغة الفصيحة. قال الله جل ثناؤه: «فَيسْخَرون منهم سخِر اللهُ منهم» (التوبة8)... وتقول: نصحت لك وشكرت لك فهذه اللغة الفصيحة. قال الله جل وعز: «أن اشكُر لي ولوالدَيْك» (لقمــان17) (281). وتقول: هلمّ يا رجل وكذلك للاثنين والجميــع والمؤنث موحد. قال الله جل وعز: «قل هَلُمَّ شهداءكم» (الأنعام150) و«والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا» (الأحزاب18). ولغة أخرى يقال للاثنين: هلمّا وللجميع: هلُمّوا وللمرأة: هلُمّي... والأولى أفصح» (290).

إن اللغات التي ذكرها بعد الأولى يمكن أن يكون ابن السكيت اعتبرها فصيحة لكثرة من يقولها من العرب وذكر ما ورد منها في القرآن كما يذكر ما ورد من غيرها في الشعر وإن كان المثال الأخير قد ذكره سيبويه بنفس العبارة (الكتاب،158/1). أما المثال الأول: ضَلَلْتُ فهو يصرح أنها لغة أهل نجد وهي الفصيحة والأخرى مجرّد لغة عنده وهي خاصة بأهل

(21) وله مواقف أخرى خالف فيها المتقدمين وأسّس اتجاهات أخر بقيت إلى اليوم.
(22) نكرر ما قلناه بأن الأكثر ههنا ليس هو الأكثر في الخطاب (خطاب الواحد مثلا) بل الأكثر من حيث الشيوع واتساع رقعة الاستعمال.

العالية. فهذا الكلام يطرح علينا مشكلا لأن أهل العالية ليسوا بالقليلين فهل هذا معناه أن ابن السكيت لجأ في تفضيل اللغات إلى مقياس وجودها في القرآن؟ ومهما كان فإن وصفه لكلمة «هلُمَّ» غير المتصرفة بأنها الأفصح هو مطابق لما قاله سيبويه عن هذا الاستعمال لهلم بأنها لغة أهل الحجاز غير متصرفة ومتصرفة عند بني تميم ليس إلا (نفس المصدر) ولم يصرّح أن الأولى أكثر أو أحسن من الأخرى.ومن العلماء الذين أشاروا إلى ما يشبه ما قاله ابن السكيت نذكر أبا حاتم السجستاني المعاصر لابن السكيت. فقد قال في كتاب «المذكر والمؤنث»: «وطمس أجود لأنها لغة القرآن» (180). وقال الجاحظ أيضا: «ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة إنما الفصاحة لأهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن» (البيان،18/1-19). وينبغي أن نلاحظ ههنا أن أباحاتم اكتفى بأن يقول عن «طمس» بأنه أجود ولم يقل أكثر أو أفصح. أما الجاحظ فإنه يحكي ما سمعه فقط. وإلى ذلك أشار المبرّد -وهو ممن أتى بعد هذا الجيل (جيل أبي حاتم والجاحظ وابن السكيت). قال: «كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه[23]. وإنما يقال بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن...» (الفاضل، 113). لاشك أن العلماء يعتبرون لغة القرآن كأبين لغة وأسلمها بالنسبة إلى اللسان العربي تصديقا لما قاله سبحانه في كتابه العزيز: «بلسان عربي مبين» أي بلسان يفهم معانيه كل العرب. فهذا لايجادل فيه أحد. إلا أن القول بأن كل ما جاء في القرآن من الألفاظ كان هو الأكثر استعمالا عند جميع العرب فهذا يكذبه ما لاحظه ونبّه عليه العلماء القدامى الذين كانوا يعيشون مع فصحاء العرب ومن ذلك ما دوّنوه وبيّنوه من «لغات القرآن». ومن هذا نستنتج أن معنى«الأفصح» بالنسبة للقرآن وما قرأت به عامة القراء (لا الشواذ) هو الأبين والأسلم لغويا لأن أغلب العرب الفصحاء كانوا قادرين على فهم معانيه ومستأنسين بألفاظه وكان أيضا الأبلغ من زاوية أخرى أي **من حيث إنه كلام معجز** لا كلغة بل كاستعمال غير إنساني للسان العربي الإنساني[24].

(23) - سبق أن ذكرنا هذا الكلام للمبرد.

(24) - لأن البلاغة كما تفطن إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني تخص التأدية وكيفية استعمال اللغة لا نظام اللغة في حدّ ذاته.

تطور مفهوم الفصيح عند النحويين واللغويين

بين القرن الأول والثالث

I - في القرن الأول والثاني عند سيبويه وشيوخه

المتكلم العربي اللسان (في الأصل)

الفصيح (لغويا) ← في المقابل → **غير الفصيح (لغويا)**

وهو مَنْ كانت عربيتُه سليمة في كل مستويات التعبير[1] لموافقة نظامها للغة القرآن ومن كان ينطق بها سليمة (وهو العربي اللسان الذي منشأه اللغوي العربية ليس إلا).

غير الفصيح (لغويا): وهو اللاحن في لغته العفوية أي مَنْ كانت عربيتُه غير سليمة لتَغيُّرها كلياً أوجزئيًا عن لغة القرآن ومن كان ينطق بها سليمة(وهو:العربي المتأثر في منشأه أو بعد ذلك بلغة أخرى أو الأعجمي الأصل الذي منشأه اللغوي غير العربية وقد يكون كلاهما فصيحا في التعبير غير العفوي ولكنهما غير مأمونين عند العلماء).

فصيح ← في مقابل → **افصح**

فصيح: هو من استعمل مشهور اللغات وضروب الكلام وغريبها (= بعض عباراته عربي كثير أو قليل جيّد).

افصح: هو من يكثر على لسانه المشهور من ضروب الكلام المعروفة عند أكثر الفصحاء(= أكثر وأعرف وأعرب).

---

(1) – الهفوات اللسانية لا يُعتدّ بها إذا لم يثبت عليها الناطق.ويُعتد فصيحًا من غير سماع من هؤلاء كلّ ما قيس على كلام العرب من العبارات الجديدة. هذا وهناك تغيّرات تقبّلها العلماء بعد سيبويه وظهرت أثناء التحريات اللغوية لأنها سُمعت من الكثير من هؤلاء الفصحاء مثل تسكين المنصوب في الوقف عند أكثر من كان ينتمي إلى ربيعة (ابتداء من الأخفش الأوسط).

II - **في القرن الثالث : يطلق هنا على اللفظ (زيادة على المتكلم)**

فاللفظ هو:[**فصيح / أفصح** <— **في مقابل** —> **لغة**] <— في مقابل —> **غير فصيح**

وهو اللفظ العربي الواضح المعروف عند الفصحاء المرغوب فيه ويتفاوت على درجات في ذلك.	هو اللفظ العربي الذي لا يعرفه كل الفصحاء وقد يرغب عنه أو عن بعضه بعضهم.	هو اللفظ المولَّد(في القديم) أو الملحون أو العامّي (الذي لا ينتمي إلى عربية القرآن)

3- تحوّل مسمّى «العربي الفصيح» في القرن الثالث وحصره في البدوي صاحب اللفظ الغريب:

في أقدم العصور كان الذين يتكلمون بغير الفصيح من الكلام يشْكون من كثرة الغريب من الألفاظ التي كانوا يجدونها عند أهل الفصاحة العفوية ثم بدأت رقعة هذه الفصاحة تضيق وتخرج شيئا فشيئا من الحواضر وبقيت البوادي هي المكان الذي حافظ فيه سكانه على اللغة الفصيحة. ولهذا صار الفصيح السليقي في القرن الثالث هو الأعرابي في غالب الأحيان، ولم يكن هذا حاصلا قبل هذا التاريخ كما يعتقد الكثير من معاصرينا. وكما سنراه بالتفصيل في هذا الكتاب (أنظر الفصل الثاني من هذا الباب).

صارت صفة الفصيح من فصحاء العرب مساوية عند «المولّدين» في القرن الثالث لصفة **البدوي الجلف**. والتصق هذا في أذهان الناس وكل من يشدو شدواً من الثقافة فما فوق. ومن ثم كان الكثير مما يلفظ به الأعرابي غريبا **عند غير الفصيح** وخاصة عند غير المثقفين(25). ولم يكن الوضع الاجتماعي اللغوي في الزمان الغابر أي في بداية التحرّيات اللغوية،كما سنراه حتى زمان سيبويه، مساويا لما سيصير إليه تدريجيا.وهذا هو السبب في عدم تسمية سيبويه للفصحاء بلقب الأعراب. ولم يستعمل هذا اللفظ إلا مرات قليلة (ست

(25) - فلذلك سمى كل من لم يكن فصيحا بالسليقية مُولّداً ولم يكن كل مولدّ من العامة بالطبع.

مرات فقط)[26] وفي كل مناسبة، فالفصحاء عنده هم العرب لا الأعراب وحدهم (ذكر لفظ العرب مئات المرات) وكذلك هو الأمر بالنسبة لعلماء هذا العصر فيما كتبوه أو روى عنهم. وكل هذا سيظهر بوضوح عند كلامنا عن المقاييس المكانية الزمانية للفصاحة.

ولم يكن الفصيح السليقي بعدُ عنده هو الأعرابي وحده **ولذلك لا يلزم من صفة الفصاحة في ذلك الزمان البعيد أن يوصف بالغرابة اللغوية**. أما في القرن الثالث فصار ينعت كل فصيح من أهل السليقة الفصيحة –في كتب الأدب وكتب الطبقات بالخصوص– بأنه صاحب غريب. يحكي الجاحظ عن يحي بن يعمر وقيل إنه كان يتقعّر وقد سأله الحجاج عن مكان مولده فلما قال له: بالأهواز تعجب فقال له: «فأنَّى لك هذه الفصاحة»؟ (البيان، 378/1) فكأن الفصاحة والتقعّر صارا شيئا واحدا وحارب الجاحظ هذا التخليط في التصوّر بين الفصاحة والغرابة والتقعر الذي بدأ ينتشر في زمانه[27]. قال: «فإن كانوا رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة **فقد باعده الله عن صفة البلاغة والفصاحة**. وإن كانوا إنما دوّنوه في الكتب **وتذاكروه في المجالس لأنه غريب** فأبيات من شعر العجاج و الطرماح وأشعار هذيل تأتي له مع حبس الرصف على أكثر من ذلك» (نفس المصدر). ولا بد أن نلاحظ أولا أن الجاحظ في هذا النص لا يحصر الفصاحة في السلامة اللغوية السليقية كما فعله النحويون (وصارت بذلك مصطلحا خاصا بهم) بل يتجاوز هذه **الفصاحة اللغوية** الى الفصاحة البلاغية. أما التوهم الذي يردّ عليه فيخص هذه الفصاحة لا السلامة اللغوية وحدها. وربما كان من أسباب تأليفه لكتابه «البيان والتبيين» الردّ على هذا التوهم. و نقرأ كثيراً في كتب الأدب والطبقات عند سماع أحد اللغويين لخطاب أعرابي يكثر فيه الغريب، هذه العبارة عن إعجابه: «أنَّى لك هذه الفصاحة». فأصبحت الفصاحة السليقية تدل عند غير الفصحاء السليقيين على القدرة على نوع من الأسلوب لا يعرفه غير الفصحاء وأهم صفاته عندهم غرابة الألفاظ. فهذا الذي حصل ابتداء من القرن الثالث من التخليط بين مفهوم الفصاحة العفوية والتشدق والغرابة اللغوية (والبلاغة عند الأدباء أيضا)، هو ناتج عن انفراد البدو في ذلك العهد بالفصاحة

---

(26)– في المواضع الآتية : 141/1 و165 و402 و403 و52/2 و59 (فيها سمعت أو سمع أعرابيا) و443/1 (الأعراب) وأشار إلى «أهل الجفاء من العرب في 27/1 وأهل الجفاء من العرب يقولون»: «لم يكن كفوا له أحد».

(27) – نستغرب أن يكون الحجاج قال مثل هذا لأنه عاش قبل زمان الجمع للغة والفصاحة هي، كما رأينا، السلامة اللغوية العفوية مع الوضوح فما كان يلزم من ذلك الغرابة ولا التشدق وخاصة في زمان الحجاج عند فصحاء العرب الذين نشأوا في المدن واستشهد بكلامهم. انظر مايلي.

السليقية وامتزاج صفة البداوة وجفاءها المعيشي واللغوي[28] بالفصاحة السليقية التي صاروا لها المصدر الوحيد للغويين وقدوة لعامة الناس **بعد انتهاء قرن كامل من السماع والتدوين لكلام العرب من البدو والحضر على السواء** أي بعد أن أوشك ذلك أن يتم.

أما موقف الجاحظ المعارض للتخليط المشار إليه بين المفهومين -في إطار أوسع من الفصاحة اللغوية- فلأن التشدّق، كان في ذلك الزمان، نوعاً من المبالغة من بعضهم[29] في تقليدهم للأعراب ظنًّا منهم أن ذلك هو الفصاحة (اللغوية والبلاغية) والجاحظ جدّ محق في ذلك على أن الفصاحة المتصنعة لا علاقة لها **بالبلاغة ولا بالفصاحة التي يقابلها اللحن.** ومن جهة أخرى كان الجاحظ أدرك جيدا ما يقصده النحويون من لفظ الفصاحة. إذْ أيّ مولّد كان يمكن أن يلتحق بالتلقين بفصحاء العرب ويكون فصيحا (من غير سليقة) فلا يلزم من ذلك أن يستعمل الغريب أو يتشدق. ثم ليس هذا هو المراد من مصطلح الفصاحة في عبارة «فصحاء العرب» عند سيبويه وأصحابه لأن هذه الصفة هي،**كما قلناه مرارًا، صفة العرب الذين نشأوا في بيئة فصيحة واكتسبوا ملكة العربية، لا بالتلقين بل بنشأتهم في تلك البيئة.** ولم تكن هذه البيئة في زمان الجاحظ إلا في البادية خلافا لزمان سيبويه ومن تقدمه. ففصحاء العرب عند سيبويه ومن جاء قبله هم دائما السليقيون منهم ليس غير وما كان يهمّه أن يكونوا بعد ذلك من الحضر أم من البدو ممن يتشدّق أو لا يتشدّق في كلامه.

أما الغريب فقد استعمل سيبويه هذه الكلمة في موضعين قال: «وقد جاء في الكلام مُفَعْوَل وهو غريب شاذ» (328/2) وقال «وهذه الحروف تجري مجرد خلْفَك وأمامَك ولكننا عزلناها لنفسّر معانيها لأنها غرائب» (204/1). فالغريب عنده هو اللفظ الذي لا يعرفه أكثر العرب أو ما غمض معناه عليهم ويحتاج إذن إلى تفسير وهكذا هو الغريب في القرن الثالث إلا أن **ذاك غريب على أغلبية العرب حتى على الفصحاء** ومنه اللغات القليلة **وهذا غريب على المولّدين فقط.** وهكذا صارت الفصاحة السليقية في القرن الثالث وما بعده تندرج تحتها كل الألفاظ التي لا يعرفها إلا أصحاب هذه الفصاحة أو علماء اللغة[30].

---

(28) - ولاشك أن الجفاء اللغوي قد وجد في أقدم العصور عند البداة الظواعن من العرب.
(29) - أي من لم يحصل على الفصاحة إلا بالتلقين.
(30) - وبهذا المعنى جاء عنوان كتاب : الغريب المصنف لأبي عبيد ووصف ابن دريد للأصمعي: «صاحب الغريب» (الاشتقاق، 272).

III – **الفصاحة في اللغة: المفهوم الوضعي** (غير المصطلح عليه عند النحويين)

من أقدم النصوص التي ورد فيها لفظ الفصاحة نذكر الآية الكريمة:

«وأخي هارون **هو أفصح مني** لسانا فأرسله معي ردءًا إني أخـــاف أن يكذبوني» (القصص 34). ولا يوجد في القرآن من مادة |ف.ص.ح| إلا هذه الكلمة في هذه الآية.

ويمكن أن نسلك لنفهم مقصوده تعالى من استعماله لهذه اللفظة المشتقة من المادة المشار إليها نفس المسلك الذي سلكناه فيما سبق بحمل هذا الكلام الذي وردت فيه كلمة«أفصح» على نص آخر من القرآن قريب منه بوجود نفس السياق وهو لفظ اللسان وله نفس السياق المرجعي:

		هو أفصح مني	لسانًا
قال ربِّ إني أخاف أن يكذبوني فأرسل إلى هارون (الشعراء 13-14)	ويضيق صَدْرِي	ولا ينطلق	لساني

فالسياق المرجعي الواحد الواسع وهو هنا: خوف موسى من تكذيب الكافرين له من جهة والسياق القريب: حالة خاصة للسان موسى وضدّها للسان أخيه يستلزمان هذه المعادلة: أفصح لسانا = أكثر طلاقة للسانه

فمن هذه المقايسة الدلالية نعرف أن الفصاحة في مفهومها الأصلي هي **طلاقة اللسان** أي الخلوص من عقدة اللسان. ويؤكد ذلك ما جاء في القرآن أيضا في نفس القصة أي نفس السياق المرجعي: قال ربِّ آشْرَحْ لي صَدْري ويَسِّرْلي أَمْرِي واحْلُلْ عُقدةً من لساني يفْقَهوا قَوْلي» (طه 25-26-27). ونكتشف في هذه الآية الأخيرة وحدة دلالية تدخل في المفهوم الأصلي أيضا وهي الإبانة بطلاقة اللسان بفضل هذه العبارة القرآنية: «يفقهوا قولي».

وقد قام بما يشبه ذلك من المقارنة الدلالية الجاحظ حين قال: «وسأل الله عز وجلّ موسى بن عمران، عليه السلام، حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته

والإفصاح عن أدلته فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه والحبسة التي كانت في بيانه» ثم ذكر الآية من سورة طه وسورة القصص وقال: «رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة...» (البيان 7/1).

ويذكر الجاحظ نصا هاما للعتابيّ قال: «حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال: «كل **من أفهمك حاجته** من غير إعادة **ولا حبسة** ولا استعانة **فهو بليغ**. فإن أردت اللسان الذي يروق (أي يفضل) الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق. قال: فقلت له : قد عرفت الإعادة والحُبْسة فما الاستعانة ؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ياهناه وياهذا وياهيه وآسمَعْ مني... وافْهَمْ عني... فهذا كله وما أشبهه عيّ وفساد» (البيان113/1).

يجعل العتابي كما رأينا الفصيح كالبليغ بدليل استعماله في تحديده للبليغ الألفاظ التي يتحدّد بها الفصيح في اللغة العادية وذلك بحصول الافهام والفهم وعدم الحبسة. إلا أنه يستدرك على كلامه هذا بقوله: فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة فإظهار... أي بالتفنّن في القول باختيار الألفاظ والتراكيب المناسبة للتأثير على السامع إمّا بإظهار الحق أو الباطل على صورة الحق. فبهذا خرج عن مجرد الفهم والإفهام ومجرد الإبانة والوضوح التي هي من صفات الفصاحة في اللغة العادية. إلا أن لفظة الفصاحة ستبقى دالة عند الكثير من العلماء على ما تدل عليه لفظة البلاغة. فهذا القاضي عبد الجبار (المتوفى في 415) يستعمل لفظة الفصاحة في موضع تكثر فيه عند غيره لفظة البلاغة وذلك مثل هذه العبارات الواردة في كتابه عن إعجاز القرآن: «في بيان الفصاحة التي فيها يفضل بعض الكلام على بعض» وهو عنوان فصل من فصول كتابه وقال فيه: «قال شيخنا أبو هاشم: «إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه وحسن معناه»... وليس فصاحة الكلام أن يكون له نظم مخصوص»(196) وقال: «على أن هذا السائل ظن أن المزية في الفصاحة إنما تكون بأصل المواضعة [31]

(31) – المواضعة هنا ما تواضع عليه الناطقون من نظام يخص لغتهم دون غيرها وهو ما يسمى في زماننا بالكود أو الشفرة (code). وقول القاضي مطابق لما قاله عبد القاهر الجرجاني والرماني من أن البلاغة غير متوقفة على نظام اللغة.

وليس الأمر كذلك لأن مايبلغ من الكلام في الفصاحة النهاية لا يخرج عن أن يكون من جملة اللغة» (201).

وهذا الاستعمال الموحّد للفظتين لا وجود له عند علماء اللغة والنحو لأنهم كانوا يميزون بكيفية صريحة بين الفصيح كمصطلح اصطلحوا عليه منذ أقدم الأزمنة وهو هذا الموثوق بعربيته لعدم تغيّر لغته التي مرجعها لغة القرآن والعرب الناطقين بلغة القرآن من جهة وبين الفصيح في اللغة العادية غير المصطلح عليها من جهة أخرى وهو الطليق اللسان والبليغ. ويقتضي ذلك في العربية أن يكون «على مجاري كلام العرب» إلا أن المفهوم المنظور إليه في اللغة العادية هو طلاقة اللسان والبلاغة.أما المصطلح النحوي فقد رأينا منذ قليل المبرّد يقول: «وكل من لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه» (الفاضل 113). فهذه الميزة (وهي اختصاص الفصاحة بالسلامة اللغوية السليقية) التي لا يعرفها غير اللغويين والنحويين هي أهم الوحدات الدلالية التي تحتوي عليها الفصاحة كمصطلح لغوي نحوي عند الأوائل من النحويين خاصة. وأما البلاغة فليست مقصودة أبدا في هذا المصطلح وإذا عالجها النحوي فانه يمتنع دائما من أن يستعمل بدلها لفظة الفصاحة. ومن أقدم من تطرق من النحاة إلى مسائل البلاغة والصور البيانية نذكر أبا الحسن الرماني (المتوفي في 386) في كتابه: «النكت في إعجاز القرآن» فلا يستعمل فيه إلا لفظ البلاغة.

هذا ولم يكن المؤلفون من غير اللغويين والنحاة قبل زمان الرماني خاصة متقيدين بما تقيد به النحاة في التمييز بين الفصاحة اللغوية وغيرها. إذ كانوا يأخذون اللغة من البليغ وغير البليغ مادامت لغتهم سليمة (= تنتمي الى العربية). فالجاحظ بعد أن ذكر كلام العتابي وخاصة مــا يتجاوز مجرد الفهم والإفهام استدرك على ذلك بقوله: «والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمك من معاشر المولّدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة... وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء» (البيان1/125-126).

ويعني الجاحظ أن البلاغة بالنسبة للعربية لا تتم إلا إذا سلم الناطق بهذه اللغة مما ليس منها وهو اللحن عند الفصحاء.فإن كان ذلك صحيحا فإن العكس ليس بصحيح إذ الفصاحة

اللغوية وهي قبل كل شئ السلامة اللغوية لا تستلزم البلاغة. وينبغي أن نلاحظ أن الجاحظ يعني بفصحاء العرب في عبارته السابقة الذكر: «على مجاري كلام العرب الفصحاء» ما يعنيه النحويون[32]. إلا أن هؤلاء لا يزيدون على ذلك صفة البليغ في تصوّرهم للفصيح.

والآن يحسن أن نرجع إلى ما قاله علماء اللغة (المعجميون) عن الفصاحة في وضعها الأوليّ. جاء في أقدم معجم عربي **وهو كتــاب العين** ما يلي: «ورجل فصيحٌ وفصُح فصاحة **وأفصح الرجل القول**. فلمــا كثر وعُرف أضمروا القول واكتفــوا بالفعل... ويقال في وصف العجم: أفصح وإن كــان بغير العربية كقول أبي النجم: أعجم في آذانها فصيحا». يعني صوت الحمـــار: «والفصيح في كلام العامة المُعرب» (121/3).

وجاء **في جمهرة** ابن دريد: «وأفصح العربي إفصاحا وفَصُح الأعجمي فصاحة إذا تكلم بالعربية... وأفصح الصُبْح إذا بدا ضوؤه وكل شيء **وضح** لك فقد أفصح لك» (541/1-542).

وقال ابن فارس في مقاييس اللغة: «الفـاء والصـاد والحاء أصل يدلّ على خلوص في شيء ونقاء من الشـوب. من ذلك: اللســان الفصيح: الطليـق. والكلام الفصيح: العربي. والأصل: أفصح اللبن: سكنت رغوته. وأفصح الرجل: تكلم بالعربية. وفصُح: جادت لغته حتى لا يلحن وفي كتاب ابن دريد (الجمهرة): أفصح العربي إفصــاحا وفَصُح الأعجمي فصاحة، إذا تكلم بالعربية[33]. وأُراه غلطا والقول هو الأول ...»(مادة ف ص ح).

وقد جمع أهمّ ما قاله أصحــاب المعاجم صاحب اللسان. قال: الفصاحة البيــان ... تقول: رجل فصيح وكلام فصيح أي بليغ ولسان فصيح أي طلق... قال: وقد يجيء في الشعر في وصف العجم أفصح يريد به بيان القول وإن كان بغير العربية ... وفصُح الأعجمي بالضم فصاحة تكلم بالعربية **وفهم عنه** وقيل جادت لغته حتى لا يلحق (قاله ابن فارس)...

---

(32) – فالجاحظ كسائر العلماء في عصره يستعمل لفظة الفصاحة في كتاباته تارة بمعناها في اللغة العادية وهي ترادف في ذلك البلاغة وتارة أخرى بالمعنى الذي يقصده النحويون الأولون.

(33) – فعدم إطلاق الفصيح على الأعجمي والمولد للأسباب التي ذكرناها هو من اصطلاح النحاة واللغويين كما رأينا (المقصود بالأعجمي عندهم الذي منشأه اللغوي غير العربية).

وكذلك الصبي يقال : أفصح الصبي في منطقه إفصاحا فَهِمتَ ما يقول أوّل ما يتكلم وأفصح الأغتم إذا فهمت كلامه بعد غتمته وأفصح عن الشيء إفصاحا **إذا بيّنه وكشفه** ...ولقد فصُح فصاحة **وهو البيّن في اللسان والبلاغة** (قاله صاحب التهذيب) ... والتفصح: استعمال الفصاحة وقيل التشبّه بالفصحاء ... ويقال : أفصحْ لي ولا تُجَمْجم ... (مادة ف ص ح).

ويقول علماء اللغة الأولون عن البلاغة: «البلاغة: الفصاحة والبَلْغ والبِلَغ: البليغ من الرجال ورجل بليغ... حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه». (اللسان مادة ب ل غ).

من هذه الأقوال والتحديدات اللغوية نستخلص أن الوحدات الدلالية الأولية لمفهوم الفصاحة **غير المصطلح عليه عند النحاة** هي كالتالي :

1- **طلاقة اللسان** وعدم وجود عقدة أو عيّ ومن ثم سهولة التعبير.

2- **بيان** كلام الفصيح **ووضوحه وفهم** السامع لما يعنيه بسهولة وهذا ينطبق على العربية وغيرها من اللغات وحتى على العجم إذا فصحوا في لغتهم أو في العربية.

3- **حسن الكلام** وبلاغته والفصاحة هي بذلك مرادفة للبلاغة في اللغة العادية وقبل ظهور علم البلاغة.

4- **السلامة من اللحن** إذ لا يعقل أن يوصف البليغ باللحن على مذهب قومه سواء كان ذلك بالسليقة أو بالتلقين.

فبذلك نرى أن الفصاحة عند النحاة تحتوي على الوحدتين الدلاليتين 2 و4 وتتميّز عن الفصاحة في اللغة العادية بعدم اشتمالها على الوحدتين 1و3 وبزيادة صفة السليقية إذ **ليس كل فصيح بالمعنى غير المصطلح عليه، موثوقا بعربيته** فبها يصير العربي والأعجمي ممّن يؤخد بلغته.

وإذا كانت لغة العيّ والألثغ والألكن السليقيين (بالمعنى الأول) سليمة من اللحن فيرضى النحوي بعربيته ويأخذ بلغته غير اللُكْنة واللُثغة. ويكون هذا المأخوذ عنه غالبا ممن ذاع شعره عند فصحاء العرب قبل بداية التحريات اللغوية[34].

---

(34) — وذلك مثل سحيم عبد بني حسحاس (المتوفى في زمان عمر) وزياد الأعجم (100) فقد استشهد بشعرهما كل النحاة إذ كان يرويه فصحاء العرب فلا يحكون بالطبع اللكنة والعجمة الصوتية اللتين كانتا فيهما.

المجـــال المفهـــومي للفصـــاحة

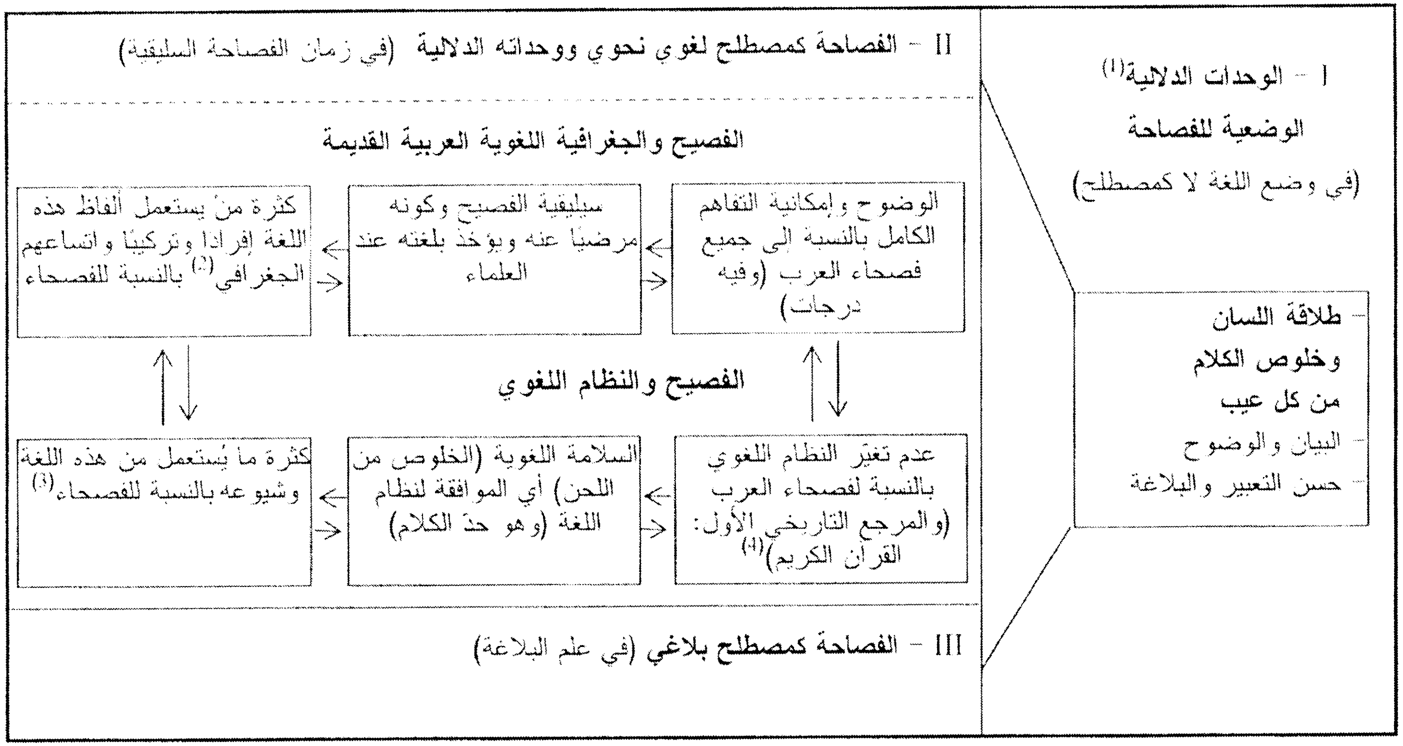

(1) – أو **خواصّ المعاني** على حدّ تعبير علمائنا القدامى (عبد القاهر الجرجاني خاصة). **ملاحظة**: الأسهم تدل على التلازم.
(2)– ويدل على ذلك قول سيبويه: «هو قول عامة العرب أو أكثرهم أو الكثير منهم».
(3)– كما يقول سيبويه: «وهو عربي كثير».
(4)– ء الناطقون السليقيون من فصحاء العرب ،الذين نزل القرآن بلغتهم.

IV – تطور مفهوم الفصاحة عند البلاغيين:

كيف فُهم كلام الجاحظ في الفصاحة والبلاغة في القرن الرابع:

لقد رأينا أن لفظة الفصاحة لا تختلف في غير الاصطلاح اللغوي النحوي عن البلاغة. أما عند علماء البلاغة من غير النحويين فقد بدأوا يفرقون في القرنين الثالث والرابع بين البلاغة والفصاحة بحكم تأثُّرهم بعلماء اللغة وخاصة بمن عرف جيدا مقاصدهم وهو الجاحظ. قال في ذلك أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين: «فسميت البلاغة بلاغة لأنها تُنْهِي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ...أما الفصاحة فقد قال قوم أنها من قولهم أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره... وإذا كان الأمر على هذا **فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد** وإن اختلف أصلاهما لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهارله. وقال بعض علمائنا: **الفصاحة تمام آلة البيان**...على ذلك الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف وقيل زياد الأعجم لنقصان نطقه عن إقامة الحروف... **وشعره فصيح لتمام بيانه.** فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين» (6-7). فهذا التمييزجعل من لفظتي الفصاحة والبلاغة مصطلحين اختص بهما علماء البلاغة بعد قول أبي هلال هذا. وأخذ منه هذه الفكرة ابن سنان الخفاجي (المتوفى في466) صاحب كتاب سرّ الفصاحة. قال: «والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا بالألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل على مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه» (60). وقال أيضا: «إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت شروط عدة...وتلك الشروط تنقسم قسمين: فالأول منها ما يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها... والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض» (66). وقال بهذا الصدد: «أن تكون الكلمة جارية على العُرف العربي الصحيح وللتأليف بهذا

القسم عُلقة وكيدة لأن إعراب اللفظة تبع لتأليفها من الكلام وعلى حكم الموضع الذي وردت فيه ولهذه الجملة تفصيل طويل...في صريح النحو ومحض حكم الإعراب... وإذا ثبت انه لا يكون عربيا حتى يجرى على ما نطقت به العرب وجب أن يشترط في فصاحته تبعهم فيما تكلموا به ولا نجيز العدول عنه لأن **كلامنا إنما هو** في **فصاحة اللغة العربية**..» (120-122). ويتضح بهذا أن الفصاحة عند هؤلاء البلاغيين هي السلامة التي تخص اللفظ إفرادا وتركيبا بحسب ما يقتضيه نظام اللغة الذي وصفه وضبطه علماء العربية.والجديد عند الخفاجي هو اهتمامه الكبير على إثر ما قاله الجاحظ بمخارج الحروف وسلامتهـا وسلامة تأليفها وشيء آخر ظهر الاهتمام به أول ما ظهر عند الجاحظ أيضا وهو عدم غرابة اللفظة (ص 120).

واعتمد البلاغيون الذين جاؤوا بعد الخفاجي على هذه الشروط نظرًا لبعدهم عن زمان الفصاحة السليقية ولخّصوها فيما يخص الفصاحة في ثلاثة مقاييس وهي كالتالي:

1- الخلوص من تنافر الحروف

2- عدم الغرابة

3- عدم المخالفة للقياس اللغوي[35] (المزهر /185)[36].

فالفصاحة بهذا التحديد وإن كانت شرطا لحصول البلاغة ليست هي البلاغة عند البلاغيين فالبلاغة هي شيء آخر غير هذه الصفات الثلاث.

فقد ذكر أبو هلال العسكري السابق الذكر أن: «البلاغة كل ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنك في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن» (نفس المصدر8). والفرق الكبير الذي يفترق به هذا التصوّر عما جاء به عبد القاهر الجرجاني

---

(35) - القياس اللغوي مفهوم ظهر عند المتأخرين من اللغويين والنحاة ويعنون بذلك: حدّ الكلام المستعمل بالفعل القياسي والسماعي (انظر التهانوى1181).

(36) - انظر القزويني في الإيضاح.

يوجد في تمكين المعنى في نفس السامع لا«مع صورة مقبولة» **بل بهذه الصورة نفسها** أي بانتظام خاص للفظ وقد قال الجاحظ قبل: «إنما الدلالات في بنية الكلام نفسه فصورة الكلام هو الإرادة والقصد» (الحيوان/180).

وكثيرا ما أدى استعمال لفظة الفصاحة بمعنى البلاغة إلى الجدل بين البلاغيين. وقد استعمل عبد القاهر الجرجاني الفصاحة بمعنى البلاغة مثل القاضي عبد الجبار إلا أنه نبّه على أنه لا يريد بهذا اللفظ عندما يبحث عن دلائل الإعجاز ما يريده منه علماء العربية إذ قال: «ولم يعلموا أن المعنى في وصف الألفاظ المفردة بالفصاحة أنها في اللغة أثبت وفي استعمال الفصحاء أكثر أو أنها أجرى على مقاييس اللغة والقوانين التي وضعوها». (دلائل الإعجاز، 352-353) (وسبق أن ذكرنا هذا الكلام). وكل هذا الذي ذكرناه من معاني الفصاحة عند علماء البلاغة فهو خاص بهم ولا دخل للفصاحة السليقية فيه.

الخلاصة: حقيقة الفصاحة اللغوية كمقياس وقيمة هذا المقياس العلمية

إن الفصيح في لغة من اللغات قد يكون اكتسب فصاحته أي ملكته الخاصة بها بالتلقين أو باللجوء إلى معلّم إمّا لأنه لم يكتسب هذه اللغة من بيئته التي نشأ فيها فهذه اللغة ليست هي لغة منشإه. وقد تكون هذه البيئة التي نشأ فيها يتكلم أفرادها بعربية قد ابتعدت قليلا أو كثيرا عن اللغة التي نزل بها القرآن وهي لغة العرب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ وكل من اكتسب العربية مثلهم ولم تتغير على ألسنتهم . فالذين ابتعدت لغة بيئتهم الأولى عن هذه اللغة ثم اكتسبوا فصاحة بأي طريقة كانت فليسوا هم الذين قصدهم سيبويه ومن جاء قبله من العلماء. أما الذين قصدهم بالفعل وأخذ هو وأصحابه بلغتهم فهم العرب الذين كانوا اكتسبوا، كما قلنا،اللغة التي ينطقون بها -في سائر أوقاتهم- من بيئتهم الأولى التي لم تبتعد لغتها عن عربية القرآن وكل العرب الذين كانوا مثلهم. فهؤلاء كانوا أصحاب السليقة الفصيحة.

ولا دخل للبلاغة وحسن التعبير في ذلك وحتى طلاقة اللسان في أبسط أحوالها. فقد يكون المأخوذ منه مصابا بعيب في نطقه كأن يكون ألثغ وقد يكون عيّا فإن سلمت لغته بمعنى أنها لم تبتعد عن لغة القرآن وفصحاء العرب فهو ممن كان يجوز الأخذ بلغته وهذا لايسمّى

فصيحا أبدا عند علماء البلاغة الذين ظهروا بعد سيبويه إلا إذا قصدوا الناطق السليم اللغة فقط كما اصطلح على ذلك علماء اللغة الأولون. وقد سبق أن رأينا أن عبد القاهر الجرجاني وهو من الذين استعملوا هذا اللفظ بمعنى البليغ، قد نبّه على أن للفصاحة مدلولا آخر يقصده النحويون واللغويون إذ قال: «ولم يعلموا في وصف الألفاظ المفردة بالفصاحة أنها في اللغة أثبت»... أو أنها أجرى على مقاييس اللغة» (دلائل،353).

فهذا تحديد علمي دقيق : اللفظ الفصيح هو كل ما ثبت وجوده –وسمعه أكثر من باحث– في كلام هؤلاء الفصحاء الذين لم تتغير لغتهم أي اللفظ الذي **ينتمي** إلى كلامهم والعكس أي ما يسميه بعضهم بالفاسد من الكلام (اللحن عند العلماء) فهو الذي لم يُسمع من هذه الجماعة، زيادة على عدم وجوده في القرآن، **فليس إذن من كلامهم**. فمفهوم اللحن بهذا التحديد هو مفهوم موضوعي إذ لا يرتبط بذوق الفرد ولا بمعيار طبقة اجتماعية معينة فهو خروج عما تعرفه الجماعة الناطقة باللغة المعنية من كلامهم ليس غير.

أما من اكتسب فصاحته بعد نشأته على لغة أخرى أو عربية مغيرة عن لغة القرآن مثل الكثير من الشعراء الذين ظهروا في زمان سيبويه فكان العلماء يمتنعون من الأخذ بلغتهم – على فصاحتهم– **لأن الفصيح غير السليقي– في أية لغة كانت وأي زمان– غير مأمون عليه الخطأ** إذ قد تعاوده لغة منشأه– العادة الأولى كما يقول الجاحظ– بمجرد ما يعتريه أدنى استرخاء واسترسال في كلامه. وليس خاصا بالعربية **فمقياس الفصاحة، بهذا المعنى، هو مقياس علمي** دقيق يعمل به العلماء في زماننا في البحوث اللغوية الميدانية وفي علم تعليم اللغات ويقابله بالتقريب في الإنكليزية عند علماء اللسان، ما يسمى عندهم الآن بـــ: Native Speaker[37].

هذا ولا يتصور علميا أن يُلجأ إلى غير الـــ Native Speaker الباحث اللغوي الموضوعي الذي يريد أن يصف لغة أو لهجة معينة إذا كانت محدّدة جغرافيا واجتماعيا.فكيف يمكن أن يُلجأ إلى أفراد يكونون قد تعلموا هذه اللغة بعد نشأتهم على لغة

---

(37) – أي الناطق بلغة منشاه.

أخرى مع وجود العدد الكافي ممن يتكلم هذه اللغة منذ صباهم أو يلجأ إلى أحدمنهم هجر المجتمع الذي يتكلم هذه اللغة وعاش في مجتمع آخر لمدة طويلة. فأهم شئ في اختيار المورد (الذي يؤخذ بلغته) **هو تمثيله من حيث اللغة للجماعة التي تتكلم بهذه اللغة** [38].

ورأينا أيضا أن للفصاحة درجات فهناك الفصيح والأفصح وهذا لايمكن أن ينطبق على السلامة اللغوية فمن لم تسلم لغته أي من تغيّرت قليلا أم كثيرا لا يؤخذ بلغته فالذي تبين لنا من معنى الفصيح والأفصح أن بعض الألفاظ أو العبارات التي سمعت من فصحاء العرب كانت مشتركة بين الجميع وبعضها لم تحظ بذلك بل انحصر استعمالها في عدد كثير أو قليل من الأفراد أو في جماعة واحدة معينة فالأول هو أفصح من الثاني عند النحاة ويسمّى الثاني إذا انفردت به جماعة من قبيلة أو من عدة قبائل لغة عند من جاء بعد سيبويه وهو فصيح والآخر أفصح لأنه أدور على ألسنة العرب الفصحاء وبالتالي **هو أوضح وأبين** وسيبويه يقول خاصة : هو **أعرب**.

فالوضوح الناتج عن الشيوع واتساع رقعة الاستعمال جغرافيا هو جانب آخر هام يستلزمه مفهوم الفصاحة اللغوية كما تصوّرها العلماء الأولون أمثال سيبويه وشيوخه. وهذا أيضا هو في غاية الموضوعية فاللغة ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى **فلايتصور أن يختار من اللغة كمعيار** أي كنمط **إلا مايمثل هذه اللغة حق التمثيل وهو الأكثر الشائع** وما يكثر مجيئه على ألسنة الجماعة التي تنطق بهذه اللغة مع الاهتمام بما قل ذيوعه في استعمال الفصحاء والتنبيه عليه. فهذا هو معنى قول سيبويه: «هذا عربي أو هذا عربي كثير أو هذا أكثر وأعرف». وسنتناول هذا الموضوع بالتفصيل عند كلامنا عن السماع.

أما تأويل بعضهم لما قصده النحاة من كلمة الفصاحة **بالصفاء** بمعنى الخلوص من العناصر والصفات اللهجية -كما يراه المستشرق بلاشير بصفة خاصة- والتمسك باللغة

---

(38) – هذا ينطبق حتى على اللغة التي اختلطت بغيرها مثل العاميات إذا صارت لغات قائمة برأسها فالخطر هو في اختيار المورد الذي لا تمثل لغته إلا قليلا لغة الجماعة التي قصدها اللغوي. هذا وأما كلمة «مورد» فقد أخذناها من كتاب الخصائص لابن جني فهو يكثر من استعمال هذه المادة ومشتقاتها: «لم يرد في استعمال» «فإياك أن تخلد إلى كل ما تسمعه بل تأمّل حال **مورده**» (2،10) «وكان ما أوْرده» (1،385) و«وُجد من طريق في تقبّل ما يورده» (387). في الإنكليزية هو عند اللسانيين: informant. والمورد ليس بالضرورة راويا.

الأدبية دون اللهجات، فهذا يكذّبه كل ما جاء عند المؤسسين للنحو العربي والدراسات اللغوية العربية من أقوال وأحكام تدلّ كلّها على اعتمادهم فقط على **الكثرة والشيوع للعناصر اللغوية** عند من لم تتغيّر لغته إذ كل **من تغيّرت لغته صار إلى لغة أخرى**. فالخلوص ينطبق منهم على كل ما يُسمع وعدمه يخصّ كل ما ليس من كلام العرب: ما **لاينتمي إلى لغتهم** وأما العناصر اللهجية التي ينطقون بها فهي من لغتهم –وإن قلّ بعضها– وقرئ بها القرآن فكيف يردّها من وقف نفسه لدراسة العربية لغة القرآن؟. وسنتعرّض لهذا الموضوع في كلامنا عن أسطورة اللغة الأدبية المشتركة إن شاء الله.

وقد ذهب بعضهم في زماننا إلى أن «الفصاحة فصاحات ولا ينبغي أن تتقيد بزمان أو مكان» نعم : كل لغة يمكن أن يعتبر أصحابها فصحاء إذا لم تتغيّر لغتهم وهم عند أهل الاختصاص في زماننا : الـــ Native Speakers كما سبق أن قلنا وهم يمثلون الجماعة اللغوية الذين ينتمون إليها حق التمثيل. إلا أن هذه الفصاحة المقيدة بلغة من اللغات هي **بهذا السبب مقيدة بزمان ومكان** كما أن لكل لغة ناطقين معينين يقطنون أماكن معينة فكيف لا تقيد الفصاحة اللغوية بمكان ولا زمان؟ والفصاحة عند النحاة العرب هي مقياس يتبين به بقاء الناطق بالعربية على معيارها وهي لغة القرآن وكلام من نزل بلغتهم ولم تتغيّر لغتهم. ومعيارها هو نظامها النحوي الصرفي أساساً. وإذا أراد الباحث أن يصف نظاما لغويا معينا فلابد أن يلجأ إلى السليقي من الناطقين وإلى النصوص الصادرة منهم **وإلا خلّط بين ما هو من هذا النظام وما لا ينتمي إليه**. وله أن يصف علمياً النظام الذي تغيّر وليس له أن يدّعي أنه نفس النظام **فالتحوّل اللغوي مقيد بالزمان والمكان** كما أن اللغة وفصاحة أصحابها مقيدة بالزمان والمكان. فلا يجوز أن نصف فرنسية القرن الرابع عشر وندخل فيها ما صارت إليه في القرن الخامس والسادس عشر: فهما نظامان مختلفان[39] كما بيّنه العلماء وبالتالي لغتان مختلفتان. وكل لغة يصيبها تحوّل خاص بها وقد لا يصيبها ما يصيب غيرها.

---

(39) – أما اختيار معيار في الحياة فهذا شيء آخر يخص الشعب وحده وفيما يخص التجديد والنمو اللغوي فلا علاقة له بالتحوّل الخاص بالنظام بل يتم بالقياس على المسموع.

الفصل الثاني

المقاييس المكانية الزمانية للفصاحة السليقية

I - المرجع الزماني المكاني الأساسي

عرفنا إلى الآن أن فصحاء العرب هم الناطقون بالعربية الذين لم تتغير لغتهم بالنسبة لغير الفصحاء وأخذت منهم اللغة واعتنى النحويون واللغويون الذين قاموا بذلك بالتمييز الصارم بين ما كان كثيراً في الاستعمال يعرفه **جميع العرب الفصحاء** وهو الجزء الأكبر مما دوّنوه كما سنبينه فيما بعد وبين ماكان يعرفه ويستعمله أكثرهم أو أقلهم. والذين قاموا بذلك - وينبغي ألا ينسى ذلك- **هم العلماء الذين شافهوا مباشرة هؤلاء العرب** بل وقضوا جل حياتهم في وسطهم. وإن كان يمكن أن لا نثق بأحدهم فإنه لا يعقل أن يشك أي واحدفي صحة ما نقلوه إلينا **إذا أجمَعوا على ذلك.**

فمن كان هؤلاء الفصحاء من العرب؟ وأين كانوا موجودين وفي أي أرض من شبه الجزيرة العربية كانوا يقطنــون ثم فوق كل شيء في أي عصر أو أي عصور كانوا يعيشون؟ أو بعبارة أخرى **أين ومتى كانت هذه الفصاحة السليقية حاصلة** بالفعل عند الناطقين بالعربية ومن كان يتصف بذلك آنذاك وعبرالزمان.

لقد **قال بعض الباحثين** في زماننا هذا إن العربية **أخذت كلها من أهل البدو** في زمان معين من بعض القبائل دون بعض و**أن جل ما اعتمد عليه اللغويون من ذلك كان شعرا.** والذي دوّنوه كان خليطا بين «اللغة المشتركة الأدبية» واللهجات ويعتقدون أرسخ الاعتقاد أن اللغة التي كانوا يتخاطبون بها يوميا هي اللهجات دون أي لغة أخرى (وهناك من يلطف من هذا القول الجازم). فما هي الحقيقة وما الذي كان حاصلا بالفعل؟

وللوصول إلى معرفة ذلك فلا بد من أن نتصفح بادئ ذي بدءٍ وبكيفية شاملة جميع الأقاليم والقبائل التي وصل إلينا منها الكلام الذي دوّنه العلماء ابتداء من نهاية القرن الأول واستشهد بجزء منه علماء العربية وأكثره من الشعر فيما يخص الفترة القدمى. ثم إنّ هذا الفصيح المكاني الزماني يمكن أن يكون ممثلا على شكل رسم بياني أي بمحورين (أو إحداثيات) يلتقي أحدهما بالآخر في نقطة صفر ويمكن من الآن أن نحدّد هذا الصفر بالنسبة لتطور الفصاحة الخاصة باللغة العربية فهو ما أشار إليه العلماء القدامى. فقد جاء في كتاب «طبقات [فحول] الشعراء» للجمحي أنّ: «**العربية التي عناها** محمد بن علي، [هي] **اللسان الذي نزل به القرآن وماتكلمت به العرب على عهد النبي** صلى الله عليه وسلم وتلك عربية غير كلامنا هذا»(10/1). **فالفصاحة هي في الأصل الملكة اللغوية الخاصة بالذين يفهمون وينطقون باللغة التي نزل بها القرآن** وهم كمرجع زماني مكاني (=نقطة صفر) أولئك الذين عاشوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فكل من كان يوصف بالفصاحة ويؤخذ بلغته فمرجع فصاحته في الزمان والمكان **هو فصاحة هؤلاء العرب وكل من سبقهم ممن وصل إلينا منهم كلام رواه الفصحاء وكل من جاء بعدهم من هؤلاء الفصحاء** ومقياس فصاحتهم ألاّ تكون تغيرت لغتهم السليقية بالنسبة للغة القرآن.

هذا وإن نحن رجعنـــا إلى ما قاله بعض معـــاصرينا فإننا رأينا هم اهتمـــوا كثيرا -بحق- بالبحث عن«القبائل الفصيحة». فقد ذكروا بهذا الصدد مقالا للفـــارابي (الفيلسوف) حول من أخذت عنهم العربية ومن لم تؤخذ منهم. ونقل السيواطي نصا ينسبه إلى الفارابي ننقله ههنا: «الذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أُخِذ اللسان العربي من بين القبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا ومعظمه وعليهم **اتكل في الغريب و**في الإعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملةلم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم فإنهم لم يؤخذ من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط ولا من قضاعة ولا من غسّان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية [1] ولا

---

(1) - في الأصل : بالعبرانية

من تغلب ولا نمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجـــاورين لليونانية ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس ولا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ولا حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم» (المزهر، 212-211/1).

هذا وقد وصل إلينا كتاب الفارابي وحقّق ونشر في الحقبة الأخيرة[2] ومن العجيب أن يكون الأصل الذي اقتبسه السيوطي أقصر بكثير مما هوفي المزهر وها هوذا: «وأنت تتبيّن ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء. فإن فيهم سكان البراري وفيهم سُكَّان الأمصار. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين. وكان الذي تولّى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من ارض العراق. فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون الحضر ثم من سكان البراري من كان أوسط بلادهم ومن أشدّهم توحّشا وجفاء وأبعدهم إذعانا وانقيادا. وهم قيس وتميم وأسد وطئ ثم هذيل. فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب. والباقون فلم يؤخذ منهم شئ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر» (كتاب الحروف 147).

فقد زاد السيوطي أو غيره أسماء القبائل التي لمّح إليها الفارابي أما المعنى فلم يتغير على العموم.

فالذين تنبّهوا إلى أهمية هذا النص من المحدثين - وخاصة نص المزهر-كان منهم من لم يفهم كيف تذكر قبائل مثل إياد وتغلب وقضاعة وبكر وغيرها وقد استشهد العلماء القدامى بشواهد تنسب إلى شاعر واحد على الأقل ينتمي إلى إحدى هذه القبائل مثل أبي دؤاد الإيادي

(2) - بعنوان. كتاب الحروف تحقيق محسن مهدي. دار المشرق. بيروت. 1986

والمهلهل والأخطل وغيرهم. وبعضهم فهموا من كلام الفارابي أنه يقصد فترة معينة من عصور الاستشهاد هي الفترة التي فرّقوا فيها بين البادية والحضر وتْرك فيها أهل الحضر وأفراد من القبائل كان مكوثهم في المدن قد طال. أما ما نقله العلماء قبل هذه الفترة المعينة فلا يشير إلى ذلك هذا النص ولم يميّز الفارابي في الواقع بين هذا العصر الذي امتنع فيه العلماء من النقل من هذه القبائل –وهو ما بعد القرن الثاني الهجري– وما جمعوه بالفعل قبل ذلك. هذا ولابد من التنبيه على أن ما نقل عن هذه القبائل لم يكن كله **صادرا من أفرادها أنفسهم** في عصر واحد بل شمل أيضا ما كانت ترويه هذه القبائل عمن كان قبلهم في عصور سالفة **فالحق أن ليس هناك عصر واحد أخذت اللغة ممن عاش فيه ودوّن كلامهم بل عصور متتالية** وجدت فيها الفصاحة السليقية. والذي ربمالم يلتفت إليه أكثر الباحثين أن الأماكن التي أقام فيها الفصحاء **لم تبق هي على حالة واحدة على ممرّ هذه العصور**. فكل من الفصاحة السليقية والتدوين للغة الفصيحة تغيّر مع مرور الزمان فأراضي الفصاحة لم تكن عامرة بالفصحاء ابتداءً فقط من شروع العلماء في تدوين كلام الفصحاء فالفصحاء أقدم من ذلك **بدليل استشهاد النحاة بأقدم الشعر كشعر المهلهل وامرئ القيس**. ولم تكن رقعة الفصاحة السليقية في القرن الأول والثاني والثالث والرابع بنفس الاتساع والامتداد. ثم لم يظهر اللحن إلا بعد ظهــور الإسلام(3) وهذا اللحن هو الذي يقصده علماء اللغة والنحو وليس هو الغلط الذي كان هو أيضا يعتبره العرب الفصحاء لحناً قبل ذلك الزمان **إذا كان قليلا جدّا على ألسنة العرب** وربما صار منه صوابا لغويا بعد أن انتشروعمّ على ألسنة جميع العرب الفصحاء (ليس إلا) قبل الإسلام وبعده إلى غاية اختفاء السليقية(4). فالعلماء أخذوا مباشرة لا بالرواية فقط عن الكثيرمن القبائل التي ذكرها الفارابي كالذي دونوه مباشرة من الشعراء الإسلاميين الأولين. فهذا أبو عمرو بن العلاء قد بدأ عمله التدويني مبكرا جدا وعاصر كبار الشعراء الأمويين وبُعَيده المفضل الضبّي ويونس بن حبيب وأبو الخطاب وغيرهم وسنتعرض فيمايلي إلى بعض الحقائق فيما يخص الفصاحة ونحاول إثباتها بالأدلة التاريخية وغيرها.

---

(3) – ظهورا جليّا وواسعا.

(4) – نبّه على وجوده علماؤنا و هو الذي يسمونه بالغلط أو التوهّم .ولم يعتبروه خطأ و لحنا كما يعتقد بعض معاصرينا (إذ العبرة بكثرة الاستعمال على ألسنة الفصحاء).

II – ثلاث حقائق يجب الانتباه إليها :

1– لم تكن الفصاحة مقصورة في القرنين الأول والثاني على أهل البدو:

والذي سنتأكد منه قريبا هو أن في زمان أبي عمرو بن العلاء لاسيما في شبابه كان أكثر العرب باقين على فصاحتهم في البدو والقرى معا وهو غير زمان أبي حاتم وزمان الجاحظ والمبرد **إذ كانت رقعة الفصاحة العفوية في بداية القرن الثاني يعيش الكثير من أهلها كما سنراه، في الحواضر** بل قد وُلد وترعرع في الكوفة والموصل بعض من استشهد بكلامهم ولا ننسى أن الكوفة والبصرة (بنيت الأولى في سنة 17والثانية في 17أو 18)كان سكانها من مختلف القبائل وكانوا من فصحاء العرب وكان منهم شعراء وخطباء استشهد بكلامهم العلماء كما استشهدوا بكل فصيح من أهل الحضر **في ذلك الزمان** ولذلك أمثلة كثيرة جدا تخص كل من نشأ في الحضر من العرب واستشهد بكلامه – وكلهم من القرنين الأول والثاني– نذكر منهم: الأخطل الذي ولد في الحيــرة أو الرصـــافة وترعرع في ضواحي الحيرة وأعشى همدان الكوفى وأبو الطفيل الكناني الذي عاش بالكوفة وأبو الأسود الدؤلي ومسكين الدارمي فهم **من أهل العــراق**. وكل الشعراء والخطباء الذين ولدوا أو نشأوا بمدن الحجاز قبل النصف الثاني من القرن الثاني مثل عمر بن أبي ربيعة والأحوص وغيرهما كثيرون. وكل هؤلاء استشهد العلماء قاطبة بشعرهم وكلامهم من بصريين وكوفيين ومنهم من لم يرقط البادية بل قد وجد منهم من عاش في بلاد العجم واستشهد بشعرهم وذلك مثل أبي الهندي الرياحي الذي عاش في خراسان. فكل هؤلاء اعتبر فيهم مقياس البقاء على ملكتهم اللغوية وعدم تغيرها (بالنسبة للغة القرآن ولغة عامة العرب الفصحاء) وسنتكلم عما وقع في القرن الثالث والرابع من التخليط والاضطراب فيما رووه عن العلماء وأعمالهم في ذلك الزمان الغابر (وما قيل من الأباطيل حول ذلك في كتب الأدب والطبقات).

إن رقعة الفصاحة السليقية تغيّرت كما قلنا بمرور الزمان وهو تغيّر تاريخي طبيعي حصل لأسباب تاريخية اجتماعية ديموغرافية مثل تنقل القبائل واستيطانها أراضي غير أراضيها الأصلية وذلك قبل ظهور الإسلام وبعده إلا أن أعظم حادث سبّب التغيّر العميق هو

ظهور الإسلام وانقسام الناطقين بالعربية بعد ذلك- بعد الجيل الأول لا قبل- إلى من بقي على ملكته اللغوية من الآباء والأبناء وكانوا كثراً في القرن الأول وإلى من تأثر بكلام العجم من سكـــان المدن وكل من لم تكن فيه هذه الملكة سليمة إلا من بعض الجوانب كالمولدين من العرب والعجم وفي ذلك طبعا درجات.

2- لم تكن الفصاحة مقصورة على القدامى من العرب:

فاختيار النحاة لهذه العصور ورفضهم غيرها ثم اختيار بعض الأماكن في القرن الثالث والرابع ورفضهم غيرها بعد أن كانت مقبولة لديهم فيما وصل إليهم من النصوص المنتمية إلى ما قبل زمان التدوين لدليل على أن المقياس الوحيد عندهم هو بقاء الملكة اللغوية العفوية العربية عند بعض العرب وتغير هذه الملكة عند غيرهم على ممر العصور لا في عصر واحد. **ولم يكن المقياس التمسك بالقديم** على الاطلاق **فالقديم أمر نسبي فالعلماء الأولون كانوا يأخذون اللغة من معاصريهم** من فصحاء العرب ويمتنعون من ذلك بالنسبة إلى من هو أقدم ممن تغيّرت لغته كبعض من ذكرهم التاريخ[5] فاللحن الطارئ بعد ظهور الإسلام قديم إذ ظهر في زمان الصحابة رضي الله عنهم إلا أنه لم يشمل في العصر الأول إلا بعض أبناء الفصحاء الذين تأثروا بلغة العلوج من الخدم والإماء. فأكثر سكان المدن من العرب وممن نشأ في بيئة عربية كما قلنا كانوا باقين على فصاحتهم في هذا العصر بدليل كثرة من استشهد بكلامهم من أهل الحضر حتى نهاية النصف الأول من القرن الثاني.

أما ماروى الجاحظ عن الأصمعي وهوقوله: «جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ما سمعت يحتج ببيت إسلامي» (البيان 321/1) فقد سبق أن ذكرنا عددا من الأبيات لشعراء إسلاميين رواها أبو عمرونفسه واستشهد بها ولم يقل مثل هذا الذي رواه الجاحظ أي عالم من العلماء قبل الجاحظ (وكذلك كل الخرافات والحكايات التي حيكت حول استهتار أبي عمرو وخلف بالقديم وأكثرها ذكرها صاحب الأغاني).

---

(5) - أخذوا مثلا من ابن هرمة ولم يأخذوا من بشار.

3- لم تكن الفصاحة مقصورة على العرب الأقحاح :

هذا وادعى بعضهم أن مقياس الفصاحة كان أيضا «عنصريا» بدعوة أنّ الأعجمي الأصل لا يمكن أن يبلغ ما يبلغه العربي الأصيل من القدرة على التعبير الفصيح وهذا وإن كان ينطبق غالبا على كل من نشأ في بيئة أعجمية فهو غير صحيح بالنسبة للعربي المنشأ من العجم. وهذا الذي زعموه في زماننا هو وهمٌ خطير جدا لانتشاره في جميع أوساط الباحثين إلى عهد قريب جدا.ويكفي لدفع ذلك والرد عليه أن نذكر أسماء الشعراء الذين **كانوا من أصل غير عربي واستشهد بشعرهم كل اللغويين** لا لشيء إلا لأنهم **اكتسبوا الفصاحة بالعربية في صباهم** فلم تكن لهم لغة غيرها (ولم تكن هناك لغة أخرى تؤثر فيهم) فقد كتب لهم أن **ينشأوا في بيئة عربية فصيحة** (اكتسب من فيها هم أنفسهم من آبائهم بكيفية عفوية). نذكر منهم المنتجع بن نبهان وهو سندى الأصل سبي صغيراً وكبر في وسط فصيح من بني تميم (أنظر فيما يلي قائمة الشعراء الفصحاء من الموالى وأبنائهم).

وكل هذا سيظهر بوضوح كامل بعد تصفحنا لكل من سجّل شعره أو أكثرهم.

هذا وسنحاول أن نحدّد هذه الأراضي الفصيحة ومن كان فيها من القبائل والأشخاص الذين دوّن كلامهم نظما أو نثرا ممن كان ينتمي إلى تلك القبائل أو تلك الأراضي عامة وذلك من أقدم العصور إلى العصر الذي اختفى فيه أصحاب الملكة العفوية.

وعلى هذا سوف نعتمد في تحديدنا لأراضي الفصاحة عبر الزمان على وجود نصوص صدرت من أهل كل واحدة من تلك الأماكن ودوّنها العلماء. فكانت بذلك مع القرآن الكريم وكلام العرب المدوّنة الكبيرة (corpus) التي أطلق عليها اسم «المسموع» أو«السماع» وهي التي يعتمد عليها النحاة كمرجع موثق. فكلما قالوا : «هذا عربي كثير أو أكثر وأعرف وذاك لا يقوله العرب أو لا يكاد يقوله أحد» فمرجعهم في ذلك هو سماعهم من فصحاء العرب. وسنحلل فيما يلي هذا المفهوم كما تصوروه إن شاء الله.

III – التطور الزماني المكاني للفصاحة:

إن النصوص التي تنتمي إلى أقدم العصور في الجاهلية أكثرها من الشعر. أما النثر فقد كرّم الله سبحانه العربية بنص عظيم من أصحّ ما يكون تاريخيا **وهو القرآن** الكريم (مصحف عثمان والقراءات المجتمع عليها) وختمت هذه الفترة به وآذن بدخول فترة لغوية جديدة مغايرة لما سبقها وهو الذي دعت حاجة المسلمين إلى المحافظة عليه من حيث اللغة وبالتالي تمكين المسلمين من فهم معانيه ثم إلى تأسيس هذه الحركة العلمية اللغوية التي لم يشاهد مثلها في تاريخ الإنسانية من حيث جودة الإنتاج وضخامته.

فمتى يا ترى، ظهر الشعر عند العرب بالعربية التي نزل بها القرآن وأين حصل ذلك ؟

يقول أهل الاختصاص من علمائنا القدامى إن أقدم الشعراء الذين وصل إليهم بعض ما أنتجوه ينتسب أكثرهم إلى قبيلة بكر وتغلب (من ربيعة) وجاء بعدهم شعراء بني تميم وقيس أو غطفان (وكلهم من مضر). وكانت منازلهم في نجد: اليمامة إلى شواطئ الفرات والبحرين: وأما عامر بن صعصعة من قيس فكانت منازلهم في غربي نجد إلى منطقة رانية وقبيلة كلاب هجرت نحو الشمال إلى غاية حمى ضرية.

يقول ابن سلام الجمحي بهذا الصدد : «**كان شعراء الجاهلية في ربيعة** أولهم المهلهل والمرقشان وسعد بن مالك وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة والحارث بن حلّزة والمتلمّس والأعشى والمسيّب بن علس».

«ثم تحوّل الشعر **في قيس** فمنهم النابغة الذبياني وهم يعدّون زهير بن أبي سلمى من عبد الله بن غطفان وابنه كعب ولبيد والنابغة الجعدي والحطيئة والشماخ وأخوه مزرد وخداش بن زهير ثم آل **الىتميم** فلم يزل فيهم إلى اليوم» (الطبقات، 40).

فما يقوله ابن سلام صحيح فكل الذين ذكرهم أوّلا هم من بكر وتغلب وهم من أقدم الشعراء ولكن لا ندري لماذا لم يذكر معهم شعراء القبائل القحطانية مثل طئ وكندة وكلب وغيرهم.

1) الشعراء الأوائل ومشكلة اللغة القديمة :

هذا وقد استشهد العلماء وخاصة سيبويه بشعر نسبوه إلى **شعراء من القرن الثالث الميلادي** وذلك مثل ما ذكره سيبويه من شعر جذيمة الأبرش وهو شاهد واحد:

ربما أوفيتُ في علم ترفَعَنْ ثوبي شمالاتُ

ولا يمكن أن نشك في وجوده التاريخي فقد ورد اسمه في نقش أم الجمال بالنبطية واليونانية يقول: «هذا موضع (أي قبر) فهر بن سلمى مربي جذيمة ملك تنوخ». هذا وقد ذكر اسمه في الكثير من الأشعار والقصص العربية. وعلى هذا يبدو أن كلام ابن سلام فيه شيء من التغافل عن الشعراء العرب الذين عاشوا في أقدم الأزمنة[6] والحق غير هذا.فقد ذكر ابن سلام نفسه اسم جذيمة الأبرش وعددا من هؤلاء الأوائل (ص 26-38) ورأيه في ذلك أن هؤلاء «الأوائل لم يكن لهم من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته وإنما قصّد القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف وذلك يدل على اسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبّع» (26). «ويؤكد أن أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل» (39). وروى ثعلب في مجالسه عن الأصمعي نفس الملاحظة : «أول من تُروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر مهلهل ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ثم ضمرة رجل من بني كنانة والأضبط بن قريع» (479/2-480). وأجمع العلماء على أن بعض العرب سبقوا مهلهلا وامرأ القيس وأبا دؤاد وعمرو بن قميئة والمرقش في قول الشعر إلا أنهم لا يسمون شعراء عند بعضهم لقلة ما قالوه (انظر مثلا أبا أحمد العسكري في شرح ما يقع فيه التصحيف ص 426 وما بعدها).

ووصل إلينا هذا الشعر القليل وقد أنكر بعضه بعض العلماء القدامى وذلك مثل ماعزي الى جذيمة الأبرش. ذكر ابن الكلبي بعض ما نسب إليه وقال : «ثلاثة أبيات منها حق والباقي باطل» (في الطبري 613/1-614). وقال أبو زيد: «لا أعرف لجذيمة غير هذا البيت [الأول]» (النوادر،536-537). فليس كل ما نسب إلى هؤلاء «الأوائل» بصحيح ولا يمكن أن نعتبر ما نقله العلماء من ذلك جيلا بعد جيل إجماعا (إلا إذا تبيّن أنه غير منقول من بعضهم لبعض).

---

(6) - وذكر منهم الدكتور عادل الفريجات في كتابه «الشعراء الجاهليون الأوائل» أسماء لأربعين منهم برهن فيما يخص بعضهم على وجودهم التاريخي. أنظر مايلي .

2) أقدم ما وصل إلينا من الشعر بالعربية الفصيحة:

سبق أن ذكرنا الدراسة الممتازة التي قام بها الدكتور عادل الفريجـات في كتابه «الشعراء الجاهليون الأوائل» (بيروت 1996) فقد ذكر أسماء أربعين شاعرا افترض وجودهم ووجود مانسب إليهم من شعر في أغلبهم واستدلّ على ذلك ببعض الدلائل فبعضهم ينتمون إلى القرن الخامس الميلادي وبعضهم إلى القرنين الثالث والرابع نذكر منهم:

القرن الثالث الميلادي	**عدد ما وصلنا من أبياته**	**القرن الرابع**	**عدد ما وصلنا من أبياته**	**القرن الخامس**	**عدد ما وصلنا من أبياته**	**القرن الخامس والسادس**	**عدد ما وصلنا من أبياته**
جذيمة الأبرش الأزدي[1]	19	أعصر بن سعد بن قيس عيلان	3	كلاب بن مرة القرشي	2	كلدة بن عبد بن مرارة الأسدي	5
عمرو بن عدى بن نصير اللخمي[2]	10	عامر بن الظرب العدواني	8	حبشة بن سلول الخزاعي	2	المستوغر بن ربيعة السعدي	27
دويد بن زيد بن نهد القضاعي	9	العنبر بن عمرو بن تميم	3	أبو قلابة الهذلي	39	الفند الزماني	200
عمرو بن عبد الجن التنوخي	3	سعد بكرب الحميري	2	الأضبط بن قريع السعدى	19	زهير بن جناب الكلبي[1]	137

(1) – يضاف إلى هؤلاء أُحَيْحة بن جلاح (123 بيت) وهو مشهور.

ولابد من **ملاحظة هامة:** عدّ الدكتور الفريجات من الأوائل، كما قلنا، أربعين شاعرًا. ينتمي شعراء القرن الثالث الميلادي منهم إلى **قضاعة والازد ولخم وتنوخ** وكلهم من القحطانية التي هجرت إلى الشمال ومنهم مؤسسو مملكة الحيرة من الأزد ولخم. أما شعراء القرن الرابع فينتمون إلى: قيس عيلان (حفيد أعصر) وعدوان (حفيد قيس أيضا) وتميم (شاعران) وحمير. أما القرن الخامس ففيه شعراء من: قريش وتميم(2) وخزاعة وكنانة وهُذيل ومذحج. أما الخامس إلى السادس ففيه شعراء من: سعد (2) وتميم (3) ومازن (1) وبكر (3) وأسد (3) ويربوع (1) وخزاعة (1) وجرهم (1) ونهد (1) والأوس (1) وكنانة (1) وجعفي(1).

وقد ذكر علماء القرن الثاني وبداية الثالث من الذين كانوا من فرسان الميدان في الرواية للشعر واللغة أسماء بعض الأوائل منهم ابن سلام الجمحي.

وقال الدكتور الفريجات بعد أن تعرّض لكل ماقاله القدماء بهذا الصدد: «هناك ما يشبه الإجماع على أن الشعراء الأوائل جيلان : الجيل الأول يتقدم الثاني ولكن ممثليه لا يعدون، في عرف بعض العلماء، شعراء لأنهم لم يقولوا الشعر بعد الشعر ومنهم : خزيمة بن نهد ودويد بن زيد وأعصر بن سعد بن قيس عيلان...الخ. أما الجيل الثاني فهو الذي قصّد القصيد وأبرز ممثليه: المهلهل وزهير بن جناب وعبيد بن الأبرص وأبو قلابة الهذلي وسعد بن مالك والفِنْد الزِمَّاني...إلخ. وهؤلاء متقاربون في أزمانهم لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة النبوية الشريفة بمئة وخمسين سنة أو مئتي سنة في أبعد تقدير» (ص83).

هذا وإن نحن طبقنا المقاييس التي ذكرناها في مقدمتنا على هذه القائمة من الشعراء الأوائل وما وصل إلينا من أشعارهم أو ينسب إليهم من ذلك فيتّضح أنّ وجود بعض هؤلاء الشعراء مقطوع به تاريخيا وذلك مثل جذيمة الأبرش وعمرو بن عدي وأعصر بن سعد وكلاب بن مرة القرشي وأبو قلابة وغيرهم وأن وجود مثل خزيمة بن نهد وجدي بن الدَّلْهات وغيرهما غير ثابت مائة بالمائة. ثم إن وجود الشاعر تاريخيا لا يكفي كما قلنا لإثبات نسبة ما وصلنا من الشعر إليه والمقياس ههنا **هو إجماع العلماء الأولين الموثوق بهم على إثبات**

هذا الشعر أو بعضه لأحدهم. أما إذا لم يرد هذا الشعر عند أحد منهم وورد في كتب الذين تأخروا عن القرن الثاني وبداية القرن الثالث فهذا يحملنا على الشك في نسبة هذا الشعر. أما المبدأ العلمي الخاص باستحالة بقاء اللغة على ما هي عليه من النظام أكثر من أربعمائة سنة إذا لم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك فهذا يحملنا على الشك في صحة ما يحتوي عليه الشعر لفظا ودلالة إذا كان صاحبه ينتمي إلى القرن الثالث الميلادي وهذا لم يمنع فصحاء العرب من تناقله التناقل الواسع كالبيت الذي ينسب إلى جذيمة وهذا البيت حجة لا محالة لأن العلماء سمعوه من هؤلاء الفصحاء فحتى ولو تغيَّر اللفظ فيه من نظام إلى نظام آخر (أي من قياس إلى قياس آخر) فهو من كلام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم والمستشهد به إذن.

هذا وحان الآن أن نتطرق إلى تطور رقعة الفصاحة ابتداء من «أقدم من قصد القصيد» فسنتعرّض إلى كل فترة وما ظهر فيها من الشعراء(1) وما وصل إلينا منهم من الشعر فسنقسم هذا التطور على أربعة فترات هي كالتالي:

1- العصر الجاهلي المعروف

2- عصر المخضرمين وظهور الإسلام

3- عصر الإسلاميين وما بين الدولتين

4- ما بعد ذلك إلى اختفاء الفصاحة السليقية

فقد بدأ يكثر الشعر وتُطـوّل القصائد بداية من عصر المهلهل بشهادة العلماء الأولين الذين شافهوا فصحـاء العرب. فسنعتمد بالنسبة إلى العصر الجاهلي على توزيع الشعراء على القبائل التي ينتمون إليها وتوزيع هذه القبائل على المناطق الجغرافية التي نزلوها. وسنفعل كذلك بالنسبة إلى الإسلاميين.

---

(1) – أما سبب اعتمادنا على الشعراء مع قولنا باعتماد النحاة على النثر أكثر فلأننا نستطيع أن نعرف القبائل التي أخذوا منها بشعرائها الذين جمع أشعارهم النحاة واللغويون.

IV – التطور المكاني الزماني للفصاحة السليقية

ابتداء من زمان المهلهل:

الفترة الأولى : العهد الجاهلي (بعد الأوائل)

من زمن المهلهل إلى نهاية النصف الأول من القرن الأول قبل الهجرة:

وصل إلينا من ذلك العهد الكثير من الشعر حفظه رواة القبائل وتناقلوه جيلا بعد جيل حتى جاء اللغويون ابتداء من نهاية القرن الأول بعد الهجرة (في 90 هـ) فسجّل كل منهم جزءا منه ثم جاء علماء القرن الثاني وبداية الثالث فجمعوه على دواوين وحقّقوه مثل الأصمعي وأمثاله وآخرهم أبوسعيد السكّري وهم المصدر الأوثق في ذلك بعد النحاة الأوائل كالخليل وسيبويه.

I – العراق ونجد (بما فيه اليمامة) والبحرين [7] في الجاهلية

– من العدنانية :

أولا : قبائل ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان

– قبيلة بكر (بن وائل) وفروعها الهامة.

- هو بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان.
- **ومنها** : يشكر بن بكر وبنو شيبان وبنو حنيفة وبنو عجل وغيرهم.
- **أراضيها** : من اليمامة إلى البحرين فأطراف سواد العراق ومن جبالها: أسود والطور البرّي ومن أوديتها : الثرثار وسلمان.

---

(7) – شرق الجزيرة العربية.

المنسوب إلى بكر (وهم من بطون مختلفة لبكر) (بنو الحارث): منهم [8]

×البرك وهوعوف بن مالك و×*بشر بن عمرو (هرب إلى اليمامة) و× بكير أصمّ و×جَحْدر ابن ضبيعة (نحو 92هـ) و×جسّاس بن مرّة و×جهنّام البكرى (عمرو بن قطن) و×الحارث بن حِلّزة و×الحارث بن عُباد و×سعد بن مالك و*×طرفة بن العبد و×عمرو بن حباشة و×عمرو ابن ربيعة و×عمرو بن شراحيل و×عمرو بن شيبان و×*عمرو بن قميئة وعمرو بن لأي و× عمرو بن مالك وعمرو بن بياضة و×قيس بن ثعلبة ولجيم بن صعب والمسيِّب بن علس (20 شاعراً ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى يشكر بن بكر:

ومن شعراء يشكر: التَوْأم اليشكري معاصر لامرئ القيس و×باعثُ بن صَريم و×ثوب ابن النار و×راشد بن شهاب وزينب اليشكرية و×علباء بن أرقم وعمرو بن ثمامة وعمرو بن جبلة و×عمرو بن حلزة و×عمرو بن فُرصة وعامر بن الظَّربِ و×القعقاع بن النار و×المنخّل اليشكري (13 شاعراً ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى شيبان بن ثعلبة بن صعب بن علي بن بكر

ومن شعراء شيبان: أعشى بني عوف الشيباني و×جليلة بنت مرَّة و× الحُجيجة الشيبانية و× حمصيصة بن شراحيل و×الحارث بن همام و× الحَوفزان وخميصة بن جندل وعمرو بن زهرة وعمرو بن مسعود و×عبد المسيح بن عَسَلة وعمرو الأصم و×عمرو بن ثعلبة و×عمرو بن مرة وعمرو بن ناشرة و×العوّام الشيباني و×قيس بن مسعود و×مفروق بن عمر و×همّام بن مُرة و×مُرة بن ذهل و×مرّة بن همّام (20 شاعراً ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

---

(8) – علامة × معناها : له ديوان أو مكثر وبدون هذه العلامة: مقلّ
– علامة * : عاش في الحضر. بدون هذه العلامة : إما بدوي وإما مجهول الحال.

المنسوب إلى تيم اللات بن ثعلبة بن عكابة بن علي بن بكر

ومن شعراء تيم اللات: ×بجير بن لأي و×أبو كلبة التيمي و*البراق بن روحان (أقام بالبحرين) و×عُمير بن عِمارة التيميّ و×ابن زَبابة و×مجمَّع بن هلال و×شيبان التَّيمي ووزار التَّيمي (8 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر

ومن شعراء ضبيعة: حجر بن خالد و×الخِرنق بنت بدر و×عمرو بن مالك وعمرو ابن خالد وعمرو بن عصم وعمرو بن مرثد و×ذو الكف الأشلّ و×المرقّش الأصغر و×المتلمّس و*× المرقّش الأكبر ووائل بن شرحبيل (11 شاعراً ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى زِمّان بن تيم الله بن ثعلبة

ومن شعراء زِمّان: *×عصام بن عُبَيْد الزمّاني اليمامي و*×الفِنْد الزمَّاني (شاعران معروفان).

المنسوب إلى بني حنيفة بن لُجيم بن صعب بن علي بن بكر

ومن شعراء بني حنيفة: ×*الشَّمِرُ بن عمرو الحَنَفِيّ و×عمرو بن الذّارع و×عمرو بن شَمر وعمرو بن عبد العُزّى و×*قَتَادة بن مَسْلَمة (5 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى عجل بن لجيم (وهو أخو حنيفة)

ومن شعراء عجل بن لجيم: ×الأعزّ بن السليك و×حنظلة بن ثعلبة و×عمرو بن الحارث وعمرو بن عكَبّ و×عمرو بن شجيرة و×عمرو بن عبد الله وعمرو بن عبد الله المُراديّ و×كبد الحَصَاة و×المرار بن سلامة ويزيد بن حنظلة المكسِّر(10 شاعرًا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى سدوس بن شيبان بن ذهل

ومن شعراء سدوس: *قُراد السّدوسي وخُزَر بن لوْذان السدوسي (شاعران).

2- قبيلة تغلب بن وائل (أخو بكر)

كانت منازلها بالجزيرة الفراتية في أماكن تسمى سنجار ونصيبين كانت تعرف بديار ربيعة.

ومن شعراء تغلب: الأخنس بن شهاب وأفنون التغلبيّ وبشر بن سوادة و*جابر بن حُنَيّ والسفاح التغلبيّ وشبيب بن جُعيْل وعبد هند بن زيد و×عمرو بن كلثوم وعمير بن جعيل وأبو اللّحّام والمُهلهل بن ربيعة (11 شاعرًا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

3- قبيلة عبد القيس (بن أفصى بن دُعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة)

كانت منازلهم في الأول بتهامة ثم استوطنوا البحرين وسبقهم فيها قوم من بكر وتميم وكانت لهم علاقات سلمية مع ملوك الحيرة.

ومن شعراء عبد القيس: بِشر بن أبي عوانة العبديّ و×ثَعلبة بن عمرو العبدي: ثعلبة بن حزن وعمرو بن أسوى بن عِسّاس العبديّ وعمرو بن حَنْثَر العبديّ و×المثقّب العَبْديّ: عائذُ بن محصن بن ثعلبة والمخضّع القيسي والمفضّل النُكريّ: بن معشر بن أسحم والمُمَزّق العبديّ: يزيد بن حذّاق العَبْديّ.

ثانيا: قبائل مُضر (في العراق ونجد وشرق الجزيرة)

ولمضر ابنان : قيس عيلان (أوقيس بن عيلان) وإلياس

أ- قيس عيلان :

فمن قَيس بن عيلان بن مضر : أبناؤه الثلاثة : عمرو وخصفة وسعد. فمن عمرو تفرع فرعان : عدوان وفهم ومن خصفة : محارب وهوازن وسليم ومازن وهم أبناء منصور بن عكرمة بن خصفة.

وتفرع من هوازن : عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ومن هوازن أيضا ثقيف بن منبّه بن بكر بن هوازن ومنازل عامر في وسط نجد إلى الغرب وكانت تمتد

غربا من تُربَة مرورا برانية حتى تصل إلى جبال في جنوب الطريق المؤدية الآن من الرياض إلى مكة.

ومن بطون عامر : كلاب بن ربيعة بن عامر وأخوه كعب وقشير وعُقيل أبناء كعب وهلال بن ربيعة بن عامر.

ومن سعد بن قيس تفرع أعصر وغطفان ومن الأول باهلة وغني ومن الثاني أشجع بن ريث بن غطفان وعبس وذبيان ابنا بغيض بن ريث بن غطفان ومن ذبيان فزارة.

المنسوب إلى خَصَفة بن قيس

ومن شعراء خَصَفة : قَسِي بن مُنَبّه والكيذبان عمرو بن عدي (شاعران ممن ورد اسمهما في مختلف المصادر).

المنسوب إلى محارب بن خصفة بن قيس

ومن شعراء محارب : سهم بن مرّة (شاعر واحد).

المنسوب إلى عَدْوان بن عمرو بن قيس عيلان

منازلهم : الطائف من أرض نجد ثم غلبتهم عليه ثقيف فخرجوا إلى تهامة

ومن شعراء عَدْوان : *ذُو الإصبع العدواني:حُرثان بن حارثة (نحو 25 هـ) وعوف بن الغامديّة (شاعران).

المنسوب إلى سُليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس

منازلهم : عالية نجد قريبا من خيبر ولهم حرّة سليم وحرة النارين ووادي القرى وتيماء.

ومن شعراء سُليم : العبّاس بن ريطة وعَرعَرة بن عاصية ومعاوية بن عمرو ومعاوية بن مالك وهند بن خالد (5 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى فهم بن عمرو بن قيس

ومن شعراء فهم : ˣتأبّط شراً (ثابت بن جابر) وريش بن لغب والهيبّان (3 شعراء)

المنسوب إلى عقيل بن كعب بن أبي ربيعة بن عامر بن صعصعة (هوازن)

منازلهم: البحرين ثم انتقلوا إلى العراق ليسيطروا على الكوفة وتغلبوا على الجزيرة والموصل.

ومن شعراء عقيل: *دوير بن دؤالة و*عوف بن المنتفق و*كعب بن الحارث و*كعب بن أبي نُمَيْر (4 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن

منازلهم : السروات

ومن شعراء جُشَم : أبو حنش (عُصْم بن النعمان) وˣدُريد بن الصِّمَّة والصمّة الأصغر (أبو دريد معاوية بن الحارث) والصمّة الأكبر (بن الحارث بن المعاوية) (4 شعراء).

المنسوب إلى غنيّ بن أعصر بن سعد بن قيس

ومن شعراء غنيّ : ˣالطُّفيل بن عوف وعمرو بن أنس (شاعران).

المنسوب إلى باهلة بن سعد مناة بن مالك بن أعصر

منازلهم : اليمامة

ومن شعراء باهلة : ˣ* أعشى باهِلة (عامر بن الحارث) و*حَجْل بن نَضْلة و*الدعجاء بنت وهب و*القتّال الباهلي و*مالك بن زغبة و*مروان بن سُراقة و*حجل بن نضلة (7 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة

ومن شعراء عمرو بن عامر بن ربيعة : ˣ *خِداش بن زُهَيْر و*غزية بن جشم (شاعران ممن ورد اسمهما في مختلف المصادر).

المنسوب إلى جَعْدة بن كعب بن ربيعة بن عامر

ومن شعراء جَعْدة: وَرْد الجعدي (شاعر واحد)

المنسوب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر

منازلهم : حمى ضريّة وحمى الربذة وفدَك والعوالي

ومن شعراء كلاب: الأغلب الكلبي (بشر بن حزرم) وامرؤ القيس بن كلاب وحِناك بن كلاب وخالد بن جعفر وخُويلد بن نفيل والرحّال بن عتبة والعطّاف الكلبي وعُقيْل بن العَرَنْدس وعمرو بن البراء وعمرو بن حسان وعمرو بن خويلد وعمرو بن قُرَيط وعوف بن الأحوص ومعاوية بن مالك ويزيد بن الصَّعِق (15 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى قُشير

منازلهم: قرن قرية باليمامة ودار واسط وفلج

ومن شعراء قُشير: *الأبرق الحرِّي و*بُجير بن عبد الله و*بنت بجير بن عبد الله و*بهيج بن مسرور و*جَعْفر بن الربيع و*أبو جُلَيْحَة بن أحمد و*حُباب بن بكير و*خليفة بن عاصم و*ذو الرقيبة :مالك بن عامر و*رياح بن الأعلم و*زياد بن الأشهب و*عائذ بن نميّ و*عُبيد القشيري و*عُقْبة بن كلاب و*عَوسَجة بن نصْر و*عياض بن كلثوم و*الفارغة بنت معاوية و*القُرطيّ و*قُشير بن عُطيّ و*القعقاع بن ربيعة و*مالك بن معاوية و*المجنون القشيري : كهيل بن مالك و*المُسْتَنير بن طُلبة و*مُسلم بن عَسْكر و*مِصْقَع بن حسين و*معروف بن قدامة و*المنتجع و*ميمون بن عائذ و*معاوية بن قشير و*هُودان بن الوازع و*ابن الوَهل المُريحيّ (31 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس

ومن شعراء عبس: بشّار بن جُمانة وحِناك بن سنَّة والحارث بن زهير وخَراشة بن عمرو وطَرفة الجُذمي و×عروة بن الورد وعمرو بن الأسلع و×عنترة بن شدّاد ومُسافع بن حُذيفة العبسي ومضرحي بن حُريث و×الربيع بن زياد (11 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس

منازلهم : الأراضي الواقعة بين الحجاز وأجأ

ومن شعراء ذبيان: أربد بن شريح والأشعر الغطفاني :يزيد بن سنان و× بشامة بن الغَدير و×الحارث بن ظالم وحبيبة بنت عبد العزّى والحُصين بن الحُمام ودُريد بن حَرْملة والمثلَّم بن رياح ومعقل بن عوف ونابغة بني قتال و×النابغة الذّبياني وهاشم بن حَرْملة (12 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان

منازلهم : نجد ووادي القرى

ومن شعراء فزارة: بهيس بن هلال والحارثة بن بدر و×الربيع بن ضُبَيع وزبّان بن سيّار وشُتيم بن خُويلد وعمرو بن الجَوْن وعمرو بن سيّار وابن عنقاء الفزاري وقُراد بن حَنَش ومالك بن حمار ومبشر بن هذيل ومعاوية بن حُذيفة ومعاوية بن حصن وودعَان بن مُحْرِز (14 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

ب. إلياس بن مضر :

فمن قبائل إلياس التي كانت تقطن نجداً نذكر ضبة بن أدّ بن طابخة بن إلياس والرباب (ثور وعكل وتيم وعدي وعوف من بني عبد مناة بن أدّ ثم تميم بن مرّ بن أدّ).

قبيلة ضبة والرباب :

منازلهم : كانت بجوار تميم في شمال نجد.

ومن شعراء ضبة والرباب: أُبَيّ بن سُلمِيّ والأخضر بن هبيرة والأعنقُ بن الباهلية والبَراء الضَّـبِّيّ وحُديج بن حبيب وحران بن عمرو وحُسيل بن سُجَيْع والرّقاد بن المنذر وابن رُميلة : سعنة وزُهير بن مسعود وزَيد الفوارس وسُلَيمي بن ربيعة وأبو سُواج وشمعلة بن الأخضر وعجلان بن نكرة وعديّ بن أمية وعِصمة بن حُيَيّ وعلي بن زيد وعمرو بن الأسود وعمرو بن الحرّ وعوف بن عطية وقُرّان بن رُؤبة وقرواش بن حَواط والمثلَّم بن

عامر والمثلّم بن المُشجَّرة ومُحرز بن المكَعْبر والمِسجاج الضبّي ومُسهر بن عمرو ومعروف بن أبي هند ومعقل بن وهب ومنصور بن المسجاح والمنصف الضبي: يزيد بن عبد الله ومنفوسة بنت زيد وميّة بنت ضرار والمعرور التّيْمي وهلال بن رزين * ×حاجب بن زرارة (37 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى عكل

ومن شعراء عكل: مالك بن خِياط وعمرو بن وَدْعان (شاعران ممن ورد أسماؤهم في مختلف المصادر).

قبيلة تميم بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر

منازلهم بأرض نجد من اليمامة إلى البصرة متصلة بالبحرين ثم انتشرت إلى الكوفة وعدة قرى. من ذلك: صُلب ورَهْبي ومغنى المثنى والدهناء والأحصاء ووبرة والحيرة وهي قبيلة عظيمة. من بطونها : سعد بن زيد مناة بن تميم ونهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ويربوع بن مالك بن حنظلة بن مالك...وطهية.

– عوف بن مالك بن حنظلة... ومنهم أيضا بنو مجاشع وبنو الهجيم والبراجم ودارم وبنو العنبر وبنو رياح وبنو منقر وغيرهم.

المنسوب إلى تميم

ومن شعراء تميم نذكر : الأحبش التميمي والأحمر بن جندل و×الأسود بن يعفُر والأضبط بن قُرَيْع و×أوس بن حجر وأوس بن غلفاء وأوفى بن مطر وبجير بن أوس والبراء ابن قيس والبسوس بنت منقذ وتوبة بن مضرّس وثوب بن شحْمة وثعلبة بن صُعْير وجابر ابن فطن وجارية بن مشمِّت وأبو جُبيل البرجُمي و×جِرانُ العَوْد النّمريّ: الحارث بن عامر وجَرِيبَة بن أوس وجُشَيْشُ بن نِمران وجُندب بن العنبر وجوّاس بن نُعَيْم وحاطب بن مالك وحريّ بن ضَمْرة وحُرَيْثة بن عَمرو وحطَائط بن يَعفَر وحزن بن جناب وحمراء بنت ضمرة وخالد بن مالك وخُطام المجاشعي وخُفاف بن مالك ودختنوس بنت لقيط ودَوْسَر بن ذُهَيل

وذُؤَيب بن كعب وذؤَيْب بن زُنَيْم وذو الخرق بن شُريح وربيعة بن طريف وزاهر أبو كِرام وسعد بن زيد مناة وسُفيان بن مجاشع والسُّلَكَةُ أمُّ السُّليك و×السليك بن السُّلكة وصُحَيْر بن عُمِيْر وصعصعة بن ناحية وطريف العنبري وعاصم بن جُوَيْرية وعبد القيس بن خُفاف وعبيد بن وَهب وعُبيدة بن ربيعة و×عدّي بن زيد و×علقمة الفحل وعمرو بن عديّ وعمرو بن عمرو بن عدس وعياض بن ديهث وقُراد بن حنيفة وقريط بن أنيف وقَيْل بن عمرو ولبيد بن عُطارد ولقيط بن زرارة ومالك بن حطّان ومعاوية بن الحارث والمِجدام التميمي ونقيع بن جرموز وهُرَيْم بن جوّاس وهزال التميميّ وودّاك بن ثُمَيْل ويزيد بن ثمامة ويزيد بن قَهْرة (67 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى سعد بن زيد مناة بن تميم

ومن شعراء سعد : عمرو بن أُبَيْر والأضبط بن قريع وسوار بن المضرّب (3 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى نهشل (بن دارم بن مالك بن حنظلة)

ومن شعراء نهشل : الحارث بن نُهَيْك وحكيم بن جَذِيمة وعُلاثة بن جُلاّس وعمرو بن موهبة وحطائط بن يعفر (5 شعراء).

المنسوب إلى طهية

ومن شعراء طهية نذكر : ذو الخِرق الطُّهوي : خليفة بن حمل وشُعْبة بن قُمير وشمَّاش بن الأسود والعدل بن الحكم و×عمرو بن الأسود وشعبة بن قمير (6 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر)

المنسوب إلى يربوع (بن مالك بن حنظلة...)

ومن شعراء يربوع : الحارث بن ظالم وحيّان بن قرط وذوالخرق ورافع بن هُريم وشُمَيْت بن زِنْباع وعبّاد بن شدّاد وعُتيبة بن الحارث وعِصمة بن حدْرة وعمرو بن حوْط وعُمَيْرة بن طارق والعَوْراء السليطية وقيس بن مُقَلَّد والكلْحبة العُرَيْني : هُبيرة بن عبد

المناف ومصاد بن جناب ومعاوية بن أوس ونُعَيْم بن عتاب الرياحي وهمّام بن رياح (17 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

- أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر

كانت منازلهم : فيما يلي الكرخ من أرض نجد مجاورين لقبيلة طيء وتغلبوا عليهم على جبلي أجأ وسلمى. وأرضهم تتاخم السماوة إلى حدّ بادية البصرة ويسكن منهم الكوفة وما جاورها وسيطروا على الحلة ونواحيها.

المنسوب إلى أسد

ومن شعراء أسد نذكر: الأشعرالرَّقبان الأسدي وعمرو بن حارثة وأعشى بني أسدو× الأقيشر الأسديّ (عامر بن طريف) وبدر بن سعيد و×بشر بن أبي خازم والجميح الأسدي (منقد بن الطمّاح) وحاجب بن حبيب وخالد بن نضلة ورُبيعة بن أسعد وابن الرُّوَّاع و×عَبيد بن الأبرص وعمرو بن الأشعر وعمرو بن أهبان وعمرو بن حكيم وفَضالة ابن هند وقران الأسدي وقيس بن هلال وكَلَدة بن عبدة وكليب بن نَوفل وكُمَيْت بن ثعلبة ومالك بن جَحْوان ومضرس بن ربعي ومعقل بن عامر وبن مجمّع ومعقل بن عامر: بن نمير ومغلّس بن لقيط (25 شاعرا).

ومن شعراء غَنْم بن دودان بن أسد: عبد الله بن جحش.

ثالثا - من القحطانية (في نجد والعراق)

طيء وكندة وإياد وتنوخ ولخم

المنسوب إلى طيء بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن قحطان

منازلهم: كانت في اليمن ثم خرجوا بعد خروج الأزد ونزلوا بجوار بني أسد وغلبوهم على جبلي أجأ وسَلمى ومن أراضيهم: دومة وسكاكة وتيماء وغيرها.

ومن شعرائهم: *أبو أخزم و*الأخزم السّنْبسي و*الاخيل الطائي و*أسامة بن لؤي و*الأسحم بن الحارث و*الأسد الرّهيص و*أنيف بن زبّان و*أوْس بن حارثة و*إياس ابن الأرّت و×*إياس بن قبيصة و*باعث بن حويص و*بجير بن عنمة و*البُرج بنُ مُسْهر و*بشر بن عُليق و*جابربن ثعلبة الجرمي و*جابر بن حريش و*جابر بن رألان السّنبسي و*أبو جابر و*جبلة بن مالك و*جندب بن خارجة و*×حاتم الطائي و* أخت حارثة بن لأم و*حامل بن حارثة و*حري بن عامر و*حسّان بن حنظلة و*أبو حنبل و*حنظلة بن أبي عفراء و*حيّان بن ربيعة و*حية بن خلف و*الخليل بن فرود و*خــولى بن سهلة و*أبو الدبّية و*رُويْشد بن كَثير و*زامل بن غفير و*زياد الملقطي و*أبو سروة السنبسي و*سلاّم بن عمرو و×*سلاَمة بن جَنْدل و*سويد بن بُجيلة و*سويد بن مسعود و*سيّار بن قصير و*سيف بن وهب و*أبو الشماخ و*أبو الطّمحاء و*عارق قيس بن جَروة و*عاصية البولانية و*عامر بن جُوَين و*عبد الأسود ابن جوين و*عبد العزّى بن مالك و*عبيد بن ماويّة و* عمرو بن الأبجر و*عمرو بن عبد العزيز و*عمرو بن عمّار و*عمرو بن عُزَيَّة و*عمرو بن غَنَمْ و*عمرو بن الغَوث و*عمرو بن ملقط و*عمرو بن النبيت و*عمرو بن يسار و*أبو العَمَلّس و*عياص بن دُرّة و*غنية بنت عفيف و*قسامة السّنْبسي و* لوط الطائي و*مالك بن حيّان و*مراد الطائي و*المرناق و*مسعود بن عبد الله و*معروف بن عمرو و*مقعد بن شماس و*نافع بن سعد و*الهذيل بن مشجعة و* يزيد بن عمرو و*يزيد بن قنافة(74 شاعرًا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى كندة (بن عُفَيْر بن الحارث بن مُرّة بن أُدد بن زيد بن يشجب عَريب بن زيد بن كهلان)

ومن شعرائهم: ×امرؤ القيس بن حجر وحُجَيّة بن المضَرَّب و*عديّ بن حمار السكوني وعمرو بن الحارث وغلفاء بن الحارث وعمرو بن سيّار السكونيّ والقتال السكوني ويزيد بنّ ذُرَح (8 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

مجموعة القبائل المتحالفة المسماة بــ: تنوخ(9)

---

(9) – منهم : فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة.

منازلهم: في جنوب العراق: الانبار والحيرة ونواحيها

ومن شعرائهم: *أسد بن ناعصة و*المثلّم بن عمرو و*عمروبن الجون (3 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى أزد (بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن قحطان)

ومن شعرائهم: *حاجز بن عوف و*سطيح الكاهن و*×السَّمَوْأل بن غريض و×الشَّنْفَرى وعبد الله بن سَلَمة وعُبيد بن عبد العُزّى وعمرو بن أُشَيم الحُدّاني وعمرو بن حُمَمَة الدَّوسي وعمرو بن أبي عمارة و×*قيس بن الخَطيم و*مُعقَّر البارقي (11 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى لخم واسمه مالك (بن عدى بن الحارث بن مرة بن أُدَد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان)

منازلهم: كانت باليمن ثم تفرقوا : جنوب العراق (الحيرة) والشام ومنهم المناذرة ملوك الحيرة.

ومن شعرائهم: *النعمان بن المنذر و*حُرقة بنت النعمان و*عمرو بن أُمامة و*عمرو بن هند (4 شعراء).

المنسوب إلى إياد بن نوّار بن معدّ بن عدنان

منازلهم: في العراق: الجزيرة والموصل وسواد الكوفة وأراضٍ أخرى في العراق (كان لهم في القرن الثالث شرف ومنزلة في تهامة ثم أخذت مضر مكانهم فهجروها إلى العراق)

ومن شعرائهم نذكر: *× أبو دؤاد و*قسّ بن ساعدة و×*لقيط بن يعمر (3 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

II - الحجاز والشام واليمن في الجاهلية

من العدنانية في الحجاز

كانت تقطن بالحجاز من القبائل العدنانية في تلك الفترة :

- من إلياس بن مضر :

1- كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ومنها قريش

2- وهذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر

3- ومزينة بن عبد مناة بن أُد بن طابخة بن إلياس

- من هوازن بن قيس عيلان في الحجاز :

- ثقيف ومن القبائل القحطانية في الحجاز والشام

من قضاعة :

- جُهينة ونهد وبليّ ابنا زيد بن ليث بن سود بن أَسلُم بن الحافي بن قضاعة
- وعذرة بن سعد بن هذيم بن زيد...
- وكلب بن وبرة...

من الأزد :

1- خُزاعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن ثعلبة بن مازن بن أزد

2- الخَزْرج بن حارثة بن العنقاء بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء....

3- الأَوْس بن حارثة...

4- غسان بن جفنة بن عمرو بن مزيقياء...

أما الحجاز :

المنسوب إلى كنانة

ومن شعراء كنانة: ابن أحمر الكناني وبَلعاء بن قيس وحازم بن أبي طرفة وربيعة بن مُكَدّم والشدَّاخ بن يَعْمُر وشداد بن الأسود وعمرو بن عامر و×عمرو بن كلثوم وأبو الفضل الكناني وكعب بن الأجدم و*زيد بن عمرو (11 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

ومن كنانة قريش كلهم من مكة وضواحيها: ˣ *أميمة العبشمية و*بُجير بن العوّام و*خالدة بنت هاشم وˣ*الرّحال القُريشي (سامة بن لؤي) و*الزبير بن عبد المطلب و*عبد المطلب بن هاشم و*عثمان بن الحويرث و*عدي بن نوفل و*عمرو بن شقيق و*عمرو بن عبد العُزّى و*عمرو بن عبد مناف و*مالك بن عميلة و*المطلب بن عبد مناف و*ورقة بن نَوْفَل و*وهيبة بنت عبد العزى (15 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى هذيل بن مُدركة

منازلهم : ديارهم بالسروات وهي متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف.

ومن شعراء هذيل: الأعلم الهذلي : حبيب بن عبد الله وأبو جُنْدب بن مُرّة وأبو الحنّان: زياد بن علبة وجَنُوب أخت عمرو ذي الكلب ورَيْطة بنت عجلان وسريع بن عمران الصاهلي وسلمى بن مقعد وˣصخر بنُ عبد الله وعبد مناف بن ربْع وعمرو بن الدّاخل وعمرو بن هُمَيْل وعمرو ذو الكلب وأبو قلابة الطّابخي وقيس بن العَيْزارة وˣأبوكبير الهُذلي ومالك بن خالد والمنتخّل الهذلي وأبو المثّلم الهُذَلي والمُحَرّث بن زبيد وˣالمعَطل الهُذَلي وأبو الحنان الهذلي (21 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى مُزينة من مضر

ومن شعراء مُزينة: الخنساء بنت أبي سُلْمى وˣزُهير بن أبي سُلمى (شاعران اثنان مشهوران).

المنسوب إلى ثقيف (بن منبّه بن بكر بن هوازن بن منصور)

منازلهم: بين مكة والطائف : منهم بنو عوف وبنو جهم بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

ومن شعراء ثقيف: *أبو الصَّلت بن أبي ربيعة و*عوف الكاهن (شاعران اثنان مشهوران).

المنسوب إلى جُهينة

ومن شعراء جُهينة : *عمرو بن الفضفاض و*عمرو بن صيفي (شاعران اثنان مشهوران).

المنسوب إلى خزاعة

ومن شعراء خزاعة: أُهبان بن كعب وحَبَشية بن سَلُول و*حُلَيل بن حبشية وسُراقة بن مرداس و×سُراقة الأكبر بن مرداس و*عمرو بن جَعدة و*عمرو بن الحارث و*لَمْس بن سعد والمتنكّب: عدي بن عمرو و*مطرود بن كعب ومعبد الخزاعي (11 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى الخزرج

منازلهم : يثرب (المدينة) مع أوس

ومن شعراء الخزرج: *عاصم بن عمرو و×*عمرو بن الإطنابة و*عمرو بن امرئ القيس و*عمرو بن طلّة بن معاوية بن عمرو و*مالك بن العَجْلان و*المنذر بن حرام و*يزيد بن فُسْحُم (7 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى أوس

ومن شعراء أوس: *×أُحيحة بنُ الجُلاَّح ودِرْهم بن زيد و*سُوَيْد بن شبيب و×*صيفي بن عامر و*عَديّ بن خَرْشَة و*عمرو بن رفاعة و*الهدْم بن امرئ القيس (7 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

أما الشام وجنوب الشام : فقبائل من قضاعة بن حمير وقبيلة غسان بن جَفنة من الأزد وكلاهما ملَك الشام.

المنسوب إلى كلب (بن وبرة بن تغلب بن عمران بن الحافي بن قضاعة بن حمير)

منازلهم : دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام

ومن شعراء كلب: *امرؤ القيس الكلبي :بن حُمام بن مالك و*حبال الكلبي : حبال بن حِسْل و*عمرو بن الأسود و*عمرو بن زيد و*عمرو بن شراحيل و×عمرو بن عبد وُدّ و*عمرو بن عروة و*قراد بن أجدع و*المحلّق بن حنتم و*الهُبَل بن عامر(10 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

بعد أن خرج الأزد من اليمن نزلت غسان بين دمشق وحمص وماليهما وصاروا عمالا للبيزنطيين يحمون الحدود مثل ملوك الحيرة بالنسبة إلى الفرس.

المنسوب إلى غسان (بن جفنة بن عمرو مزيقياء بن ثعلبة بن مازن أزد)

ومن شعراء غسان: الحارث بن جبَلة وعدِيّ بن الرَّعْلاء والفظّ بن مالك(3 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

المنسوب إلى قضاعة : نهد وبليّ

ومن شعراء قضاعة: *خالد بن الصَّقْعَب و*خُزيمة بن نهد ودُويد بن زيد و*رِزاح بن ربيعة و× *زُهَيْر بن جناب وعبد الله بن العجلان و*عمرو بن المُراد والمثَلَّم بن قرط والمسيَّب بن الرَّقل و*وعلة بن الحارث وثعلبة بن صغيرة بن خزاعي (11 شاعرا ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر)

المنسوب إلى بني عذرة

ومن شعراء بني عذرة : *عمرو بن قُعَيْط (شاعر واحد).

شمال اليمن

وفيما يخص اليمن فأهم القبائل التي هي من أصل يمني أكثرها في اليمن من مذحج ولهم بطون كثيرة، وهمدان وبجيلة وخثعم.

مذحج بن أُدد بن يشجب بن قريب بن زيد بن كهلان (منهم : مراد ونخع وبنو حارث بن كعب والأشعر وسعد العشيرة وغيرهم)

ومن شعرائهم: ×الأفوَه الأوْدي و*الحارث بن كعب المذحجي والمأمور بن ثَبراء و* مخرَّم بن حَزن بن زياد وعمرو بن قِعاس المُراديّ و×عمرو بن قيس و*عمرو بن مالك النخعيّ و×يزيد بن مُخَرِّم وسويد بن صُميع المرثدي (9 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

جُعْفـــي بن سعد العشيرة بن مالك بن أُدد بن زيد بن يشجب بن عريب ومن شعرائهم: الأسعر الجعفي والشُوَيْعِر محمد بن حُمْرَان (شاعران ممن ورد اسمهما في مختلف المصادر).

همدان بن مالك بن زيد بن كهلان : كلهم قرويون

كانت منازلهم في اليمن في نجران ونواحيها وسكن بعضهم الكوفة بعد الإسلام.

ومن شعرائهم: *الأسفع الأرجي و*الأسلوم اليامي و*بداء بن سليمان و*جُحَيْش بن حرشف و*جديمة بن وائلة الشاكري و*الجّراح بن عمرو و*أبو جسيس الجواد و*جعفر بن عرار و*الحارث بن صريم الأصغر و*الحارث بن مُرّ و*حبيش بن عبد الله و*حراب بن الورد و*الحِسْل بن حاتم و*الحشاش الاصغر و*داود بن حمل و*دُوَيْلة الشبامي و*زَيْد بن عَمْرو و*سليمان ذو الدّمْنة و*سُمَيْر الفرسان و*سيف بن عمرو الهمداني و*سيف بن معاوية و*عامر بن زيد و*العقار بن سليل و*علقمة بن مالك و*عُمارة بن عُبَيْد و*عمرو ابن ذؤاب و*عمرو بن رباءة المُرهبيّ و*عمرو بن زياد و*عمرو بن شراحيل و*عمرو بن عوف و*عمرو بن مالك و*مالك بن ملالة ومالك بن ملاين و*المحيا بن لغط و*مُدْرك بن عبد العُزّى و*معاوية بن دومان و*أبو نَمارة بن مالك و*الوقيّ بن الأعلم و*يزيد ذو القفـــا (39 شاعرًا ممن وردت اسماؤهم في مختلف المصادر).

بجيلة وخثعم بن بجيلة

ومن شعرائهم: عمرو بن الخَثارم البُجَليّ والقتّال البجليّ السُحميّ و*نُفيل بن حبيب الخثعمي (3 شعراء ممن وردت اسمه في مختلف المصادر).

جرم بن ربَّان بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة

ومن شعرائهم: بيهس بن صُهَيْب والحارث بن وعلة والعُريان الجرمي وعلي بن عُمَيْرة وعمرو بن أوس و*عمرو بن قُدامة و*قبيصة بن النّصرانيّ و*وعلة بن الحارث (8 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

بنــــو عذرة

ومن شعراء بني عذرة: *عمرو بن قُعَيْط وبيهس العُذري وثعلبة بن صُعيْر (3 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

من نُسب إلى حِمْيـــر

ومن شعرائهم: امرؤ القيس بن مالك وسُعْدَى بنت الشَّمَرْدَل وكبشة بنت معد يكرب ومحارب بن قيس الكُسَعِيّ و×المشمرج بن عمرو (5 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

من نُسب إلى حضر موت

ومن شعرائهم : عمرو بن ذَكْوان الحضْرمي (شاعر واحد).

ملاحظة: وصل إلينا شعر لشعراء لم يذكر نسبهم منهم: حذيفة بن بدر.

تعليق على الفترة الأولى

إن الشعر الذي وصل إلينا من هذه الفترة من الجاهلية **يغطي شبه الجزيرة العربية بأكملها تقريبًا: فكل قبيلة أو مجموعة من القبائل المتقاربة في النسب كانت لها شاعر واحد على الأقل** ورُويت عنهم (أو عنه) أشعارهم إلا ما سنذكره فيما يلي. وأخذ اللغويون العرب ابتداءً من نهاية القرن الأول بلغة كل هؤلاء الذين نقل عنهم الرواة الفصحاء خلافًا لما ادّعاه الفارابي[10]. وتتفاوت هذه القبائل في عدد شعرائها بحسب الأقاليم فأما التي كانت تقطن على الحدود المتاخمة لبلاد العجم فلم تحظ بما حظيت به القبائل التي ابتعدت من هذه الحدود. وذلك مثل **بهراء** فلم ينصوا على وجود شاعر لها في هذه الفترة وما بعدها ولم يذكروا لها إلا شاعرًا واحدا غير معروف وهو الحَكَم بن عمرو الذي ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان (6،80) وابن حزم في جمهرة أنساب العرب (441) ومن اليمنيين الآخرين الذين هجروا إلى الشمال واستوطنوا الشام والعراق **فجذام وعاملة وغسّان** فلم يذكروا للأولَيْن شاعرًا بالنسبة لهذه الفترة وإن اشتهر من جذام في الإسلام خطيب مفوّه وهو رَوْح بن زِنباع الجُذامي (المتوفى في 84 هـ) وكان من أخطب العرب (البيان 1،346) ولعاملة شاعر في زمان الوليد بن يزيد كما سنراه وهو عدى بن الرِّقاع (طبقات ابن سلام، 708). فهذا يدلّ على أن هؤلاء القحطانيين قد انقطعوا في أقاصي الشام خاصة وإلى حدّ ما عن غيرهم من العرب في الجاهلية[11] بانضمامهم السياسي الجغرافي إلى مملكة بيزانطا وربما أثّر ذلك في سلوكهم اللغوي الثقافي خاصة إلا أنه لم يبلغ تأثُّرهم إلى حدّ اندماجهم في المجتمع البيزنطي بدليل وجود الخطباء منهم بالعربية والولاة لبني أمية مثل روح بن زنباع هذا وغيره.

---

(10) – فكأنه كان يظن أن اللغويين اكتفوا بأخذ ما يرتجله المأخوذ عنه من كلامه ليس إلا. ثم إن هذا يُبطل القول الذي عزاه ابن قتيبة – متعسفا في ذلك– إلى الأصمعي وأبي عبيدة من «أن العرب لا تروى شعر عدى بن زيد لأن ألفاظه ليست نجدية» (الشعر والشعراء، 176). فكأن أهل نجد كانوا هم وحدهم فصحاء! (انظر الفصل 3 من الباب 3 من هذا الكتاب). والذي يهمنا ههنا وهو ما ثبت من هذا التصفح أن العربية التي نزل بها القرآن كانت تغطي في الجاهلية جزيرة العرب كلها إلا بطنا واحدا أو اثنين في أطراف أطرافها.

(11) – وبداية ظهور الإسلام حتى بعد معركة اليرموك في 15 حيث تحالفوا كلهم مع إمبراطور بيزانطا هرقل (وهم جذام وبهراء وتنوخ وكلب ولخم وغيرهم).

وإن كنا لاحظنا أن الأغلبية الساحقة من القبائل العربية كانت تحظى بوجود شاعر من بين أفرادها فليس من الضروري أن يكون لكل بطن فيها وكل فخد منها من يقول الشعر وليس السبب في ذلك بالضرورة ابتعادهم من معظم القبائل العربية. فأما **غسّان** فهي التي استولت منذ القديم على الشام وكانت منها ملوك الغساسنة الموالين لبيزانطا **ومع ذلك فقد اشتهر منهم ثلاثة شعراء** كما مرّ بنا.

وكذلك كانت للقبائل اليمنية الأخرى التي كانت على الفرات مثل **تنوخ** أو على الضفة الغربية منه وفي شمال نجد مثل **لَخْم وكلب وبَلِيّ ونهد وكندة وطئ وعذرة**. أما لخم فمنهم ملوك الحيرة الذين ملكوا مدة خمسة قرون وأول من ملك منهم عمرو بن عدى قاتل الزباء وابن أخت جذيمة الأبرش. **ومنهم شعراء** وقد ذكرنا أسماء لثلاثة منهم من العهد الجاهلي وأما تنوخ فكانوا بالجزيرة وقال عنهم ابن حزم: «فتنوخ على ثلاثة أبطُن: بطن اسمه فهم... وبطن اسمه نزار (غير الجدّ لمضر) وهم لوث...وهم من قضاعة... وبطن ثالث يقال له الأحلاف وهم من جميع قبائل العرب كلها من كندة ولخم وجذام وعبد القيس»(453). **وذكرنا لهم ثلاثة شعراء من الجاهلية.**

وأما **كلب** فقد ذكرنا لهم **عشرة** شعراء في هذه الفترة فهذا كثير جدا وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى قبائل قضاعة القاطنة على شاطئ بحر القلزم بين أيلة وخيبر: **كبلِيّ وعُذرة** –ولا تبتعد جذام عنهما كثيرًا– أما **كندة** فكان لها ملك هي أيضا على العرب منهم بنو أسد كما هو معروف واشتهر منهم أكبر شاعر من الجاهليين وهو امرؤ القيس بن حُجْر.

وتميّزتْ طيء من كل هؤلاء بكثرة الشعراء في الجاهلية فقد ذكروا لها ما يفوق ستين شاعرًا فوجودها بين قبيلتي أسد وتميم ومنازعتها لأسد رُبَّما كان له تأثير في ذلك.

ولابد من الإشارة أيضا إلى كثرة ما ظهر من الشعراء القحطانيين عند الأزد (خزاعة والأوس والخزرج وغيرهم) ممن كان ينــزل في وسط شبه الجزيرة العربية. فقد ثبت بذلك أهمّية الشعر الذي أنتجه القحطانيون في الجاهلية.

وفيما يخص القبائل العدنانية فكانت بعض ربيعة وخاصة قبيلة تغلب تقطن في الجزيرة في جوار لخم القحطانية وظهر فيها العدد الكبير من الشعراء وسبق أن ذكرنا ما لاحظه علماؤنا القدامى بأن الشعر أول ما ظهر عند ربيعة ثم قيس ثم تميم(12). وهذا ما يبيّنه التصفح لشعراء هذه الفترة. وفي الخلاصة نستطيع أن نقول بأن العربية التي نزل بها القرآن كانت تغطي بالفعل شبه الجزيرة العربية ما عدا أطرافها التي كان يسكنها أجناس من الناس غير عرب. هذا ولم تتغير طيلة هذه الفترة التي تبتدئ بأقدم قصيدة شعرية وصلت إلينا باللغة العربية. وقد جاءنا من الجاهلية شعر كثير جدا ويُعزى إلى أبي عمرو بن العلاء أنه قال: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاء لجاءكم شعر كثير» (طبقات ابن سلام،25). ولا عجب في ذلك فقد كان الشعر في الجاهلية «ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون واليه يصيرون» هذا قول أبى عمرو(نفس المصدر،24)

وفيما يخص البدو والحضر فهو تمييز، في الحقيقة، بين الرحّل الظواعن وبين المستقرّين غير الرُحَّل وهما إما سكّان القرى (في الجبال والسهول وكل أنواع الأراضي) وإما سكان المزارع كالواحات وضواحي القرى. ولاحظنا في تصفحنا للشعراء أنهم ينتمون في هذه الفترة إلى كل هذه الفئات الاجتماعية وسَجَّل شعرهم اللغويون فيما بعد بدون تمييز بينهم إطلاقا.

الفترة الثانية

الشعراء المخضرمون (بين الجاهلية والإسلام)

بما فيهم الوافدون على النبي (صلعم) والصحابة الذّين قالوا شعرا

1 ـ تمتد هذه الفترة من سنة 50 قبل الهجرة أو ما بعدها بقليل وتنتهي حوالي سنة 41هـ والذي حصل في هذه الفترة الهامة من حياة اللغة العربية هو حادث عظيم لا يتكرر في التاريخ: ألا وهو ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم بلغة العرب وبذلك دخلت هذه اللغة

---

(12) – وسبقهم إلى ذلك القحطانيون كما رأينا.

في الخلود وأحدث ذلك تغييراً عميقاً في المجتمع العربي وفيما كان يجاوره من المجتمعات غير العربية بتنقل العدد الكبير من الأفخاذ بل والبطون إلى منازل أخرى وخاصة المدن الجديدة كالبصرة والكوفة أو مدن الشمال كدمشق وحمص وغيرهما فاختلطت القبائل في أماكن مختلفة من العاهلية الإسلامية الفتيّة. ودخل الناس في دين الله أفواجاً ومنهم غير العربي اللسان وظهر اللحن على ألسنة العرب أنفسهم من جراء تعايشهم مع غيرهم.

وختمت هذه الفترة بتولّي معاوية بن أبي سفيان الخلافة في سنة 41هـ وبداية عهد بني أمية.

أ- الشعراء المخضرمون (من غير الوافدين والصحابة)

I - العراق ونجد (بما فيه اليمامة) والبحرين

- من العدنانية :

أولا : قبائل ربيعة بن نزار بن سعد بن عدنان

1 – قبيلة بكر:

من شعراء يشكر: حنيف بن عمير وسويد بن أبي كاهل.

من شعراء شيبان: عمرو الرحّال والمثنى بن حارث و*يزيد بن الحارث بن رويم.

من شعراء حنيفة: ×مجّاعة بن مرارة و×محرز بن قتادة بن سلمة و*موسى بن جابر.

من شعراء سدوس: عمرو بن شفيق السدوسي.

ومن شعراء ضبيعة: الأخطل الضُبعي و*×الأعشى الكبير أو أعشى بكر: أبو بصير ميمون بن قيس (7هـ = 629م) والقطامي الضبعي (3 شعراء)

ومن شعراء عجل: ×* الأغلب العجليّ هو الأغلب بن عمرو(21 هـ = 641م) و*نسير ابن ثور (35هـ = 655م) وحنظلة بن سيار (3 شعراء).

ومن شعراء ثعلبة (بن عكابة): بشر بن رُديح (أو دريح) استشهد في خلافة عمر بن الخطاب وعنبرة بن الأقرش (شاعران اثنان).

2- قبيلة تغلب: قطبة بن زيد و×*كعب بن جُعَيْل التغلبي و×الهذيل بن هبيرة (3 شعراء).

3- قبيلة عَنْز: رشيد بن رُمَيض (شاعر واحد).

4 – قبيلة عبد القيس (البحرين):

من شعرائها: الأعور الشني (شاعر واحد).

II - قبائل مُضر (في العراق ونجد)

أولا : قيس عيلان :

من شعراء محارب: أنس بن نواس بن شيحان المحاربي و×عامر بن كبير الخَصَفي المحاربي (محارب «قيس») وعبيد المحاربي (3 شعراء).

ومن شعراء سليم: *عمرو بن سفيان السلمي أبو الأعور و×*الفرار السلمي وهو جبان بن الحكم و*نصر بن حجاج (3 شعراء).

ومن شعراء مازن: *×كعب بن زهير بن أبي سُلْمى (26 هـ = 645م) و*بجير بن زهير ابن أبي سلمى (شاعران اثنان).

ومن شعراء عامر بن صعصعة: ×تميم بن أُبَيّ بن مقبل (37 هـ = 657م) و×عامر بن الطُفَيل (70 ق.هـ -11هـ = 554-632م) («كلاب» من عامر بن صعصعة) و*عقال ابن خويلد بن عامر (عقيل) و*هبيرة بن المفاضة (عقيل) والرّحال (اختلف فيه) (5 شعراء).
ومن شعراء نمير بن عامر بن صعصعة: شيبان بن دثار (شاعر واحد).

ومن شعراء ثقيف: *×أمية بن أبي الصَّلت (5هـ = 626م)*الحارث بن كلدة و*ربيعة بن أمية بن أبي الصّلت و*أبو عبيد الثقفي و*عمرو بن مسعود الثقفي و*غيلان بن سلمة (23هـ=644م) *×ومسلم بن يزيد (7 شعراء).

ومن شعراء كلاب: ×أربد بن قيس العامري («كلاب» عامر) و×جَهْم بن شبل (من بني كعب بن أبي بكر بن كلاب) و*عمرو بن سلمة الكلابي والقتّال الكلابي أبو المسيّب هو عبد الله بن محبب بن المضرّجيّ (4 شعراء).

ومن شعراء قشير: سوار بن أوفى و×عقبة بن كلاب (شاعران اثنان).

ومن شعراء غطفان: ابنا دارة: سالم وعبد الرحمن (30 هـ = 650م) (من بني عبد الله من غطفان) و*فاطمة بنت ربيعة أم قرفة الكبرى (6 هـ =627م) («فزارة» غطفان) و×مسافع بن شريح («جشم» غطفان) (3 شعراء).

ومن شعراء باهلة: الدعجاء بنت وهب و*سحبان وائل: سحبان بن زفر بن إياس الوائلي (54هـ=674م) و×*عَمرو بن أحمر أبو الخطاب الباهلي (65هـ=685م) (3 شعراء).

ومن شعراء عبس: ×*أرطأة بن سُهيَّة: أبو الوليد (توفي سنة 86هـ = 699م) و×قيس بن زهير أبو هند (10 هـ = 631م) (عبس غطفان) (شاعران اثنان).

ومن شعراء ذبيان: × بُجير بن الحصين: اللّجلاج الذبياني و×*جزء بن ضرار و×* الشماخ ابن ضرار: اسمه مَعقل (30هـ = 651م): (من بني سعد بن ذبيان) و×*مزرّد بن ضرار (نحو 10هـ = 631م) (4 شعراء).

من شعراء غني: *الأشهب بن الحارث الغنوي و×كعب بن سعد الغنوي.

ثانيا : إلياس بن مضر

من شعراء عكل: الأخطل بن ربيعة و×المحرزي العكلي وسويد بن كراع العكلي.

من شعراء ضبة: *عمرو بن يثربي الضبيّ وميّة بنت ضرار و×ضرار بن ضبّة و×وجيهة بنت أوس الضبيّة و× *عبد الله بن عنمة و*ربيعة بن أبيّ و×*ربيعة بن مقروم.

من شعراء تميم: أُديهم بن مرداس التميمي وأبو×النشناش النهشلي و×*نهشل بن حريّ و×منازل بن فرعان و*المخبّل السعدي و*كثير بن عبد الله. وفرعان بن الأعرف التميمي

و*قطري بن الفجاءة و*أبو بيهس و×عمرو بن قبيصة التميمي و×*عمرو بن المستوغر بن زمعة و×*عوف بن عطية بن الخرع التميمي و*×حريث بن محفّض المازني و×*حميد بن مالك الأرقط وخفاف بن مالك التميمي و*عبدة بن الطبيب و*عتيبة بن مرداس و×*عبد الله بن خذف. و*ضابىء بن الحارث وعلقمة بن سهل و*×الأشهب بن رميلة. وأعشى بني الحرماز وأوس بن ثعلبة التميمي و×*أوس بن مغراء القريعي (20 شاعرًا).

من شعراء يربوع: ×الأخوص اليربوعي ومالك بن نويرة و*متمّم بن نويرة. ورافع بن هريم و*سجاح بنت الحارث و×سحيم بن وثيل الرياحي.

من شعراء أسد: *منظور بن سحيم و×الكميت بن معروف وأبو عرار عمرو بن شأس و×*عقيبة بن هبيرة و×حبيش الأسدي وعبد الرحمن بن الأزور الأسدي وثور بن ثلدة وزفر بن يزيد و*أبوسمّال الأسدي.

النازلون من القحطانية في نجد والعراق

طيء وكندة

ومن شعراء طيء: ×الأعرج المعنيّ الطائي هو عدي بن عمرو و×إياس بن مالك بن عبد الله الطائي و×*الحارث بن مالك و*خفاف بن عبد الله من بني عدي بن حاتم الطائي و*رافع بن عَمير: أبو الحسن الدليل (23 هـ=644م) و*أبو زبيد الطائي: المنذر بن حرملة (62 هـ= 682 م) و*عبد الله بن خليفة (51 هـ=671 م) البولاني و×عبد الله بن عمرو و*×عرّام بن المنذر (100هـ=718م) و*عنترة بن الأخرس (10 شعراء).

ومن شعراء كندة: *امرؤ القيس بن عابس بن المنذر الكندي وثور بن مالك وعثعث بن عُمر الكندي وعمرو بن أبي الجبر و*قيس بن سمي ومسعود بن معتب التجيبـــي و×*معدّان بن جواس (30 هـ نحو 650 م) و×الوليد بن محصن (8 شعراء).

ومن شعراء غسان: عبد المسيح بن عمرو (شاعر واحد).

II - الحجاز والشام واليمن

- من العدنانية

من شعراء كنانة: أمية× بن حرثان بن الأسكر و×أبو أناس الدؤلي أو الديلي و×عمرو بن قميئة اللَّيثي (3 شعراء).

من شعراء قريش: *×الأسود بن زمعة و*الحارث بن هشام و×*الزبير بن عبد المطلّب و*زينبْ بنت العوّام و*أبو طالب و*عاتكة بنت زيد و×*عاتكة بنت عبد المطلب و*عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق و*عدي بن الربيع و*عبد الله بن الزبعرى و×*ابن أبي عزّة و× *عمارة بن الوليد و*غطفان بن أنيف الفهري و×*عمرو بن عبد الله و×*قتيلة بنت النضر و*لقيط بن الربيع و*المثلّم بن حذافة و*محراب بن زبيد و*مسافع بن عياض و*مكرز بن حفص و*×نبيه بن الحجّاج و*هبار بن الأسود و×*هبيرة بن أبي وهب و*هند بنت أثاثة و*× هند بنت الحارث و*هند بنت عتبة و*×الوليد بن عقبة و*ابن أبي وهب.

ومن شعراء هذيل: ×الأباء بن قيس و×أسامة بن حبيب و×إياس بن سهم و×*البُريق الهذلي، عياض بن خويلد و×حُذيفة بن أنس و×*خالد بن زهير من بني مازن بن معاوية بن اسعد و×أبو خراش الهذلي، خويلد بن مرَّة (من بني قرد بن عمرو) و×*أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد (28هـ=649م) و×ساعدة بن جُؤية الهُذلي و×ساعدة بن العجلان الهذلي (من بني خثيم) وسعد المعطّل و*عون بن عبد الله بن عتبة الهذلي و×أبو العيال الهذلي (من بني خفاجة بن سعد «هذيل») و×مالك بن الحارث و×المتنخل الهذلي: أبو أثيلة مالك بن عمرو و× معقل بن خويلد (16 شاعرا).

ومن شعراء مُزينة: *معن بن أوس المزني (مزينة سكن الشام والبصرة) (شاعر واحد فقط).

ومن شعراء جُهينة: *عبد الله بن أنيس الجهني أبو يحي و*عمرو بن مالك (شاعران اثنان)

من القحطانية :

ومن شعراء كلب: *عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الحلاّج و*المنذر بن وبرة (12 هـ=633م) و**نائلة بنت الفرافصة (3 شعراء).

ومن شعراء أزد: *جعونة بن مَرْثد و*عبد الله بن الحجاج (37 هـ=657م) و*مجفية بن النعمان العتكي (20 هـ=641م) و*رؤاس بن تميم (4 شعراء).

ومن شعراء خزاعة نذكر: *الأسود بن عامر الخزاعى و*عبد الملك بن عبد العزيز وسالم ابن رافع (100هـ=720م) و*فراس الخزاعي و**كُرْز ابن علقمة (سلول) (5 شعراء).

ومن شعراء الخزرج: *سويد بن الصامت: سويد بن حارثة بن عديّ (الأنصاري) و*صرمة بن أبي أنس: أبو قيس وعبد الله بن خِثْمة، أبو خيثمة السالمي (بني سالم) (3 شعراء).

ومن شعراء أوس: *عمرو بن أُحيحة وقيس بن رفاعة الواقفي (شاعران اثنان مشهوران).

- **فيما يخص اليمن** فأهم القبائل التي هي من أصل يمني أكثرها في اليمن فمن مذحج ولهم بطون كثيرة، وهمدان وبجيلة وخثعم

وممن نسب إلى الأنصار دون تمييز: *برْدع بن زيد بن النعمان **و***خوّات بن جُبَيْر ومحمد بن أسلم.

ومن شعراء مذحج: **الأشتر النخعي، مالك بن الحارث (37 هـ=657م) (مذحج من بني نخع) (شاعر واحد فقط).

ومن شعراء همدان: **الأجدع بن مالك الهمداني (من بني وادعة «همدان») و*البراء بن وفيد العُذري (37هـ=657م) (بنو عذر «همدان») و**سعيد بن قيس بن زيد الأصغر الملك الهمداني و**عبد الله بن أبي حجر المعيدي و*عمرو بن الحارث الهمداني يعرف

بعمرو بن براقة (بعد 19هـ=632م) و**عمرو بن سلمة الأرحبي (أرحب) والعوّام بن جهل وغزال علا همداني و*مالك بن حريم أو صريم الهمداني و*المنذر بن أبي حفصة (10 شعراء).

ومن شعراء خثعم: **أنس بن مدرك: أبو سفيان (35هـ=655م) (شاعر واحد فقط)

من شعراء قضاعة: حنظلة بن شرقي

من شعراء نهد: *عبد الله بن كيسبة النهدي و**كعب بن ذي الحبكة.

من شعراء اليمن: *ذو الكلاع و*عبد الله بن أبي أدهم.

من شعراء حمير: *الحارث بن كلال و*خنافر بن التوام.

من شعراء جرم: *عدي بن وداع الأعمى.

ملاحظة: وصل إلينا شعر لشعراء لم يذكر نسبهم ومنهم من لم يصل منهم شيء. منهم:

*بُدَيْل بن أم أصْرم وبكر بن جبلة و*جبل بن جوّال و*حرب بن ريطة و*ربيعة بن حَوْط وعبد الله بن أبي وداعة و*عبد الرحمن بن الأسود وعبد الرحمن بن علي و*عبد الله بن الأكبر وعروش بن المفترش وعكرة بن سباع و*عكرمة بن عامر وعمرو بن أبي حمزة وغطيف بن حارثة و** فرات بن حيَّان و*محمد بن إيَّاس و*عدي بن كعب وأبو مروان و*مسلم بن عياض ومعاوية بن جعفر و* منصور بن سحيم وهبيرة بن أخنس و**يحي بن طالب.

ب- الشعراء الوافدون على النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم

*الأقرع بن حابس (تميم) و*امرؤ القيس بن عابس (كندة) و**جندب بن عمّار (طيء) والجُهَيْش بن أُوَيْس (نخع) والحارث بن عمرو (أسد) و*حريث بن زيد الخيل (طيء) والحضرمي بن عامر (أسد) وخفاف بن نضلة (أسد) و*الخنساء (سليم) وذباب (أزد) وذباب بن فاتك (ضبة) وراشد بن حفص (سلمة) وأبو رهم بن معمر (همدان) و*الزبرقان ابن بدر (تميم) و*زمّل بن عمرو (عذرة) و** زيد الخيل (طيء) و**سلمة بن عياذ (الأزد) وسلمة

بن عياض (أسد) وسلمة بن يزيد بن مشجعة و×ضرار بن الأزوَر (أسد) و×العباس ابن مرداس (سليم) و*عدي بن حاتم الطائي (طيء) وعُطارد التميمي (تميم) و×*العلاء بن الحضرمي (حضر موت) و×عمرو بن سنان بن الأهتم (تميم) و*عمرو بن الحَمِق (خزاعة) و×*عبد الله بن مالك (طيء) و*حُكَيْم بن جَبَلَة (عبد القيس) و×*حُمَيْد بن ثور (عامر) وخزاعي بن عثمان (مزينة) و×فروة بن مسيك (مراد) و*القاسم بن أمية بن أبي الصلت (ثقيف) وقُدَد بن عمّار بن مالك (سليم) وقيس بن بحر (أشجع) وقيس بن عاصم (تميم) وقيس بن نُشبة (سليم) و*كليب بن أسد (حضر موت) وكبشة بنت معدي كرب (زبيد) و×لبيد بن ربيعة (عالية نجد) و* ملحان الطائي (طيء) و×*مالك بن عامر (قشير) و* مالك ابن عمير (سليم) ومالك بن عوف (يربوع) ومالك بن نمط (همدان) و×*مازن بن الغضُوبة ابن غرَاب (طيء) ومسلية بن حدان ونهار بن حرب (حنيفة) و*الوليد بن جابر (طيء).

ج- الشعراء من الصحابة أو من قال الشعر منهم رضي الله عنهم

*أبان بن سعيد بن العاص: أبو الوليد (قريش).*أروى بنت عبد المطّلب (15هـ =636م) (قريش). أسد بن يعمران (خزاعة). *أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق (73 هـ= 692م) (قريش). أزهر بن أرطأة بن سبحان. أنَس بن زُنَيْم اللّيثي (60 هـ=680م) (كنانة). أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي(80 هـ=700م) (من بني أسد). بشير بن عقربة: أبو اليمان الجهني (85 هـ = 704م) (جُهينة). بُقَيْلة الأكبر: أبو المنهال (من بني هند بن قنفذ بن أشجع «غطفان»).*أبو بكر الصِّدِّيق: عبد الله بن عثمان (أبو قحافة) (51 ق.هـ-13هـ= 573م-634م) (قريش). ثُمامة بن أُثال، أبو أمامة بن نعمان (12هـ=633م) (حنيفة). حابس بن سعد (طئ). * الحُباب بن المُنْذر: أبوعمرو (من الأنصار«الخزرج»). الحجّاج بن علاط وحُرَيث بن زيد الخيل (60هـ = 680م) (طيء). *حسّان بن ثابت الأنصاري (نحو سنة 54) (الخزرج). الحذر بن زياد (3هـ =625م) (بليّ). خفاف بن نَدْبَة أبو خراشة السلمي (20 هـ=640م) (سليم «قيس»).*رُقَيقَة بنت أبي صَيْفي (هاشمية) (قريش). سارية بن زُنَيم (20 هـ=650 م) (دؤل كنانة). *سعد بن خيثمة بن الحارث الأوسيّ الأنصاري (2 هـ= 624 م) (أوس «أنصار»). *سعد بن الربيع بن

عمرو من بني الحارث بن الخزرج (3هـ =625 م) (الأنصار «الخزرج»).*سعد ابن عُبادة الخزرجيّ، أبو ثابت (14هـ = 635م) (الأنصار «الخزرج»). *سعد بن أبي وقّاص أبو إسحاق القرشي الزهري (23 ق.هـ-55هـ = 600 م-675 م) (قريش). *أبو سعيد الخدريّ سعد بن مالك (10 ق.هـ 74هـ = 613م - 693م) (الخزرج). *أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب (قريش). *سواد بن قارب الأزدي السدوسي (أزد «دوس» سكن المدينة). شجاع بن الحارث السدوسي (سدوس). شدّاد بن عارض الجُشَمِيّ (جشم). صفوان بن المعطّل بن رخصة (سُليم).*صفيّة القرشية:بنت عبد المطّلب(20هـ = 641م) (قريش). ضُباعة بنت عامر (10هـ-631م) (قشير). الضحّاك بن سفيان : أبو سعيد الضحّاك بن سفيان (كلاب). *ضرار بن الخطّاب (13هـ = 634م) (قريش). ضوء اليشكري (يشكر«بكر»). *الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوْسي (11هـ= 633م) (الأزد). أبو الطفيل الكناني : عامر بن وائلة (3-100 هـ = 625-718م) (كنانة). ظبيان بن كرّاد الإيادي (إياد). *عاتِكَةُ بِنْتُ زيد العدوية (40 هـ = 660 م) (قريش). *عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي (6-70 هـ = 627-690 م) (قريش). عاصم بن عمرو التميمي (15 هـ- بعد 636 م) (تميم). *عامر بن الحُلَيْس: أبو كبير الهذلي (بني سهل بن هُذَيْل. عبد الرحمن بن حنبل الجُمَحيّ (37هـ=657 م) (جُمح «قريش»). عبد الرحمن بن عوف (44 ق.هـ- 32 = 580-652 م) (كلاب). *عبد الله بن أبي بكر الصدّيق (11هـ = 632 م) (قريش).*عبد الله بن الحارث (11هـ=632 م) (قريش) عبد الله ذو البجادين (9 هـ= 701م) (بن عبد نهم) (مُزينة). *عبد الله ابن رواحة الأنصـــاري (8 هـ=629 م) (الخزرج). عبد الله بن مالك الأرحبي (همدان). *عبد الله بن أبي معقل (70هـ = 688 م) (الأنصار «الأوس»). *عبد الله بن وهب (35هـ =656م) (قريش).عُقبة بن عامر: أبو حمّاد الجُهني (جهينة).*علي بن أبي طالب (40 هـ= 661م) أبو الحسن الهاشمي (قريش). *عمرو بن أحيحة سعيد بن العاص (قريش). *عمرو بن الجموح (الخزرج «بنو سلمة») وعمرو بن الحمق الخزاعي (خزاعة). عمرو بن سالم (خزاعة «من بني سعد بني مليح»). عمرو بن شُبَيْل (ثقيف).*عمرو بن العاص (50 ق.هـ-43 هـ=574-664 م) (قريش).

عمرو بن مرّة الجُهني (جُهينة). عروة بن زيد الخيل (37 هـ=657م) (طيء). عمرو بن المُسبِّح أو المشيّح (طيء). عمرو بن مرة النهدي (نهد «قضاعة»). *الفضْل بن عبَّاس بن عبد المطلب (95 هـ=714م). *القاسم بن الربيع: أبو العاص (12هـ = 643م) (قريش). قيس بن مكشوح: المرادى المكشوح هو هبيرة (37 هـ = 657م) (بجيلة «مراد»). زيد بن الأزور (أسد). فاتك بن زيد العَنْسي (عنس من مذحج). فضالة بن عُمَيْر الليثي (ليث). *قيس بن سعد أبو الفضل (الخزرج «الأنصار»).*كبشة بنت رافع (5هـ=626م) (خدرية «الأنصار»). *كعب بن مالك أبو عبد الله (50هـ=670م) (الأنصار «خزرج»). ابن لُقَيْم العبسي (عبس). *مالك بن عمرو الثقفي (ثقيف). *معاوية بن الحكم (من أهل المدينة من بني سليم). *مالك بن التيهـان: أبو الهيثم مالك بن التيهان (20 هـ=240م) (قضـاعة «من الأنصار»). النابغة الجعدي (65 هـ = 674م) أبو ليلي ، حسان بن قيس) (جعدة «عامر»). هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الملقب بالمرقال.

الشعراء الموالى في صدر الإسلام

المنسوب إلى قيس عيلان

ومن شعراء قيس: حبيب بن خُدرة أو جَدرة (من الموالى بنو هلال) وخلف بن خليفة الأقطع (125هـ=743م) (قيس «من الموالى») و*مالك بن أسماء (فزارة) ويزيد بن الصَّقيل العقلي (عقيل) و*يزيد بن ضبة الثقفي هو يزيد بن مقسم وضبة أمه (130هـ =747م) (5 شعراء ممن وردت أسماؤهم في مختلف المصادر).

ب- إلياس بن مضر

فمن قبائل إلياس التي كانت تقطن نجداً نذكر ضبة بن أدّ بن طانجة بن إلياس والرباب (ثور وعكل وتيم وعدي وعوف من بني عبد مناة بن أدّ ثم تميم بن مرّ بن أدّ).

المنسوب إلى تيم

ومن شعراء تيم : *داود بن سَلْم الأدلم (132هـ=750م) (مولى بني تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي وقيل: مولى آل أبي بكر وقيل: مولى آل طلحة) (شاعر واحد).

المنسوب إلى عدي

ومن شعراء عدي: *رابعة العدوية: أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدويّة (135هـ=752م) (شاعر واحد فقط).

تعليق على الفترة الثانية

لا تـزال العربية تغطي في هذه الفترة كل الأقاليم التي عرفت لها في الفترة السابقة ولا تزال الجهات التي لم تكن للعربية فيها سيادة كأقصى اليمن والأقاليم التي يسكنها العرب مع غيرهم من الأمم مثل العراق والشام.

وهذا ينطبق تماما على البرهة الأخيرة من زمان الجاهلية (من سنة 50 قبل الهجرة إلى ظهور الإسلام). فلم يحصل في هذه المدة الزمانية أي تغيير في خارطة شبه الجزيرة اللهم الشيء القليل من النـزوح من الجنوب إلى الشمال والعكس وهو نزوح قديم جدا. وجاء الإسلام فانقلبت أوضاع العرب بتأسيس الدولة الإسلامية وما قامت به من الغزوات في داخل شبه الجزيرة وخارجها ومن تمصير الأمصار وتنقل الأعراب من البوادي إلى الأمصار مثل من نزل منهم في البصرة والكوفة فابتداءً من النصف الأخير من هذه الفترة سيتحضر الكثير من الأعراب مع بقاء لغتهم على ما كانت عليه بشيء كثير من التفاعل والتداخل في النطق وفي المفردات وظهور اللحن في هذه الأوساط عند من ولد فيها في بيئة لغوية يسودها العجم خاصة. وكان ذلك مجرد بداية في ذلك الزمان.

أما ما قاله ابن سلام في طبقاته عن الشعر أنه «كان في الجاهلية ديوان علمهم... فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّتْ العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر» (24-25). فهذا يؤكّده ما وصل إلينا من الشعر من المخضرمين من حيث الكم ومن حيث عدد الشعراء الذين نسبوا إلى كل قوم منهم كل ذلك بالنسبة إلى ما يقابله من فترة الجاهلية (قارن شعراء طئ مثلا بين الجاهلية وعهد المخضرمين).

الفترة الثالثة

من 41 هـ. إلى 183هـ.

الشعراء الإسلاميون (العهد الأموي)

إنّ رقعة الفصاحة السليقية بقيت على ما كانت عليه من بداية العهد الأموي حتى نهايته في 131 هـ. كما سنراه. إلا أن اللحن بدأ ينتشر في الحضر بسبب الاختلاط بين العرب وغيرهم وخاصة بالاتصال المباشر والتعايش معهم واندماج الموالى في المجتمع الجديد وتزوج العرب أو تسريهم بالإماء وكثر أولادهم من هؤلاء وكان ذلك سببا قويا في عدم تحكم أبناء العرب من الإماء للعربية ومثال ذلك عبيد الله بن زياد بن أبيه والى العراق (المتوفى في 67 هـ) [13].

وشهدت هذه الفترة الهامة بسبب ذلك حادثا هاما أيضا وهو استنباط أهمّ قواعد اللغة العربية الخاصة بالإعراب ثم التدوين لكلام العرب بالسماع المباشر من جميع القبائل العربية من أهل الوبر وأهل المدر التي كانت تتكلم باللغة التي نزل بها القرآن والجدير بالملاحظة أن أقدم هؤلاء النحاة كانوا في الوقت نفسه من القراء **فالنحو العربي وعلم القراءات نشآ معًا** وبقي كل واحد منهما مقترنا بالآخر منذ ظهورهما بعد بداية هذه الفترة بقليل إلى نهايتها بوفاة سيبويه في سنة 180.

I – العراق ونجد (بما فيه اليمامة) والبحرين.

– من العدنانية:

أولا : قبائل ربيعة بن نزار بن سعد بن عدنان

1– قبيلة بكر:

المنسوب إلى بكر:× عيسى بن فاتك و*×مالك المزموم و*×الأشلّ البكري (3 شعراء).

---

(13) – أمّه «مرجانة» ترك لها زياد بن أبيه ابنه عبيد الله. فبقيت فيه لكنة وكان يلحن. انظر البيـان للجاحظ 1، 71-72 وأمالي القالي، 1، 5. وقد وصف الجاحظ في البيان وبالتفصيل الوضع اللغوي للمجتمع العربي الإسلامي في هذه الفترة بالذات.

ومن شعراء ضبيعة: الأخطل الضبعي (شاعر واحد).

ومن شعراء يشكر: *عبيد الله بن عمر *× وكهمس بن عثمان (شاعران اثنان).

ومن شعراء شيبان: ×النابغة الشيباني و*×المنهال الشيباني و*×أعشى بن أبي ربيعة و*×البهلول بن بشر *وحصَين بن المنذر والشويعر الحنفي (هانئ بن توبة) والصُحـــاري بن شَبيب (7 شعراء).

ومن شعراء تيم اللآت: ×ابن الدُمَينة (شاعر واحد).

ومن شعراء حنيفة: *نافع بن الأزرق والبعيث بن حريث (شاعران اثنان).

ومن شعراء عجل: × العُدَيْل بن الفرخ و×أبو النجّم العجلي و×هارون بن سعد و×يزيد ابن الجدعاء (4 شعراء).

ومن شعراء سدوس: *× **عمرو بن أبي ربيعة و×عمران بن حطّان و*×محارب بن دثار (3 شعراء).**

ومن شعراء عنزة: أعشى بني ضورة (هزان)

2- **قبيلة تغلب:**

ومن شعراء تغلب: ×عمرو بن الأيهم و*×القطامي (عمير بن شُيَيْم) و*الأعشى التغلبي ورؤبة بن عمر بن الظهير التغلبي (4 شعراء).

3- **قبيلة عبد القيس:**

ومن شعراء عبد القيس: حبيب بن عوف العبدي و*×الحارث بن كعب الشيني وأبو الجويرية العبدي و*×داود بن عقبة العبدي و*×صالح بن مخراق العبدي و*صعصعة بن صوحان وعمر بن الهذيل العبدي و*عمر بن أوس بن عصبة و*×زياد الأعسم (9 شعراء).

ثانيا : قبائل مُضر: (في العراق ونجد وشرق الجزيرة).

أ- **قيس عيلان:**

المنسوب إلى قيس عيلان: *عبد الحجر بن سراقة و*×خلف بن خليفة و*عبد الرحمن بن أرطأة (هو عبد الرحمن بن سيحان) (3 شعراء).

المنسوب إلى هوازن: *مالك بن الجلاّح.

المنسوب إلى غطفان: *شمعلة بن طيسلة بن جبّار و*×عقيل بن عِلّفةَ المريّ (حفيد النابغة الذبياني) وشُرَيْح بن أوفَى وخفاف بن عمير بن الحارث (4 شعراء).

ومن شعراء محارب: *عمرو بن مُبْرَدَة ونُفَيْع بن سالم (شاعران اثنان).

ومن شعراء مازن: *×عبد الله بن الحجّاج التغلبي و*العوّام بن عقبة بن كعب (شاعران).

ومن شعراء ثعلبة: *× نهار بن توسعة وبشر بن رديح (شاعران اثنان).

ومن شعراء عدوان: *× محمد بن بشير (شاعر واحد).

ومن شعراء سليم :*×عمرة بنت مرداس وعُيَيْنَة بن مرداس و*×أبو وجرة السلمي والجحّاف بن حكيم و×أعشى طرود و*×حيَّان بن ظبيان والحجاج بن علاط البهزي (7 شعراء).

ومن شعراء فهم: عمرو بن حرثان (شاعر واحد).

ومن شعراء جشم: عمرة بنت دريد و×عبد الرحمن بن دارة (شاعران اثنان).

ومن شعراء باهلة: رؤبة بن العجَّاج الباهلي (شاعر واحد).

ومن شعراء غني: *عليّ بن الغدير (شاعر واحد).

المنسوب إلى عامر بن صعصعة: ليلى العامرية (شاعرة واحدة).

ومنهم بنو البكّاء بن عامر: عامر بن عقبة (شاعر واحد).

ومنهم سلول بن مرَّة بن صعصعة: ×العُجير بن عبد الله و×*مزاحم بن عمر وعمرو بن الفرزدق و*عبد الله بن همّام (4 شعراء).

ومن شعراء جعدة: *مالك بن الصمصامة و*عبد الله بن الحشرج (شاعران اثنان).

ومنهم بنو نمير بن عامر: ×* أم حكيم **و***حكيم بن مالك و×*أبو حية النميري الثقفي و×الراعي النميري و*حمام بن قبيصة (5 شعراء**).**

ومن شعراء كلاب: ×المتوكل بن عياض ونصيح بن نهيك و*عبد الله بن أبي الحوساء و×طهمان بن عمرو الكلابي و×*بشر بن صفوان و×*جامع بن مرخية وأبو دؤاد الرؤاسي وزفر بن الحارث (8 شعراء).

ومنهم الضباب: ×درَّاج بن زرعة بن قطن (شاعر واحد)

ومن شعراء عقيل: *توبة بن الحمير و*القحيف العقيلي و×مزاحم بن الحارث و*عمرو بن معاوية و×*ليلى الأخيليةو الأصمّ بن مالك (6 شعراء).

ومن شعراء قشير: *الطفيل بن قرّة و*عبيد الله الطريد و*×الحسن بن عمرو و*×ابن العفي اللبيني و*×عيسى بن عمير و*قدامة بن الأحرز و*×قعنب بن حبيب و×*محرز بن قرّة و*مختار بن وهب القشيري و*×اللّبيني المتنخس و×مريزيق القشيري و*×مَزْيد بن الحارث و*مصعب ابن الطفيل و*×مكرمة بنت الكحيل و*×منقذ بن عطاء و*×ميمون بن عامر و*×الورد بن علي و*عامر بن قرّة و*×فاتك بن منذر و*×نوال بن الثغاء و×*سوادة بن كلاب و*الصمة بن عبد الله و×*أبو الأعوج بن الصقيل و×*الأقرع بن معاذ و×*بطَّال بن معاوية و×*بشر بن سليمان وابن جحفل اللبيني و×*جفنة بن قرَّة و×*رحمة بن المفرَّج و*أبو الزهراء و×*زينب بنت الطثرية و×*سالم بن رماح و×*سلامة بن عامر و×*يزيد بن الطثرية (35 شاعرا).

ومن شعراء أشجع: ×بقيلة الأصغر و×*جبيهاء الأشجعي و×*فروة بن نوفل و×*سالم بن أبي الجعد الأشجعي (4 شعراء).

ومن شعراء عبس : يزيد بن خالد (شاعر واحد).

ومن شعراء ذبيان: ×*بشامة بن الغدير الذّبياني (شاعر واحد).

ومنهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان: ×*شبيب بن يزيد (ابن البرصاء) ×*وعقيل ابن علّفة (شاعران اثنان).

ومن شعراء فزارة: زميل بن أبير وشعيث بن ثواب و×عويف القوافي و×قعنب بن ضمْرة و×*معاوية بن عادية و*×أسماء بن خارجة و*×مرداس بن خُذَام (7 شعراء).

ب-إلياس بن مضر:

من شعراء ضبة: *تليد الضبيّ و×شظاظ الضبّي و*الأصم الضبي و×عيّاش الضبي (4 شعراء).

ومن شعراء الربَاب: *×جرفاس بن عقبة و×ذو الرّمة (شاعران اثنان)

ومنهم بنو عدي بن عبد مناة: ×أم الجرَاح العدوية (وهي من الخوارج) و×مسعود بن عقبة و*رابعة العدوية (3 شعراء).

ومن شعراء عكل :*×أعشى عكل و*جحدر بن معاوية و*خطيم بن نويرة العبشمي و×السّمهري العكلي و×سويد بن كراع و*×سوادة الحروري وعرقل بن الخطيم والأخطل ابن ربيعة (حفيد النمِر بن تَوْلب) والأخْطل بن حماد بن الأخطل بن ربيعة (9 شعراء).

ومن شعراء تيم بن عبد مناة: ×*سبيع بن الخطيم التيمي و×*عمر بن لجأ (شاعران اثنان).

المنسوب إلى تميم: ×الأبيرد بن المعذّر اليربوعي والأخطل بن غالب و×الأشهب بن رميلة و*×أوس بن جبناء و*×أوس بن مغراء و×جرير بن عطية وجندل بن المثنى و×حاجب الفيل وأبو حردبة و×حكيم بن معاوية و*×حميد بن الأرقط و*×خداش بن بشر (البعيث المجاشعي) و*دكين بن سعد الدّارمي ودكين بن رجاء الفقيمي و*×رؤبة بن العجّاج و×الزّفيان

التميمي (عطاء بن أسَيْد) وزياد بن منقذ و×سحيم بن الأعرف و×العجّاج و×*القلاخ بن جناب و×اللعين المنقري و×الفرزدق وهميان بن قحافة و×عروة بن أدية و*عمرو بن حنظلة و*عمرو بن القباع ومسعود بن خرشة و×*مسكين الدارمي ومضرحي بن كلاب و×مية بنت طلبة و×نوح بن جرير و*الوليد بن حنيفة و×*المرار بن منقذ و×*مرة بن محكان وأبو خزابة التميمي وحارثة بن بدر الغداني (36 شاعرًا).

ومن شعراء سعد: عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي و*العوّام بن عقبة بن كعب و*العوّام ابن المضرّب والهيردان (4 شعراء).

ومنهم بنو العنبر: ×عبيد بن أيوب.

ومنهم بنو صُدَيّ بن مالك بن حنظلة: ×عطارد بن قران (شاعر واحد).

ومنهم البراجم (أبناء حنظلة): *×عُمير بن ضابئ و*المغيرة بن حبناء وصخر بن حبناء.

ومن ربيعة بن مالك (ربيعة الجوع): *عمرو بن حُكَيْم بن معيَّة و*×عمرو بن ذُكينة (شاعران اثنان).

ومن شعراء خزيمة: عبد الله بن فضالة وعبد الله بن أبي مسروح وعبد الله بن مسلم(3 شعراء).

ومنهم بنو الليث بن بكر: *الشمردل بن عبد الله و*×المعذل بن عبد الله (شاعران اثنان).

ومنهم الدُّؤل بن بكر (بن عبد مناة بن كنانة): * ×أبو الأسود الدُؤلي و*×الأسود بن قطبة و*أسيد بن أبي إياس الدؤلي و*الحزين الديلي (4 شعراء).

ومن شعراء يربوع:×بلال بن جرير و×السَّفاح بن بكير و×الشمردل بن شريك و×غسان بن ذهيل السليطي (4 شعراء).

ومن شعراء أسد: *الحكم بن عبدل و*×حوثرة بن وداع و×رقيع بن أقرم وسالم بن وابصة بن معبد و*×عبد الله بن الزبير (أبو كبير) و*×حوثرة بن وداع وفضالة بن شريك و×الكميت بن ثعلبة و*×الكميت بن زيد و×أبو محمد الفقعسي و*×المرار الفقعسي و*×مسلم بن معبد الوالبي و×المقداد بن جسّاس و*×نافع بن لقيط الفقعسي و×النظار الفقعسي و×مضرّس بن ربعي و*يحي بن عرْوة وعمرو بن رئاب و*×رفيع الوالبي (عمار بن عبيد) (19 شاعرا).

ومن شعراء حذلم من أسد: عبد الله بن رِبعى.

ثالثا : من القحطانية (في نجد والعراق والبحرين).

طيء وكندة وإياد وتنوخ ولخم:

من شعراء طيء: *×الأحمر بن مالك الطائي و*أدهم بن أبي الزّعراء و*×أبيّة بنت عقبة الطائي و*×الأعور النبهاني و*×أنيف بن حكيم الطائي و*×أوفى بن حجر و*×إياس بن الأنف و*×بجير بن بجرة و*×بشر الملقطي و*×بشر الغريري و*الجرنفش بن عبدة و*جروة بن يزيد و*×جعفر بن عفّان و*خباب بن عديّ و*خفاف بن عبد الله و*×دعامة بن المسيّب و*×دعامة بن النديّ و*ذو الإصبع الطائي و*رقيبة الجرمي و*أبو زياد الطائي و*×زياد بن عديّ بن حاتم و×أبوالسَّمح الطائي و*×سنان بن الفحل الطائي و*×شبيب بن عمرو بن كريب و×*الشرعبي الطائي و*×الطرماح بن حكيم و*×الطرماح بن عديّ الطائي و*×طريف ابن عديّ بن حاتم الطائي و*عبد الرحمن المعني و*×عبيد بن أوس و*×عبيد بن معاوية و*×عديّ بن زيد الطائي و*×عويج بن ضُريس والعيزار بن الأخنس و*غالب بن الحرّ و*×كُرْز بن عميرة و*×كعب بن عميرة و*×كندة بن هذيم و*مالك بن الوضّاح و×*المثنى بن معروف و*×مرداس بن همّاس و*×مروان بن مالك و*×مسعود بن مالك و*×مسعود بن بكير و*معدان بن أوس الطائي و*خفاف بن عمير بن الحارث و×الطرماح بن الجهم و*×أبو العسوس وعلقمة بن عديّ و*عليّ بن معدان و*عبد الرحمن ابن عويم بن ساعدة و*عبد الرحمن بن قشير و×أبو المصك الطائي و*وبرة بن الجحدر (54 شاعرا).

ومن شعراء سُنْبُس بن مالك من طئ: معاذ بن جوين.

ومن شعراء كندة: الأشعث بن قيس بن معد يكرب و*شريح القاضي و*×شريح بن أوفى (3 شعراء).

ومن شعراء أزد: *الأغلب بن نباتة الأزدي و*×ثابت قطنة وثابت بن وعلة و*الجعد بن ضمام و*الجموح بن عمر الفهمي و*عوف بن عبد الأحمر و*×سراقة ابن مرداس الأصغر وأبو عديّ الأزدي و*×كعب بن معدان الأشقري و*يعلى بن مسلم الأزدي (10 شعراء).

ومنهم بنو راسب بن مالك من الأزد : *×الحويرث الراسبي *×عبد الله بن وهب و*×عمرة أم عمران و×مُنير بن صخر و*×أبو الوازع الراسبي و*زيد بن عبد الله الراسبي (وكلهم من الخوارج) (6 شعراء).

ومن شعراء إياد: *×حطّان الأعسر (من الخوارج) و*×حطّان الإيّادي (من الخوارج أيضا) (شاعران اثنان).

ومن شعراء عاملة: *عدي بن زيد وسَلْمى بنت عدي (عمة السابق) (شاعران اثنان).

رابعا: الحجاز والشام واليمن

أما الحجاز:

ومن شعراء كنانة: ×عبد الله بن جذل و*×عروة بن أذينة و*عزّة بنت جميل و*×قيس بن ذريح و*×المتوكل اللّيثي و*×نصر بن يسار وعمرو بن شيبان و*أبو الطفيل (عامر بن وائلة) (8 شعراء).

ومن شعراء هذيل: *×أمية بن أبي عائذ و*×بدر بن عامر و×سهم بن أسامةٌ و*×أبو صخر الهذلي و*عبيد الله بن عتبة و*عبيد الله بن عبد الله و×عقيل بن زياد و×أبو عمارة بن أبي طرفة و*عون بن عبد الله وأمية بن أبي عائذ (10 شعراء).

ومن شعراء قريش: *عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب و*×الحارث بن خالد بن العاص و*خالد بن المهاجر بن خالد و*×أبو دهبل الجمحي و*أبو قطيفة: (عمرو بن الوليد) و*×زيد بن علي بن الحسين و*×يزيد بن معاوية و*موسى بن يسار و*الوليد بن يزيد بن معاوية

و *سكينة بنت الحسين و *×عبد الله ابن معاوية و *أبو محمد عبد الرحمن بن أبي بكر و *عبد الرحمن بن الحكم و *×عبيد الله بن قيس الرّقيات و *×العرجي و *×عمر بن أبي ربيعة وعمرو بن سعيد بن العاص و *×عمرو بن الوليد و *×مسافر بن أبي عمرو و *×معاوية بن عبد الله و *×موسى شهوات و *هشام بن الوليد و *×الوليد بن يزيد بن عبد الملك و *الفضل بن العباس و *قدامة بن موسى و *عمرو ابن الزبير بن العوام و *أبو العبّاس الأعمى (السائب بن فروخ) وعبد الله بن خازم (28 شاعرا).

ومن شعراء مزينة: *عمرو بن رياح ومضرّس بن قرط المزني (شاعران اثنان).

ومن شعراء ثقيف: *القاسم بن عمر و *يزيد بن ضبة الثقفي و *يزيد بن الحكم الثقفي (3 شعراء).

ومن شعراء خزاعة: *عمرو بن سنّة و *×كثير عزّة (شاعران اثنان).

ومن شعراء الخزرج: *بشر بن عبد الرحمن (من سلمة بن سعد) *×مالك بن قيس و *حميدة بيت النعمان و *النعمان بن بشير (4 شعراء).

ومن شعراء الأوس: *×الأحوص بن عبد الله بن محمد وخُزَيمة بن ثـابت (ذو الشهـادتين) (شاعران).

ومن شعراء كلب: ×*عمرو بن مخلاة الكلبي (من تيم اللات) **و** *القطامي الكلبي و *ميسون بنت بحدل وجوّاس بن ثابت والرباب بنت امرئ القيس بن عدى (5 شعراء).

ومن شعراء قضاعة: *الأقيبل القيني و *×حارثة بن صخر القيني و *حسام بن ضرار (3 شعراء).

ومنهم قين بن جَسْر : *كعب بن المخبَّل (شاعر واحد)

ومن شعراء بني عذرة: *الأجدع بن خشرم و×*بثينة بنت حباب و×جميل بثينة وزيادة بن زيد و *عفراء بنت مهاصر (5 شعراء).

خامسا: وفيما يخص اليمن

ومن شعراء مذحج: *×عبيد الله بن الحرّ الجحفي (شاعر واحد).

ومن شعراء مراد: *×الرّهين بن سهم المرادي و*×عبد الرحمن بن ملجم و×*ابن أبي ميّاس المرادي (3 شعراء).

ومن شعراء نخع: *×عمرو بن يزيد (شاعر واحد).

ومن شعراء همدان: *×الأزق الهمداني و*الأعشى الهمداني و*برير بن خضير الهمداني و*×بشر ابن الأجدع الهمداني و*الحارث بن سميّ بن روّاس و×حجر بن قحطان الوادعي و×خالد ابن صعب ورفاعة بن وائل و*×أيوب بن خولي وسلمة بن هاران و×الشهيد بن حاضر النّشفي الهمداني و×عبد الله بن الحارث و×عبد الرّحمن بن أبي عبيد و×عثمان الهمداني و*×يحي ابن وائل و*×عمرو بن الحصين و×*غالب بن عثمان و×المجالد بنُ ذي مران ومحمد بن المنتشر والمذنوب الهمداني و×مروان بن عمير و*×مسروق بن الأجدع ومسروق بن ذي الحارث و×المعان بن روق و*معقل بن عبد خير و×المعيوف بن يحي و×*هانئ بن خطّاب الأرحبي و×هند الهمدانية وعبد الرحمن بن زيد و*×عمّار ذو كبار و×علقمة ذو جدن و*نمران بن أبي نمران (32 شاعرا).

ومن شعراء بجيلة: *عمرو بن دويرة والشمردل بن جابر (شاعران اثنان).

ومن شعراء جرم: ×بيهس بن صهيب و×*ملحة الجرمي و*أبو المقدام الجرمي (3 شعراء).

ومن شعراء خولان بن عمرو : *وضّاح اليمن (شاعر واحد).

ومن شعراء حمير: *×يحي بن نوفل (شاعر واحد).

ومن شعراء حضر موت: *×الحارث بن جحِدم (شاعر واحد).

ومن شعراء نهد: *عمرو بن مرة (شاعر واحد).

الشعراء الذين نسبوا إلى مكان معين أو إلى مذهب خاص

من شعراء الشام: *عبد الله بن يزيد و*أدهم بن محرز.

أبو حفصة و×عطية بن سمرة و*×مسلم بن جبير ومريم زوج المختار.

ومن شعراء نجران: *عبد الرحمن بن الحارث **و***عمرو بن عامر و*عمرو بن قراد.

ومن شعراء فارس: × *إسماعيل بن يسار وزياد الأعجم و*يحي بن أبي حفصة.

ومن شعراء الخوارج: *الأصم بن مالك و*الأعسر الأزرقي و*×سمرة بن الجعد.

الشعراء المخضرمون بين الدولتين (الأموية والعباسية)

سمّاهم ابن قتيبة (لا الأصمعي كما يزعم) «ساقة الشعراء» والحق أن هذه التسمية تنطبق على أهل الحضر في نهاية القرن الثاني.

*عبد الله بن خازم و×المشعان و*خزيمة بن ثابت الفاكه و*خفاف بن عمير بن الحارث و*الرباب بنت امرئ القيس بن عدي.

من العدنانية في العراق ونجد والحجاز:

I - قبائل مُضر

من شعراء قيس عيلان: الحكم بن معمر الخُضْري (150هـ.) (خضر محارب «قيس») **و***طُرَيْح الثقفي: أبو الصَّلت، طريح بن اسماعيل بن عبيد بن أسيد (165هـ.) (ثقيف) وقراد بن العيّار (160هـ.) وابن ميّادة (الرماح بن أبرد 149هـ.) (ذبيان) وأبو حية النميري (الهيثم بن الربيع 183هـ.) وصخر بن جعد الخُضْري (من بني جحاش بن سَلَمة من ذبيان) وعامر بن عمارة بن خزيم (كان على رأس المضرية في 186هـ.)

ومن شعراء تميم: رؤبة بن العجاج (147هـ.) وعقبة بن رؤبة بن العجاج (من بني سعد بن مالك «تميم»).

ومن شعراء أسد: أفلح بن يسار: أبو عطاء السندي (180هـ=796م) (أسدي من الموالى) والحسين بن مُطير الأسدي (170هـ).

ومن شعراء قريش: *× إبراهيم بن هَرْمَة (183هـ.) و*ابراهيم بن عبد الله الطالبي (بن الحسن بن علي بن أبي طالب) (97هـ-145هـ) و*عبد الله بن عمر العبْلي: أبو عدي الأموي (بعد 145 هـ) (قريش «من أهل المدينة») والفضل بن عبد الرحمن (بنو هاشم، 173 هـ.)

ومن شعراء هذيل: *أميّة بن أبي عائذ العمري.

II - قبائل قحطان

ومن شعراء خثعم: ابن دُمَينة (عبد الله بن عبيد الله، 143 هـ.)

تعليق على الفترة الثالثة

هذه الملاحظة الهامة قبل أن نتطرق إلى ما جاء في هذه الفترة:

فيما يخص كلام العرب غير الشعر فينبغي لنا أن نلفت الانتباه إلى أن الكلام الذي بدأ يسجّله العلماء ابتداءً من سنة 90 (على يدي أبى عمرو بن العلاء) لم يقتصر على الشعر. فهيهات أن يكون الأمر كذلك والذي يمكن أن نقوله هو أن ما سمعوه من الكلام المنثور أي بلغة التخاطب وكل ما يسمع من المنثور الفني كالخطب والوعظ والأمثال وما يجري مجراها كان كثيرًا جدا فكيف يمكن أن تستنبط قواعد اللغة بالاكتفاء بالشعر؟ وأكبر دليل على ذلك هي الحجج النثرية أو أمثلتها الكثيرة جدا التي ذكرها سيبويه في كتابه والفراء والأخفش وأبو عبيدة وابن السكّيت وغيرهم في كتبهم وكذلك هو الأمر بالنسبة لمتن اللغة فأكثر المفردات التي تذكرها المعاجم كان لها بالضرورة إطارها المسموع من النثر. ثم شهادة العلماء أنفسهم بالكثرة المهولة ممن سمعوا منهم من العرب (انظر الباب الثالث من هذا الكتاب).

ولهذا فإحصاؤنا الشعراء في كل إقليم بحسب العصور لبيان تطوّر رقعة الفصاحة السليقية هو وسيلة كما قلنا للتأكّد من ذلك وقد لا يوجد غيرها لتحقيق هذا الغرض لعدم تمكن العرب وغيرهم من حفظ ما لا ما يمكن حفظه بسهولة.

لقد بدأت رقعة الفصاحة السليقية في هذه الفترة تتقلّص شيئا فشيئا: بدأ ذلك بالقرى والمدن التي اختلط فيها العرب بالعجم وتداخلت فئاتهم الاجتماعية المختلفة وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك منذ قليل.

وبهذا نتأكّد أن الفصاحة السليقية العربية تغيَّرت عبر الزمان ولكل عصر من عصور الاحتجاج رقعته الفصيحة:وكانت تغطي في أقدم العصور، كما رأينا، كل الجزيرة العربية حتى بعد ظهور الإسلام بكثير إلى أن صار الذين وُلدوا بعد ظهور الدين الحنيف في سنّ الرشد وكثُر منهم أبناء البيئة الاجتماعية غير الفصيحة فخرجت الفصاحة السليقية شيئا فشيئا من الحضر واستبدلت فيه بالفصاحة غير السليقية ولغة ملحونة كلغة تخاطب. وبقيت سليمة في البوادي.

وأما القسم الأول من هذه الفترة أي العهد الأموي الذي امتدّ من 41هـ. إلى غاية 131هـ. حيث تولى الحكم بعدهم بنو العباس فالتغيير اللغوي فيه وإن كان قد ظهر مبكرا إلاّ أن أغلب العرب القاطنين في الحضر وخاصة في أمصار الإسلام بقوا على فصاحتهم كما قلنا وخلافا لما رُوّج من أنّ فشو اللحن كان شاملا من أول الأمر في أهل المدن. فهذا غير صحيح وأكبر دليل على ذلك هو استشهاد كل اللغويين بكلامهم أيا كان محلّ إقامتهم. فالعدد الكبير جدا ممن ذكرهم سيبويه ومن جاء بعده من النحاة واللغويين يحتجون بأهل الحضر:كشعراء مكة والمدينة في ذلك الوقت: كعمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات والحارث بن خالد والأحوص وعبد الرحمن بن حسان والسرى بن عبد الرحمن الأنصاري وغيرهم ومن العراق: الأخطل والقطامي والكميت(14) وأعشى بن أبي ربيعة والحكم بن عبدل ولبيد وغيرهم.

والجدير بالملاحظة هو أن سيبويه الذي ألف كتابه بين 170 و180 لم يسم الذين استشهد بهم أعرابا إلا مرات قليلة بل يسمّيهم عربا مئات المرات كما سنراه وهذا لا يمنعه من التنبيه

---

(14) - هذا وقد سبق أن رددنا على من يحتج بما جاء منسوبا ظلما و إجحافاً إلى الأصمعي في هذا الذي يسمى بـ «فحولة الشعراء» (أنظر مقدمتنا) ولا يمكن أن يكون هذا من كلام الأصمعي إطلاقا لأنه لا يعقل أن يخالف الأصمعي جميع شيوخه وزملائه في رده لحجج مثل الكميت والقحيف ثم يستشهد بكلامهما أو يعمل ديوان الكميت؟!

على أن هذا الكلام غير العادي الذي سمعه أو القليل أو الغريب التركيب إنما سمعه «ممن يوثق بعربيته».

وقد أحصينا عدد الشعراء الذين سكنوا إحدى المدن أو القرى فوجدنا أن عدد الذين عاشوا في الكوفة في هذه الفترة يبلغ **تسعة وثلاثين شاعرا** فصيحا بالمعنى المقصود عند النحاة، من مجموع تسعة وستين شاعرًا فصيحا وعدد البصريين تسعة عشر شاعرًا. واستشهد اللغويون بالكثير منهم ولا شك أن ما جمع من شعرهم كان جزءًا لا يتجزأ من المسموع أي المدونة التي اعتُمِد عليها في دراسة العربية.

وأكثر من هذا فإن بعض هؤلاء الذين استشهد بكلامهم في اللغة والنحو فقد نشأوا أو عاشوا في بلاد العجم! مثل خراسان فقد انتقل إلى فارس العدد الكبير من بكر وتميم وغيرهم وأنشأوا بعد الفتح جالية كبيرة وحافظوا بذلك بكثرتهم وتماسكهم على بيئة لغوية مؤقتة وكان في هذه البيئة زياد الأعجم وهو فارسي الأصل واستشهد بشعره سيبويه وغيره. ونذكر أيضا والى اصطخر حُصين بن المنذر الرقاشي وكعب بن معدان الأشقري من أصحاب المهلّب ثم من أصحاب قتيبة بن مسلم وكان يحارب في فارس وكذلك هو نهار بن توسعة اليشكري وقد قيل إنه «كان من أشهر شعراء بكر في فارس»! (توفى في 112هـ).

هذا وقد لاحظنا وجود موالٍ فصحاء بالمعنى الذي قصده النحاة وقد أقمنا قائمة تكاد تكون كاملة لأسماء المشهورين من الشعراء الفصحاء الذين كانوا موالى في الأصل. فتَّيقنَّا بذلك بما قلناه في تطرقنا لمفهوم الفصاحة اللغوية والسليقية أن العلماء العرب كانوا سبقوا غيرهم في اكتشاف أهمية دور المنشأ اللغوي في المحافظة على سلامة الملكة اللغوية وقد لاحظوا على هذا أن كل من لا يلْحَن ولو مرة واحدة (من غير الهفوات) فلم يكُنْ بالضرورة من العرق العربي. وهذا قد فات الكثير من المعاصرين.

فأما أبناء العرب الذين نشأوا في بيئة فصيحة لا يشوبها شئ فقد كانوا هم الأغلبية في هذه الفترة في قسمها الأول.

أما بعد وفاة سيبويه فقد ظهرت ظاهرة عدوى اللحن وأُصيب بهذه العدوى كل من كان منشأه اللغوي العربية وعمَّ ذلك كل التجمُّعات الحضرية وقل في هذا الزمان من صار يوثق بعربيته، فما دخل القرن الثالث على الناس حتى **اختفت الفصاحة السليقية في الحضر باختفاء البيئات اللغوية الفصيحة فيها**. وحافظت مع ذلك البادية على هذه الخصلة هي وحدها فإذا نظرنا في قائمة الشعراء الفصحاء من مخضرمي الدولتين تعجبنا من قلتهم. وبعد وفاة ابن هَرْمة (آخر الشعراء الفصحاء من المدن) وغيره أي حوالي سنة 183 لم يبقَ شاعر نشأ في الحضر يوثق بعربيته فالشعر لم يزل مزدهرًا بل ربما أكثر من أي وقت مضى[15] إلا أن زوال المنشأ اللغوي الفصيح جعل كل العلماء في ذلك الوقت لا يعتمدون على الشعر والكلام المنثور الصادرين من غير الفصحاء السليقيين بالإجماع. ويجب، في نظرنا، أن لا نتهاون بهذا الإجماع فهذا ليس مجرّد قرار لفئة ضيقة من الناس بل هو خضوع لقانون من قوانين البحث العلمي في الوقت الحاضر:لا تؤخذ اللغة إلا ممن يمثِّل من حيث اللغة المجموعة الناطقة باللغة المعنية حق التمثيل في جميع الأحوال الخطابية وفي التخاطب اليومي خاصة لأن كل مَنْ يدَّعي أنه يُحسن لغة فلا بد أن يخضع لما تعارفوا عليه من طريقة كلامهم[16]. وفي آخر هذه الفترة تعوّد اللغويون أن يبحثوا عن فصحاء العرب في البادية أو أن يلقوهم في القرى والمدن وقد نزحوا إليها من البادية. وتُنوسِيَ الزمان الذي كان النحاة الأولون يجدون في الحضر الكثير من الفصحاء السليقيين (إلى غاية سيبويه) ولقب حينئذ كل هؤلاء «**بفصحاء الأعراب**» وتركت عبارة سيبويه وشيوخه: «**فصحاء العرب**». وتم ذلك في القرنين الثالث والرابع حتى ظن كل العلماء والباحثين في زماننا أن البداة هم الذين أخذت منهم اللغة وحدهم في كل زمان. ويكذب هذا القول ما أحصيناه من شعراء القرى الفصحاء وهم كثيرون.

---

(15) – وذكر المبرد بعض هؤلاء الشعراء الذين يسميهم بالمولَّدين : بشار بن برد وأبو نواس ودعبل الخزاعي وصالح بن عبد القدوس وعبد الصمد بن المعذل وغيرهم (الكامل، 3–20).

(16) – وعلى هذا يجب أن نتفادى التخليط الخطير بين امتِناع اللغويين من الأخذ بلغة «المولّدين» وبين الاستهانة بكل ما هو مُحدَث. فاللغويون العرب لم يستهينوا أبدا بشعر المولدين من حيث الجودة الفنية فقد قام بعضهم –كالسكري مثلا– بتدّوين أشعار بعضهم وناهيك بالمتنبي الذي أعجب به كل اللغويين في زمانه. فالمولد قد يفوق شعره جودة شعر الفصيح السليقي فالامتناع من الأخذ بلغته ليس من هذه الجهة كما قلنا.

الفترة الرابعة والأخيرة

من عصور السماع : من 183هـ، إلى 392 هـ.

لقد خرجت الفصاحة السليقية من الحضر في أواخر القرن الثاني كما رأينا وبقيت في البوادي بدليل مواصلة العلماء في القرن الثالث وحتى الرابع كما سنراه تحرياتهم اللغوية بنفس الاهتمام.

وقد طال عمر اللغويين اللذين عاشوا في أواخر زمان أبي عَمْرو بن العلاء وهم الأصمعي (المتوفى في 215) وأبو زيد الأنصاري (المتوفى 205) وأبو عبيدة (المتوفى 211) وغيرهم وكانوا مع من سبقهم أخذوا اللغة طيلة حياتهم من فصحاء العرب أينما كانوا في البدو والحضر. واضطرّوا هم ومن عاشوا إلى بداية القرن الثالث وكل من تتلمذ عليهم كأبي حاتم السِجْستاني وابن السكيت والأثرم وغيرهم أن يكتفوا في تحرياتهم بالأعراب وتركوا غيرهم واطّرد ذلك إلى أن صار من الشائع الذي لا يُعرف غيره أن فصحاء العرب الذين يؤخذ بلغتهم هم أهل البدو منذ القديم ولا يزال ذلك شائعًا إلى الآن.

وإن نحن حاولنا تصفح الشعراء الفصحاء المنتمين إلى القرن الثالث ممن أُخذ بلغتهم فسنجدهم كلهم من الأعراب كما سنبينه فيما يلي إلا أن الأوضاع الاجتماعية قد تغيَّرت تغيرًا عميقا فلم يَعْتَلِ من هؤلاء الأعراب بشعره إلى ما اعتلاه شعراء الحضر من المنــزلة في هذه الفترة إلا ما لا يعتد به قلة. فكأن قيمة الفرد صارت غير مرتبطة إلى حدّ بعيد بسؤدد القبيلة بداية من ذلك العصر في أغلب الأحوال. وها هي ذي قائمة من الأعراب اشتهروا في هذا العصر بالفصاحة الموثوق بها عند اللغويين وأكثرهم كانوا شعراء :

قيس عيلان :

- **من سُلَيم:** عرّام بن الأصبغ (استقدمه عبد الله بن طاهر إلى نيسابور)
- **من بني عامر:** ناهض بن ثومة
- **من كلاب:** – أبو جميل. استشهد بشعره ابن السكيت

- أبو مرة. كذلك

- أبو عثمان سعيد بن ضمضم

- من عقيل: - الصقيل العقيلي (ذكره الجاحظ في البيان،2،156)

- أبو عِمْر العُقيلي. استشهد بكلامه ابن السكيت

إلياس بن مضر

- من عكل: أبو الوجيه (الحيوان،4،194)

- من تميم: - أبو البيداء **الرياحي**. روى للأصمعي

- زيد بن كثوة **العنبري** (البيان 1،163)

- أبو زيد **المازني** (محمد بن حسب)

- عبد الله بن أبي صبيح **المازني**

- أبو المجيب الرَّبعي

- من أسد: - أبو ثوابة (من أعراب البصرة)

- أبو الخطاب عمرو بن عامر **البهدلي**

- نصر بن مضر (اسمه رهمج)

بنو قحطان:

- من طيء: - نصيح بن نهيك (بن قعنب)

- أبو السمح

ومن الشعراء المبرزين (ذوى الفصاحة السليقية) نذكر أيضا عُمارة بن عَقِيل وعَقيل هذا شاعر أيضا وهو حفيد الشاعر المشهور جرير بن الخطفى. ولد باليمامة وتردد على بغداد. واستشهد بشعره وكلامه علماء القرن الثالث منهم المبرد. توفي في خلافة المتوكل.

فكل هؤلاء الشعراء هم في الحقيقة أعراب مشهورون روى عنهم العلماء من القرن الثالث خاصة كابن السكيت وبعضهم انتقل إلى الحضر واستقرّ فيه.

إن العهد الذي شُهِد فيه سُؤْدُد القبائل البدوية بكثرة شعرائها انتهى في القرن الثالث كما نرى ولم ينبُغ الشعراء الفطاحل في هذا العصر مثل أبي تمام والبحترى ثم بعدهما ابن الرومي وأبو فراس والمتنبي وغيرهم إلا في المراكز الحضرية التي يقطنهـا الأمراء وأصحاب السلطة وهي أيضا بُؤَر للإشعـاع الثقافي. وقد بدأ ذلك في العهد الأموي بنـزوح الشعراء من البادية إلى المدن أو تردّدهم عليها (مع الكثيـر من أهل البدو) والذي يُلفت انتباهنا هنا هو بقاء الأعراب في هذا العصر على فصاحتهم اللغوية وعدم تغيّر لغتهم عموما ومع ذلك أشار الجغرافيون العرب إلى وجود اللحن في البوادي أيضا.

فأما القرن الرابع فقد انتشر اللحن في البوادي انتشارًا واسعا وبقيت مع ذلك جموع كثيرة من الأعراب على فصاحتها وذلك لعزلتها غالبا. ولنا في ذلك شهادة صريحة بالنسبة إلى بعضهم، من اللغوي الكبير أبي منصور الأزهري (المتوفى في 370هـ). خرج الأزهري من بلده هراة قاصدا الحج فعند عودته وقع في أسر أعراب من القرامطة في سنة 312 وهو شاب. يقول في مقدمة كتابه «تهذيب اللغة»: «وكنت امتحنت بالإسار سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير وكان القوم الذين وقعت في سَهْمِهم عربا عامتهم هوازن واختلط بهم أقوام من تميم وأسد بالهبير. نشئوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع ويرجعون إلى أعداد المياه في محاضرهم زمان القيظ ويرعون الغنم ويعيشون بألبانها ويتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش فبقيت في إسارهم دهرًا طويلا. وكنا نتشتّى الدهناء ونتربّع الصمّان ونتقيظ الستارين[17]. واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمة ونوادر كثيرة، أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب...» (1،7). وبالفعل فقد اعتمد الأزهري في كتابه على الكثير مما سمعه من هؤلاء الأعراب في ذلك الزمان.

---

(17) - هذه أماكن يعرفها جيدا اللغويون الذين نزلوا إلى الميدان. أنظر الباب الرابع من هذا الكتاب.

ولنا أيضا شهادة أخرى للغوي آخر معاصر للأزهري وهو الجوهري (أبو نصر اسماعيل بن حماد. المتوفى في 398). وصرّح في مقدمة معجمه «الصحاح» ما يلي: «قد أودعت في هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منــزلتها...بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهــم بالبادية...» (1،34).

فهاتان شهادتان على بقاء الفصاحة السليقية في جهات كثيرة في البوادي في القرن الرابع. وهناك شهادات أخرى لا تكتفي بذكر الأماكن التي لم تزل فيها البيئات الفصيحة المتوارثة حيث يحصل فيها أهلها على العربية غير الملحونة بل يذكر أصحابها أيضا الأماكن التي أصابها التغيّر اللغوي القليل أو الكثير وهي شهادات الجغرافيين.

فهذا الهمداني (الحسن بن احمد. المتوفى في 334) صاحب كتاب صفة جزيرة العرب يأخذ بعض جهات شبه الجزيرة ويصف لغة أهلها من حيث الفصاحة وهو يقصد لغة التخاطب اليومي وبالتالي كَشَفَ عن مدى بقاء الفصاحة السليقية في هذه الأقاليم من شبه الجزيرة. وله في ذلك كلام طويل مفيد.

قال: «لغات أهل هذه الجزيرة: أهل الشحر والأسعاء ليسوا بفصحاء، مَهْرة غتمُ يشاكلون العجم. حضرموت ليسوا بفصحاء، وربما كان فيهم الفصيح وأفصحهم كندة وهمدان وبعض الصُدف. سَرْوُ مَذْحج ومأرب وبَيْحان وحَريب فصحاء وردِيُّ اللغة منهم قليل. سَرْوُ حمير وجَعدة ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيء من التحمير ويجرون في كلامهم ويحذفون فيقولون يا بن معَمْ في يابن العم وسِمَع في اسمع. لحج وأبْين ودَثينة افصح والعامِريُّون من كِنْدة والأوديون أفصحهم. عدن لغتهم مولدة رَدِيَّة...بنو مجيد وبنو واقد والأشعَرُ لا بأس بلغتهم. سافلة المعافر غُتم وعاليتها أمْثَل. والسكاسك وسط بلد الكلاع نجدية مثيل مع عسرة من اللسان الحميري سراتهم فيهم تعقد. سخلان وجيشان ووراَخ وحَضرِ والصُّهَيْب وبدر قريب من لغة سَرْو حميرَ، ويحصِب ورُعين أفصح من جُبْلان، وجبلان في لغتهم تعقد، حقل قتاب فإلى ذَمار الحميرية القحَّةُ المتعقدة، سَرَاة مَذْحِج مثل ردْمان وقرَن ونجدها مثل رَدَاع، وإسبيل

وكوْمان والحدا وقائفة ودِقرار فصحاء، خولان العالية قريب من ذلك، سحمَّر وقَرْد والحبلة ومِلح ولحج وحمض وعُتمة ووتيح وسمْح وأنس وألهان وَسَط وإلى اللكنة أقرب، حَراز والأخروج وشمُّ وماظِخ والأحبوب والحجادب وشَرَف أقيان والطرف وواضع والمعلل خليطي من متوسط بين الفصاحة واللكنة وبينها ما هو أدخل في الحميرية المتعقدة لاسيما الحضورية من هذه القبائل. بلد الأشْعَر وبلد عك وحَكم بن سعْد من بطن تهامة وحوازها لا بأس بلغتهم إلا من سكن منهم القرَى، همدان من كان في سراتها من حاشد خليطي من فصيح مثل عُذَر وهَنْوَم وحَجور وغتم مثل بعض قُدَم وبعض الجَبَر، نجدي بلد همدان البَوْن منه المشرق والخشب عربي يخلط حميرية ظاهر همْدان النجدي من فصيح ودون ذلك، خيوان فصحاء وفيهم حميرية كثيرة إلى صعدة، وبلد سُفيان بن أرْحب فصحاء إلا في مثل قولهم: أمْ رَجل وقيّد بعيراك ورأيت اخوَاك». ويشركهم في إبدال الميم من اللام في الرجل والبعير وما أشبهه الأشْعَر وعك وبعض حكم من أهل تهامة. وعُذَر مَطِرَة ونهم ومُرْهِبة وذبيان وسكن الرَّحْبة من بلحارث فصحاء ضَيَاف بالجوف الأعلى دون ذلك خرفان وأثافت لا باس بفصاحتهم، سكن الجوف فصحاء إلا من خلطهم من جيرة لهم تهاميين، قابل نْهم الشمالي ونعمان مرْهبة فظاهر بني عِلْيان وظاهر سفيان وشاكر فصحاء. بلد وادِعَة بنو حرب أهل إمالة في جميع كلامهم، وبنو سعد أفصح، من ذمار إلى صنعاء متوسط وهو بلد ذي جُرَة، صنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبذ من كلام حمير، ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات لكل بقعة منهم لغة ومن يُصَاقب شعَوُب يخالف الجميع، شبام أقيان والمصانع وتخلى حميرية محْضَة، خَوْلان صَعْدَة نجديها فصحاء وأهل قدّها وغورها غتم، ثم الفصاحة من العرْض في وَادعَة فجنب فيام فزُبيد فبني الحارث فما اتصل ببلد شاكر من نجران إلى أرض يام فأرض سنحان فأرض نهد وبني أسامة فعنــز فخثعم فهلال فعامر بن ربيعة فسراة الحجر فَدَوْس فغامد فَشكر ففهم فثقيف فبَجلة فبنو علي غير أن أسافل سروات هذه القبائل ما بين سراة خولان والطائف دون أعاليها في الفصاحة. وأما العروض ففيها الفصاحة ما خلا قراها وكذلك الحجاز فنجد السفلى فالى الشام والى ديار مضر وديار ربيعة فيها الفصاحة إلا في قراها، فهذه لغات الجزيرة على الجملة دون التبعيض والتفنين.

فهذا الذي ذكره الهمداني مفيد جدا ففي سنة 316 (سنة تأليف الكتاب) وما بعدها كانت لا تزال الفصاحة السليقية موجودة في البوادي من شمال اليمن وما جاورها فلا عجب إذا لقينا ابن جني يواصل التحريات اللغوية في أواسط القرن الرابع.

قال في الخصائص: «وسألت غلاما من آل المهيا فصيحا عن لفظة من كلامه لا يحضرني الآن ذكرها. فقلت: أكذا أم كذا ؟ فقال: «كذا بالنصب لأنه أخف» فجنح إلى الخفّة وعجبت من هذا مع ذكره النصب بهذا اللفظ. وأظنه استعمل هذه اللفظة لأنها مذكورة عندهم في الإنشاد الذي يقال له النصب مما يتغنى به الركبان» (1،78).

وكثيرا ما يذكر ما سمعه من أعرابي اسمه أبو عبد الله الشجري[18] وذلك مثل هذا الحديث الذي جرى معه: «وسألته مرة فقلت له: كيف تجمع دكانا ؟ فقال: دكاكين. قلت: فسرحانا قال: سراحين...فعثمان ؟ قال: عثمانون: فقلت: هلا قلت أيضا عثامين ؟ قال: «أيش هذا ! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته، والله لا أقولها أبدًا ! (1،242). وقال أيضا: «وأنشدني الشجري مرة لنفسه:

وإنا ليرعَى في المنخرف سوامُنا كأنه لم يشعر به يحاربُه

فاختلس ما بعد هاء «كأنه» ومطل ما بعد هاء «بهي» واختلاس ذلك ضرورة» (1،371). وقال:...إلا أن تسمع شيئا من بدوى فصيح فتقوله. وسمعت الشجري أبا عبد الله غير دَفْعة يفتح الحرف الحلقي في النحو» يعدو وهو محموم ولم أسمعها من غيره من عُقيل فقد كان يرد علينا من يؤنَس به ولا يبعد عن الأخذ بلغته...» (2،9).

وليس الشجري الأعرابي الفصيح الوحيد الذي سمع منه مثل ابن جني في القرن الرابع إلا أن هذا اللغوي سيخبرنا في نفس الكتــاب عن اضمحلال الفصحـــاء بالمعنى المصطلح عليه ولا شك أن مشـــاهدته لهذا قد حصلت في أواخر حياته [19]. يقــول في ص5-6 من

---

(18) - يسميه في ص76 من الجزء الأول أبا عبد الله محمد بن العسّاف العُقيلي وهو هو كما جاء في ص 4 من الجزء 2.

(19) - وأضافه إلى كتابه لأنه يذكر أحاديث قد تناقض هذا الكلام.

الجزء الثاني: «وقد طرأ علينا أحد ممن يدعى الفصاحة البدوية [20]...فتلقينا أكثر كلامه بالقبول...إلى أن أنشدنا يوما شعرا لنفسه يقول في بعض قوافيه: أشئؤُها وأدأوُها...فجمع بين الهمزتين...هذا ما لا يُبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع...وأنشدني شعرا لنفسه يقول: «كأن فاي». وقال ابن جني أيضا وهو القول الفصل: «وكذلك لَوْ فشا في أهل الوَبَر ما شاع في لغة أهل المَدَر من اضطراب الألسنة...وانتقــاض عــادة الفصاحة...لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنهما. وعلى هذا العملُ في وقتنا لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك... » (2،1).

وهذه شهادة تثبت اختفاء الفصاحة السليقية حتى في البادية وإن كان حصل ذلك على درجات كما يدل على ذلك كلام الهمداني وابن جني وبذلك انتهى السماع اللغوي وخُتِمت التحريات اللغوية الميدانية فيما يخص اللغة العربية التي كان ينطق بها ما أسموهم «بفصحاء العرب»[21].

الخلاصة :

إن جميع ما وصل إلينا من الشعر من الفترة الأولى هو بالعربية التي نزل بها القرآن وليس من إقليم في شبه الجزيرة في ذلك الزمان الذي امتدّ من عهد المهلهل إلى ما قرب من زمان الوحي إلا وقد ظهر فيه شاعر وصل إلينا منه شعر باستثناء أطراف الجزيرة مثل جزء من الشام حيث وجدت بعض القبائل لم تحظ بذلك كقبيلة بهراء أما جذام وتنوخ ولخم وغسّان وبليّ وخولان وغيرها فقد ذكروا لكل واحدة منها شاعرًا أو شعراء رَوى شعرهم العلماء. فقد أخذ اللغويون من جميع القبائل وبذلك يسقط ما ادعاه الفارابي من عدم أخذهم من هؤلاء ومن بكر وتغلب وثقيف وغيرها. فقد أخذوا منهم بتدوينهم لما كان رائجا متداولا عند العرب.

---

(20) – ولم تكن هذه الفصاحة إلا عند أهل البدو منذ زمان طويل (من بداية القرن الثالث كما قلنا) ولذلك نسبها إلى البدو.

(21) – إزدادت العاميات ابتعادا عن لغة الثقافة وهي الفصحى، بانتشار الأمية خاصة بعد هذه القرون الطويلة من الجمود الفكري العربي وبسياسة الإفقار والتجهيل التي سلطها المستعمرون على غيرهم واقترابها منها غير ممتنع أبدا ويمكن أن يتحقق ذلك بتعميم التعليم وبفضل تكنولوجيا الاتصال الحديثة لكن بشرط أن يقتنع الجميع أن لغة التخاطب تمتاز في كل لغات الدنيا بالخفة الكبيرة في الأداء –والخفة ليست بالضرورة لحنا إذ كانت الفصحى المنطوقة قديما هكذا كما وصفها النحاة الأولون (انظِر في هذا الكتاب ص 171 وما بعدها). وهذا يقتضي أن يعمّم في المدارس تعليم المستوى الفصيح المنطوق المستخف (الإستِرسالي وله قواعده) بجنب المستوى الإجلالي الترتيلي. وهذا أساس المنهج التعليمي للغات المراعى لمقتضى الحال أي ما يقتضيه المقام (مع احترام السلامة اللغوية في جميع الأحوال).

الفترة الثانية التي تمتدّ من نهاية الجاهلية وظهور الإسلام وزمان المخضرمين فليس هناك تغيير كبير للوضع اللغوي على الرغم من تمصير الأمصار الجديدة ونزول من كل القبائل فيها ووصل إلينا من تلك الفترة أيضا شعر يغطي كل الجزيرة تقريبا.

الفترة الثالثة وفيها تولى الحكمِ الأمويون وتلاهم العباسيون وهي فترة حصل فيها تغيير واسع للخارطة القبلية إلا أن ذلك لم يؤثّر في الحين في الوضع اللغوي فقد بقى سكان الكوفة والبصرة ومكة والمدينة على فصاحتهم السليقية طيلة العهد الأموي بدليل كثرة من استشهد بشعرهم من أهل الحضر في هذه الفترة وقد يكون من بين هؤلاء الفصحاء من الموالى والعجم ويستشهد بشعرهم لأنهم نشأوا وترعرعوا في بيئة فصيحة وهذا المعتبر عند اللغويين. وقد تكون هذه البيئات الملائمة لبقاء الفصاحة في خارج شبه الجزيرة كخراسان.

وفشا اللحن ابتداء من القرن الثاني حتى عمّ في أواخر هذا العصر كل المدن وخُتم بذلك عهد الاستشهاد بأهل الحضر وانتهى عهد الرجوع إلى الشعر في المدن بمن سُموّا بساقة الشعراء. وتغيّرت العربية حتى كثر في التخاطب العادي ما ليس «من كلام العرب» وهي «العربية الملحونة» التي سميت فيما بعد بكثير بالعامية. وبقيت البوادي في النصف الأول من القرن الثالث على الفصاحة المعهودة مع بداية انتشار اللحن في بعض الجهات. وواصل العلماء تحرياتهم فاكتفوا في هذا العصر بأهل الوبر.

أما خاتمة المطاف بالنسبة للفصاحة السليقية فتبتدئ في القرن الرابع بالنسبة إلى البوادي أيضا وقد شهد بعض اللغويين ما بقي من هذه الفصاحة أي من البيئات الفصيحة وكذلك فعل الجغرافيون العرب فوصفوا بالتدقيق المساحات التي تغيّرت اللغة العربية فيها وأشاروا إلى من كان لا يزال فصيحا من أهل شبه الجزيرة وانتهى عهد البيئات الفصيحة في نهاية القرن الرابع بشهادة ابن جني هو نفسه رحمه الله.

إحداثيات الفصاحة الزمانية المكانية

(وتطور تدوين اللغة)

(المساحة المظللة)

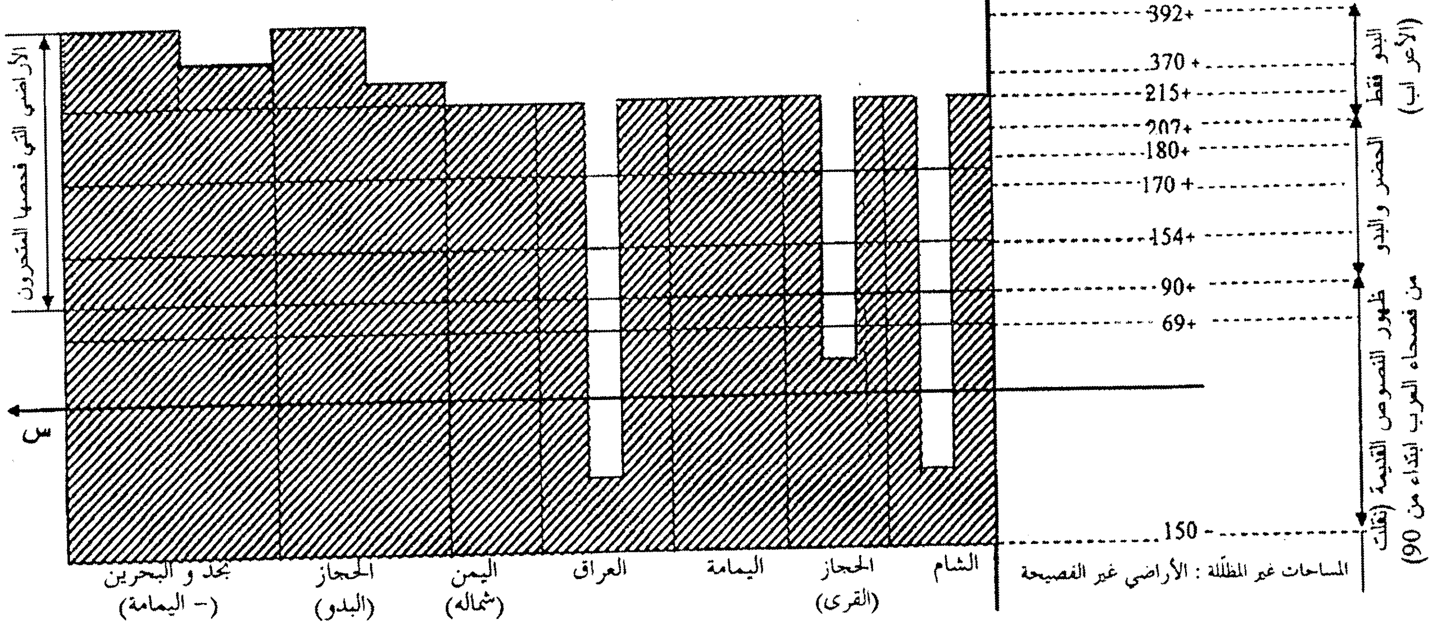

(1) في محور السينات : أماكن الفصاحة بترتيب تصاعدي لأهمية مساحتها
وفي محوري الصادرات : عصور الفصاحة ابتداءاً من 150 قبل الهجرة إلى 392 هـ. والصفر = الهجرة.
(2) من 69 إلى 207: فترة تواجد الفصحاء وغير الفصحاء (زوال تدرجي للسلامة اللغوية في القرى).
(3) أهم الأزمنة: – 150: بداية ظهور أقدم النصوص
+ 69: وفاة أبي الأسود الدؤلي
+ 90: بداية التحريات اللغوية الميدانية
+ 154: وفاة أبي عمرو بن العلاء
+170و+180: وفاة الخليل و سيبويه
+207: وفاة الفراء
+215: وفاة المتحرين القدماء
+ 370: وفاة الأزهري
+392: وفاة ابن جنى والجوهري (393) ونهاية التحريات الميدانية

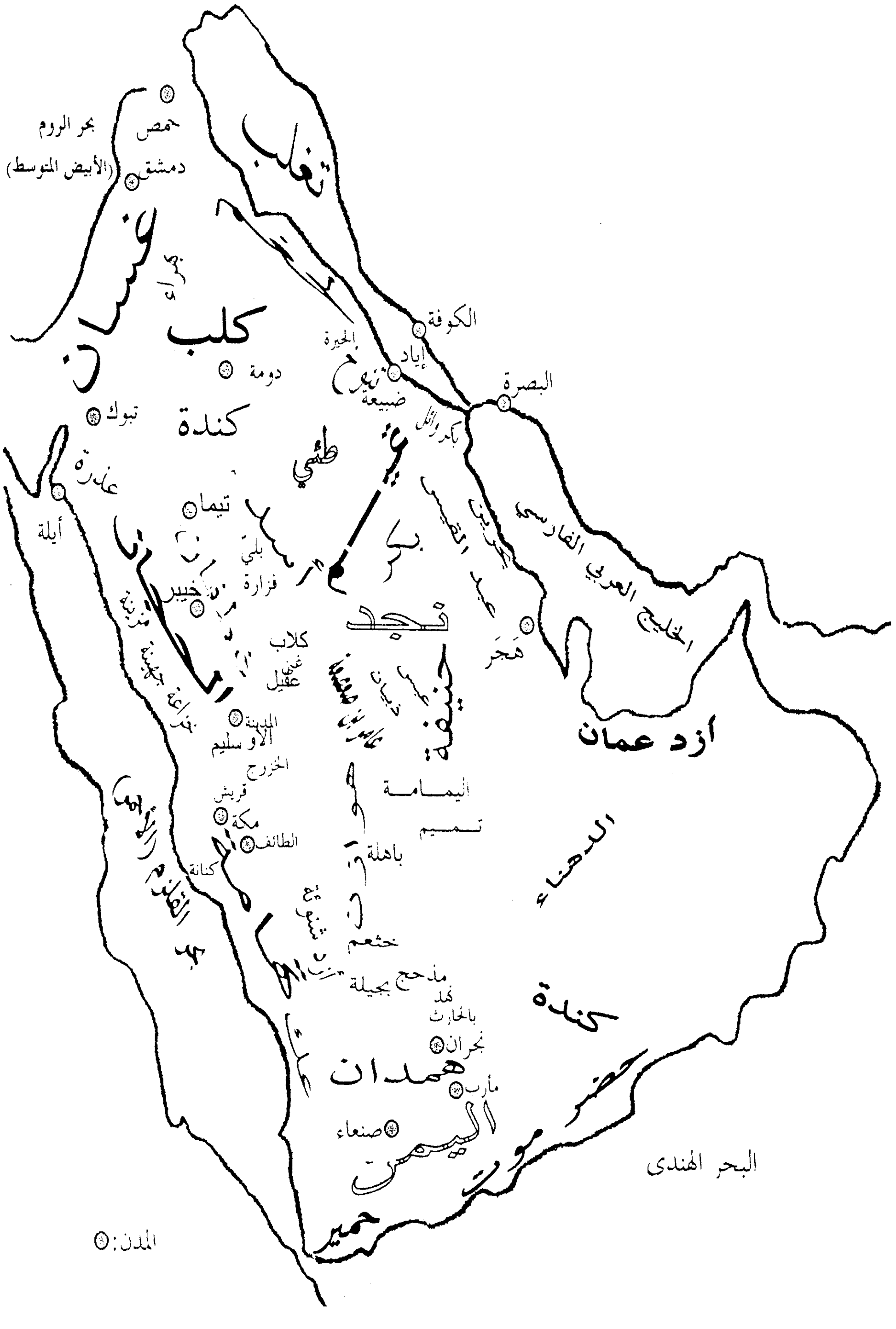
حمص
بحر الروم
دمشق
(الأبيض المتوسط)
تغلب
غسان
كلب
دومة
تبوك
كندة
عذرة
أيلة
تيماء
طئ
بلي
فزارة
خيبر
كلاب
عقيل
المدينة
الأوس
سليم
الخزرج
قريش
مكة
الطائف
كنانة
الكوفة
الحيرة
إياد
تنوخ
ضبيعة
البصرة
بكر
نجد
هجر
حنيفة
الخليج العربي الفارسي
أزد عمان
اليمامة
تميم
باهلة
الدهناء
خثعم
مذحج
بجيلة
نهد
بالحارث
نجران
همدان
مأرب
صنعاء
اليمن
كندة
حضرموت
حمير
البحر الهندى
المدن:

الفصل الثالث

المقاييس الصورية اللسانية للفصاحة

كيف كان يُعلم، في زمان التحريات اللغوية، أن هذا الناطق بالعربية أو ذاك فصيح وبماذا يُعرف ذلك؟ سنحاول أن نجيب عن ذلك في هذا الفصل.

لقد تتبعنا تطور رقعة الفصاحة العفوية في شبه الجزيرة العربية عبر الزمان ورأينا كيف تقلّصت مساحتها شيئا فشيئا ابتداءً من القرى والمدن ثم اختفت في كل مكان بعد القرن الرابع وتحوّلت إلى فصاحة مكتسبة يحصل عليها كملكة لسانية العربي وغير العربي لا من البيئة الناطقة بالعربية بل بمُلقّن إذ إن بقاء الفصاحة العفوية في كل لغة سليقية مرتبط ببقاء بيئة فصيحة لا تتكلم إلا بتلك اللغة الفصيحة. وقد رأينا أن البوادي العربية كانت لها هذه الصفة لمدة طويلة حتى أصاب سكّانها من تغيير لغتهم في الكثير من مجاريها أو في بعضها ما أصاب غيرهم من قبلهم.

وقد كان المقياس الأول والأساسي في معرفة الباحث اللغوي لغير الفصيح هو أن يكون قد ولد ونشأ في بيئة غير فصيحة وهذالم يكن ليصفوَ تماماً للباحث إلا إذا وُجدت بالفعل هذه البيئات غير الفصيحة التي يغلب عليها اللحن ولم يحصل ذلك إلا بعد زمان ليس بالقصير خلافًا لما يظنّه الكثير في زماننا. فقد رأينا أن القرى كان أكثر سكانها حتى نهاية الدولة الأموية من العرب الفصحاء ولا سيما المدن التي بناها المسلمون.وإن بدأ اللحن يظهر فيها بحكم اختلاط العرب بغيرهم فيها، فجزء كبير من هؤلاء الذين نشأوا في الحضر قد استشهد النحاة واللغويون بكلامهم كما رأينا.

وقد رأينا فيما سبق أنّ المفهوم الدقيق للفصاحة اللغوية عند العلماء العرب يقتضي أوّلا: أنْ يكون الذي تُرتضَى لغته قد اكتسب ملكته اللغوية في بيئته بسجّيته ولم تكن له لغة أخرى

نشأ عليها. ثانيا: ألا يكون أصل منشائه معروفا بكثرة الاختلاط اللغوي وثالثا: فإن سكن إحدى هذه القرى فألا يكون قد أطال مقامه فيها.

لا شك أن هذه المقاييس قد استفاد منها الباحثون العرب وخاصة الذين شاهدوا هذا الاختلاط الواسع العميق وفشو اللحن في الحضر لكن ببطء في عهد بني أمية:بالفعل فقد رأينا أن الكثير من قدماء الشعراء نشأوا وسكنوا في مثل هذه الأماكن. ومهما كان من أهمية هذه المقاييس فلا شك أن اللغويين لم يكتفوا بها لعدم نجاعتها في الكثير من الأحوال.

فالتمييز بين الفصيح وغير الفصيح من هؤلاء الحضر في ذلك الزمان، وفي أحوال كثيرة،كان يحتاج فيه العلماء إلى مقياس آخر غير هذا الذي يخص مكان النشأة.وهذا المقياس إن لم يجب أن يكون جغرافياً فينبغي أن يكون لغويا محضا.

لم يكن اللغوي الذي لم يزَلْ يبحث عن المميزات اللغوية التي يفترق بها العربي الفصيح من غير الفصيح أي حقّ في أن يحكم على ما يسمعه من الناطق بأنه فصيح فيتقّبله أو غير فصيح فيرفضه.فهذا مشكل عويص كان يمكن أن يعترض طريق اللغويين من جيل أبي عمرو بن العلاء وزملائه وتلاميذه. ففي بداية التحريّات وبعد مدة من الزمان لم يتحصل بعد اللغويون العرب على وصف كامل للعربية كان يمكنهم أن يلجأوا إليه لمثل هذا الحكم(1). فالحكم على فصاحة فرد أو أفراد من العرب في ذلك الزمان بتحديد مكان نشأتهم يلزم منه أن يثبت أن أهل هذا المكان كلهم فصحاء ولا يتم ذلك إلا بالاعتماد على مقاييس لغوية محضة كما قلنا وإلا حصل الدور كما يقولون(2).

وقد سبق أن رأينا الجاحظ يصف سلوكا خاصا لعلماء العربية في زمانه (وما سمعه عن شيوخه من هؤلاء العلماء) في تعاملهم مع العرب وهم يستوثقونهم في صحة فصاحتهم وبقائها على ما كانت عليه.يقول في البيان والتبيين: «وأصحاب هذه اللغة (هنا اللسان

---

(1) – فما دامت الأوصاف الموضوعية للعربية لم يتم بعد ضبطها فكيف يجوز للباحث في ذلك العهد أن يحكم على أحدهم بفصاحته أو عدمها؟

(2) – إن المقاييس الزمانية المكانية للفصاحة هي بالنسبة لمؤرخ النحو وعلوم العربية نتيجة وليست منطلقاً أي نتيجة لتتبّعه تطوّر رقعة الفصاحة.

العربي) لا يفقهون قول القائل منّا[3]: «مكرهٌ أخاك لا بطل». و«إذا عزّ أخاك فَهُنْ». ومن لم يفهم قولهم: *ذهبتُ إلى أبو زيد و*رأيت أبي عمرو. ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه لأن هذا يدل على طول إقامته في الدار التي تُفسد اللغة وتنقص البيان. لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال[4] التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة»(1/161-162).

فقد لاحظ الجاحظ بدقته المعروفة أن الأعرابي[5] الذي يستطيع أن يفهم الكلام الملحون الذي ينطق به المولدون -في زمان التحريات اللغوية- وخاصة هذا الذي استأنس بكلامهم، فهذا يتركه النحويون ولا يأخذون عنه أبدًا ويستدلون بذلك على طول إقامته في المدن التي نشأ فيها اللحن.

فعدم القدرة على فهم مثل هذه العبارات الخطيرة اللحن صار على ما يبدو من الميزات التي تجوّز للنحوى أن يحكم ولو حكما أوليا على فصاحة من يتصف بذلك من العرب (ومن الأعراب في زمان الجاحظ خاصة). وهذه الميزة وإن لم تكن كافية فهي من الشروط الضرورية لصحة الفصاحة ويدل هذا أيضا على أن السلامة اللغوية في أبسط صورها هي أهم ميزة فالعربي الذي لا ينفر من هذا اللحن الذي يؤثر في المعنى كما رأينا هو أولى بأن«تُبهرج» فصاحته. وقال الجاحظ أيضا بهذا الصدد: «لو لا مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام[6] لما عرفه. ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا. وأهل هذه اللغة[7] وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي...» (البيان 1/162).

---

(3) – أي المولّدين.

(4) – هذا كله إشارة من الجاحظ العبقري إلى النّظام اللغوي الخاص بالعربية.وهذه «الخصال» هي الأوصاف التي تمتاز بها العربية عن غيرها.

(5) – أكثر الفصحاء السليقيون في زمانه كانوا كما لاحظناه من الأعراب.

(6) – بالعربية.

(7) – أي فصحاء العرب.

فهذا الذي يميّزون به بين الفصيح وغير الفصيح يتمّ به الإقصاء لعدد كبير ممن لم يكن يتصف حقيقةً بالفصاحة إلا أنه يبقى من هؤلاء مجموعة لا يُستهان بها وهم الذين بقوا على فصاحتهم وبدأت، مع ذلك، تتغير لغتهم لاختلاطهم لا بالعجم مباشرة- وإن كان قد عمّ ذلك في المدن بعد القرن الثاني-بل بوجود من تغيرت لغته في مجتمعه. ولا يُتيَقَّن حينئذ أن تكون جميع عباراته من كلام العرب.

ولذلك كان العلماء يلجأون إزاء هؤلاء الفصحاء المشبوهين إلى المقاييس اللغوية وحدها.وهي،في هذه الحالة، الأصول اللغوية المطردة في الاستعمال أي الأصول التي يخضع لها جميع العرب ولا يحيد عنها أحد ممن يعتبر فصيحا. وقد يبدو في أول وهلة أن هؤلاء الفصحاء قد حددت فصاحتهم بالاعتماد على هذه الأصول مع أن هذه الأصول استخرجت من النظر في كلامهم.فهذا دور في ظاهره. والواقع غير هذا إذ لا بد من الاعتداد ببعد الزمان. فإن الأصول الأولى التي استنبطها النحاة الأولون كانت هي التي تنطبق على العربية كلها وعلىجميع لغات العرب واستخرجت باستقراء النص القرآني لا من كلام العرب[8] ثم لاحظ العلماء القدامى في تحرياتهم أنها مطردة في استعمال العرب كلها ولاحظوا في الوقت نفسه أن كل من حاد عن هذه الأصول المطردة في ذلك الزمان-أواخر القرن الأول وبداية الثاني- هم أول من تأثر بكلام العجم.أما بعد ذلك أي في زمان الخليل وسيبويه فقد تراكمت عمليات السماع الشامل لكلام العرب الذين لم يحيدوا عن هذه الأصول العامة وسموهم بالفصحاء واعتمدوا عليها في استخراج باقي الأصول من جهة وتدوين اللغات المختلفة من جهة أخرى.

أما ما حرّروه من الأصول العامة من كلام العرب وبه نزل القرآن الكريم فهو كل ما كان من جوهر النظام اللغوي العميق للسان العربي- وهو أكثر الأصول- فقد قنّنوه وأصّلوه على أساس ما لاحظوه من آطراده في استعمال هؤلاء الفصحاء الموثوق بعربيتهم وحدهم وكانوا هم أكثر العرب من بدويين وحضريين في القرنين الأول والثاني ولا ننسى أيضا أن أعظم التحريات وأكثرها اتساعا حصلت في هذه الفترة. فكمـــا قال سيبويه ومن يماثله ممن

(8) – والدليل على قدمها هو اختراع النقط وكان الهدف منه القراءة السليمة للنص القرآني وخاصة الإعراب من رفع الفاعل ونصب المفعول وخفض المضاف إليه وغيرها من الأصول اللغوية التي استنبطت من تتبع النص القرآني.

سبقه من العلمــاء: «سمعنا ذلك من فصحاء العرب لا يعرفــون غيره»(20/2). «أفرأيت قول العرب كلهم؟(303/1)، «هو قول عامة الناس» (243) «وكل ذا تكلم به عامة العرب»(477) «فكل العرب تذكره»(35/2)، «في كلام العرب كلها»(253/2)، «الذي تكلم به العامة» (3/2)، «فالعرب مجمعون على الإدغام» (158/2) «فقد اجتمعت العرب على تحقيقه»(165/2) «فأجروه على القياس وقول العامة»(262) «ويكون الوجه في جميع اللغات»(194) وغير ذلك كثير.

وهذه بعض الأمثلة من هذه الأصول المطردة في استعمال العرب الفصحاء للغتهم. فأقل ما تتركب منه الجملة العربية الفصيحة وحدتان كما هو معروف: فعل وفاعل ومبتدأ وخبر عند جميع العرب. أما إعرابهما فرفع عند الجميع. أما الفعل فلا يتقدم عليه فاعله كما أن جميع العوامل التي تقوم مقامه لا يتقدم عليها معمولها الأول (الذي يشغل العامل على حد تعبير سيبويه) ويجوز أن يتقدم المفعول على الفاعل وعلى الفعل في جميع لغات العرب.

ثم إن المبتدأ تدخل عليها عوامل مثل «كان وأخواتهــا وإن وأخواتهــا» فيتغير اللفظ والمعنى بنفس الصورة في جميع لغات العرب إلا في لغة الحجاز القديمة حيث كانت«ما» تعمل عمل ليس فإذا قدم المعمول الثاني على الأول رجعت إلى لغة واحدة وهي لغة تميم في الأصل.

هذا وكل ما يأتي فضلة فهو على صورة واحدة عند العرب كلهم من حال وتمييز ومفعول مطلق ولأجله ومفعول معه إلا في بعض اللغات القليلة.

ثم إن للعربية عددًا محصورا من الأبنية تخص الكلم المتصرفة تشترك في استعمالها جميع العرب وكل صيغة تدل على معنى أو أكثر من معنى تشترك فيها أيضا كل العرب وقد تختص قبيلة أو عدة قبائل باستعمال صيغة تخالف بها الآخرين كــ:فَعال وفِعال وكــ: فَعل وفُعل وفِعل وغير ذلك.

هذا ومع مرور الزمان -منذ أن بدأ أبو عمرو بن العلاء تحرياته في أواخر القرن الأول- اجتمع لدى النحاة عدد كبير من الملاحظات في كلام العرب فصارت شيئا فشيئا

حدودًا وضوابط أجمعوا على صحتها بعد أن غطت الأجيال المتتالية من المتحرين كل الأماكن الفصيحة.وذكر سيبويه من ذلك الشيء الكثير. وذلك مثل هذه العبارات:

- «إنما يطرد هذا الباب في النداء والأمر» (وزن فَعَالِ) (42/2).
- «هذا النحو سمعناه في هذا الحرف وحده» (1/ 126).
- «وقع وآنقطع فهو بغير تنوين البتّة لأنه أُجرى مجرى الفعل المضارع» (87).
- «وليس من العرب أحد إلا وهو يقول:تنبّأ مسيلمة» (126/2).
- «لا يقول أحد إلا ذاك» (أَذْرِعيّ نسبةً إلى أَذْرِعات) (86).

كما ذكر سيبويه حدودا تقضى بعدم وجود طريقة من الكلام أو بناء كلمة معينة في كلام العرب:

- «وهذا لا يُتكلم به(هو الرجلُ العبيدَ) إنما وجهه وصوابه الرفع وهو قول العرب» (194/1).
- «وليس هذا طريقة الكلام لانه ليس من كلامهم أن يُضمِروا الجارّ» (273).
- «لأنه ليس في الكلام آسم يتصرّف آخره كآخر بنو» (338).
- «وليس في الدنيا عربي يجعلها هنا صفة... لا يتكلم بها العربُ»(395).
- «وهذا لا يعرفه أحد (اضرب الذين أفضلُ)» (398).
- «لا يَكادون يتكلمون به (مُرْه يحفرُها)» (452).
- «وهذا مذهب إلا أنه ليس يقوله أحد من العرب»(47/2).
- «ونظير ذلك أنه ليس عربي يقول: هذه شمسُ فيجعلها معرفة» (49).
- «وتقول: أنت تأتينا في كل صباحِ مساءٍ ليس إلا» (54).
- «ليس أحدٌ يقول: يافُلَ «(عوض: يافُلُ أقبِلْ» (333/1).

- «وليس في العربية حرفُ يفتح قبل ياء الإضافة» (392).
- «وهذا لا يكون وهو خطأ لا تقولهُ العرب» (تثنية عشرين) (95/2).
- «ليس في العربية اسم على هذا البناء» (فعّل) (8/2).
- «فليس في الكلام مثل جَعَفْر» (8/2) «ليس في الكلام مثل سَرْداح وسَرْبال» (10).
- «لو قلت: «كانت زيدًا الحُمَّى تأخذ» أو تأخذ الحُمّى«لم يجُز»(36/1) «ولا يجوز أن تقول: «زيدًا هل رأيت» (64/1) ولو قلت: «زيد فله درهم» لم يجُز (70) «فإن قلت:»إذا كان الليلَ فأتِني لم يجز» (115).
- «وقد يجوز في القيـــاس:خمسةَ عشر من بين يوم وليلة» وليس بحدّ كلام العرب» (174/2).
- «فإن غيّره عن حاله (تأبط شرًا وبَرَقَ نحرُه) فقد ترك قول الناس وقال ما لا يقوله أحد»(64/2-65).
- «وهذا لا يكاد يوجد في الكلام» (وجَد/يَجُد) (132/2).
- «لم تقلْه العرب وليس له نظير في كلامها (لا يقع بعد الألف ساكن إلا أن يدغم)» (157/2).
- «ليس من كلامهم أن تثبت الياء والواو» (166/2).
- «فليس من كلام العرب أن تلتقي همزّتان فتحققا» (167/2).
- «ليس ذا طريقة يجرين عليها في الكلام» (لا تُكسر فعيل ولا فَعال ولا فُعال على أفعُل) (199/2). وغير ذلك.

أما في أبنية الكلم فقد أحصى سيبويه أكثر الأبنية التي يستعملها العرب والتي لا يستعملونها وسوف يقوم باستقصاء ذلك بعض من جاء بعده فقد ألّف في ذلك ابن خالويه كتابا كما هو معروف بعنوان «ليس من كلام العرب» وذكر في الغالب ما كان يُستثنى من ذلك.

وكان الخليل بن أحمد في أقدم الأزمنة قد أبدع طريقة علمية دقيقة لحصر كل المفردات العربية حَصْرًا منتظما بالاعتماد على حصر الجذور المستعملة وغير المستعملة وعليه بنى كتاب العين المعروف وسنفرد لهذه الطريقة بحثا خاصا.هذا وقد اكتشف أيضا بعض الثوابت في تركيب حروف الكلم كان يمكن أن تستغلّ في التمييز بين ما هو عربي وما هو مولّد من المفردات.

قال: «فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خمـــاسية مُعرَّاة من حروف الذلق، (ر،ل،م،ن) والشفوية ولا يكـــون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب لأنك لست واجدا من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خمـــاسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر. قال الليث:فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟ فقال: نحو الكشعثج والخضعثج والشعطج وأشباههن فهذه مولدات لا تجوز في كلام العرب... فلا تقبلنّ منها شيئا وإن أشبه لفظهم وتأليفهم. فإن النحارير منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب... أما الرباعي المنبسط فإن الجمهـــور الأعظم منه لا يعرى من الحروف الذلْق أو من بعضها إلا كلمـــات نحوا من عشر كنّ شواذ.ومن هذه الكلمات: العَسْجَد والقسْطوس والقُداحِسْ والدعشوقة والهُدُعة والزهزقة...» (العين،53/1). وقال أيضا: «فإذا ورد عليك شيء من ذلك فانظر ما هو من تأليف العرب ومـــا ليس من تأليفهم نحو قعثج ودعثج لا يُنسب إلى عربية ولو جاء عن ثقة لم يُنكر ولم نَسْمَع به» (54).

فيقصد الخليل من قوله«ما ليس من تأليفهم» لا هذا فقط بل كل تأليف لا يعرفه العرب وواصل كلامه بالمزيد من الملاحظات في هذا الموضوع.

فهذه جملة من المقاييس كان يرجع إليها المتحري منذ عهد الخليل وهو قديم جدا وأما ما تجمّع لديهم من الأصول أو الحدود فكان يكوّن في الواقع«شبكة من المعايير» منذ أن بدأوا في تدوين اللغة وكانت في الأول، كما قلنا، أصولا عامة مطردة استخرجوها من نظرهم في النص القرآني (المزامن لعمليات النقط الشاملة لهذا النص الكريم) ثم لاحظوا التوافق التام بين

هذه الأصول وما سمعوه من كلام العرب فتوسعوا في سماعهم وتحليلاتهم لهذا الكلام وبذلك استطاعوا من أول لحظة من بداية تحرياتهم وسماعهم أن يميزوا بسهولة في أغلب الأحيان بين الموثوق بعربيته وغير الموثوق.

وقد تطرق إلى هذا الموضوع باستفاضة أحد العلماء الممتازين من الذين عنوا بعلاج موضوع أصول البحث العلمي في اللغة وهو أبو الفتح عثمان بن جنى في كتاب الخصائص المشهور. وقد تناول فيه المشاكل التي كانت تطرح على اللغوي العربي في ذلك الزمان وأطال الكلام في الأسس التي كان يعتمد عليها لقبول ما يسمعه أو رفضه.

قال: «وقد طرأ علينا أحد ممن يدّعى الفصاحة البدوية[9]...فتلقينا أكثر كلامه بالقبول... إلى أن أنشدنا يوما شعرا لنفسه يقول في بعض قوافيه:

* أَشْئؤها وأدأَؤُها[10]... فجمع بين الهمزتين كما ترى واستأنف من ذلك ما لا أصل له وقياس يسوّغه.نعم أبدل إلى الهمز حرفا لاحظّ في الهمز له بضد ما يجب لأنه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير إحداهما فكيف أن يقلب إلى الهمز قلبا ساذجا عن غير صنعة ما لاحظ له في الهمز ثم يحقق الهمزتين جميعا هذا ما لا يبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع» (الخصائص 2 /5-6).

وبعد أن ذكر بعض الأمثلة الفصيحة لالتقاء الهمزتين وبيان ما يبرّر ذلك، حكم على هذا المورد بعدم انتمائه الخالص إلى الفصاحة فقال: «فالناطق بذلك بصورة من جرّ الفـــاعل أو رفع المضـــاف إليه في أنه لا أصل يســـوّغه ولا قياس يحتمله ولا سماع ورد به.وما كـــانت هذه سبيله وجب اطّراحُه والتوقف عن لغة من أورده»(7) ثم قال: «أنشدني أيضا شعرا لنفسه يقول فيه: «كأن فايَ...» فقوى في نفسي بذلك بُعدُه عن الفصاحة وضعفُه عن القياس الذي ركبه.وذلك أن ياء المتكلم تَكسِر أبدًا ما قبلها...فكان قياسه أن يقول (كأنّ فِيَّ... فان قلت: فكان يجب على هذا أن تقول هذان غُلاميَّ... قيل هذا قياس لعمري غير أنه

(9) – لم تكن الفصاحة السليقية في زمان ابن جني إلا بدوية.
(10) – وصوابُه: أشْآها و أدْآها.

عارضه قياس أقوى منه فتُرك إليه. وذلك أن التثنية ضربٌ من الكلام قائم برأسه مخالف للواحد والجميع... فينبغي أن يُستوحش من الأخذ عن كل أحد إلا أن تقوى لغته وتشيع فصاحته... وسمعت الشجرى أبا عبد الله (العقيلي وهو أحد مورديه) غير دفعة بفتح الحرف الحلقي في نحو «يعدو» وهو «محموم» ولم أسمعها من غيره من عقيل فقد كان يرد علينا منهم من يؤنس به ولا يبعد عن الأخذ بلغته. وما أظن الشجرى إلا استهواه كثرة ما جاء عنهم من تحريـــك الحرف الحلقي بالفتح إذا انفتح ما قبله في الاسم... وهذا قد قاسه الكوفيون... فإياك أن تُخلد إلى كل مـــا تسمعه بل تأمّلْ حـــالَ مُورده وكيف موقعه من الفصاحة فاحكم عليه وله (7-10). وقال في«باب اختلاف اللغـــات وكلهـــا حجة»:«... وليس لك أن تردّ إحدى اللغتين بصاحبتها (مثال ذلك: الحجـــازية والتميمية في ما)... هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين... فأما أن تقل إحداهما جدا فإنك تأخذ بأوسعهما رواية» (10) على أن إنسانا لو استعملها [اللغات القليلة مثل الكشكشة] لم يكن مخطئا لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطئا لأجود اللغتين.

«وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مُصيب غير مخطئ وإن كان غير ما جاء به خيرًا منه»(12).

ثم قال في باب آخر مهم جدًّا وهو «باب في العربي الفصيح ينتقل لسانه: اعلم أن المعمول عليه في نحو هذا أن تنظر حال من انتقل إليه لسانه. فإن انتقل من لغته إلى لغة أخرى مثلها فصيحة وجب أن يؤخذ بلغته التي انتقل إليها... فإن كانت اللغة التي انتقل لسانه إليها فاسدةلم تؤخذ بالأولى كأنه لم يزل من أهلها...فإن قلت: فمـــا يؤمنك أن تكون كما وجدت في لغته فسادًا بعد أن لم يكن فيمـــا عَلمت، أن يكون فيها فسادٌ آخر فيمالم تعلمْه. فإن أخذت به كنت آخذا بفساد عَرُوضَ [شأن أو نظير] ما حدث فيها من الفساد فيما علمت؟ قيل: هذا يُوحِشُك من كل لغة صحيحة لأنه يتوجَّه منه أن تتوقّف عن الأخذ بها مخافة أن يكون فيها زيغٌ حادث لا تعلمه الآن ويجوز أن تعلمه بعد زمان كما علمت من حال غيرها فسادًا حادثا لم يكن فيها فيما قبل. وان اتجه هذا انخرط عليك منه ألا تطيب نفسا بلغة وإن كانت

فصيحة مستحكمة. فإن كان أخذك بهذا مؤديا إلى هذا رفضته ولم تأخذ به وعملت على تلقي كل لغة قوية معربة بقبولها واعتقاد صحتها. ولا توجّه ظِنَةً إليها ولا تسوء رأيا في المشهود تظاهرُه من اعتدال أمرها كما يحكى عن أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبي خيرة لما سأله فقال: كيف استأصل الله عرقاتَهم؟ ففتح أبو خيرة التاء فقال له أبو عمرو هيهات أبا خيرة، لان جلدك (ثم سمع أبو عمرو النصب من العرب ورواه) فليس لأحد أن يقول: «كما فسدت لغته في هذا ينبغي أن أتوقف عنها في غيره لما حذرناه قبل ووصفنا»(13). 1

وكثيرا ماكان يتسرع بعض اللغويين فيرفضون بعض ما يسمعونه لعدم سماعهم إياه من وجه آخر ويقال عن الأصمعي إنه كان يردّ كل لغة لم تكن معروفة عند الكثير من فصحاء العرب. ولا نعتقد أن ابن جني يريد من اللغوي أن يتسامح حتى مع من يكثر على لسانه اللحن!

وفي باب آخر يُسمّيه ابن جني: «باب في الشيء يُسمع من العربي الفصيح لا يُسمع من غيره». «قال احمد بن يحي: حدثني أصحابي عن الأصمعي أنه ذكر حروفا من الغريب فقال: لا أعلم أحدا أتى بها إلا ابن أحمر الباهلي...والقول في هذه الكلم... وجوب قبولها. وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصـــاحة ابن أحمر أخذه ممن ينطق بلغة قديمة فأمـــًا أن يكون شيئا لم يشـــارك في سمـــاع ذلك منه... وأما أن يكون شيئا ارتجله ابن أحمر فإن الأعرابي إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرّف وارتجل مالم يسبقه أحد قبله به»[11](24)... وكذلك ما جاء نحو هذا الذي رويناه عن ابن أحمر عن فصيح آخر غيره كانت حالة فيه حاله ولكن لو جاء شئ من ذلك عن ظنين وأمتّهم أو من لم ترقَ به فصاحته ولا سبقت إلى الأنفس ثقته كان مردودا غير متقبّل»(25).

«فإن ورد عن بعضهم شئ يدفعه كلام العرب ويأباه القياس على كلامها فإنه لا يُقنع في قبوله أن تسمعه من الواحد ولا من العدة القليلة إلا أن يكثر من ينطق به منهم. فإن كثر قائلوه

---

(11) – هذا مخالف لموقف القدامى من العلماء، البصريين خاصةً فإن ما يرتجل من اللغة ليس منها مالم يظهر في الاستعمال بالفعل.ولا يدوّن هؤلاء القدامى ما ينفرد به الأعرابي كلفظ عادي بل كانوا ينصّون على أن ذلك ليس من كلامهم أو غير معروف مثل ما جاء في كتاب سيبويه و غيره.

إلا أنه مع هذا ضعيف الوجه في القياس فإن ذلك مجازه وجهان: «أحدهما أن يكون من نطق به لم يُحكم قياسه على لغة آبائه وإما أن تكون أنت قصّرت عن استدراك وجه صحته ولا أدفع أيضا مع هذا أن يسمع الفصيح لغة غيره مما ليس فصيحا وقد طالت عليه وكثر لها استماعه فسَرَتْ في كلامه ثم تسمعها أنت منه وقد قويَت عندك في كل شئ من كلامه غيرها فصاحته فيستهويك ذلك إلى أن تقبلها منه... إلا أن هذا متعذّر ولا يكاد يقع مثله، وذلك أن الأعرابي الفصيح إذا عُدل به عن لغته الفصيحة إلى أخرى سليـمة عافها ولم يَعْبَأْ بها» (26).

هذا وابن جني ينتمي إلى عصره (القرن الرابع حتى أواخره) فهو في تقبل المسموع أقل تشددًا من العلماء القدامى بكثير فهو يحاول دائما أن يجد ما يبرّر ما ينفرد به بعض من سمع منهم من العرب (وكذلك القراء) فهو يقول في باب فيما يرد عن «العربي مخالفا لما عليه الجمهور إذا اتّفق شئ من ذلك نُظر في حال ذلك العربي وفيما جاء به. فإن كان الإنسان فصيحا في جميع ما عدا ذلك القدر الذي انفرد به وكان ما أورده مما يقبله القياس إلا أنه لم يرد به استعمال إلا من جهة ذلك الإنسان فإن الأولى في ذلك أن يُحسن الظن به [12] ولا يحمل على فساده» (385/1).

فإذا كان الأمر كذلك لم نقطع على الفصيح يُسمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ما وُجد طريق إلى تقبّل ما يورده إذا كان القيـاس يعاضده فإن لم يكن القيـاس مسوّغا له كرفع المفعـول وجرّ الفاعل ورفع المضـاف إليه فينبغي أن يُردّ.وذلك لأنه مخالف للقياس والسمـاع جميعا فلم يبق له عصمة تضيفه ولا مُسْكة تجمع شعـاعه»(387/1).

(12) – حسن الظن كان له حكم خاص عند القدامى ولا سيما في علوم الحديث.جاء في كتاب «الجرح و التعديل» لأبي حاتم الرازي: «سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول: خصلتان لا يستقيم معهما حسن الظن: الحكم والحديث»(35/2). وكذلك في كل رواية موضوعية في كل علم.

الباب الثاني

اللغة العربية
وأسطورة «اللغة المشتركة الأدبية» بازاء اللهجات العربية

اعتقاد وهمي

يعتقد الكثير من الباحثين المعاصرين أن ما يسميه الناس بالعربية الفصيحة أو الفصحى كان يمثل في الحقيقة لغة خاصة بالتعبير الأدبي كالشعر مثلا وذلك لسببين اثنين: الأول هو أن الشعر (والقرآن كذلك) قد جاء كله بلغة موحدة. والثاني: اقتناعهم بوجود لهجات مختلفة من قبيلة إلى أخرى ومن شرق الجزيرة إلى غربها.ومن ثم اعتقادهم أن لغة التخاطب كانت مختلفة عن اللغة الأدبية ومختلفة باختلاف اللهجات.

والحق أن هذه الفكرة غريبة عن العرب ولم يشر أي مؤلف عربي في القديم إلى وجود لغة عربية منفصلة عما سموه باللغات (وسنرى أن هذه الكلمة كان يراد منها في أقدم العصور شيء آخر غير اللهجة). ولم يُثَرْ مثل هذا التمييز بين العربية ولغة التخاطب – عند الفصحاء– إلا بعد أن نقلت هذه الفكرة من البلدان الغربية إلى الأوساط المثقفة العربية في عصرنا هذا. وأصل هذا التصوّر يرجع إلى ما لاحظه علماء الغرب (أو ما يظنونه أنه كذلك) في الحالة اللغوية لبلاد اليونان قديما من وجود لهجات محلية ولغة أدبية موحدة سميت عندهم بالـ Koinè فقاسوا الحالة اللغوية العربية في زمان«الفصاحة العفوية»على الوضع اللغوي اليوناني القديم فسموا اللغة الفصحى Arabic Koinè وهذا، في الحقيقة، مجرّد إسقاط للزمان

الحاضر على الماضي أي مجرّد تسوية بين ما هو حاصل بالفعل في زماننا هذا (ومنذ زمان تحوّل عربية التخاطب إلى عاميّات محلية) وبين ما كان حاصلا في زمان الفصاحة السليقية. وحجتهم التي يعتمدون عليها للدفاع عن هذا التصوّر هي وجود ما يشبه اللهجات عند العرب قديما ومن جهة أخرى **استحالة أن تكون في زعمهم لغة التخاطب اليومي العفوي في أي زمان كان هي لغة الأدب.**

وقبل أن نتعرّض للتصوّر العربي الأصيل الذي امتاز به العلماء العرب القدامى فإننا سنحاول أن نمعن النظر في هذه الفكرة الغريبة عن أصحاب هذه اللغة أنفسهم وعن الذين عايشوهم من علماء اللغة.

فأما إلحاق المستشرقين الوضع اللغوي العربي كما كان في زمان الفصاحة العفوية بالوضع اليوناني في زمان ظهور الآثار الأدبية اليونانية فلا يعتمد على ما يستلزم ذلك من المطابقة التامة بين الوضعين اللغويين لا من حيث الحالة اللغوية في ذاتها و لا من حيث التطوّر اللغوي لكل من العربية واليونانية. فنحن لا نعرف بالضبط ما هي اللغة الأم التي تفرعت عنها اللغة العربية مباشرة (فأما اللغة السامية الأم فبعيدة جدا عنها زمنيا). فعلى هذا لا يمكن أن تعتبر هذه التسوية بين الوضعين إلا كمجرد افتراض، إذ لا يوجد أي دليل على وجود لهجات عربية كانت تختلف مثل اختلاف اللهجات اليونانية (حسب زعمهم) ولكي يثبت ذلك فلا بد من شهادة أي لا بد من أن يشهد على هذا الاختلاف الكبير- ولا بد أن يكون كذلك- الذين عاشوا في تلك العصور ولا سيما علماء اللغة (وسنرى بعد ما قاله هؤلاء العلماء). ثم يتعجب هؤلاء المدّعون من عدم تصريح أولئك العلماء بهذا الاختلاف الكبير وأعجب من هذا وأغرب أن يستنتجوا من ذلك أنهم غفلوا غفلة تامة عن هذا «الواقع» إذ لو تفطنوا له لنبهوا عليه فأكثر ما فعلوا -حسب زعمهم- أنهم ذكروا ووصفوا ما كانوا يسمونه بلغات العرب أو لغات القبائل وبإبهام شديد بالنسبة لأصولها ولم يزعج معاصرينا أن يجعلوا ما كانوا يقصدون (سيبويه خاصة) من كلمة «لغة» هو ما يقصد اليوم من كلمة «لهجة» (بمعنى dialect). وربما يكون سبب توهمهم هو هذا التخليط بالذات (انظر فيما يلي دراستنا لمعاني هذه اللفظة قديما وحديثا).

وقد أداهم ذلك (أصحاب هذا التصور) إلى القول الصارم - بدون أي تحفظ- بأن الآثار الأدبية العربية القديمة تخلو تماما من الظواهر اللهجية- وإلا فكيف يفسر هؤلاء الانفصال المزعوم- ويُنْكر أن يحصل ذلك الدكتور إبراهيم أنيس بصفة خاصة. قال الدكتور: «رويت لنا الآثار الأدبية في لغة موحدة لا تشمل على خصائص من تلك التي رُويت عن اللهجات العربية» (في اللهجات العربية، 43).

كما أدّى ذلك أيضا- وهو شئ متوقع بعد كما قلناه- إلى القول بأن اللغويين والنحاة العرب «خلطوا» في دراستهم للعربية بين اللغة الفصحى وبين اللهجات وكان ينبغي أن يفردوا لكل منها دراسة خاصة بناء على انفصالهما «الحقيقي» في الاستعمال. يقول إبراهيم أنيس: «ولو أن الرواة وقفوا في استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التي جاءتهم موحّدة وممثلة في الآداب الجاهلية و القرآن الكريم لجنبوا أنفسهم الكثير من المهاترات والجدل حول ما يجوز وما لا يجوز ولكنهم حاولوا إقحام الصفـات الخـاصة للهجات العربية، فبدت لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه» (نفس المصدر،41) .

الفصل الأول

أدلة تعارض هذا القول

أما القول بأن العلماء القدامى لم يتفطنوا إلى وجود لغة أدبية مشتركة بين العرب وإلى أن لغة التخاطب كانت تختلف باختلاف اللهجات أو على أقل تقدير لم يتفطنوا إلى أهمية التمييز في الدراسة بين ما هو استعمال اللغة الخاصة بالأدب وهي الفصحى وما يرجع إلى الاستعمال العادي وهو الحاصل باللهجات. **فهذا عندنا قول جزاف فيه ظلم كبير لعلمائنا وازدراء بما أبدعوه من عجيب التحليل والتعليل وما أظهروه من شدة التحرّج في أقوالهم العلمية.**

فكيف يتصوّر أن يبنى هذا الصرح الفخم العظيم المسمى بالنحو العربي(في أقدم صوره) وهو يحتوي على تلك الملاحظات الدقيقة للاستعمال اللغوي العربي لفظا ومعنى إفرادا وتركيبا كالتمييز الدقيق بين السلامة اللفظية والسلامة المعنوية واستقلال كل واحدة منها عن الأخرى (كما تقرره اللسانيات الحديثة في أصح نظرياتها) ولم يكتشف هذا إلا منذ سنوات قليلة. والتمييز بين ما يرجع إلى أبنية الكلام وأحوال الخطاب ولم يتطرق إلى ذلك إلا فيما يجري الآن من البحوث فيما سموه بالـ Pragmatics وغير ذلك كثير. فكيف يتصور أن يبدع كل هذا علماء لم يكونوا قادرين أن يتفطنوا إلى وجود لغة أدبية مشتركة تنظم بها الأشعار هي وحدها دون اللهجات المحلية ونزل بها القرآن هي وحدها وإلى أنها منفصلة بالتالي عن اللهجات التي كان يتكلم بها العرب يوميا؟ أمثل الخليل وسيبويه يغفل عن مثل هذه الظاهرة لو حصلت بالفعل؟ وأمثل أبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وأبي عمرو الشيباني يمكن أن يغيب ذلك عنهم؟ ولو قيل بأن ما أتى لهؤلاء العلماء من الوسائل العلمية والمنهجية كان غير كاف في ذلك الزمان للتوصل إلى اكتشاف مثل هذه الظواهر أو التفطن إلى أهمية التمييز بين هذه الكيانات اللغوية وما يقتضيه العلم في زماننا من ضرورة الدراسة لكل كيان لغوي على حدة؟ فسنحاول الإجابة عن ذلك فيما يلي.

أولا : شهادة القرآن التاريخية

قبل أن نتطرق إلى أقوال العلماء يحسن بنا أن نذكر حدثا هاما جدا وهو ذلكم النعت الذي نعت به القرآن الكريم اللغة التي نزل بها من أوله إلى آخره في هذه الآيات الكريمة: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (إبراهيم14) **وعلى هذا فلا يمكن أن تختلف اللغة التي نزل بها القرآن واللغة التي كان صاحب الرسالة يخــاطب بها العرب**.وقال سبحـــانه: «لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» (النحل 16) وقال: «لتكُون من المنذرين بلســـان عربي مبين» (الشعراء 26) وقال جلّ من قائل : «إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» (يوسف 12) .

ولا مناص من قبول هذه النصوص التي لا ريب فيها كوثيقة تاريخية إذ لا مناص من أن يقرّ الباحث مسلما كان أو غير مسلم بحقيقة ظهور هذا الكلام في التاريخ الذي يهمنا هنا وهو الذي نزل فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهو **بذلك شاهد لا يمكن أن يردّ** فيما يخص لا ماهية اللغة التي نزل بها فحسب بل حتى فيما يخص تأكيد القرآن على أن هذا الخطاب نزل بلسان قوم محمد ليس إلا. وكان يمكن أن ينعته القرآن بلغة قريش أو لغة أهل الحجاز أو أهل مكة[1] ولكنه أبى سبحانه إلا أن **ينعته بالعربي (سبع مرات) وبالعربي المبين** بالنص الصريح. فالذي فهمه العرب في ذلك الزمان هو أن القرآن كان **يخاطبهم بلغتهم جميعا** والذي يفهمه العاقل غير المتحيز - في أي مكان وأي زمان- هو أن هذه اللغة هي لغة جميع العرب في ذلك الزمان ولم تكن لغة محلية أو خاصة بقبيلة من جهة **ولا لغة خاصة بالشعر** من جهة أخرى. فالقرآن يؤكد أن هذا اللسان الذي نزل به هو لسان «مبين» أي لسان يفهمه كل العرب وبالتالي يتخاطب به جميع العرب يوميا وينظم به أشعارهم زيادة على ذلك أي الوسيلة التواصلية التبليغية العامة التي كان يستعملها العرب عندمـــا خوطبوا بالخطاب الذي بلغهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن مبينا بالنسبة لهم إلا لأنه نزل بلسانهم

---

(1) - قال بعض العلماء قديما: «نزل القرآن بلغة قريش أو أهل الحجاز». سنرى فيما بعد هذا الفصل ماذا يقصدون بذلك.

العام لا هو لسان قوم من العرب ولا هو لسان الشعر وحده. **وكيف يوصف بالمبين إذا كان خاصا بالشعر؟** لا يستعمله العرب في مخاطباتهم؟ .

ثانيا : ما كان يقصد من كلمة لغة في زمان سيبويه(2)

أما ما كان يسمى عند علماء اللغة «باللغات» أو«لغات العرب» فلم يكن مجموعها يكوّن مجموعة من اللهجات يختص باستعمالها التخـاطب اليومي العادي هو وحده. فهي تكوّن حسب زعمهم لهجات قائمة بأنفسها ويقابلها اللغة التي نزل بها القرآن وهي عندهم لغة الشعر الأدبية. فهذا كما رأيناه يخالف تماما نص القرآن من جهة والتصوّر الحقيقي الذي كان للعلماء القدامى إزاء العربية.

وفيما يخص لفظة «لغة» فقد تأوّل المحدثون ما كان يقصده بالفعل العلمـاء القدامى فقالوا بأن المقصود عندهم هو ما نسميه في زماننا باللهجة (بالإنكليزية Dialect) وليس الأمر كذلك عند العلماء الأولين (3).

يقول سيبويه في كتابه -وهو كمـا قلنا أقدم كتـاب في النحو وصل إلينا- «الهمزة إذا كانت مبتدأة فمحققة في كل لغة» (165/2) «وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز [كسر حرف المضارعة مثل تِعلم]» (256/2) «فكل هذا فيه اللغة المطردة إلا أنا لم نسمعهم قالوا إلا استروح إليه وأغليت واستحوذ» (362/2) «وهذه قليلة وأجود اللغتين وأكثرهما أن لا تلحق حرف المد في الكاف» (296/2) «وأعرب اللغتين وأجودهما أن لا تقلبها [تاء فعلت وافتعل إلى طاء]» (423/1).

«... ونظير هَيْهاتِ وهيهاةَ في **اختلاف اللغتين** قول العرب: «استأصل الله عرقاتِهم» واستأصل الله عرقاتَهم» (48/2).

---

(2) – راجع دراستنا لهذا المفهوم في مدخل«لغة» في «دائرة المعارف الإسلامية»، ليدن النشرة الجديدة.
(3) – وسنرى أن تطور المدلول للفظة «لغة» كان أحد الأسباب في التخليط الذي نشأ في القرن الثالث الهجري فيما تؤديه من معانٍ وكذلك وخاصة في زماننا هذا.

«وفي عَلِمَ عَلْمَ وهي **لغة بكر بن وائل** وأناسٍ كثير من بني تميم» (258/2).

«... هذه أفعَيْ... حدثنا الخليل وأبو الخطاب أنها **لغة** لفزارة وناس من قيس وهي قليلة» (287/2).

«وقد يقول بعض العرب: ارْمْ واغْزْ واخْشْ حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس **وهذه اللغة أقلّ** اللغتين» (278/1).

«وزعم أبو الخطاب أن ناسًا من العرب يقولون: ادْعِه من دعوت فيكسرون العين ... وهذه **لغة رديئة**» (278/1).

«واعلم أن قومًا من ربيعة يقولون «منْهِم ... وهذه لغة رديئة» (294/2).

«وقد يجئ فعلتُ وأفعلتُ المعنى فيهما واحد إلا أن اللغتين اختلفتا» (236/2).

إذا نظرنا في هذه الأمثلة المتنوعة للفظة «لغة» وأمعنا النظر في السياقات المختلفة التي وردت فيها رأينا أن سيبويه يطلق لفظة«لغة» في جميع هذه النصوص على: **كيفية خاصة في استعمال العرب أو جماعة منهم لعنصر خاص من عناصر العربية**: النطق بصوت معين أو استعمال لصيغة كلمة معينة أو لتركيب معيّن. ولا يطلقها على لهجة بأكملها أي على لسان خاص بقبيلة أو بإقليم. ففي جميع هذه النصوص المقصود من كلمة «لغة» **هو طريقة استعمال** جميع العرب أو أكثرهم أو الكثير منهم أو أفراد قلائل منهم **لوحدة من وحدات العربية** على اختلاف مستوياتها.

ويتضح هذا أكثر ويزيدنا تأكُدًا مما استنتجناه أن سيبويه وجميع من جاء بعده يقول عن الكثير من الألفاظ التي يختلف العرب في استعمالها أن لها لغتين-كما سبق- أو ثلاث لغات: «ذيت ففيها ثلاث لغات...(الكتاب، 48/2) و: «وأما معديكرب ففيه لغات» (50/2). وعلى هذا فلا يمكن بحال من الأحوال أن نقيم كلمة «لهجة» بالمعنى المحدث(=Dialect) مكان كلمة «لغة» والدليل على أن مقصود سيبويه من كلمة«لغة» لا يشمل لهجة بأكملها بل عناصر لغوية خاصة، ما يصرّح به في قوله هذا: «وبعض العرب يقول خيف وبيع وقيل فيُشمّ إرادة أن يبيّن أنها فُعل وبعض من يضم يقول: بوع وقول وخوف، يتبع الياء ما قبلها

كمـــا قال موقن، وهذه **اللغات** دواخل على قيل وبيع وخيف وهيب والأصل الكسر كما يُكسر في فعِلت»(360/2). فهذا الإشمام هو طريقة خاصة لبعض العرب في النطق بالكسرة الممدودة التي أصلها واو في هذا الجنس من الوحدات اللغوية خاصة ولهذا استعمل صيغة الجمع: هذه اللغات. وهذا يبين جيدا أن اللغة عند القدماء من النحاة لا تنطبق إلا على جزء من اللسان له أكثر من طريقة في تأديته.

ثم إن الكيفيات في استعمال العرب لوحدة لغوية معينة **قد تكون لهجية وغير لهجية** وليست بالضرورة خاصة بإقليم معين أو قبيلة معينة أعني بذلك أنها قد ينطق بها الكثير أو القليل من العرب الفصحاء من قبيلة معيّنة أو أكثر من قبيلة أو أيا كانت قبيلتهم أو إقليمهم. وهذا يفسر أن العلماء العرب كثيرًا ما يسكتون عن القبيلة أو الجهة **التي تنتمي إليها هذه اللغة أو تلك لوجودها في أكثر من قبيلة.كما أنـهم لا يغفلون غالبا عن ذكر أهل هذه اللغات إذا انفردوا بها.** فكثيرا ما يذكرون هذه الكيفيات الخاصة- الخارجة عن استعمال أكثر العرب- ثم يشيرون إلى أنها «كثيرة في العرب» فلا تختص بقبيلة أو إقليم وذلك مثل:

«والرفع في جميع هذا عربي كثير في جميع لغات العرب [سير عليه اليومُ]» (110/1).

«هذه هندٌ بنتُ فلان وزعم يونس أنها لغة كثيرة في العرب جيدة»(314/1).

«هذا باب يختار فيه الرفع ويكون فيه الوجه في جميع اللغات[أما العبيدُ فذوعبيد]» (194/1).

ويظهر هذا بوضوح تام في هذا النص: «واعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصب بعض ما يميل صاحبه ويميل بعضٌ ما ينصب صاحبه وكذلك من كان النصب من لغته لا يوافق غيره ممن ينصب... فإذا رأيت عربيا كذلك فلا ترينّه خلّط في لغته ولكن هذا من أمرهم» (263/2).

فظاهر من هذا الكلام أن لفظة «لغة» هي أعمّ معنىً من الاستعمال اللهجي إذ قد تطلق على كيفية في الاستعمال أو الأداء غير خاصة بجهة معينة أو قوم من العرب وعلى هذا فلا يصحّ أن نسوّي بين كلمة لغة وكلمة لهجة من هذه الحيثية أيضا. فكما أنه لا نستطيع، كما رأينا، أن نستبدل إحداهما بالأخرى في مثل هذه العبارة «أما جزاف ففيه ثلاث لغات» فكذلك هذا القول عند بعض المحدثين: «هذه اللهجة التي هي إعمال» ما «عملَ ليس ولهجة فتح الواو في جمع جوزة وغير ذلك» فهم يريدون باللهجة هنا «الأداء اللهجي» ففي هذا الكثير من التسامح. فاللغة بالمعنى الذي قصده سيبويه هي نطق وأداء خاص بوحدة لغوية خاصة أو طريقة الكلام عموما **أما اللهجة فهي نظام لغوي بأجمعه** وخاصة -في زماننا هذا[4]- **اللسان الإقليمي** الذي له خصوصيات لغوية تخالف اللهجات الأخرى وكلها تنتمي إلى لسان أقدم منها فليس في لفظة لهجة في الاستعمال الحديث ما تدل عليه كلمة لغة في القديم.

فاللسان بمعناه العام (وهو الـ Language) كانت «اللغة» بمعنى «طريقة الكلام» (Manner of Speaking) تأتي في مقابله وذلك منذ أقدم الأزمنة إلى زمان سيبويه (ولم تأتِ كلمة لغة في القرآن إطلاقا). ونجد كذلك في كتاب العين هذا التحديد الصريح: «اللغة واللغات واللغون: **اختلاف الكلام في معنى واحد**»(449/8) ولا شك أن الخليل هو الذي حدّد هذه اللفظة لأنه لا يشير إطلاقا إلى معنى اللسان ولا إلى معنى اللسان الخاص بقبيلة أو إقليم. ويشير«لسان العرب»إلى هذا: «**واللغو النطق**. يقال: هذه لغتهم التي **يلغون بها أي ينطقون**» (مادة لغو). وأشار أيضا إلى معنى آخر وهو اللغو أي الخطأ والقول الباطل (لغا عن الصواب) وقال ابن الأعرابي بهذا الصدد: «اللغة أخذت من هذا لأنّ هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين». ففيه زيادة على النطق والأداء معنى النطق الخاص المتميز عن سائر الكلام. وكانت ترادفه كلمة «لحن» بمعناها القديم -قبل سيبويه- يقال: لحن الرجل... تكلم بلغته(اللسان). وبهذا المعنى روى حديث عمر رضي الله عنه: «تعلموا

(4) – وكذلك في القديم فقد حدد «لسان العرب» اللهجة باللسان وزاد على ذلك أنها أيضا جرس الكلام (accent) ويقال فلان فصيح اللهجة و اللهجة هي لغته التي جبل عليها فاعتادها و نشأ عليها(Substratum).وكل هذه المعاني قديمة قد زالت في الاستعمال الحديث من مدلولات كلمة لهجة.

الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن» (إيضـــاح الوقف والابتداء لابن الأنباري،15/1). ورُوى عن أبي مهدية أحد من أخذوا منه اللغة: «ليس هذا من لَحني ولا من لحن قومي» ويخص ذلك لا لسانا إقليميا بأكمله بل كيفية لهجية تتعلق بنصب المستثنى في مثل: «ليس ملاكُ الأمرِ إلا طاعةَ الله» (مجالس العلمـــاء، 3). فاللحن بهذا المعنى القديم هو دائما **أداء لهجي**[5] بخلاف لفظة لغة إذ قد تطلق كما رأينا، على أي أداء أو طريقة كلام بالنسبة إلى عنصر واحد من اللسان يعم كل العرب أو بعضهم.

ثم اختفى هذا المدلول وصارت تدل كلمة «لحن» في زمان سيبويه على الخطأ في اللغة في الأكثر.كما أن كلمة «لغة» صارت تدل شيئا فشيئا على ما يدل عليه لفظ اللسان. وظهر ذلك لأول مرة عند الشافعي في رسالته «(فهو في اللغة...» ص564 مرة واحدة فقط في الكتاب كله). وما يقوله الأخفش نفسه في معاني القرآن: «كما تقول: لسانُنا غير لسانكم أي لغتنا غير لغتكم» (403) لدليل على ذلك إذ توفى في سنة 215. وأما شيخه سيبويه فلم يكن اختلط بعد في زمانه مدلول اللغة بمدلول اللسان الواسع والكتاب كله شاهد على ذلك.وفي زمان الجاحظ انتشر هذا المدلول الجديد لكلمة لغة(البيان والتبيين: 161-162) ثم عند أبى حاتم السجستـــاني (كتـــاب المذكر والمؤنث، 98). وتغلبت كلمة «لغة» على كلمة «اللسان» بعد ذلك وصارا بمعنى واحد واطّرد ذلك عند ابن جني (الخصائص، في كل مكان تقريبا)[6].

وهذه التسوية الطارئة في بداية القرن الثالث بين مدلولي اللغة واللسان تسبّبت في زيادة الغموض بالنسبة لكلمة «لغة» وخاصة في كل موقع وقعت فيه في كتاب سيبويه وكتب النحاة الذين جاؤوا بعده. وقد أشرنا إلى أنها تدل على معنى عام وهو كيفية التأدية **أو طريقة الكلام عموما** وقد يستعمل الأخفش كلمة«لغة» بمعنى الاستعمال عامةً وذلك مثل: «إلا أن **اللغة أجازت**: «لم يَكد يَفعَل» في معنى بعد شدة وليس هذا صحة الكلام... إلا أنّ **اللغة** جاءت على ما فسّرْتُ لك» (معاني، 305) وقال أيضا: «فجعل الهجاج قومًا في **جواز اللغة**»(363).

---

(5) – و الأداء اللهجي قد يكون مجرّد نزعة للناطقين إلى مفارقة غيرهم في الأداء اللغوي (بدون شعور) ولا يلزم من وجود أداء لهجي واحد (مثل جمع جوْزة على جوزات) وجود لهجة بأكملها.
(6) – لكن استمر العلماء في استعمال «لغة» بالمدلول الأقدم بجنب المدلول المحدث.

ويتضح من السياق أن المقصود هو الاستعمال في مقابل القياس. وقد جاء ذلك أيضا في الكتاب: «ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم وجاء القرآن على **لغتهم** وعلى ما يعنون»(167/1) أي على طريقة كلامهم. فالتسوية بينهما (بعد زمان سيبويه) تجعل المحدثين يرتاحون كل الارتياح باستبدال «لغة» ههنا بكلمة «لسان» مع أن غرض سيبويه ومن قبله هو **طريقة العرب في كلامهم أو في كيفية استعمالهم لوحدة لغوية خاصة.**

هذا والذي يسبّب، من جهة أخرى، التخليط بين «اللغة» بهذا المفهوم القديم واللهجة بمفهومها المحدث(Dialect) هونسبة سيبويه وغيره من النحاة للغات إلى أهلها: لغة بني تميم، لغة أهل الحجاز، لغة خثعم، لغة فزارة، لغة هذيل فكأنه قال: لهجة تميم ولهجة أهل الحجاز. والواقع أن النحاة القدامى لا يريدون من هذه العبارات كما رأينا وكما سنراه إلا ما حددناه فيما سبق: **كيفية استعمال العرب أو أفراد منهم لوحدة معينة من وحدات اللغة أي بأداء خاص بـــهم ليس إلا.** والدليل على ذلك أننا إذا بحثنا على أي شئ تنطبق لغة تميم ولغة أهل الحجاز في هذه السياقات رأينا أنها تخص عند النحاة الأولين لغاية الأخفش بعض الوحدات اللغوية لا اللهجة كلها[7]. وهذا مثل لغة أهل الحجاز في صفحة 28 من الجزء الأول من الكتاب فهي خاصة بإعمال ما عَمَلَ ليس ولغة تميم هنا هي عدم إعمالها ولغة هذيل (في صفحة 191 من الجزء الثاني) فيما يخص الجمع فهذه اللغة هي جمعها جَوْزة على جَوَزات بفتح الواو. واللغة الحجازية «القديمة» في تعبير سيبويه هو فك الإدغام في «أرْدُدْ»وغير ذلك. وكلما قالوا: لغة بني فلان ولغة كذا فهم يقصدون دائما عنصرًا واحدًا من اللسان.ولا يعني النحويون القدامى أبدا بهذه الكلمة ما تعنيه كلمة Dialect الإنكليزية وهو اللسان القَبَلي أو الإقليمي.

وقد فهم الكثير من المحدثين كلمة «لغة» في استعمال العلماء القدامى الأوائل لها في جميع النصوص التي وردت فيها منسوبة إلى قبيلة أو إقليم أن المقصود هو لهجة من لهجات العرب كلهجة تميم أو لهجة أهل الحجاز أي اللهجة المنسوبة إلى هؤلاء كاملة لا أداء خاصًا

---

(7) – وبقي هذا المعنى، كما قلنا، بجنب اللغة بمعنى اللسان بعد ذلك الزمان.

بعنصر من بعض العناصر كلغة هُذَيْل كما مرّ. فقد جاء في كتاب «الشاهد وأصول النحو»[8]: تقول: «ويتّضح من هذا أنه (سيبويه) اعتبر لغة قريش أفصح اللغات وأقواها وأعلاها وهي اللغة **الأولى القدمى** وبعدها في القوة والفصاحة لغة بني تميم وإن كانت أقيس من الحجازية في بعض العبارات التي اختلفت فيها اللغتان». فاستعمال المؤلفة لـ «في بعض العبارات» لدليل على أنها أرادت من كلمة «لغة» **اللهجة كاملة** لا ميزة لهجية معينة: أي لسانا محليا أو قبليا.ويؤكّد ذلك ما يلي من النص: «أما لغة أسد فجميع نقوله عنها (أي الأمثلة عنها) تُشير إلى أنها لغة فصيحة».

«فاللغة الأولى القُدْمى» يصف بها سيبويه، في الواقع، هذا الأداء اللهجي الخاصّ في فَعالِ: فأهل الحجاز يكسرونه علَمًا لأنثى وبنو تميم يضمّونه مثل قطامُ. فأما ما كان آخره راء...فإنّ بني تميم تختار فيه لغة أهل الحجاز وهي عند سيبويه«طريقة الأداء»-أي اللغة- القدمى[9] (الكتاب2، 42). فهذا الوصف لا ينطبق عند سيبويه على لهجة تميم كلسان محلي بل على هذه الكيفية الخاصة بهذه الصيغة ذات المدلول المعيّن. أما قول سيبويه أن لغة تميم أقيس فهو يقصد«ما» التي لا يشبّهونها بليس فلا يعملونها وهذا أقرب إلى القياس لأن «ما» حرف وليس من جنس الأفعال الناسخة ولا يريد سيبويه ههنا أيضا بهذا الوصف إلا طريقة الأداء لبنى تميم لعنصر معين لا لهجة تميم.

ومع ذلك فقد جاء في هذا النص للدكتورة: «وإنْ كانت لهجات تميم أيضا في رأيه ليست متساوية في القوة والفصاحة فقد وصف بعض لهجات تميم بالضعف ومثلها لغة قيس...». فما تسمّيه المؤلفة هنا «لهجات» هي اللغات بالمعنى القديم أي الأداء الخاص بعنصر لغوي معيّن وليس اللهجات بمعنى الألسنة المحلية.

كذلك ما جاء في كتاب «الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحّدة» [10]. قال المؤلف: «فأنت ترى أن أوصافه للغة الحجازية مختلفة (قدمى) و(عربية جيدة) و(عربية

---

(8) - للدكتورة خديجة الحديثي، ص98.
(9) - وقد استعمل هذه العبارة الزمخشري في الكشاف (2، 135) واصفا بها إعمال ما (الحجازية) وحاول أبو حيان تفسير ذلك في البحر المحيط، 5 ، 304.
(10) - للدكتور هاشم الطعان.

جائزة)» (ص80) أهـ. مع أن هذه الأوصاف يسميها سيبويه لغات وكل واحدة منها تتعلّق بأداء لهجي خاص بعنصر لغوي واحد. إلا أن الدكتور الطعان أدرك جيدا أن ما يسميه الخليل في كتاب العين باللغة القبيحة أو الرديئة ليست اللهجة كلها. قال: «وما ورد من لهجات قبيحة أو رديئة أو متروكة عنده **فهي خاصة بألفاظ بعينها ولم يعمّ بهذه النعوت أو بعضها لهجة قبيلة برمتها»** (121). فهذا ينطبق على كلمة «لغة» عند كل اللغويين الأوائل ولا تخص الرديئة منها فقط كما يعتقده الدكتور في ظاهر كلامه.ثم لا أدري لماذا يَستَبْدل الدكتور عبارة «لغة رديئة» «بلهجة رديئة» وهو يعترف بما سبق أن ذكره [11] .

أما من جهة أخرى فاللغة إذا انتشرت، كما قلنا ولم تخص قبيلة واحدة أو إقليما واحدًا بل تجدها هنا وهناك فهي تنوّع عام غير لهجي وقد يكون لهجيا في الأول قبل انتشاره.

مما سبق اتضح أن سيبويه وأصحابه وأتباعه يجعلون من العربية لسانا واحدا فيه تنوّع في داخله لهجيا كان أو غير لهجي ويسمون كل تنوع لغوي على حدة «لغة» (Variant) مهما كان. ولم يصرّحوا أبدا بأن هذا التنوع يكوّن **كيانا لغويا منفصلا** عن العربية أي لم يشيروا في أي وقت من الأوقات إلى وجود لهجات لا تصلح إلا للتخاطب العادي من جهة ووجود لغة أدبية مشتركة من جهة أخرى **بازاء هذه اللهجات، وهذا لا سبيل إلى العثور عليه في أي كتـــاب من كتب اللغة أو النحو القديمة.**

ومع هذا فلا يمكن أن ننكر وجود هذه المجموعات من الخصائص اللهجية التي كانت تمتاز بها كل قبيلة وكل إقليم في شبه الجزيرة في ذلك الوقت بالذات والتي اعتنى سيبويه وغيره بوصفها الوصف الدقيق (وليست كل «اللغات» التي ذكروها من قبيل اللهجة كما رأينا).

---

(11) – فاللهجة كمصطلح لغـــوي حديث (dialect) لا تدل على خاصية جزئية (variant) و لا يدل على ذلك إلا الوصف « لهجـــي» (dialectal) في عبارة مثل: خاصيّة لهجية أو تنوّع لهجي (Dialectal Variant).

كلمة «لغة»: تطوّر معناها من الجاهلية إلى وقتنا الحاضر

الزمان	المعنى الأصلي لكلمة «لغة»	الأمثلة	أصل الاستعمال
قبل زمان نزول القرآن وما بعده إلى حدّ زمان سيبويه ليس إلا (لا توجد في القرآن الكريم)	طريقة الكلام عموما - **الاستعمال اللغوي خاصًا أو عامًا**	-«كلموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم» (الكتاب1/167) -«في جميع لغات العرب»(256)	لَغَـا إذا تكلم (على طريقة معينة)
	المعنى الخاص (كمصطلح لغوي)	**الأمثلة**	**الأصل**
تطور المعنى ↓	طريقة استعمال كل العرب أو أكثرهم أو قلة منهم لعنصر لغوي معين. وقد ترادفها كلمة قول في «قول العرب» (131/1) ولم تدل بعد على معنى اللسان أو اللسان الإقليمي(اللهجة) فهو تنوّع في أداء عنصر من عناصر اللغة	- لغة أهل الحجاز (إعمال ما) - لغة بني تميم (عدم إعمالها) - ولغة حجازية أخرى: أرْدُدْ -«ذيت فيه ثلاث لغات»(48/2) -«في لغة من أنّث»(32/2) أو«لغة من جرّ(34) أو«لغة من قال»(269) -«وهذه أقل اللغتين»(278)	لغـا لغوًا إذا تكلم بعبارة أو نطق خـاص بقومه وكذلك كانت كلمة«لحن» قبل زمـان سيبويه وصـارت تدل على الخطأ (الذي لم يتكلم به فصحـاء العرب) ابتداءً من ظهور البحث اللغوي مع بقاء معنى «اللغة الـخاصة» إلى غاية سيبويه.
	المعنى المحدث	**الأمثلة**	**الأصل**
ابتداءً من بدايـة القرن الثالث (مع بقاء المدلول القديم كمصطلح عند النحاة واللغويين بجنب المدلول الطارئ)	طريقة الكلام الخـاصة بأمة من الأمم: لغة العرب/لغة العجم= لسان أو أقل من ذلك (اللهجة)	كتاب البيان للجـاحظ ومعـاني القرآن للأخفش والمذكر والمؤنث لأبي حـاتم وأقدمهم الإمـام الشافعي (مرة واحدة في الرسالة)	لغة بعضهم لغة **أكثرهم = لسانهم**

ثالثا : وقوع التفاهم وحقيقة اللهجات العربية

إلا أن هذه المجموعات من الصفات اللغوية الخاصة **لم تمنع التفاهم بين القبائل** إذ لم يصرّح أي واحد ممن عايش فصحاء العرب في ذلك الزمان الغابر، من علماء اللغة وغيرهم، باستحالة التفاهم بين العرب بسبب الاختلاف اللهجي[12]. فكل ما هنالك أنهم نصوا على اختلاف في الأصوات وفي صيغ الكلمة أو مدلولها وذكروا عددا قليلا من المفردات اختصت بها بعض القبائل وذلك بالنسبة إلى العدد من المفردات التي لم يشيروا أبدا إلى أنها لغات (أنظر فيما يلي).

وقد مرّ بنا ما حكاه الجاحظ أن«أصحاب هذه اللغة لا يفقهــون قول القائل من: «مُكرهٌ أخاك لا بطل» و«إذا عزَّ أخاك فهُنْ». ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم: «ذهبتُ إلى أبو زيد ورأيتُ أبي عمرو» (البيان،1، 162) وقال ايضا: «وقد روى أصحابنا أن رجلا من البلديّين قال لأعرابي: «كيف أهلِك» قالها بكسر اللام. قال الأعرابي: صَلْبًا. لأنه أجابه على فهمه ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله»(163) وقال: «وحكى الكسائى أنه قال لغلام بالبادية: من خَلَقْك؟ وجزم القاف.فلم يدر ما قال ولم يُجبْه فردّ عليه السؤال فقال الغلام: لعلك تريد من خلقَك»(164). وأكثر الجاحظ من ذكر مثل هذه المحاورات التي لم يستطع فيها الفصحاء من العرب أن يدركوا ما قصده البلديون بسبب اللحن أي الكلام الذي لا يعرفه العربي الفصيح النشأة. فإن كانت لغة التخاطب عند هؤلاء الفصحاء النشأة متباينة إلى حدّ امتناع التفاهم- جزئيا على الأقل-فما الذي منع الجاحظ وأمثاله من أن يحكي مثل هذه المُلح بين الفصحاء أنفسهم ويبيّن بذلك هذا «الاختلاف الكبير» بين لهجاتهم كما يزعمون؟ ثم نعجب أيضا من عدم تفطن الجاحظ إلى وجود لغة تخاطب مغايرة للغة الشعر ولغة القرآن لو هذا كان حاصلا بالفعل؟

أما موقف العربي الفصيح إزاء التنوعات التي ليست من لغته فقد قال في ذلك ابن جنى «وذلك أن الأعرابي الفصيح إذا عدل به عن لغته إلى أخرى سقيمة عافها ولم يعبأ بها (ويأتي

---

(12) - اعترف بذلك المستشرق النمساوي يوهان فوك في كتابه المفيد «عربية» (ص6).

بأمثلة كلها مفردات أو صيغ لها)... إلا أنهم أشد استنكارًا لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة **لأن بعضهم قد ينطق بحضرته بكثير من اللغات فلا يُنكرها** إلا أن أهل الجفاء وقوة الفصاحة يتناكرون خلاف اللغة تناكرهم خلاف الإعراب» (الخصائص 2، 26-27). فهذا الذي يحكيه ابن جنى عن سلوك الأعرابي يبيّن أن الذي ينفر منه هو **وحدات من العربية** أو أداء خاص بوحدة معينة لا يوجد في استعماله ولا يدل هذا النفور على عجز الأعرابي عن فهم خطاب غيره بسبب تباين اللهجات (إذ لغة الخطاب اليومي هي اللهجات كما يزعمون) فلو كانت هناك لهجة بخصائصها تباين لهجته لَصرّح بذلك ولم يقصر اهتمامه ببعض الوحدات أو بعض الكيفيات في أدائها.

ولهذا فإن في لفظة Dialect الأوربية شيئا كثيرا من الإبهام إذ قد تكون اللهجة شديدة التباين بالنسبة إلى غيرها من اللهجات حتى يمتنع التفاهم بين أهلها وغيرهم من أصحاب اللهجات الأخرى المنتمية إلى نفس اللغة إلا في القليل. وقد تكون هذه الاختلافات طفيفة فلا يصح حينئذ أن تسمى مجموعها لهجة بل تنوّعا من نفس اللغة[13]. وذلك كالإنكليزية المستعملة في شتى بلدان الدنيا والفرنسية المستعملة في بلجيكا وسويسرا وإفريقيا الشمالية فليست هذه الضروب من الاستعمال اللغوي الإنكليزي أو الفرنسي تكوّن dialects بالمعنى المشار إليه بل استعمالا له بعض الخاصيات من تلك التي لا تجعل من هذا الاستعمال لهجة حقيقية.

ولماذا يريد بعضهم أن يكون اللغويون العرب قد غفلوا عن هذا الاختلاف المانع أو غير المانع للتفاهم أو يكونون سكتوا عنه؟ ألم يصرّحوا بالاختلاف الكبير الذي كان حاصلا بين العربية ولهجات اليمن؟ فقد روى أحد زملاء سيبويه وهو ابن سلام الجمحي عن أبي عمرو بن العلاء[14] أنه قال«**ما لسان حمير وأقاصي اليمن**[15] بلساننا **ولا عربيتهم**

(13) - أشار إلى ذلك أيضا اللغوي الفرنسي مارتيني (مبادئ اللسانيات ص154- 156).
(14) - وهو مؤسس الجغرافية اللغوية العربية إذ هو أول من قام بالتحريات اللغوية الميدانية الواسعة وتعلم ذلك منه جيل كامل من اللغويين العرب الكبار، انظر الباب الرابع من هذا الكتاب.
(15) - كانت الحميرية لغة لبعض القحطانيين فقط. أما شمال اليمن فسكانه كانوا ينطقون بالعربية الفصحى ليس غير كإخوانهم من مضر وشواهد النحو واللغة دليل واضح على ذلك.

بعربيتنا»(11/1). فهو يحس بأن هذا **اللسان اليمني هو لسان عربي** إلا أنه يعرف مع ذلك أنه عربية أخرى غير عربية القبائل المستعربة ولم تكن كلمة «لغة» ترادف في ذلك الزمان بعدُ كلمة لسان (ولم تكن تدل كما سبق أن رأيناه على معنى اللهجة) فسماه لسانا.

وقال ابن جنى أيضا: «وبعد فلسنا نشكّ في بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابني نزار. فقد يمكن أن يقع شئ من تلك اللغة في لغتهم فيُساء الظن فيه بمن سمع منه وإنما هو منقول من تلك اللغة» (الخصائص 386/1). وقال أيضا: «قال [أبو علي الفارسي]: ما نقول في حَوْريت فخضنا معًا فيه فلم نحل بطائل منه: فقال هو من لغة اليمن ومخالف للغة ابنيْ نزار فلا ينكر أن يجئ مخالفًا لأمثلتهم» (السابق، 387).

والآن يمكن أن نفهم لماذا جاء في القرآن الكريم أنه «بلسان عربي مبين» وما قاله بعض العلماء العرب أن القرآن نزل بلغة قريش أو أهل الحجاز أو بكذا وكذا من اللغات فهذه تنوعات تخص، كما قلنا، المجئ لبعض الكلمات الخاصة أو التأدية لها أو لبعض الحروف والقليل جدا من التراكيب وهذه اللغات لا تمنع من أن يكون نزل بلسان عربي مبين.

رابعا: قول سيبويه وزملائه: ومثل ذلك في القرآن أو الشعر أو الكلام

أخذ سيبويه على عاتقه أن يذكر لكل صفة أو خاصية لغوية شاهدا من كلام العرب ينطلق منه ثم يواصل كلامه بقوله: «ومثل ذلك في القرآن» أو «مثل ذلك في الشعر». فهذا يفعله باستمرار في كل صفحة من كتابه. فإن كان ذلك تخليطا بين لغة الشعر أو لغة القرآن واللهجات فإنه ينبغي أن يصعب في الغالب العثور على توافق الصيغ بين لغة التخاطب ولغة القرآن أو الشعر. ومع ذلك فالكتاب كله شاهد على السهولة التي يجدها سيبويه في اكتشاف هذا التناسب في الأبنية.

قال في باب «الفعل الذي يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل واسم المفعول لشيء واحد : كقولك: «ما ضرب أخاك إلا زيدٌ» ومثل ذلك قوله عز وجل: «ما كان حُجَّتُهم إلا أن قالوا وما جوابَ قومه إلا أن قالوا».

وقال الشاعر:

وقد عُلِم الاقوامُ ما كان داءَها بثهلانَ إلا الخِزْيُ ممن يقودها

وإن شئت رفعت الأول كما تقول: ما ضرب أخوك إلا زيدا وقد قرأ بعض القراء ما ذكرنا بالرفع **ومثل قولهم: «من كان أخاك»** قول العرب: «ما جاءت حاجتَك» كأنه قال: ما صارتْ حــاجَتَك «ومن العرب من يقول: «ما جاءت حــاجتُك» كثيرًا» (24/1) .

وقال في باب ما تجريه على الموضع لا على الاسم الذي قبله: «وذلك قولك: ليس زيدٌ بجبان ولا بخيلا... **ومما جاء في الشعر**: ...فلسنا بالجبالِ ولا الحديدا ... ألا ترى أنهم يقولون: حسُبك وبحسبك هذا، فلا يتغير المعنى وجرى مجراه قبل أن تدخل الباء لأن بحسبك في موضع ابتداء و**مثل ذلك قول لبيد:**

فإن لم تجدْ من دونِ عدنان والدًا ودونَ معدٍّ فلْتَزَعْكَ العواذلُ

(«دون» الثانية منصوبة على الموضع) والجرّ الوجه» (1/33-34) .

وقال في باب ما يُجرى مما يكون ظرفا هذا المجرى: «وذلك قولك: يومُ الجمعة ألقاك فيه»... ولا يحسن في الكلام أن تجعل الفعل مبنيا على الاسم ولا تذكر علامة إضمار الأول... ولكنه قد يجوز في الشعر وهو ضعيف **في الكلام**. قال أبو النجم العجلي:

قد أصبحتْ أمُّ الخيار تدَّعي عليّ ذنبا كلُّه لم أصنعِ

... وزعموا أن بعض العرب يقول: «شهر ثرى وشهر تَرى وشهر مرعَى، يريد ترى فيه...فهذا ضعيف والوجه الأكثر الأعرف النصب» (43-44)

وقال في باب «ما يُختار فيه إعمال الفعل...»: وذلك قولك: «رأيت زيدًا وعمرًا كلّمته»... **ومثل ذلك قوله عز وجل:** « يُدخِلُ من يشاءُ في رحمته والظالمين أعدَّ لهم عذابا أليما»... **وهذا في القرآن كثير**» (46/1)

وقال في باب [إعمال اسماء الفاعلين والمفعولين]: ... ومما يجريه مجرى أسماء الفاعلين فواعل أجروه مجرى فاعلة... فمن ذلك قولهم: حواجُّ بيتَ الله «وقال أبو كبير الهُذَلي:

ممن حملنَ به وهُنَّ عوائدٌ حُبُكَ النطاق غير مهبَّل... وقد جعل بعضهم فُعالا بمنــزلة فواعل فقالوا: قُطَّانٌ مكة وسكّانٌ البَلَدَ الحرام» (1/55-56)

وقال أيضا: «وكذلك كأيِّنْ رجلاً قد رأيتُ»، زعم ذلك يونس. «وكأيِّنْ قد أتاني رجُلاً» إلا أنَّ أكثر العرب إنما يتكلّمون بها مع مِنْ. قال عز وجلّ: «وكأيِّنْ من قَرْيةٍ» (الحج 48) . وقال عمرو بن شأس:

وكأين رددنا عنكم من مُدَجّج يجئُ أمامَ الألفِ يَرْدِي مُقنَّعًا» (297/1).

فهذا أوضح دليل يعطينا إياه سيبويه على تكافؤ المستويات الثلاث من حيث البنية النحوية في واقع الاستعمال وإذا كثر ذلك الكثرة التي أظهرها صاحب الكتاب فكيف يمكن أن تختلف اختلاف اللسان المشترك واللهجات المنفصلة عنه كما يزعمون؟ وإنما الاختلاف قائم بتنوع الاستعمال الذي يقتضيه كل مقام والأسلوب عامة.

ويستعمل سيبويه لفظة «نظير» مكان «مثل» وهذا المصطلح الدقيق الذي سنتطرّق إليه فيما بعد يزيدنا اقتناعا بما قلناه من وحدة النظام اللغوي الذي يجمع بين المستوى الشعري والقرآني من جهة ومستوى التخاطب اليومي من جهة أخرى يقول: «ونظير ذلك من الكلام» (143/1) ويقول أيضا«ونظير هذا النصب من الشعر»(249/1) و:«ونظير ذلك من كلام العرب»(371) وغير ذلك.

وهذه عينة صغيرة يتراءى فيها منهج سيبويه الذي يطبقه في اكثر صفحات كتابه.هذا ويتضحّ جيدا مما ذكرناه أن سيبويه (ومثله الأخفش وتلاميذه والفراء وغيرهم) لا يخلطون بين لغة الشعر ولغة التخاطب فقد بينوا أن ما لا يجوز في الكلام المنثور قد يجوز في الشعر

ولكن لم يمنعهم من أن يجعلوا لغة هذه المستويات الثلاث لغة واحدة إذ النظام النحوي الصرفي غير الضرورات الشعرية وغير الأساليب البلاغية. فالذي تبيّن من كلام النحاة أن لكل خاصية لغوية في لغة القرآن والشعر يوجد ما يماثلها في لغة التخاطب فاختيار الرفع أو النصب إذا وجد في إحدى هذه المستويات من الاستعمال فهو كذلك في المستويين الآخرين وكذلك إعمال فواعل وغير ذلك إلا في القليل النادر فكل **بناء نحوي** وُجد في القرآن والشعر كان له ما يماثله غالبا في الكلام العادي. **وهذا هو أقوى دليل على وحدة اللغة العربية** في ذلك الزمان. أما فيما يخص القراءات فربما لم تأت في القرآن إلا لغة واحدة أي تنّوع واحد مع وجود تنوعات أخرى في نفس الوحدة اللغوية (في المجتمع عليه لا في الشواذ) وقد تأتي اللغتان وذلك لأن **القراءة سنة** وليست تابعة للمسموع عن العرب.إلا أن لغات العرب (=استعمالاتهم) أكثرها ورد في القراءات كما سنراه.

أما «إقحام» هذه اللغات في الشعر كما يزعم بعضهم فغير صحيح إذا كانت لغات لبعض العرب ولم تكن تنوّعا لهجيا.ونبّه دائما العلماء على الخلافات اللغوية كما نبهوا على قلتها.

وفيما يخص القرآن يقـول سعيد بن مسعدة الأخفش في كتـابه: «معاني القرآن»:

«هأنتم هؤلاء (آل عمران/ 66 ومحمد/38) ...**وهو في كلام العرب كثير» (134)**. «أو كلّما عاهدوا عهدا» (البقرة 100)«... فهذا **في القرآن والكلام كثير**»(141). «يرزق من يشاء بغير حساب»(آل عمران/37) «**فهذا مثل كلام العرب:** يأكل بغير حساب أي لا يتعصّب عليه ولا يضيق عليه (201) . «الذي تَساءَلون به» (النساء1) خفيفة لأنها من تساءلْتُم فإنهم يتساءلون، محذوف التاء الأخيرة **وذلك كثير في كلام العرب**»(224). وقال: «الذي هدانا لهذا» (الأعراف 43: 7)...**ويقول العرب:** هو لا يهْتَدي لهذا، أي يعرفه»(299) وقال: «إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين» (الأعراف 56) فذكّر «قريب» وهي صفة الرحمة وذلك **كفعل العرب:** ريحٌ خريق وملحفة جديد وشاة سديس» (300). إلى غير ذلك كثير.

خامسا: اللغات في الشعر العربي وفي القراءات

إن اللغة الموحدة التي جعلها المستشرقون وأتباعهم من العرب خاصة بالشعر وبالقرآن لم تكن مختلفة عن لغة التخاطب كما بَّيناه وسنبينه أيضا فيما يلي ودليل قوي آخر على ذلك، كما قلنا، هو مجئ الخاصيات اللهجية بكثرة في القرآن وفي الشعر. أما القرآن فالقراءات المختلفة التي قرئ بها كافية تماما للدلالة على أن «اللغات» هي جزء لا يتجزأ من العربية وعلى هذا فلغة التخاطب التي حصرها المستشرقون في اللهجات هي ولغة القرآن شئ واحد. نعم الأسلوب الذي نزل به القرآن غير أسلوب اللغة العادية ولكن **الأسلوب ليس هو اللغة. فإن القرآن خاطب العرب بلغتهم لكن بأسلوب معجز انفرد به سبحانه وتعالى.** وقد كتب عبد القاهر الجرجاني كتابا كاملا ليوضح ذلك (وبيّن قبل سوسور الفرق الأساسي القائم بين اللغة كوضع ونظام والكلام كاستعمال الفرد).

وعلى هذا الأساس يمكن أن نتساءل كيف سمح للعرب أن يقرأوا القرآن «بلغاتهم» أي بما اختص كل قوم أوناس كثير من الخصائص اللهجية وغير اللهجية إذا كانت لغة القرآن مختلفة عن لغة التخاطب **بل كيف يمكن أن يُقرأ القرآن بهذه اللغات إذا كانت لغته أدبية محضة لا علاقة لها بلغة التخاطب (وليس الأمر خاصا بالأصوات فقط) وهل كان العرب كلهم يفهمون هذه اللغة المشتركة الأدبية وأنّى لهم ذلك وقد اختلفت لهجاتهم كما يزعمون.** وإذا افترضنا أنهم كانوا مستأنسين بلغة الشعر -وهي هذه اللغة الأدبية المشتركة كما زعموا- فهل هذا ينطبق على جميع العرب في ذلك الزمان؟ هذا وأيعقل أن ينزل القرآن بلغة خاصة بالشعر وتترك اللغة العادية التي يفهمها كل عربي وهي لغته اليومية؟ واللغة غير الأسلوب ولذلك أليس من الأنسب أن نخضع للواقع الملموس وهو **الذي وصفه اللغويون القدامى** لنفسّر كيف كان يمكن أن يفهم العربي هذه النصوص وهي بلغته العادية. ولم يكن هذا ممكنا إلا لان هذه اللغة الموحدة التي يمتاز بها القرآن والشعر إنما هي **لغة التخاطب** التي يفهمها جميع العرب من حيث هي نظام نحوي صرفي مع ما يرافق ذلك من مفردات **فهي بنفسها موحدة وأكبر دليل على ذلك هو قلة وجود الاختلافات اللهجية بين قبيلة وأخرى في ذلك الزمان** من

جهة ووجود هذه الاختلافات هي برمتهـا في الشعر وأكثرهـا في القراءات من جهة أخرى. أما ما زعم الدكتور إبراهيم أنيس من عدم وجود هذه اللغات في الشعر فإن ذلك قول بعيد جدا عن الواقع (ولم يسنده بأي دليل)[16]. يقول: «رويت لنا الآثار القديمة في لغة موحدة لا تشتمل على خصائص من تلك التي وردت عن اللهجات العربية القديمة» (في اللهجات العربية ص 43). فهذا غير صحيح إطلاقًا إذ يكفى أن نرجع إلى شواهد النحاة لنتبين عكس ما يدعيه الدكتور.فقد ذكر سيبويه لغات للعرب واستشهد على ذلك بأبيات شعرية:

يقول: «وقالوا تعَرَّفْها المنازلَ وماكلّ من وافى منىً أنا عارُف

وقال بعضهم: «وما كلٌّ من وافى منًى أنا عارفُ». لزم اللغة الحجازية فرفع كأنه قال «عبد الله أنا عارفٌ فأضمر الهاء في عارف...»[17] (36/1)

وقال أيضاً : « قال رجل من خثعم :

عَزَمْتُ على إقامة ذي صباح لشيء ما يُسوَّد من يسودُ

فهو على هذه اللغة [18] يجوز فيه الرفع» (116/1) .

وقال في باب آخر: «وأما علماً فعالم .... وقد يرفع هذا في لغة بني تميم ... قال الشاعر:

---

(16) – إلا ما ذكره من الكشكشة وغيرها من الأصوات اللهجية وهو غير كافٍ أبدا لأن اللهجة تمتاز عن اللسان في جميع المستويات فلا أدري ما الذي حمل الدكتور إبراهيم أنيس أن يقول هذا عن الكشكشة وقد ذكر العلماء أشعارا تحتوي على هذه الظاهرة الصوتية . نكتفي بما ذكره أبو الطيب اللغوي في كتاب الإبدال: أنشدوا:

يا دارُ حُيِيْتِ ومن ألمم بشِ عهْدي ومن يْحلل بواديشِ يعِشْ

يُريد : بكِ وبوادكِ . وأنشد بعض الأعراب:

فعيناش عينها وجيدش جيدهُا سوى عنَ عظمَ الساق منْش دقيقُ

يريد: فعيناكِ وجيدكِ ومنكِ فأبدل من الكاف شينا (231/2). هذا ولا أدري أيضا لماذا لَم يردّ على كلام إبراهيم أنيس فيما يخص، على الأقل، شواهد الكشكشة من جاء بعده ممن ألف في اللهجات العربية .

(17) – لغة أهل الحجاز هنا هي جعل «كل» اسمًا لما وبنو تميم ينصبون «كل» كمفعول العارف. فكلمة «لغة» تخص دائما كيفية الأداء لوحدة لغوية معينة.

(18) – لغة خثعم أن تأتي «ذو صباحٍ « مفارقة لما تدل عليه «ذات يوم» .

ألا يا لَيْلَ وَيَحكِ نَبِّئِنا   فأما الجودُ منكِ فليس جودُ (1/192-193)

وقال في تسكين عين الثلاثي: «هذا باب ما يسكّن استخفافا وهو في الأصل عندهم متحرك وذلك قولهم في فَخِذ فَخْذ... وهي لغة بكر بن وائل وأناس كثير من تميم... قال أبو النجم:

لو عُصْرَ منه البانُ والمسكُ انْعَصَرْ. يريد عُصِرَ» (2/257-258)

وقال في لغة من يكسر كاف ضمير الخطاب : «وقال **ناس** من بكر بن وائل:

«من أحلامكِمْ وبِكِمْ...فأتبع الكسرة الكسرة... وهي رديئة جدا سمعنا أهل هذه اللغة يقولون: قال الحطيئة :

وإن قال مولاهم على جُلِّ حادثٍ   من الدهر رُدُّوا فَضْلَ أحلامِكِم رَدُّوا»(2/294) .

إن سيبويه لم يكثر من ذكر «اللغات» -وهذا جدير بالملاحظة- وذلك لأن كتابه هو كتاب يخص النحو وما يرتبط بذلك من الأصوات وليس كتاباً في اللغة (في مقابل النحو). وتبيّن أن الظواهر اللهجية في التراكيب العربية قليلة جدا بالنسبة للتنوع الخاص بالأصوات وما يسمى بالإبدال ومنه اللغات الخاصة بأبنية الكلم مثل فَعْل وفِعْل وفُعْل وفَعَل وفَعال وفِعال إلخ باتفاق المعنى وهذا يأتي خاصة في كتب اللغة كاصلاح المنطق لابن السكيت وغيره.

والواقع أنه لا توجد أية «لغة» في كتب اللغة والنحو إلا ولها شاهد من الشعر زيادة على الشواهد من كلام العرب.ويكفي أن يتصفح الباحث كتب اللغة وكتب الشواهد ليقتنع من صحة ما نقوله. فهذا كتاب النوادر لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري وقد أضاف إليه بعض اللغويين من علمهم. جاء فيه: «قال أبو الفضل الرياشي... وقوم من العرب يؤخّرون الهمزة في رأي ونأي يقولون: راءَ وناءَ يا هذا فجاءت رأي على تلك اللغة وأنشدَ الأصمعي :

مرّ الحُمول فما شأوْنَكَ نقرة   ولقد أراك تُشاءُ بالإطعان

قال أبو حاتم : شاءه يشاءُه فكان ينبغي أن يقول : تُشأى...» (40).

وفيه أيضا: «روى أبو حاتم حتى أملَّه ولا أقلاه يريد أقليه وهي لغة. قال الشاعر:

أَزَمانَ أُمُّ الغَمْرِ لا نقلاها (45)

وجاء أيضا: «[هذا] سماع أبي زيد من العرب. قال الراجز:

لقدْ رأيت عجبا مُذ أمْسَا عجائزًا مثل الافاعي خمسَا

... قوله أمسا ذهب بها إلى لغة بني تميم يقولون ذهب أمسُ بما فيه فلم يعرفْه»(57) .

كما جاء: «وقال المفضل: وأنشدني أبو الغول لبعض أهل اليمن:

أيُّ قَلوصٍ راكبٍ تراها طاروا عليهن فَشُلْ علاها

...وعلاها أراد لغة بني الحارث بن كعب: قلب الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفا. يقولون: أخذت الدرهمان واشتريت الثوبان والسلام علاكم **وهذه الأبيات على لغتهم**» (58).

«قال أبو زيد : وقال رجل من طيء وأدرك الاسلام :

فإنَّ بيت تميم ذو سمِعتَ به فيه تنَمَّتْ وأرستْ عزَّها مضرُ

...قوله: ذو سمِعت به أي الذي سمعت به وهو في موضع النصب والجرّ والرفع ذو بالواو.

«أبو زيد: وقال قيس بن جِرْوة الطائي وهو جاهلي...

فان لم تغيّر بعضَ ما صنعتُم لأنْتَحِيَن للعَظْم ذو أنا عارقهْ» (61)

وجاء أيضا في كتاب القلب والإبدال لابن السكيت في باب الجيم والياء:

قال أبو عمرو بن العلاء قلت لرجل من بني حنظلة: ممن أنت؟ فقال: فُقَيْمِجْ فقلت: من أيهم؟ فقال: مُرِّج يريد [فُقَيْمِيّ] ومُرّي. وأنشد لهميان بن قحافة السعدي: تُطير عنها الوبَر عنها الصُّهابجا. يريد الصهابي» (28-29).

وقال الدكتور هاشم الطعان في كتابه في «الأدب الجاهلي»: «كثير من السمات اللهجية التي نص اللغويون على نسبتها إلى هذيل موجودة في أشعارها وسأورد أمثلة منها من ملاحظاتي: إزار: جاء في اللسان عن اللحياني-ولحيان من هذيل- الإزار الملحفة يذكّر ويؤنث...قال أبو ذؤب:

تبرّأ من دم القتيل وبرّه   وقد علقت دم القتيل إزارها

....وفي هامش مخطوطة شرح السكري عن الأصمعي: لم أسمع تأنيث الإزار إلا في هذا البيت

مقناة: في اللسان عن التهذيب قال قيس بن العيزار الهذلي:

بما هي مقناة أنيق نباتها مرب فتواها المخاض النوازع

قال: مقناة أي موافقة لكل من نزلها...قال الأصمعي: ولغة هذيل: مفناة بالفاء (اللسان/فني)

...السبّ: المزهر: قال أبو ذؤوب:

تدلّى علينا بين سبّ وخيطة   شديد الوصاة نابل وابن نابل

السب بلغة هذيل الحبل وكذلك ورد في الصحاح (173-174)

وواصل الدكتور الطعّان عرضه للغات هذيل في أشعارهم في 8 صفحات أخرى (174-182). وفعل مثل هذا بالنسبة إلى لغات نجد(182 وما بعدها).

أما ما زعم بعضهم من إقحام النحاة هذه اللغات في الشعر فهو اتهام بالباطل وكل ما يقدمونه من حجج في ذلك فلا أساس له من الصحة وذلك مثل: اختلاف الرواية وولوع اللغويين القدامى بالغريب. فأما اختلاف الرواية فشئ فطبيعي جدا في مجتمع لا يستعمل الكتابة بكيفية شاملة ومهما تنوعت الروايات فالمصدر واحد وهو ما يرويه فصحاء العرب وحدهم ولغاتهم حجة. وأما الغريب فإن قصدوا الغريب على غير الفصحاء فهو بالضرورة

من كلام العرب وكل ما جاء في المعاجم مما لا تعرفه العامة من المولَّدين فهو هذا الغريب (أنظر الغريب المصنَّف لأبي عبيد مثلا). وأما الغريب على أكثر الفصحاء فهذا قد نبّه عليه العلمــاء بقولهم: هذا لا يكاد يعرف. هذا وقد اعتنى العلماء عناية كبيرة دائما بالتنبيه على اختلاف الرواية مثل ما نبهوا على الاختلافات اللغوية النــاتجة عن ذلك (قارن بما صنعه السكري مثلا من الدواوين وقد سبق أن تناولنا هذا الموضوع).

أما فيما يخص اللغات في قراءات القرآن فمن المعروف أن العلماء القدامى ألَّفوا الكثير من الكتب في هذا الموضوع بالذات[19]. ويمكن أن نمثل لذلك بما جاء في «معاني القرآن» للأخفش (ويوجد مثل ذلك في كتاب الفراء) وهو ما يلي. «قال: وقوله: ومما رزقناهم يُنفقون (البقرة،3) ففيها لغتان ومنهم من يقولها بالوقف إذا وصل ومنهم من يُلحق فيها الواو وكذلك هو في كل موضع من **القرآن والكلام** [هُمْ/همو](27) وقال أتتّخذُنا هُزُءًا (البقرة،67) فمن العرب **والقراء** من يثقّله... وزعم عيسى بن عمرأن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم فمن العرب من يثقّله ومنهم من يخفّفه... وهذه اللغة التي ذكرها عيسى بن عمر يتحرك أيضا ثانيه بالضم»(103). وقال: «إنْ هذانِ: لساحران»(طه63) خفيفة في معنى ثقيلة وهي لغة لقوم يرفعون ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى «ما» ونقرأها ثقيلة وهي لغة لبني الحارث بن كعب»(408). وقال: «قد قال بعض العرب: «آ إذا» و«آأنذَرتهم»... فجعل ألف الاستفهام إذا ضمت إلى همزة يفصل بينها وبينها ألف لئلا تجتمع همزتان **كل ذلك قد قيل وكل ذا قد قرأه الناس**»(43) وقال: «فمنهم من قرأ: «يَخْطِف (البقرة20) من خَطف... ومنهم من قرأ يَخْطَف»على خَطِف يخطَف وهي الجيدة وهما لغتان»(50)وقال: «قال بعضهم: «وكفَلها زَكريَّاءُ» (آل عمران 37 وكفَّلها أيضاً) زكريا وبه نقرأ وهما لغتان»(200) «وقال: ولْتستبيَن سبيلُ المُجرمين» (الأنعام55) لأن أهل الحجاز يقولون هي السبيل... وقال بعضهم: وليَستبين سبيل «في لغة بني تميم» (276) «ولما سكت عن موسى

---

(19) – مثل الكتب التي جاءت بعنوان «معاني القرآن « وكتب « القراءات» وغيرها فالقديمة منها تعتني بذكر اللغات من بين القراءات .

الغضبُ (الأعراف، 154) وقال بعضهم: سَكَنَ إلا أنها ليست على الكتاب فتُقرأ «سكت». وكل من كلام العرب» (311) .

سادسا : التخاطب بالفصحى قديما وأقوال المستشرقين

أ- توهم المستشرقين وأتباعهم من العرب

لقد سبق أن صرّحنا بحصول إسقاط الوضع اللغوي اليوناني القديم، عند بعض المستشرقين على الوضع اللغوي العربي القديم وهو تخليط وهناك تخليط آخر يرتكبه معاصرونا وهو إسقاط الوضع اللغوي العربي الحديث(وهو امتداد لما حصل بعد اختفاء الفصاحة العفوية) على الوضع اللغوي العربي قبل اختفاء الفصاحة.

فقد حمل الكثير من معاصرينا وإن لم يصرّحوا بذلك:

الفصحى القديمة على الفصحى الحديثة من حيث إن الفصحى الحديثة هي اللغة المشتركة الثقافية وتقابلها لغة التخاطب التي هي مختلفة بين عامية وأخرى فلا بد أن تكون الفصحى القديمة عند هؤلاء مثل ذلك: لغة مشتركة أدبية تقابلها لغة التخاطب التي كانت في زعمهم مختلفة بين قبيلة وأخرى. ونمثّل لهذا الوهم بهذا التناسب وما يترتب عليه:

اللغة المشتركة الثقافية الحالية / لغة التخاطب الحالية=العامية = اللغة الفصحى قديما / لغة التخاطب قديما ⟸ لغة مشتركة أدبية / اللهجات القديمة

فالفصحى القديمة لغة مشتركة أدبية عندهم كما أن الفصحى الحديثة لغة مشتركة ثقافية واللهجات القديمة كانت هي وحدها لغة التخاطب عندهم كما أن اللهجات الحديثة هي الآن وحدها لغة التخاطب.

فهذا الحمل هو عبارة عن سفسطة لأنه وقبل كل شئ، تسوية تعسفية بين زمانين أو بالأحرى بين وَضْعيّتَيْن لغويتين تَنْتَمِيَانِ إلى زمانين مختلفين وهذا إذا لم يسنده دليل فهو مجرد تحكّم. وسنرى ذلك فيما يلي.

زعم آخر: «احتقار اللغويين العرب للهجات وميلهم إلى توحيد العربية تعسُّفا وتمسكا «بصفائها» (ومن ثم طَرْدُهم لقواعدهم ونبذهم لكل ما خرج عنها)[20]. قال المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير بهذا الصدد:

«إن نظرية المؤلّفين المسلمين [حول العربية الفصحى]هي نظرية جاءت على طريقة المنطقيين: تنطلق من أصل مسبّق وتستنتج منه نتائج تتحول(عند العرب) إلى عقيدة صمّاء في النهاية.

«وهذا الأصل قد نص عليه في أواسط القرن الثامن (الثاني الهجري) وهو الاعتقاد بوجود معيار لغوي وهو صورة من العربية تمتاز بالصفاء والكمال ويقابلها خليط من اللهجات. وما هذه اللهجات عندهم إلا ما فسد من هذه اللغة المثالية...» (تاريخ الأدب العربي، 70).

وقد اتفق بلاشير وأكثر المستشرقين على أهم ما جاء في هذا الزعم وتبعه في هذا القول الواهي الكثير من المحدثين من العرب.

ولهذا الزعم علاقة بالطبع بحمل الوضع اللغوي القديم على الوضع الحديث إذ فيه تخليط واضح بين «لغات العرب» والعاميات (القديمة والحديثة).

فهم يزعمون بان العلماء العرب كانوا يحتقرون اللهجات ويعتبرونها لغات فاسدة لاعتقاد هؤلاء المدعين الراسخ أن الفصحى هي عند العلماء القدامى اللغة «الصافية» وتستحق هي وحدها أن يعتدّ بها دون لغات العرب. ومفهوم **الصفاء** هو مفهوم محدث ظهر في اللسانيات الغربية ردًّا على غلوّ بعضهم في تمسّكهم«بصفاء اللغة». وظنوا أن لفظ الفصاحة يدل أيضا على نفس المدلول. فبما أن الفصيح هو الصافي الذي لا شوبة فيه في أصل اللغة[21] فلا بد

---

(20) – سنوسع القول في هذا عند كلامنا عن الاطراد و الشذوذ في دراسة لاحقة إن شاء الله.
(21) – والغريب أن أكثر المستشرقين– كما قلناه في مقدمتنا– يهتمون دائما بالمدلول اللغوي الوضعي (=المعجمي) للمصطلحات حتى يجعلوه الأساس في بناء أقوالهم **ولا يحاولون أن يكشفوا عما قصده بالفعل العلماء العرب في استعمالهم لمصطلحاتهم**.فهذا منهج غير موضوعي ومن ثم غير علمي.

أن يكون نظر العلماء العرب غير علمي إذ كانوا يتمسكون بما يرونه صافيا ويتركون كل ما يعتبرونه تحريفا لهجيا[22]. **وكل هذا توهم من جميع النواحي** وذلك:

1) لأن لغة التخاطب لم تكن في الجاهلية وفي زمن النبي صلى الله عليه وسلم مثل العامية في زماننا أي لغة مغايرة للغة المشتركة بل كانت جزءًا منها. **ثم إن أحدًا من العلماء لم يقل بأن ما كانـــوا يسمونه باللغات هي لحن** أي ما لم يتكلّم به أي عربي.وهذه الحجة هي أيضا في نظرنا من أقوى الحجج على ما يدّعيه المستشرقون.

هذا وقد بيّنا أن الفصيح عند علمائنا القدامى هوكلام الناطق بالعربية الذي لم تتغيّر لغته الأصلية (ممن اكتسب ملكته من بيئة فصيحة) فالفصيح من الكلام ليس هو المقابل للغات أبدا وإنما يقابله الكلام الذي أصابه تغيير في نظامه النحوي بالنسبة إلى الفصيح **فهذا الملحون** أي ما«ليس من كلام العرب». فاللغات قد يطلق عليها بل على أكثرها **بأنها فصيحة** أو أنها عربية **فلا فرق بينها وبين غيرها إلا في عدم اطراد استعمالها** أو أحيانا عدم اشتهارها عند أكثر العرب[23]. وعلى هذا فاللغات- أو الأداء اللهجي منها كما مرّ تحديده-لم تكن في يوم من الأيام موضع احتقار من أي لغوي وقد يسترذلون فقط ما كان يسترذله فصحاء العرب أنفسهم لندرته كما سيأتي **وهذا بخلاف غير الفصيح الذي ليس من كلام العرب إطلاقا** حسب تعبيرهم ويسمى لذلك لحنا.

وسنرى في كلامنا عن الاطراد والشذوذ أن المبرد قد حاول أن يرفض بعض اللغات الصحيحة تعصّبا لآرائه إلا أن ذلك شاذ ولا يمثل المبرد أبدا على الرغم من علمه الغزير العلماء العرب أمثال سيبويه والخليل في موقفه هذا غير الموضوعي. هذا وسنواصل الردّ على ادّعاء من ادّعى ذلك عليهم في الفصل المقبل (بإحصاء اللغات) وخاصة ما اتهموهم بعدم اهتمامهم باللغات التي هي في زعمهم «اللهجات» ليس إلا.

---

(22) -- وبلغ التعسّف ببعض المحدثين إلى أن سموا لغة التخاطب عند العرب الفصحاء أنفسهم : «عاميات»!

(23) -- أما مقابلة الكوفيين في القرن الثالث بين:الأفصح و الفصيح و اللغة فهو على أساس الشيوع و كلمة فصيح لا تقابل اللغة كمقابلتها للحن أبدا.

هذا وقد صارت الفصحى في زماننا لغة الثقافة المشتركة (Koinè) بازاء العاميات منذ اختفاء الفصاحة العفوية وهذا التقابل يسقطه المعاصرون، كما رأينا، على الوضع اللغوي العربي القديم **حتى في زمان لم تظهر فيه بعد العاميات**[24] الناتجة عن اختلاط العرب بالعجم.وليس الأمر كذلك لأنه يقتضي ذلك أن تكون «اللغات» كما قلنا أو جزء منها لحنا مثل العامي وليس الأمر كذلك .

2) سبق أن قلنا أنه ما من «لغة» إلا وعليها بيت شعر كشاهد في الغالب فإذا كانت اللغات تقابل لغة الشعر الفصحى فكيف نجد أكثر هذه اللغات في الشعر ثم كيف نفسر أن الكثير من القراءات هي لغات وإن لم تأت أبدا بعض اللغـــات في القرآن[25] فلان القراءة سنة متبعة لا تؤخذ من العرب بل من أهل الأداء الذين توارثوها عن النبي صلى الله عليه وسلم. فكيف نفسّر دخول اللهجات في اللغة المشتركة الأدبية بهذه الكثرة بل باطراد كامل؟

3) لغة التخاطب في جميع لغات الدنيا وفي كل زمان تتصف بالخفة الكبيرة من حيث الأداء ومن حيث مادة الكلام وهذا يقتضي أن يكثر فيها الاختزال والاختصار بالحذف والقلب والإدغام واختلاس الحركات وغير ذلك ولا يمكن أن يكون التخاطب اليومي العفوي إلا هكذا. وهذا بخلاف الكلام المحرر ولا سيما الشعر وعلى هذا لا يتصور أن يتكلم العرب عفويا يوميا كما يُرتّل القرآن أو يخطب الخطيب أو كما تنشد الأشعار بالتفخيم في المحافل. ومن ثم استنتج معاصرونا أن لغة التخاطب عند العرب يستحيل أن تكون هي لغة الشعر. والاستنتاج هنا مبني على تسوية أخرى وهي التسوية بين اللغة والكلام أي بين أداة التبليغ التي هي وضع ونظام من الأدلة التبليغية وبين الاستعمال لهذه الأداة في واقع الخطاب الشعري وغير الشعري. والحق أنّ لكل واحد من النظام والاستعمال ماهية خاصة ومن ثم قوانين خاصة. فإن كان التخاطب اليومي يقتضي الخفة والاقتصاد الكبير **فهذا لا يغير النظام اللغوي في جوهره وقوانين هذا النظام** فإنْ بالغ فيه الناطق ومسّ بذلك النظام في باطنه صارت اللغة

---

(24) – ما يزال راسخا في أذهان بعضهم أن لغة التخاطب هي العامية في أي زمان كان، لما فيها من التخفيف ولكن التخفيف ليس هو لحنا بالضرورة كما سيأتي.

(25) – وذلك مثل: «كِلْمة» لغة لـــ كَلِمة و«حيْثَ» بالفتح لغة لـــ حيثُ وكسر حرف المضارعة و غير ذلك.

لغة أخرى أو نوعا من العامية وهذا لا يحصل إلا في ظروف اجتماعية وتاريخية معينة كالنـــزوح عن ارض الفصاحة والاختلاط بالأجانب والاضطرابات السياسية وغيرها وما يترتب على ذلك.

فلغة التخاطب عند الفصحاء القدامى هي نفس اللغة الفصيـــحة التي كانـــوا ينظمون بها أشعارهم إلا أن كيفية استعمالها تختلف كمـــا تختلف «حالة الأنس عن حالة الانقباض»[26] وعندما يمس النظام اللغوي بهذا التراخي في الأداء العفوي خرج الاستعمـــال المستخفّ من الفصيح إلى العامي وليس يحصل هذا بالضرورة بل في ظروف تـــاريخية معينة. **فإذا كان كل عامي مستخفا غالبا فليس كل مستخف في استعمـــال اللغة من العامي**. كالوقف والحذف واختلاس الحركات وغير ذلك مما قرئ به القرآن وسمع من فصحاء العرب وهذا سماه العلماء بالإدراج.

والآن حان لنا أن نتطرق بالتفصيل إلى الحجتين اللتين قدمناهما ههنا للردّ على الادعاءات السابقة. فلنا كلام أولا عن معنى اللغة الرديئة ثم عن الإدراج.

ب- معنى «اللغة الرديئة» عند علماء العربية

استدلّ بلاشير على ادعائه بما رواه السيوطي في المزهر (1، 221-224) مما قاله بعض العلماء عن أفصح القبائل ومن ذلك ما قاله ثعلب: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم [وتلتلة بهراء] وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجّع قيس وعجرفية «ضبة» (المجالس، 80-81). ولا شك أن ثعلبًا نقل هذا الكلام مما قاله الجاحظ في البيان: «قال معاوية يوما: من أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم **ارتفعوا** عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كسكسة بكر، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير. قال: من هم؟ قال: قريش. قال: ممن أنت؟ قال من جرم...»(3، 212). وتناقل هذا الخبر الجيل بعد الجيل بالكثير من الزيادات والتغيير. وأما الإجماع على قريش كأفصح القبائل كما يقول ابن فارس (الصاحبي،

---

(26) – من كلام الجاحظ: «وأجدر أن يفصلوا بين مواضع أنْسِهم في منازلهم و مواضع انقباضهم» (البيان، 114/2).

23) فغير صحيح فالمبرد، وهو معاصر لثعلب، يصرّح بأن جرما هي أفصح العرب.وذُكر عن أبي عمرو أن أفصح الناس «أهل يَذْبُل والقعاقع» أوبأن «عليا هوازن وسُفْلى تميم هم أفصح العرب»(المزهر،211).

ثم كأن بلاشير ومن اتبعه في ذلك[27] يعتبرون هذا الذي ذكروه (ولم يأت عند النحاة الأولين) هوكل ما جاء من اللغات مع علمهم أن أكثر اللغـات لم تذكر في هذه الحكاية وأكثرها فصيحة جيدة عند العلماء.و الواقع أن الكلام عن ثعلب وغيره لا يتضمن أي احتقار للغات العرب الواسعة الانتشار مثل إدغـام تميم للفعل المضعَّف في «أرْدُدْ»وإمالتهم الألف– وإمالة أهل الحجاز لبعض الكلم– وتحقيق الهمزة وأنواع الإبدال وغير ذلك.إنمـا ذكروا في هذه الحكاية تأديات لهجية استقبحها العرب والعلماء لقلتها وانفراد بعض النـاطقين بها. والدليل على ذلك هو عدم تنـاول سيبويه وشيوخه لها بالدراسة ولم يعالج منها سيبويه إلا الكشكشة والكسكسة والعجعجة وبدون أن يسمّيها بهذه التسميات.وكذلك هي «التلتلة»– وهي تسمية غريبة لفظا ومعنى– فقد نسبها ثعلب إلى بهراء ووصفها «بكسر أوائل الحروف» وظن كل المحدثين أنها هي التي تخص الفعل المضارع بكسر حرف المضارعة وهذا غريب لأن سيبويه–وهو أقدم من ثعلب– قال: «وذلك في **لغة جميع العرب** إلا أهل الحجاز» (2،256)[28]. فهذه ليست خاصة ببهراء[29].

هذا ولم يتنبَّه أكثر المحدثين إلى أن كل ما ذكروه كلغات «مذمومة» (تعبير ابن فارس) ما عدا الثلاثة التي تطرق إليها سيبويه ويضاف إليها العنعنة فهي إما آفات تصيب الاداء مثل الرتّة والغمغمة وإما لكنة وعُجمة خاصة بالعرب المجـاورين لغيرهم من العجم أو ذوي لهجة بعيدة عن الفصحى كـالحميرية القديمة وذلك مثل اللخلخـانية والطمطمانية

---

(27) – انظر ما قاله الدكتور عبد التواب رمضان في كتابه: فصول في فقه اللغة، ص116– 154.
(28) – وخلافا لما جاء في مثل هذه الحكايات فكلام سيبويه دقيق جدا فإنه قيّد كسر حرف المضارعة بكسر فعِل فقط وفي غير الياء (يفعل، 256/2). ثم ذكر كسر أوائل الأسماء كظاهرة أخرى لها سبب معيّن وهو المشاكلة.
(29) – فهذا يزيدنا اقتناعًا بالضعف الكبير الذي تتصف به مثل هذه الحكايات وعدم الدقة عند الكثير من اللغويين اللذين ينتمون إلى القرن الثالث.

والتضجع[30] فهذه عيوب مخالفة للفصاحة بمعناها الأصلي أي الخلوص من كل عيب في التأدية كالاضطراب الكلامي واللكنة. وهذا لا يوجد في الأكثرية الساحقة من فصحاء العرب كجماعات (عامة العرب كما يقول النحاة).

وقد نعت ابن فارس قريشًا من بين العرب في وصفه للغتهم بأنهم «أفصحهم ألسنة وأصفاهم لغة» (الصاحبى، 23) فهو يريد أيضا بهذا النعت معنى الخلوص من هذه العيوب الخاصة ببعض الأفراد أو بالجماعات المتأثرين بلغات العجم. ويدّعي فقط أن لأكثر القبائل صفة واحدة على الأقلّ تشوب هذا الخلوص إلا قريشا وكذلك ثعلب ثم لم يقل أحد منهما أن لغات العرب –ماعدا هذا اللذي ذكراه– كلها غير فصيحة بل هي فصيحة عندهما وعند كل اللغويين ما دامت تتصف بالكثرة والشيوع.

فاستقباح العرب والعلماء –لهذه التأديات– ماعدا الثلاثة التي ذكرها سيبويه– غير استقباحهم لبعض اللغات وخاصة التأديات التي لا تمت بسبب إلى عيوب الكلام أو التأثر بالعجم ونعني بذلك **اللغات التي سمعت من العرب الفصحاء وحدهم**(«من يؤخذ بلغته») إلا أنها كانت تتصف بصفات سنبحث عنها فيما يلي.

قال سيبويه: «من قال: مررتُ بصحيفةٍ طينٍ خاتمُها قالَ: هذا راقودٌ خلٌّ وهذه صُفَّةٌ خزٌّ. **وهذا قبيح أجرى على غير وجهه**. ولكنه **حسن** أن يُبنى على المبتدأ ويكون حالا فالحال قولك: هذه جُبَّتك خزًّا» (1، 274) وقال قبل هذا: «لأن الطين اسم وليس مما يوصف به».

وقال أيضا: «تقـول: مررتُ بعبد الله خيرٌ منه أبـوه...ومن أجرى هذا على الأول... فيقول: مررت بعبد الله خيرًا منه أبوه وهي **لغة رديئة** وليست بمنزلة العمل نحو ضارب وملازم وما ضارعه نحو حسن الوجه...» (1، 233).

وقال أيضا: «وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبئ وبريئة **وذلك قليل ردئ**. فالبدل ههنا كالبدل في منساة وليس بدل التخفيف وإن كان اللفظ واحدًا» (170/2).

---

(30) – والكثير من هذه التسميات غامضة مثل التضجع و العجرفية و غيرهما.

وقال: «واعلم **أن العرب** تدع خمسةَ عشر في الإضافة والألف واللام على حال واحدة...**ومن العرب** من يقول: خمسةَ عشرُك وهي **لغة رديئة**» (51/2).

وقال: «واعلم **أن قوما من ربيعة** يقولون: مِنْهِم، أتبعوها الكسرة ولم يكن المسكَّن حاجزًا حصيناً **وهذه لغة رديئة** إذا فصلت بين الهاء والكسرة الأصل لانك قد تجرى على الأصل ولا حاجزا بينهما... وقال **ناس من بكر بن وائل**: من أحلامِكِم وبكِم شبهوها بالهاء لأنها علم إضمار وقد وقعت بعد الكبيرة فأتبع الكسرة الكسرة... **وهي رديئة جدا**» (2، 294).

وقال من جهة أخرى: «وزعموا أن ابن أبي إسحاق كان يحقق الهمزتين وأناس معه (في القراءة) **وقد تكلم به بعض العرب** وهو رديء. **فيجوز** الإدغام في قول هؤلاء وهو ردئ» (410/2).

ويكثر مجئ مثل هذه العبارات في الكتاب: «يجوز وليس بحدّ الكلام ولا وجهه» (448/2) «جازو ليس وجه الكلام»(482) «وقد يجوز على ضعفه»(482).

يتضح لمن يتأمل هذا الكلام أن الردئ من الكلام ومن اللغات عند سيبويه هو ما **أجرى على غير وجهه** فلكل عنصر لغوي وجه يجرى عليه وهذا هو القياس عندهم أي أن يكون **بمنزلة** نظائره من الباب الذي ينتمي إليه أو بمعنى آخر أن يحصل توافق بين جميع أفراد الباب. **وقد يخرج عن بابه ويكون مع ذلك مستعملا عند فصحاء العرب** وذلك على درجات: فإن اطرد استعماله أو كثر فهو من الشواذ التي لا يجوز استعمال غيرها (مثل استَحْوَذَ) ولا يقاس عليها[31] **وإن قلّ وشذّ استعماله فهذا الذي يوصف بالردئ والقبيح** إذ جمع بين الخروج عن القياس والخروج عن الاستعمال الكثير. **وهو جائز مع ذلك** إذ سمع من فصحاء العرب وهو من كلام بعضهم. **وليس إذن بلحن**. قال بهذا الصدد: «فيه على جوازه وكلام العرب ضعف» (1، 245). ويصف سيبويه بالقبح أيضا ما لم يُسمع ولم يثبت في كلام العرب مع خروجه عن القياس وذلك عند قوله: «لم يجز وكان قبيحــا» (1، 36) وهذا

(31) – لأنها لا تمثل نظائرها المستعملة بالفعل.

يخص الكلام المقيس بقياس غير صحيح ولا يخص كلام العرب أي المسموع أو كلام يُروى بطريق أو وجه ضعيف.

فأين هو احتقار سيبويه وشيوخه وتلاميذه ومن اتبعه من العلماء للغات العرب؟ فقد بُني هذا الصرح العظيم المسمّى بالنحو أو العربية على مقاييس جدّ موضوعية منها هذا المقياس العلمي **وهو الاعتماد على كثرة الاستعمال وشيوعه جغرافيا** فهذا بعيد كل البعد عن الذاتية والعصبية التي تصورها واتهم بها المحدثون بعد المستشرقين أولئك العلماء الفطاحل.

وقد سبق أن ذكرنا دقة سيبويه في وصفه للعربية فإنه لا يقول عما سمى بالكشكشة إنها لغة تميم وأسد وعن «الوكم» إنه لغة ربيعة و«الوهم» إنه لغة بكر بن وائل بل قال: «ناس كثير من تميم وناس من أسد» و«ناس من بكر بن وائل» و«قوم من ربيعة» كما مرّ بنا. فليست لغة القبيلة كلها وإلا لما وصفها بالقبح والأدلة على ذلك كثيرة جدا إذ قد يذكر الكثير من الشواذ عن القياس (ما يسميه القدامى بالنوادر) ولا يصفها بالرداءة بل بأنها عربية غالباً: «ومما جرى نعتًا على غير وجه الكلام: هذا جُحْر ضبّ خَرِب» (217/1) و«هذا جائز عربي كثير» (2، 289) «والبيان أكثر وأعرف وهذا عربي كثير» (427/2) ومثل ما الحجازية فليست هي القياس ومع ذلك هي عنده عربية جيدة نزل بها القرآن وأكثر من هذا فإن العلماء كانوا يوصون ألا يتجاوز أبدا ما استعملته العرب من الشواذ عن القياس فيقول سيبويه: «واستعمل من ذا ما استعملت العرب وأجرِه كما أجرته» (1، 196-197) سواء كانت مطردة أم خاصة بلغة أو أداء لهجي شائع.

هذا وقد قال الكثير من المحدثين إن ما سماه العلماء في القديم باللغات قد أهمل أكثره هؤلاء العلماء(32) بل وخلّطوا بين «اللغة المشتركة ولهجات الخطاب»(33).

ويمكن أن نردّ على هذا الادعاء بما يلي:

---

(32) - أنظر ما كتبه عن ذلك الدكتور الجندي في كتابه: اللهجات في التراث 117.
(33) - أنظر كتاب فصول في فقه اللغة للدكتور عبد التواب رمضان ص107. وفكرة التخليط مصدرها عند المحدثين العرب هو ما كتبه إبراهيم أنيس في «اللهجات العربية» ص41 كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

إنّ هذا هو، في الحقيقة، افتراض بني على افتراض آخر: اللغة المشتركة الأدبية وتخليط النحاة إياها بلغة التخاطب (وافتراض ثالث: كون لغة التخاطب القديمة هي اللهجات القديمة لا غير). فإنْ كان العلماء القدامى أهملوا الكثير من اللغات «لاحتقارهم» لها أولاً ولاعتمادهم على بعض القبائل دون بعض ثانيا (قيس وتميم وأسد وهذيل كما جاء في نص الفارابي السابق الذكر)–وهذا ما زعموه– فكيف نفسّر وجود العدد الكبير من القبائل والأماكن التي ذكرها العلماء عند عزوهم اللغات وهي تغطّي في مجملها أكثر القبائل العربية؟ ولماذا يعتمد المدّعون على نص واحد (نص الفارابي)ويسكتون عن القبائل الكثيرة التي ذكرها سيبويه وشيوخه والتي تنسب إليها شواهد العلماء؟ أما ما وصفوه من بعض اللغات بالقبح والرداءة فقد رأينا منذ حين أنها تجمع بين الخروج عن القياس والخروج عن استعمال عامة العرب الفصحاء وهي قليلة وليست مع ذلك لحنًا عندهم. **فإذا ذكروا هذه اللغات القبيحة** بهذا السبب **وذكروا كل اللغات الأخرى المنسوبة إلى أكثر القبائل أو أقاليم معيّنة** فما **يحملهم على ذكر كل هذا وإهمال لغات أخرى**؟ وبالإجماع؟

أما ما زعم بعضهم من تفضيل النحاة للغة أهل الحجـــاز أو قريش على غيرهـــا فلا دليل لهم يؤيد هذا الزعم فأما قول سيبويه بأن اللغة «الحجـــازية هي اللغة الأولى القدمى» (الكتاب 42/2) فهو لا يقصد اللهجة الحجازية بأجمعها، كما قلنا، بل بناء فعال على الكسر إسما علمًا لمؤنث عوض إعرابها وبالتالي الإمالة في فَعَالِ إذا كانت لامه راء وتبعتهم في ذلك تميم. وقوله أيضا: «وهي اللغة العربية القديمة الجيدة» (424/2) فيقصد الإظهار في مثل «أردُدْ». **ولا يوجد في الكتاب أي تفضيل للهجة على أخرى إطلاقا** وكما سبق أن قلنا لا يفضل سيبويه وشيوخه وأتباعه استعمالا لغويا على آخر إلا إذا كان هو الأكثر على ألسنة العرب الفصحاء وهذا عين الموضوعية العلمية.

إنّ أدلّ دليل على ضئالة عدد اللغات – بهذا المعنى– (وسنرى ذلك مفصلا في الفصل المقبل) هو ضئالة عدد ما جاء من اللغات في القرآن بالنسبة إلى ضخامة مالم يكن لغات في القراءات. **إذْ يستحيل عقلاً أن يكون العلماء القدامى قد سكتوا كلهم عن القراءات المشهورة**

التي اصلها لغة من لغات العرب ونعني بهذا ههنا الاستعمالات اللهجية الخاصة بعنصر واحد من عناصر العربية. ثم ما قرئ به القرآن من لغات العرب هو نتيجة لما أبيح لكل العرب في القديم أن يقرأوا بلغتهم فلا بد أن يكون الكثير من اللغات ممثلة في القراءات.

ونختم كلامنا عن اعتداد العلماء القدامى باللغات بذكر نص لابن جنى وهو مشهور وقد سبق أن ذكرناه وله أهمية كبيرة جدا: قال ابن جنى في **باب اختلاف اللغــات وكلها حجة** (الخصائص 2/10-12) «اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم.ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال ما يقبلها القياس ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك لان لكل واحد من القوميين ضربا من القياس يأخذ به ويخلد إلى مثله. وليس لك أن تردّ إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها... هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين... **فأما أن تقل إحداهما جدا** فإنك تأخذ بأوسعهما رواية وأقواها قياسا ألاتراك لا تقول...: أكرمتكش...قياسا على لغة من قال: بكش(10)... فإذا كان الأمر في اللغة المعوّل عليها هكذا وعلى هذا يجب **أن يقل استعمالها** وأن يتخير ما هو أقوى **وأشيع** إلا أن إنساناً **لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب لكنه كان يكون مخطئا لأجود اللغتين**»(12).

فهذا نص صريح في أن النحاة العرب لم يصدر منهم أي احتقار للعناصر اللهجية **ولأي طريقة من الكلام سُمعت من فصحاء العرب**. ويمثل هذا الكلام الموقف الحقيقي الذي وقفه أكثر العلماء إزاء اللغات.و العجيب أن كل الذين اتهموا العلماء العرب بهذه التهمة قد سكتوا عن هذا النص الذي لا يحتمل أي تأويل.

ج-لغة التخاطب عند فصحاء العرب هي الفصحى[34] المتصفة بالإدراج الدائم[35]

فبما أن لغة التخاطب العفوي هي أكثر استعمالا-لأنها لغة الحياة اليومية العادية- فينبغي أن تكون أخف على الألسنة بالنسبة للغة المحررة (ولغة الثقافة في أيامنا). وهذا **لا يخص**

(34) - في أوضح وحداتها و هياكلها ككل لغة تخاطب.
(35) - إلا في حالة التفخيم المتعمّدة(في ظروف خاصة).

اللغة في بنيتها ونظامها في زمان الفصاحة العفوية وفي زماننا بل طريقة استعمالها وكيفية النطق بها. وتكون لغة التخاطب أقل تكليفا ومؤونة لأنها غير مقيدة بكتابة أو أي إعداد سابق للنص.فلغة التخاطب هي إدراج كما كان يقول علماؤنا أي تسلسل عفوي لمدرج الكلام يسوده التخفيف لعفويته ولم يكن ذلك لحنًا أبدًا فالتخفيف والدرج سُمِع من أفواه جميع العرب الفصحاء فقد استمع العلماء إلى العرب بالفعل وهم يتخاطبون في حاجاتهم اليومية فلاحظوا الكثير من التخفيف **بل قد يكون ذلك غالبا عليهم** وذلك مثل اختلاس الحركات وتخفيف الهمزة وكثرة قلب الحروف للمشاكلة بل وحذفها وإدغام الحرف الأخير للكلمة في الحرف الأول للكلمة التالية وغير ذلك من الاختزال والاختصار. **واعتبروا كل ذلك فصيحا مقبولا** (إذا كثر عند فصحاء العرب). جاء في كتاب «نثر الدر» للوزير أبي سعيد الآبي: «قال أبو العيناء: ما رأيت مثل الأصمعي قط، أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعراب ثم قال: سمعت أباعمرو بن العلاء يقول: **كلام العرب الدرج.** وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازًا.وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبى إسحاق قال: العرب ترفرف على الإعراب **ولا تتفيهق فيه** وسمعت يونس يقول: العرب تشامّ الإعراب ولا تحققه وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: العرب تقع بالإعراب وكأنها لم تُردْ وسمعت أبا الخطاب يقول: **إعراب العرب الخطف والحذف**» (نثر الدرّ 7، 154-155). وهذا الكلام يخص في ظاهره أداء العرب للإعراب إلا أن العلماء قد دوّنوا الأنواع الكثيرة من التخفيف كما سنراه بعد قليل.

وقد فرّقوا بين لغة الشعر ولغة التخاطب ووصفوا هذه الفوارق بدقة **ولكن الغريب** بالنسبة لنا أبناء العصر الحديث، **هو أنهم لاحظـوا أن أكثر ظواهر التخفيف التي لاحظوها في لغة التخاطب هي موجودة أيضا في لغة الشعر!** إلا في الظروف التي يحصل فيها تفخيم وتفيهق.وقد يستشهدون بالشعر أيضا على ظواهر التخفيف[36] ومالم يلاحظوه من ذلك فهو في الحقيقة مما كان يُخلّ بالوزن أو القافية أو أي صفة تخص بنية البيت.

---

(36) – انظر الأمثلة فيما يلي.

أما خواص الشعر التي **لا تدخل في ظواهر التخفيف** فقد وصفوها وأحصوها وهي في قول سيبويه كالتـــالي: «اعلم أنه يجوز في الشعر مـــا لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف (8،1)... وحذف مالا يُحذف (8،1)... وربمـــا مدّوا مثل مساجد فيقولـــون مساجيد... وقد يُبلّغون بالمعتل إلى الأصل فيقولون رادد في رادّ وضَنِنــوا في ضنّوا...(10) ومن العرب من يُثقّل الكلمة إذا وقف عليها ولا يثقلها في الوصل فإذا كان في الشعر فهم يُجرونها في الوصل على حاله في الوقف نحو سَبْسَبًّا(11) وتحملوا قبْح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقص فمن ذلك قول عمرو بن أبي ربيعة:

صددت فأطولتِ الصدودَ وقلما   وصالٌ على طول الصدود يدومُ»(12).

فكل هذه الأشياء التي يفترق فيها الشعر عن الكلام غير المنظوم بما فيه النص القرآني لا تنتمي، كما قلنا، إلى ظواهر التخفيف.

أما لغة القرآن فمن المعروف عند أهل الأداء وغيرهم من العلماء أن أنواع القراءة من حيث كيفية الأداء هي ثلاثة: «الترتيل» و«الحَدْر» وبينهما «التدوير» ويسميان أيضا: التحقيق والإدراج. ويعني الأول التمهل في القراءة وإعطاء كل الحروف حقها أي تأديتها بدون اختصار أو حذف أو حذف صفة من صفاتها والحدْر هو على العكس من ذلك وفيه ما في التخفيف في لغة التخاطب من الاختصار الذي سبق أن ذكرناه. والتدوير هو وسط بينهما. وكل ذلك قد نقله العلماء من الأيمة الذين أخذوه من الصحابة وهؤلاء من الرسول صلى الله عليه وسلم لأن القرآن نزل بلسان العرب.

ومن ظواهر التخفيف التي يشترك فيها الكلام المنثور والمنظوم عند فصحاء العرب وبالتالي لغة التخاطب العادي ولغة الشعر ولغة القرآن، في مستوى الاستخفاف المسمى بالإدراج (والحدر) نذكر هذه الأمثلة:

- **فيما يخص الحركات:** الإدراج في النطق بالحركات يَكثُر بل ويطرد أحيانا عند توالي الحركات. ونص على ذلك سيبويه.قال: «وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسًا وذلك

قولك: يضربها» و«من مأمنك» يسرعون اللفظ. ومن ثم قال أبو عمرو: «إلى بارئكم» (البقرة 54) (الكتاب 297/2). فالذي يسميه اختلاسا هو- كما تبيّنه الأشعة السينية-النطق بحرفين صامتين بمصوّت واحد[37] فبين همزة «بــارئكم» والكاف حصل إخفاء لصوت الحركة ولكن الحركة من حيث هي حركة عضوية هوائية (تمكّن من الانتقال من مخرج إلى مخرج آخر) موجودة حاصلة. فهذا الاختلاس لوحظ في قراءة القرآن ولغة التخاطب وكذلك في الشعر. قال سيبويه: «ومما يدلّك على انه يُخفى ويكون بزنة المتحرك قول الشاعر:

وإني بما قد كلّفتني عشيرتي   من الذبّ عن أعراضها لحقيق [38]

(ثم ذكر مثالين آخرين من الشعر) (407/2-408).

ومثلوا أيضا للاختلاس في حــالة يستحيل فيها أيضا الإدغام لسكون الحرف قبل الحرف المراد إدغــامه وذلك: «ابن نوح واسم موسى» فالحركة التي بين النــونين أو الميمين أُخفى صوتُها **فكأنهما متحركان بحركة واحدة** وليس أحدهما مدغمــا في الآخر (الكتاب، 402/2). وكذلك هو النطق بــ «شهر رمضان» في حالة الاختلاس.

- **فيما يخص اختزال الحروف:**

. التقريب (المشاكلة) مع الادغام مثل: من بدالك> مبْدالك، أَكْرِمْ بِه> أكربّه: اصحبْ مَطرا > اصحمَّطرا، اضبُطْ دُلما > اضبطُّلما: احبِسْ صابرا > احبِصَّابرا وغير ذلك كثير جدا. وجاء في الشعر:

«تقول إذا استهلكتُ مالاً للّذة   فُكيهةٌ هَشَّئٌ بكَفيك لائق

يريد: هل شئ؟ فأدغم اللام في الشئ» (الكتاب 417،2).وقال:

فدَعْ ذا ولكنْ هتّعين متيّمًا   على ضوءِ برقٍ آخر الليل ناصِبِ

---

(37) – وهذا يكثر في مستوى الإدراج وهو طبيعي في الكثير من اللغات(explosif group) هذا ولا يعرف الكثير من المثقفين في زماننا معنى الاختلاس فيعتقد بعضهم أنه ضد المدّ !

(38) – الشاهد فيه إخفاء حركة الباء التي بعدها ميم و ليس هناك قلب للباء إلى ميم ولا إدغام وإلا انكسر الوزن.

يريد: هل تُعين؟ (نفس المصدر).

وجاء من ذلك في القراءات الشيء الكثير مثل قراءة أبي عمرو: «هثّوب الكُفّار» (المطففين 36) يريد هل ثوب(نفس المصدر).ويدل على ذلك ماجاء في جميع كتب القراءات من الفصول حول الإدغام.

أما الهمزة فتخفيفها قد كثر عند القراء وخاصة أبا عمرو. قال ابن مجاهد: «أما أبو عمرو فكان إذا **أدرج** القراءة أو قرأ في الصلاة لم يهمز همزة ساكنة مثل: «يومنون» و«يومن» و«ياخذون وعن عاصم انه لم يهمز الهمزة الساكنة» (كتاب السبعة 130-131).

وجَعْل الهمزة بين بين أو حذفها كثير في الكلام وخاصة عند أهل الحجاز يقول سيبويه: «إذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة فإنك تصيرها بين بين [تلينها وتسهلها] وذلك قولك: هذا درْهمُ آختك ومن عندَ آمّك. وهو قول العرب» (الكتاب 2، 164). «ومثل ذلك: لَحْمَر إذا أردت أن تخفف الأحمر ومثله في المرأة: المرة والكمأة الكماة (الكتاب 2، 165). وحكى أبو زيد في نوادره: «قَرَيْت القرآن فأنت تقرا وهو مُقْرٍ وخَبَيْت المتاع فهو مخبي... وقالوا: جَا فُلان على التخفيف» (201). ومثل ذلك في القراءات: اختلفوا في: هزءًا وكفؤًا وجزءًا فمن ثقل وهمز ومن لم يهمز» (السبعة 158).

أما عن تفسير وجود التخفيف في جميع خطاباتهم- إذا أدرجوا ولم يحققوا-فلانهم كانوا أميين في أغلبيتهم الساحقة يتناقلون إنتاجهم الفكري والفني مشافهة جيلا بعد جيل ولا يعتمدون في ذلك على كتابة معينة إلا في أحوال غير مطردة.أما عند ما صارت العربية غير فصيحة وملحونة فصار من يتعلم العربية الفصيحة «فصيحا» فيها بالتلقين **فتكوّنت، عند انتشار الكتابة وبسبب ذلك، عربية لا تعرف التخفيف** (إلا في قراءة الحدر للقرآن عند أهل الأداء) لأنها خصصت لنقل الثقافة فابتعدت عن الأداء العفوي واستبدلت في التخاطب العفوي بالملحونة **فصار الإدراج هو الملحون والملحون هو الإدراج** (مع الأسف الشديد). ولا علاقة بينهما في الحقيقة إذ كان الغالب على كلام العرب السّليقيين في الفصاحة الإدراج كما كان ذلك أيضا حاصلا عند غير الفصحاء عند التخاطب العفوي إلا أنهم كانوا يلحنون **فالإدراج**

غير اللحن ولا يكون كذلك إلا إذا لم يكن من كلام العرب. ولوجود الإدراج فيها سميت العامية باللغة الدارجة مع أن الإدراج هو مستوى التعبير العفوي وكان فصيحًا عند قدامى العرب **سواء كان قراءة قرآنية أم شعرا أم تخاطبا عاديا.**

وأما أن يقول المدّعون (لاختلاف الفصحى عن اللهجات) بأن العربي والأعرابي خاصة كان ينطق على سجيته في أدائه للقرآن فيدخل، بالتالي، في الشعر اللغات التي ليست من اللغة الأدبية فهذا صحيح وقد يدلّ على صحة ذلك قراءة الأعرابي للقرآن بسليقته أي دون سماع لقارئ أو إمام من أئمة القراءة(39) وإذا كان الأمر كذلك **فماذا يبقى من «اللغة الأدبية» إن كان كل ما في لغة التخاطب موجودًا فيها؟!** وعلى هذا يستحيل أن تكون العربية الأدبية المشتركة المزعومة قد عاشت كل هذه المدة قبل الإسلام ومنذ أن ظهر الشعر الجاهلي **منفصلة عن لغة التخاطب مختلفة عنها** ومتميزة مع «ترك الناطقين لسجيتهم»!

فكل هذا إن دلّ على شئ فإنما يدل على أن العربية التي نزل بها القرآن والعربية التي نظم بها الشعر الجاهلي والإسلامي والعربية التي دوّنها العلماء القدامى من استماعهم لمخاطباتهم هي عربية واحدة مع اختلاف غير كبير بين جهة وأخرى إذ كان العربي يقدم على النطق بكل واحد من هذه الخطابات بما اكتسبه من ملكته وعادة المنشأ اللغوي دون أن يخشى في ذلك أي شيء إطلاقا . فهو يستعمل من ذلك ما اشتركت فيه قبيلته أو قريته مع غيرها وهذا يكوّن، كما سنراه، تسعين في المائة من لغته ولا يتورع من استعمال خاصياته اللغوية القبلية أو الإقليمية وكان ذلك قليلا جدا إلا في الأداء الصوتي وأبنية بعض الكلم.كما سنراه بعد قليل.

الخلاصة : موقف عامة العلماء القدامى من العربية وتعاملهم معها

لقد قال ابن سلام الجمحي في طبقات [فحول] الشعراء كما سبق أن ذكرناه: «لكن العربية التي عنى محمد بن علي، **اللسان الذي نزل به القرآن وتكلمت به العرب على عهد**

---

(39) – فهذا يستشهد به كلغة لا كقراءة لأن القراءة سنة كما صرّح بذلك سيبويه نفسه وكلغوي.

النبي صلى الله عليه وسلم وتلك عربية غير كلامنا هذا» (10/1). فاللسان الذي نزل به القرآن هو نفس اللسان الذي كان يتكلم به العرب فهذا قول صريح يقوله كل العلماء القدامى. وقال ابو عبيدة في **مجاز القرآن**: «وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني» (8/1). وقال أيضا: «قالوا: إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين... فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن معانيه وعما فيه في كلام العرب من الوجوه والتلخيص. **وفي القرآن ما في الكلام العربي** من الغريب والمعاني ومن المحتمل من مجاز وما اختصر ومجاز ما حذف وما كف عن خبره ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ... **وكل ذلك جائز قد تكلموا به**» (18/1-19). فالجدير بالذكر أن أبا عبيدة يحاول دائما وفي كل صفحة من كتابه أن يفسّر ما جاء في القرآن ويعلق عليه **باللجوء المنتظم إلى كلام العرب شعرا ونثرا**. وكذلك يتعرّض للغات في القرآن فينسبها إلى أصحابها ومثل ذلك قوله: «من الأجداث واحدها جدث وهي لغة أهل العالية وأهل نجد يقولــون جدف» (163/1). ويقول أيضا: «**واستعرضِ العربَ حتى تنتهي إلى اليمن هل يعرف أحد: هئت[لك]**» (306/1) «وعامة العرب يقولون هدية وهدايــا» (217) «والعرب إذا كرروا الأخبار وأعادوها أخرجوها من النصب إلى الرفع فرفعوا» (247) .

وكان الشعور **بوحدة اللغة خطابا وشعرا وقرآنا** يشمل جميع العلماء القدامى سواء اللغويون منهم أم المحدّثون أم الفقهاء وغيرهم. فهذا الإمام الشــافعي يقول في رسالته: «**فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها**» (52). ويصرّح الجاحظ على لسان النزارية أن العربية واحدة . قال: «العرب كلهم شئ واحد لأن الدار والجزيرة واحدة... **واللغة واحدة** ... فهم في ذلك بذلك شئ واحد في الطبيعة و**اللغة**...» (البيان،3، 291). وقال أيضا: «فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية ومواضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم. ولتلك الألفاظ مواضع أخر ولها حينئذ دلالات أخر. فمن **لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة**» (الحيوان 154/3) ويقول أيضا: «وكلام الناس في طبقات كما أن الناس

أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل **وكله عربي** وبكل تكلموا وبكل تمادحوا وتعايبوا» (البيان144/1) ويعني بذلك أن اللغة والأساليب هما شيئان مختلفان.فالذي يعنيه الجاحظ هنا **هو تنوع الأسلوب مع بقاء اللغة على ما هي**. «فكل عربي» يبين بوضوح تام أن الجاحظ- وهو معروف بذكائه المتقد ودقة معاينته للأحداث- أن العربية التي سمّاها الناس فيما بعد بالفصحى هي لغة واحدة للعرب ولم تكن مختصة بالشعر والقرآن. ولو كان ذلك كذلك لأشار إلى وجود هذه اللغة الغريبة عن كلام العرب، كما سبق أن قلنا، وكيف يمكن أن تغيب عليه وهو الذي يقول: «وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيرا فاخرا ومعناه شريفا كريما ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي. وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامه أنه خراساني. وكذلك إن كان من كُتّاب الأحواز» (70/1).

ويقول أيضا: «فأما [اللثغة] التي هي على الشين المعجمة فذلك شئ **لا يصوّره الخطّ** لأنه ليس من الحروف المعروفة **وإنما هو مخرج من المخارج والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليه**. وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم ... فمن يستطيع أن يصوّر كثيرا من حروف الزمزمة والحروف التي تظهر من فم المجوسي إذا ترك الإفصاح عن معانيه» (البيان 34/1) «وكذلك اللثغة التي تعرض في السين...فإن تلك أيضا ليست لها صورة في الخط ترى بالعين وإنما يصورها اللسان وتتأدّى إلى السمع» (63).

فهذه ملاحظات تطابق ما يقوله العلماء المحدثون في علم الفنولوجية فهم يميزون بين الفونيم وبين التنوّع من الأصوات التي يؤدي بها الناطقون هذا الفونيم الواحد في لغة معينة. فرجل يستطيع أن يميز بين الحرف ومختلف مخارجه[40] وأوجهه باجتهاده الخاص زيادة على الملاحظات الدقيقة التي يجدها القارئ في كتاب البيان وغيره لا يمكن أن يغفل عن

(40) – المقصود من المخرج عند الجاحظ ههنا هو المصدر «لأخرج الحرف» وليس هو موضع حدوث الصوت في آلة الصوت.

وجود لغة مشتركة أدبية منفصلة عن لغة التخاطب ومع ذلك فإننا لم نعثر في جميع ما تركه لنا من كتاباته شيئا يشبه هذا من قريب أومن بعيد.

وكذلك هو موقف كل مَنْ كَتَب في معاني القرآن مثل الفــراء والأخفش وغيرهما: قال الفراء في معاني القرآن: «وكل ذلك[41] في العربية جائز حسن» (180/3) «وسمعت بعض العرب (جاء هذا أكثر من مائة مرة) و«كذلك كلام العرب(119/3)» «والعرب تقوله في كلامها» (151/3) «كقول العرب» (255/1) «وذلك عربي كثيــر في الكلام»(61/1).وقال الأخفش (سعيد بن مسعدة): «**لأن القرآن يدل على كلام العرب**» (520) وقال أيضا: «ومثل هذا في كلام العرب كثير» (272) «ومثل ذلك قول العرب: أبْصِرْك زيدًا» (275) «**وكما تقول العرب**: اذهب إلى السوق أنك تشتري لي شيئا أي لعَلك **وقال الشاعر**... «(285)[42]. فهذا لجوء صريح إلى لغة التخاطب البسيطة العادية في كلامه عن عبارة معينة من القرآن ودليل قاطع على اقتناع كل هؤلاء بوجود هذه اللغة المتخاطب بها عندهم مع لغة القرآن وهي غير الأسلــوب المعجز الخاص بالقرآن. وليس ذلك تخليط الجهال بين كيانين لغويين مختلفين كما يدّعيه المستشرقون إذ كيف يمكن لهؤلاء العلماء أن يجروا هذه المقارنة إن لم يجدوا بينهما من القرابة بل الوحدة ما يكفي لتفسيرهم وتعليقهم اللغوي؟

هذا وقد استطاع ابن دريد أن يحرر معجما للعربية قال عنه: وسميناه «كتاب الجمْهَرة» لأناّ اخترنا له الجمهور من كلام العرب»(92/1). فالذي فعله ابن دريد هو اختيار ما كان متداولا بكثرة في كلام العرب وفيه أكثر ما ورد في القرآن من المفردات والكثير مما جاء في الشعر **وكل هذا عنده من كلام العرب**. وكان ذلك ممكنا لأنه لاحظ بالفعل أن كل هذه المفردات القرآنية والشعرية موجودة في كلام العرب وأن «اللغات» هي بنفسها موجودة بكثرة في الشعر وفي القرآن[43] (مع قلتها بالنسبة لضخامة حجم غير اللغات).

---

(41) – مما جاء في القرآن.
(42) – سبق أن ذكر مثل هذه الأمثلة فيما سبق.
(43) – كما سنراه قريبا.

وهذا الشعور بوحدة اللغة يظهر بوضوح في هذا النص: يقول الزجاجي في الإيضاح: «وأما الغريب فهو ما قلّ استماعه من اللغة ولم يدُر في أفواه العامة كما دار في أفواه الخاصة... وليس كل العرب يعرفون اللغة كلها، غريبها وواضحهــا ومستعملها وشاذها، بل هم في ذلك طبقات يتفاضلون فيها... وأما **اللغة الواضحة المستعملة** سوى الشاذ والنوادر فهم فيها شرع واحد» (92).

فهناك لغة عربية فصيحة واحدة ولم تكن خاصة بأي جانب استعمالي للغة وكانت فيها هذه المراتب التي بناها النحاة على الشيوع فقط بين العرب.

ويقول ابن فارس في «الصاحبى»: والكلام بعد ذلك أربعة أبواب:

الباب الأول: المُجمع عليه الذي لا علة فيه وهو **الأكثر والأعم** مثل: الحمد والشكر لا اختلاف فيه في بناء ولا حركة.

والباب الثاني: ما فيه لغتان وأكثر إلا أن إحدى اللغات أفصح.

والباب الثالث: مافيه لغتان وثلاث أو أكثر وهي متساوية كاالصَّداق والصِّداق. فأياما قال القائل فصحيح فصيح.

والباب الرابع: ما فيه لغة واحدة إلا أن المولدين غيّروه فصارت ألسنتهم فيه بالخطأ وما أشبه ذلك.

وعلى هذه الأبواب الثلاثة بنَى أبو العباس ثعلب كتابه المسمَّى «فصيح الكلام» (38-39).

وقال أيضا: «أما واضح الكلام فالذي يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب كقول القائل: شربت ماء ولقيت زيدا. **وهذا أكثر الكلام وأعمه**.

أما المشكل فالذي يأتيه الإشكال من غرابة لفظه أو أن تكون فيه إشارة إلى خبر لم يذكره قائله على وجه أو أن يكون الكلام في شئ غير محدود أو أن يكون وجيزا في نفسه غير مبسوط أو تكون ألفاظه مشتركة» (40).

وأما ضئالة الاختلافات اللهجية فقد أكّد على ذلك ابن جنيّ وهو من هو في علم العربية: قال: «هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته محتقر غير محتفل به ولا معيج عليه. وإنما هو في شئ من الفروع يسير. فأما الأصول **وما عليه العامة والجمهور** فلا خلاف فيه ولا مذهب للطاعن به. وأيضا فإن أهل كل واحدة من اللغتين[ما الحجازية والتميمية] عدد كثير وخلق من الله وكل واحد محافظ على لغته لا يخـالف شيئا منها ولا يوجد عنده تعاد فيها. ومع هذا فليس شئ يختلفون فيه- **على قلته وخفته**- إلا له وجه يؤخذ به»(الخصائص 244/1).

وقال أيضا ابن عطية: «اختلاف لغات العرب الذين نزل القرآن بلسانهم هو اختلاف ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض الآخر وإنما هو أن قريشا استعملت في عباراتها شيئا واستعملت هذيل في ذلك المعنى شيئا غيره وسعد بن بكر غيره والجميع كلامهم في الجملة ولغتهم» (مقدمتان 268) .

فهذا الذي لاحظه العلماء من قلة الخلاف يمكن أن يلمس بسهولة بحصر أولا: لعيّنة فقط من ضروب الكلام (النُّحْو) -كما سبق أن قلنا- التي لم يطلق عليها اللغويـون اسم «لغة». وثانيا: بحصر كل ما سموه باللغات وسنقوم بحصر ذلك في عينات تكون لها دلالة إن شاء الله (أنظر الفصل الثاني الآتي).

الخاتمة

تصوّر العلماء العرب:

كانت العربية تكوّن لسانا واحداً مع تنوّع محلّي وغير محلّي

كان يعتقد المستشرقون كما رأينا أن ما يسمى بالعربية كانت عبارة عن لغة شعرية مشتركة بين العرب وبها نظم الشعر الجاهلي والإسلامي وكانت هذه اللغة المشتركة بنيت كما زعم أكثرهم على لهجات نجد ثم كانت لغة القرآن وهي من جنس هذه اللغة الأدبية. ومن هاتين اللغتين تفرعت «العربية الفصحى».

أما هذه النقطة الأخيرة فلا خلاف في أن العربية الفصحى التي قام العلماء العرب بتدوينها ووصفها هي لغة القرآن والآثار الأدبية التي ظهرت قبل الإسلام وبعده. إلا أن العلماء لم يكتفوا بهذين المصدرين للعربية التي كانوا عزموا على وصفها وتدوينها إذ **لم يتصوروا ولم يصرحوا على الإطلاق أنّ الفصحى هي لغة أدبية محضة لا يستعملها العرب إلا في تعبيرهم الأدبي** وأن ما كانوا يتخاطبون به هي لهجات قبلية مختلفة. وكيف يمكن أن يسكتوا عن هذا وقد عايشوا هؤلاء العرب وشافهوهم وسألوهم واستمعوا إليهم ولاحظوا في استعمالاتهم كل دقيقة وسجلوا كل هذا ولم يكونوا من الأغبياء فقد اخترع الخليل بن أحمد في ذلك الزمان كتابة علمية لضبط التنوع الصوتي وألّفوا الكتب العديدة في لغات القبائل ولغات[44] القرآن وسجلوا اللغات التي وردت في الشعر. ومن محض التعسّف أن نقول إنهم خلّطوا بين الفصحى واللهجات مع ما نلاحظه من التداخل الحقيقي المطّرد العميق بين الفصحى وهذا التنوع **في النصوص أيا كانت حتى في القرآن الكريم والشعر.**

(44) – اللغات بالمعنى الذي حددناه

ثم إنّ هذا العدد الهائل من الشواهد النثرية التي لم تكن قرآنا ولا شعرًا والتي ذكرها العلماء الأولون (ولا سيما سيبويه) لغتها هي أيضا لغة موحدة وهي بنفس اللغة التي نزل بها القرآن ونظم به الشعر **بدليل ذكر العلماء الشاهد من النثر مقرونا بنظيره من القرآن والشعر** من حيث البنية وهذا الذي سماه المدّعون تخليطـا بناه سيبويه على مفهوم رياضي (كما سنراه) وهو **الحمل على النظير**. فكيف يكون تخليطـا!

فالعربية كانت عندهم وعند غيرهم من العرب امتدادًا لهذا الوضع اللغوي الذي استعمل في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده مع تنوّع في الاستعمال ولم يكن أبدا لغة أدبية مشتركة تقابل اللهجات المحلية(45).

افتراضات العلماء العرب حول أصول العربية وتحوّلها عبر الزمان:

يعتقد أكثر المحدثين أن فكرة تطور اللغات هو شئ غريب على العلماء العرب القدامى وهذا صحيح إذا كان المقصود من ذلك التطور كما فهمه علماء اللغة الغربيون وخاصة اللغويين من القرن التاسع عشر الذين تخصصوا في الدراسة التاريخية المقارنة للغات. فالتطور كان عندهم يخضع لقوانين معينة وكان اجتهادهم منكبا أساسا على البحث عن هذه الثوابت التطورية لكل مستوى من مستويات اللغة والتفسير مع ذلك لكل ما شذّ عن ذلك.وكان كل هذا العمل مبنيا على أصول منهجية دقيقة وهو جدير بأن تفتخر به أوربا لجلالة هذا العلم وللكثير مما تحصل عليه من الحقائق العلمية في ميدان تطور اللغات والمقارنة بين الأصول القديمة لكل لغة وتحديد فصيلتها وأخواتها التي تفرعت عن تلك اللغات القديمة كل ذلك بالدقة العلمية التي يتطلبها العلم الموضوعي.

فإن كان العلماء العرب قد جهلوا هذا النوع من البحوث ومثل هذا الاجتهاد العلمي الباهر –ولم يظهر في الحقيقة إلا في القرن التاسع عشر– فإنهم مع ذلك تفطنوا إلى تحوّل

(45) – هذا التقابل حصل عند غير الفصحاء السليقيين بين الفصحى و العامية كما رأينا.

اللغات مع مرور الزمان بل وكانت لهم فكرة واضحة جدا في ذلك وإنْ كانت غير مطابقة لفكرة التطوّر أي المرور على أطوار[46] .

ففيما يخص كيفية حدوث العناصر اللغوية يتساءل ابن جنى في «باب في هذه اللغة أفي زمان واحد وضعت أم تلاحق تابع بفارط» (الخصائص 2، 28) فيحاول أن يجيب بما يأتي:

«كيف تصرفت الحال وعلى أيّ الأمرين كان ابتداؤها فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضُها ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعي إليه فزيد فيها شيئا فشيئا إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه وتأليفه وإعرابه المبين لمعانيه لا يخالف الثاني الأول ولا الثالث الثاني كذلك متصلا متتابعا. وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول إنه يحكي كلام أبيه وسلفه يتوارثونه آخرٌ عن أول...**وليس كذلك أهل الحضر**[47] لأنهم يتظاهرون بينهم بأنهم تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة. غير أن كلام أهل الحضر مضاهٍ لكلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم إلا أنهم أخلّوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح وهذا رأي أبي الحسن [الأخفش الأوسط] وهو الصواب.

«وذهب إلى أن اختلاف لغات العرب إنما أتاها من قبل أنّ أول ما وُضع منها وُضع على خلاف وإن كان كله مسوقا على صحة قياس. ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها إلا أنها على قياس ما وضع في الأصل مختلفًا... **ويجوز أن يكون الموضوع ضربا واحدًا ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الأول إلى قياس ثان جارٍ في الثاني مجرى الأول»**.

هذا كلام دقيق جدا وينبغي أن يُفهم ما قصده منه الأخفش: كما سنراه في دراسة لاحقة إن شاء الله **فإن القياس هو نظام اللغة** كما يتصوره العلماء العرب أي توافق الأبنية التي

---

(46) -- ولا ننسى أن هذه الكلمة غير مناسبة تماما للحقيقة وسبب تبني العلماء لها هو اعتقادهم في أول الأمر أن اللغات مثل الكائنات الحية تماما تتطور من نظام بسيط إلى نظام أكثر تعقيدا وهو غلط لأن اللغات تتغير من نظام إلى نظام ومن معجم إلى معجم آخر لا سيما على ألسنة غير أصحابها وهذا منذ أن صارت إلى هذا المستوى من التطور منذ مئات آلاف من السنين.

(47) -- هذا تم منذ نهاية القرن الثالث لا قبل.

تنتمي إلى جنس معين وقد يكون هناك أكثر من قياس ويقابله الاستعمال الذي هو استعمال الناطقين لهذا النظام فالذي يراه علماؤنا هو أن مرور الزمان قد يجعل هذا الاستعمال يخالف قياسا معينا بلجوء أصحابه إلى قياس آخر. **فالتحوّل الزماني للغة هو عندهم تحول من نظام إلى آخر** أو جزء منه إلى آخر وليس تحول عناصر من اللغة منفصلة بعضها عن بعض كما كان يعتقده ويعمل به اللغويون المتخصّصون في البحوث اللغوية التاريخية.

وتفطن الأخفش أيضا إلى سبب ذلك. قال ابن جنى: «وقد كان أيضا أجاز[أبو الحسن] أن تكون قديما[الأدوات] مُعْرَبة فلما كثُرت (أي كثر استعمالها) **غُيّرت فيما بعد**» (31). فكثرة الاستعمال هو عند كل العلماء العرب السبب الرئيسي في التغيير من أجل التخفيف وتتحوّل بذلك بعض الألفاظ إلى أدوات بضم بعضها إلى بعض أو اندماجها –وقد ذهب إلى هذا التفسير الخليل في الكثير من الأدوات في لن وليس(لا+أنْ=لَنْ ولا+أيس= ليس) وغيرهما **وهو تفسير تاريخي محض** وقد خالفه تلميذه سيبويه في لن لأنه نطر إليها نظرة آنية (سنكرونية) غير تاريخية وكلاهما محق من وجهة نظره. واعتمد كل العلماء ولاسيما الأولين على عامل الكثرة في تفسير الكثير من الحذوف وأنواع القلب وكتبهم بذلك مفعمة. والتفسير بالاعتماد على التخفيف راجع إلى التفسير الدياكروني ولا يخص النظام أي الوصف السنكروني.

وهذا مناسب تماما لتفسير اللغويين الدياكرونيين إذ يرجعون التغيّر عبر الزمان لتغيّر المادة الصوتية فيما يخص النظام ويكون سبب ذلك النــزعة الطبيعية إلى التخفيف من الجهود العضلية خاصة إذا كان دوران الحرف والمفردة في الكلام كبيرًا جدا أو صعب النطق به عند غير السليقيين خاصة.

أما تداخل المحدث من العناصر اللغوية بالقديم فقد تفطنوا إليه بكيفية جدّ واضحة. ويقول ابن جنى أيضا بهذا الصدد: «قد يمكن أن يكون ذلك [لغة غريبة] وقع إليه [أي المورد] من **لغة قديمة قد طال عهدُها وعفا** رسمُها وتأبَّدت معالمها» (الخصائص1، 386). وعن ابن

أحمر الذي رويت بعض المفردات التي لم تسمع من غيره يقول ابن جنى: «والقول في هذه الكلم المقدَّم ذكرها وجوب قبولها[48]. وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة ابن أحمر. فإما أن يكون شيئا **أخذه ممن ينطق بلغة قديمة** لم يشارك في سماع ذلك منه...» (2، 24). ويسمى هذا عند بعضهم بالمتروك كما هو معروف.

ولم يغب عن اللغويين العرب التأثر المتبادل في اللغة بين مختلف الناطقين وبين القبائل خاصة. يقول ابن جنى عن هذا: «فقد علمت بهذا أن صاحب لغة قد راعى غيره[49] وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيرًا منتشرين وخلقا عظيما في أرض الله غير محتجزين ولا متضاعطين فإنهم بتجـــاورون وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة.فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعى أمر لغته كما يراعي ذلك من مهمّ أمره» (الخصـــائص2، 15-16). وعلى هذا الأساس يُحاول النحاة أن يفسّروا بعض الظواهر الشاذة عن القياس وعن الاستعمال معًا كالتقابل بين فَعِل ويفعُل فعدد ذلك ينحصر في كلمتين[50]: فضِل / يفضُل ومِتّ / يموت ولا يمكن أن يُعقد عليهما باب لمخالفتهما-وهما قلّة- للعدد الكبير جدا من الأفعال وسمّوا ذلك «بتداخل اللغات» وهو جدّ معقول والتفسير هنا هو أيضا دياكروني.

هذا وقد تفطن الخليل بن أحمد إلى القرابة التاريخية اللغوية التي توجد بين اللغات المسماة في عصرنا بالسامية فقد نُسب إليه هذا القول في كتاب العين[51]: «وكنعان بن سام بنو نوح ينسب إليه الكنعانيون وكانوا يتكلمون لغة تضــــارع العربية» (العين1/232) والشعور بفعل الزمان في اللغة قديم فقد قال سيبويه عن أصول الأسماء: «لا نعرف الذي اشتق منه فإنما ذاك لأنا جهلنـــا ما علم غيرنا أو يكون الآخر لم يصل إليه علمٌ وصل إلى الأول المسمّى» (الكتاب1، 268).

---

(48) - هذا موقف يتصف بالتسامح الكبير فيما يخص المبدأ الأساسي في السماع عند العلماء الأولين وهو قبول»المسموع من أكثر من وجه» والتحفظ مما ينفرد به المورد أو الراوي أو اللغوي .

(49) - يعني طريقة كلامه كما مرّ.

(50) - وأضافوا: دمت / يدوم وغير ذلك.

(51) - نبه على أهمية هذا النص الدكتور رمضان عبد التواب في «فصوله» ص43.

الفصل الثـاني

الأدلة الإحصـائية

I - اللغات[1] في القرآن الكريم

جاء في كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام: «باب لغات القرآن وأي العرب أنزل القرآن بلغتهم» قال فيه: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه ما تيسّر» (ص339). ثم قال: «ليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه. هذا غير موجود ولكنه عددنا أنه نزل على سبع لغات متفرقة في جميع القرآن **من لغات العرب** فيكون الحرف منها بلغة قبيلة والثاني بلغة أخرى سوى الأولى والثالثة بلغة ثالثة سواها، كذلك إلى السبعة. وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض وذلك بيّن في أحاديث فترى»... وقال: حدثني عبد الرحمن بن مهدى عن إبراهيم بن سعد عن أبي شهاب عن أنس بن مالك أن عثمان قال للرهط القرشيين الثلاث حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف: ما اختلفتم فيه أنتم وزيد بن ثابت **فاكتبوه بلسان قريش** فإنه نزل بلسانهم» (ص345). وقال أيضا: «وأما الكلبي فإنه يروي... عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات **منها خمس بلغة العجز من هوازن**. قال أبو عبيد: والعجز هم سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف. وهذه القبائل هي التي **يقال لها عليا هوازن وهم الذين قال فيهم أبو عمرو... أفصح العرب عليـا هوازن وسفلى تميم... أما سفلى تميم فبنو دارم**» (ص346-347).

---

(1) - بالمعنى الذي شرحناه مما قصده سيبويه وزملاؤه وشيوخه لا غير:استعمال خاص أو عام لعنصر لغوي واحد أو ما يتصف به (مفردة أو صيغتها أو معناها أو تركيب أو إعراب أو مخرج صوت وغير ذلك).

وقال المبرد بعد أبي عبيد ببضع سنين فقط: «وإنما يقـــال بنو فلان أفصح من بنى فلان أي أشبه بلغة القرآن ولغة قريش **على أن القرآن نزل بكل لغات العرب**» (الفاضل، 113). وهذا الكلام الصريح الواضح عن وجود لغات من كل لغات العرب في الكتاب العزيز يسانده ما قاله أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد(2): «قول من قال: نزل القرآن بلغة قريش معناه عندي: في الأغلب لأن لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن من تحقيق الهمزة ونحوها وقريش لا تهمز»(3) (ذكره الزركشي في البرهان،287). وقال جمال الدين بن مالك صاحب الألفية: «أنزل القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلا فإنه نزل بلغة التميميين» (نفس المصدر 285).

1) المستوى الافرادي

للتأكد مما قاله هؤلاء العلماء ولتحقيق ما ذهب إليه بعضهم يمكن أن نرجع إلى كتاب قديم معروف في لغات القرآن عنوانه «رسالة فيما وَرَدَ في القرآن من لغات القبائل». أخبر به إسماعيل بن عمرو المقرئ عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس. وطبع على هامش تفسير الجلالين (بمصر في 1356).ونسبت هذه الرسالة إلى أبي عُبيد القاسم بن سلام وقد بيّن أكثر من واحد (وخاصة الدكتور حسين النصار)(4) عدم صحة ذلك. ومما لاشك فيه أن ما نقل فيه عن ابن عباس هو شئ كثير لاشتغال هذا الصحابي الجليل بكل ما يخص الكتاب العزيز من حيث معانيه ومعاني مفرداته خاصة.

وتطرق هذا الكتاب إلى الجانب الإفرادي للغات فاللغات فيه هي مفردات فقط نسبت إلى قبائل مختلفة. فقد أحصينا فيما ذكره **خمسة وثلاثين قبيلة (أو إقليم)** ومائتين وثلاثة وثمانين مفردة لهجية. فجاءت هكذا موزّعة:

---

(2) - هو من علماء الأندلس الكبار توفي في شاطبة في 463.
(3)- ما أخبر به سيبويه من تحقيـــق أهل الحجاز لهمزة النبئ فقال إنه قليل ورديء (أي بعيد عن القياس والاستعمال معـــاً. أنظر الكتاب 2/ 170).
(4) - في كتابه «المعجم العربي»ص74.

الترتيب	القبيلة أو الجهة	المفردات اللهجية	النسبة	الترتيب	القبيلة والجهة	المفردات اللهجية	النسبة	الترتيب	القبيلة أو الجهة	المفردات اللهجية	النسبة المؤوية
1	قريش	78	27.56	12	كندة	4	1.41	24	ثقيف	1	0.35
2	هذيل	39	13.78	12	الأشعريون	4	1.41	24	تغلب	1	0.35
3	كنانة	27	9.54	12	طئ	4	1.41	24	عيسى	1	0.35
4	حمير	22	7.77	15	بنوحنيفة	3	1.06	24	الأوس	1	0.35
5	جرهم	20	7.06	15	مدين	3	1.06	24	لخم	1	0.35
6	قيس عيلان	11	3.88	15	غسان	3	1.06	24	اليمامة	1	0.35
7	أزد شنوءة	8	2.82	15	أنمار	3	1.06	24	سُليم	1	0.35
7	خثعم	8	2.82	15	حضرموت	3	1.06	24	عذرة	1	0.35
9	مذحج	7	2.17	21	جُذام	2	0.70	24	عامر بن صعصعة	1	0.35
10	عمان	6	2.12	21	خزاعة	2	0.70	24	يمن	1	0.35
11	تميم	5	1.48	21	همدان	2	0.70	24	خزرج	1	0.35
								24	مزينة	1	0.35
									المجموع	**283**	

يتفاجأ القارئ عند قراءته لهذا الحصر الذي ينسب إلى علمائنا القدامى بضئالة عدد اللغات التي حصروها. وبالفعل 283 هو عدد تافه لا يُعبأ به إذا قارناه بالعدد الكبير من المفردات الذي يحتوي عليه النص القرآني. وبلا شك أن في هذا الذي وصل إلينا من حصرهم نقصا ولا شك أن العدد الحقيقي يفوق هذا الذي ذكرناه إلا أنه مهما بلغ هذا النقص فإنه يستحيل أن يكون العلماء قد فاتهم أن يحصروا المئات من اللغات في النص القرآني وقد قام بالتأليف في لغات القرآن عدد لا بأس به من العلماء (أحصى الفهرست 6 كتب منها. أنظر ص59). فيستحيل كما قلنا أن يتفق كل هؤلاء على ترك المئات من اللغات.

إن النص القرآني يحتوي على سبعة آلاف وسبعين ألفا وخمسمائة مفردة تقريبا وقد أفادنا بذلك علماؤنا القدامى والعدد الدقيق يتراوح بين 77.436 و 77.499 (أنظركتاب المباني ص247 و248)(5). وهذا يمثل العدد الشامل لكل المفردات بما فيه المتكرر وقد أثبت جيرو (P.Guiraud) اللساني الفرنسي المعروف أن هناك علاقة رياضية بين جمهور المفردات غير المتكررة التي يتكون منها نص من النصوص وبين طول هذا النص (العدد الشامل لكلماته). فإذا طبقنا هذا على العدد الشامل الذي سبق أن ذكرناه (وذلك بمجرد نظرة نُلْقيها على الجدول الذي أقامه جيرو نفسه لتسهيل الحساب)اتضحّ أن عدد المفردات غير المتكررة الموجودة في النص القرآني تتراوح بين 5000 و6000 مفردة **فيكون إذن في القرآن الكريم** -وعلى ما أحصاه العلماء القدامى من اللغات فيه-**أقل من 2 في المائة من المفردات اللهجية تنتمي إلى 35 قبيلة أو إقليم .**

ومما تجدر الملاحظة هو أن لقريش المرتبة الأولى ولها 27.96 % فهي أكثر القبائل «لغات» في القرآن أي أكثر ما ظهر في القرآن من اللغات تنتمي إليها حسب ما جاء في هذه الوثيقة وينبغي أن يلاحظ أيضا أن هذيلاً تلي قريشاً في المرتبة ثم تليها كنانة وكل هذه القبائل من أهل الحجاز فلغاتهم في القرآن كمفردات خاصة تبلغ 144 كلمة. وهذا يؤكد ما لاحظه العلماء القدامى من أن لغة قريش أو أهل الحجاز متغلبة على غيرها. **وربما يكون في ذلك تخليط غير مقصود وذلك لأن هذا يقال بالنسبة إلى مجموع هذه اللغات لا بالنسبة إلى مجموع مفردات القرآن. فهيهات أن يكون نزل القرآن (في مستوى المفردات) كله أو أكثره بلغة قريش بل وبأي لغة إقليمية أو قبلية أخرى.فأكثر من 98% من مفردات القرآن** -حسب ما تمّ إحصاؤه عند القدامى- **لا ينتمي لأي قبيلة ولا يختص بأي إقليم**. فهذا العدد الهائل من المفردات الذي لا ينفرد باستعماله أي قوم من العرب يكوّن بالفعل اللغة المشتركة بين جميع العرب وهو ما قصده سبحانه وتعالى بقوله: «بلسان عربي مبين».

---

(5) — المنشور في كتاب «مقدمتان في علم القرآن». تحقيق أرثر جفري. وهو إحصاء يشمل بلاشك كل المفردات بما فيها الأدوات والأسماء والأفعال المبنية أو غير المتصرفة.

ثم إنْ نحن أمعنا النظر في المفردات القرآنية فسنلاحظ هذا الذي نعرضه الآن على القارئ:

أحصى الدكتور محمد حلمي موسى في كتابه «ألفاظ القرآن الكريم» جذور الأسماء والأفعال (أحيانا على صورة مفردة) التي وردت في القرآن- بالاعتماد على كتاب المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي الملقب بـــ «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» (طبع في مصر). وعرض ما أحصاه من ذلك في جدول جاء تردّد الجذور(6) فيه على شكل تنازلي وهو شئ مفيد. وقد أحصى الدكتور حلمي 1249 جذرا من الثلاثي منها 894 تكرّر في النص القرآني أكثر من ثلاث مرات والباقي يتكرر من ثلاث مرات إلى مرتين فقط.وها هي ذي الصفحة الأولى من هذا الجدول(7) :

الألفاظ الثلاثية متعددة الورود في القرآن الكريم مرتبة تنازليا

الترتيب التنازلي	اللفظ أو أحد مشتقاته	مرات الورود		الترتيب التنازلي	اللفظ أو أحد مشتقاته	مرات الورود
1	الله «جل جلاله»	2851		2	قال	1724
3	كان	1390		4	ربّ	978
5	آمن	879		6	علم	854
7	قام	660		8	أتى	549
9	كفر	525		10	بين	523
11	يشاء	519		12	رسول	513
13	يوم	475		14	أرض	461
15	أولاء-أولئك	424		16	كلّ	410

(6) – على الرغم مما أفادنا به الدكتور بعمله هذا الجديد فإننا لم نفهم لماذا اقتصر على إحصاء الجذور دون المفردات فقد يحتاج الباحث إلى معرفة تردّد كل مفردة بل هو ضروري جدا وذلك مثل ما اشتق من نزل وورد في القرآن كأنزل ونزّل ومنازل. ثم لا ندري لماذا لم يحصر كل ما ورد في القرآن مباشرة من النص القرآني نفسه.
(7) – ص107 فما بعدها.

17	آية	382		18	اسم ، سماء	381
19	عذاب	372		20	عمل	359
21	جعل	346		22	رحم	339
23	رأى	328		24	كتب	319
25	هدى	316		26	ظلم	315
27	نفس	298		28	قبل	294
29	نزل	293		30	ذكر	292
31	حقّ	287		32	كذب	282
33	جاء	278		34	عبد	275
35	أخذ	273		36	خلق	261
37	يتقي	258		38	آخر	250
39	أمر	248		40	الناس	241
41	أيّها ، أيّ	239		42	بعد	235
43	غفر	234		44	تولى	233
45	يدعو	212		46	حكم	210
47	ملك ، ملائكة	206		48	جنة	201
49	عند	200		50	خير	196
51	حسن	194		52	نور ، نار	194
53	ضلال	191		54	سمع	185
55	ابن ، بني	184		56	الحياة	184
57	خرج	182		58	سبيل	176
59	يتبع	174		60	قتل	170

فالذي يمكن أن نلاحظه في هذه الصفحة فقط هو أن الأغلبية الساحقة من هذه الجذور هي موجودة في العاميات العربية الحالية ولو في صورة كلمة واحدة وقد وجدنا فيما أحصاه

الدكتور 146 جذرا أو مفردة لا وجود لها، في علمنا، في أغلب العاميات مثل: «ذرْ وقِسْط ويَمْتُرون ورَهَق وأَفاء وثُبور» وغيرها. **وأغلب الجذور (أو المفردات)التي وردت أكثر من ثلاث مرات فهي موجودة في لغة التخاطب اليوم إلا ما شذّ.**

أما ما فوق الثلاثي فقليل فقد أُحصيت 40 جذرا (أو في صورة مفردة) في القرآن، أكثر من نصفها موجود في لغة التخاطب الحالية وذلك مثل: برهان وثعبان وخردل ودراهم وقرطاس ولؤلؤ ومرجان وغيرها (ص29-32).

وأما الجذور التي لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة فعددها كما أحصاها الدكتور حلمي 371 من الثلاثي (وجاءت كلها في الإحصاء في صورة مفردة بالطبع). وأغلب هذه الألفاظ التي وردت مرة واحدة لا وجود لها في أغلب العاميات في علمنا وعددها283 بالتقريب وذلك مثل: أبًّا وأَثْل وإدًّا وآسن ويؤُوده وغير ذلك. الموجود منها في العاميات هو 88 مفردة تقريبا.

فبهذا نعلم أن اللفظ القرآني كلما كان تردّده في القرآن أكبر كان حظه من وجوده في العامية أكثر(مغيِّرًا أوْلا) إلا ما شذّ عن ذلك وهو قليل.**والذي يهُمنا في كل هذا هو أنْ يستحيل أن تكون هذه الألفاظ القرآنية الكثيرة جارية اليوم على ألسنة الناس في لغة التخاطب العفوي إلا إذا كانت جارية بالفعل في لغة التخاطب اليومي في زمان نزول القرآن وبعده**[8] إذ يستحيل أن تتفرّع أية لغة تخاطب عفوية زمانيا إلا عن لغة تخاطب مثلها في غابر الزمان وذلك قانون مطرد في جميع لغات الدنيا.

ومهما كان فعدد الجذور القرآنية الموجودة الآن في اللهجات الحالية (وعلى الأقل في لهجة واحدة) يساوي، حسب ما سبق ذكره، 1216 جذرًا أو مفردة تقريبا وهو عدد كبير بالنسبة إلى مجموع الجذور التي أحصيت وهي[9] 1679 جذرًا فالنسبة: 72.42% عالية جدا.

---

(8) والفرق بينهما هو وجود اللحن في اللهجات الحالية وعدم وجود ذلك في لغة التخاطب العفوية عند فصحاء العرب كما سبق.

(9) 1249 – 146 = 1103 + 25 + 88 = 1216 والمجموع 1679 = 1249 + 371 + 59.

والعامية التي نقصدها ههنا هي لغة التخاطب العفوية الجارية على ألسنة الناس اليوم في الحاجات. ولا شك أن لغة القرآن كان لها تأثير في لغة التخاطب منذ القديم ولكن هذا لا يفسر هو وحده ما لاحظناه من كثرة الجذور أو المفردات المشتركة بين القرآن ولغة التخاطب الحالية وإلا كان يجب أن تكون موجودة في جميع العاميات كل الكلمات القرآنية الدالة على مسميات عادية من الخياة العامة وذلك مثل: أتى وذرْ وإنْس وغيرها[10] والواقع أن الذي دخل في لغة التخاطب العادية وأضيف إلى المفردات المشتركة بين لغة القرآن ولغة التخاطب الحديثة هي الألفاظ الإسلامية فقط.فأما غيرها فيظهر في الخطاب الشفاهي كلما ارتفع موضوع الحديث وخاصة في أمور الدين.

ثم إن وجود جذور مشتركة بين لغة القرآن ولغات التخاطب في عصرنا قد تكون دليلا فقط على أن لهما لغة أم واحدة أي أنهما متفرعتان زمانيا عن لغة واحدة لا على أن لغة القرآن ولغة التخاطب القديمة كانتا لغة واحدة وهذا القول قد يصحّ لو كانت الكلمات القرآنية والكلمات الواردة في لغة التخاطب الحديثة تختلف كلها أو أكثرها مبنى ومعنى وليس الأمر كذلك على الإطلاق[11]. ويمكن أن نمثل ذلك بما يلي:

«أبو– من أجل–أخذ ومشتقاتها – آخر وتأخّر– أخ وإخوان وأخت– أدّى– أُذن– أصل– أكل ومشتقاتها– إلف– ألف– أمَر ومشتقاتها– الأمْس– آمن ومؤمن وغيرها– أنثى– اثنان– إنسان– أهل– أول– بأس– بحر– بخس–بُخْل ومشتقاتها–بدأ ومشتقاتها–بدل ومشتقاتها– بَدْو– برئ–برج–برد– أبرص– بارك– برهان– بقر– بلد–باب– بال– بيت» وغير ذلك من الكلمات المشتركة ويمكن لأي واحد أن يتحقق من ذلك بسهولة[12].

---

(10) – أما الألفاظ التي ظهرت مرة واحدة فهي في الغالب وفي حدّ ذاتها (مع ألفاظ أخرى كثيرة الورود) من خصائص الأسلوب القرآني والأسلوب كما قلنا، هو كيفية خاصة في استعمال اللغة وليس هو اللغة وقولنا: لغة الكاتب الفلاني هو مجاز إذ المقصود هو ما اختاره هذا الكاتب من اللغة أو الصيغ وقد يكثر مجيء ذلك في أسلوب معين إلا أنه لا يكوّن لغة إلا بالمجاز لأنه جزء لا يتجزأ من نظام اللغة المعيّنة.

(11) – قد تكون بعض المشتقات من الجذر المشترك قد اختفت في أكثر العاميات أو في جميعها عبر الزمان.

(12) – تحوّلت لغة التخاطب الفصيحة القديمة حتى كادت تكون لغات أخرى وذلك في الأصوات خاصة وتغير النظام الصرفي النحوي وخاصة بسقوط حركات الإعراب في الدرج ولم يمسّ هذا التغيير غالبا صيغ الكلم مثل ما وقع من التغيير العميق للغة اللاتينية عند تحولها إلى اللغات الرومانية وخاصة الفرنسية وذلك مثل: necare > noyer و regale > royal و nascere > naître و insulam > île وغير ذلك. أما المفردات العامة الحالية التي تنتمي إلى الجذور فأكثرها لم تتغير تماما أو لم تتغير التغيّر الكامل مثل مفردات اللاتينية.

إن هذه النسبة الكبيرة من الألفاظ التي تشترك فيها لغة التخاطب في زماننا بلغة القرآن وهي في أغلبها مما يكثر تردده في القرآن لدليل على أن لغة القرآن كانت هي لغة العرب في جميع مستويات التعبير: في التخاطب و في التعبير الأدبي **ولو لم تكن هكذا لما وجدت هذه النسبة الكبيرة في العاميات المعاصرة لأن لغة التخاطب في عصرنا لا يمكن أن يكون أصلها إلا لغة التخاطب القديمة ليس إلا** فهي متفرعة عنها زمانيا وناتجة عن التحول الذي يصيب كل لُغات التخاطب عبْر الزمان (هي وحدها في الغالب)[13] بالنسبة إلى جميع اللغات. وذلك مع تبني هذه العاميات لما جاء به الإسلام من ألفاظ جديدة وهي قليلة بالنسبة إلى جمهور الألفاظ القرآنية.

ثم إن هذه اللغة كانت أيضا لغة العرب جميعهم ولم تكن خاصة بقريش[14] أو أهل الحجاز وإنْ كان لأهل الحجاز القسط الأكبر في القرآن من الألفاظ اللهجية أو اللغات وهذه اللغات قليلة في جملتها كما رأينا.فهل كان الأمر كذلك بالنسبة للمستوى الصرفي النحوي؟ فهذا ما سنحاول الإجابة عنه فيما يلي.

2) المستوى الصرفي النحوي من لغات القرآن

قد ذكر الفراء من جهته في كتابه «معاني القرآن» اللغات التي وردت في القرآن وبصفة خاصة التي هي من مستوى أبنية الكلام وأبنية الكلم. وأحصينا ما ذكره من هذه اللغات وقد نسب كل واحدة منها إلى قبيلة أو جهة معينة وهاهي ذي:

---

(13) – ولغة الكتابة أبطأ تحولا بكثير.

(14) – ونسبة لغاتها هي كما رأينا 27% وكل اللغات اللهجية بما فيها لغات الحجاز تمثل كما رأينا أيضا 2%من مجموع ألفاظ القرآن.

	القبيلة أو الجهة	عدد اللغات في المستوى الصرفي النحوي	المرجع: معاني القرآن للفراء
1	أهل الحجاز	19	ج1/ص140، 174،212،356 ، 480 . ج2/ص 59، 78 ، 170 ، 230 ، 334 ، 383، 394. ج3/ص139،74 ، 246 ، 255 ، 260 ،273 ، 280.
2	تميم	14	ج1/ص 109، 174، 285، 480. ج2/ص 59، 92، 107، 144 ،333. ج3/ص 125، 139، 260، 273، 280.
3	قيس	7	ج1/ص 91 . ج2/ص 39، 144، 154، 173، 339. ج3/ص 246.
4	أسد	6	ج1/ص 184، 356 ، 360 ، 382. ج2/ص 92. ج3/ص 74.
5	سُليم نَجْد(15)	5 5	ج1/ص 174، 285، 323 . ج2/ص 39، 99 . ج2/ص 78، 212، 394 . ج3/ص 30، 139.
6	هذيل	4	ج1/ص 174 . ج2/ص 39، 169 . ج3/ص 254.
7	قضاعة	3	ج1/ص 124، 382. ج2/ص 243.
8	طئ	3	ج1/ص 440. ج2/ص 152، 223.
9	عُقيل	3	ج1/ص 216 . ج2/ص 139. ج3/ص 156.
10	قريش	3	ج1/ص 109. ج2/ص 106، 204.
11	اليمن	3	ج3/ص 146، 229، 357.
12	عُكْل	2	ج1/ص 212. ج2/ص 322.
13	كنانة العالية	2 2	ج3/ص 184. ج1/ص 232. ج3/ص 30.
14	بنو عامر	2	ج2/ص 23، 92.
15	الحارث بن كعب	2	ج1/ص 173، 184.

(15) - نسب الفراء هذه اللغات جملة إلى أهل نجد.

وأهم هذه اللغـــات تخص اختلاف حركة في كلمة أو زيـــادة أحرف فيكون لها وزنان مثل فُعْل أو فُعُل: جُرْز أو جُرُز وفَعْل أو فُعْل: زَعْم أوزُعْم وفُعْلة أو فِعْلة: رُبْوة أورِبْوة وفَعالة أو فِعالة: رَضـــاعة أو رِضاعة وفَعَل/يفعِل: وصُرْهُنّ أو صِرْهُنّ أو فَعِل/يَفْعَل من المثال: وجِل/يَوْجَل لغة الحجاز وخط المصحف عليها.وفَعَلْت وأفْعلت: كَنَنْت وأكْنَنْت. وتخص أيضا التذكير والتأنيث كالسبيل والطريق وغيرهما أو تخص الإعراب: «ما هذا بشرًا» و«إنّ هذان لساحران» (لغة بني الحارث بن كعب) وغير ذلك كثير.

أما القبائل أو الجهات التي نسب إليها الفراء لغة واحدة في المستوى الصرفي النحوي فهي كالتالي: حضرموت، ربيعة، بكر بن وائل، بنو إنسان، كلب، غطفان، فزارة، النخع، نمير، هوازن. وذكر أيضا كندة والأنصار وتهامة لكنه لم ينسب إليها لغة خاصة بالمستوى الذي يهمنا هنا. **فهذه 28 قبيلة أو جهة.**

ومجموع هذه اللغات النحوية الصرفية هي 98 لغة (يضاف إليهـــا اللغات التي تخص الأصوات) وفي ذلك نقص يسيـــر إذ لم ينص الفراء على مثل: «من يرتدّ» و«من يَرْتَدِدْ» فالثانية حجازية كما هو معروف. وكل هذه اللغات قد تتكرر في القرآن. ومهمـــا كان فإن هذا العدد ضئيل جدا ههنا أيضا وذلك بالنسبة إلى عدد الآيـــات فهو حسب ما قاله العلمـــاء الكوفيون 6236 آية وعند البصريين 6204 آية (أنظر كتـــاب «مقدمتان في علوم القرآن»، ص246-247)[16]. والآيات التي تتضمن أكثر من جملة واحدة هي أغلبها.

فالذي يجب أن نلاحظه قبل كل شيء هو:

أولا: كثرة ما جاء من اللغات المنسوبة إلى أهل الحجاز في المستويين جميعا:

المعجمي والصرفي النحوي فقد اتفق في ذلك الذين أحصوا لغات القرآن كمفردات أوكبنى صرفية نحوية.فقد نسب إلى أهل الحجاز عامة 19 لغة ثم إلى قريش 3 وكنانة 2

---

(16) الاختلاف راجع هنا إلى الاختلاف في بداية الآية ونهايتها كما نص على ذلك، كما رأينا، في مناهل العرفان 1/ص344.

والعالية 2 وهذيل 4 وقضاعة 3 فيكون المجموع لأهل الحجاز ههنا 33 لغة من حيث البنية الصرفية النحوية.

ثانيا: كثرة ما جاء من اللغات الصرفية النحوية المنسوبة إلى تميم وقبائل نجد وهذا لم يتحقق بالنسبة إلى المفردات. فلتميم 14 لغة ولنجد عامة5 ولقيس 7 وأسد 6 وطئ 3 وسليم5 فالمجموع هو **35 لغة غير حجازية من المستوى الصرفي النحوي** فلغات تميم ونجد الصرفية النحوية تفوق ولو بلغتين-حسب ما ذكر الفراء- لغات أهل الحجاز والجدير بالملاحظة ههنا هو أن **اختلاف اللغات في الأبنية** يرجع إلى اختلاف القراءات بخلاف اللغات الخاصة بالمفردات[17] .

هذا ويؤكد ما ذكره الفراء وما جاء في كتاب معاني القرآن لسعيد بن مسعدة الأخفش صاحب سيبويه فلا يتجاوز عدد اللغات النحوية الصرفية 100 بالتقريب إلا أن الأخفش لا ينسب الكثير منها إلى أصحابها (اللغات اللهجية الحقيقية). وعلى هذا يمكن أن نستنتج مما سبق ما يلي:

1- ما جاء في القرآن من اللغات المعجمية والصرفية النحوية **كلاهما** قليل جدا بالنسبة إلى مجموع المفردات والصيغ و الأبنية المشتركة بين جميع العرب وهي التي أجمع العلماء على عدم نسبتها إلى أية قبيلة أو جهة.**فهي لغة العرب جميعاً**.

2- وهذا الذي توصلنا إليه حول لغات القرآن ينقض تماما ما ذهب إليه المستشرقون[18] من أن لغة القرآن متفرعة من لهجة قريش أو لهجات نجد أو كانت مزيجا من لغة الشعر

(17) - من المعروف أن ليس أصل كلّ ما قُرئ به لغة من لغات العرب بل بالعكس فأكثر ما يدور الخلاف بين قراءة وأخرى هو غير راجع إلى الخلاف بين اللغات وذلك مثل: ملك أو مالك يوم الدين ويُخدعون أو يخـادعون (البقرة9) وفأزلها أو فأزالهمـا(البقرة 36) وحُسْنا وحَسنا(البقرة83) وغير ذلك.

(18) - أجمع المستشرقون، كما قلنا، على أن لغة الشعر العربي هي«اللغة الأدبية المشتركة» بين العرب قديما واختلفوا في لغة القرآن فذهب بعضهم إلى أن أصلها لغة قريش وأكثرهم قالوا (منهم بلاشير) أن أصلها لهجات نجد فقط واعتمدوا في ذلك على ما روى ابن قتيبة: «والعرب لا تروى شعره [عدى بن زيد] (وهو غير صحيح) لأن ألفاظه ليست بنجدية» (الشعر182). وذهب فريق آخر إلى أنها مزيج من لهجة الحجاز ولهجات نجد(منهم رابين). أما قول فوليرس (Vollers) الألماني بأنها نتيجة لما حاوله العلماء من تغيير النص القرآني حتى يوفقوا بين هذه اللهجات فهذه التهمة الفظيعة التي وجّهها إلى العلماء المسلمين لدليل على نوايا مغرضة:كيف يمكن أن يحاول العلماء- كلهم- أن يُغيّروا لغة نص هو عماد الإسلام ويشيع ذلك بين الناس دون أن يحتجّ على ذلك أي واحد ! وكل ما قالوه عن أصل العربية لا دليل لهم عليه إطلاقا.

«المشتركة» ومن لهجة الحجاز وغير ذلك من الأقوال والافتراضات الواهية التي لا دليل عليها. فإن العدد من المفردات والأبنية الصرفية النحوية المنسوبة كلغات لهجيّة إلى القبائل ضئيل جدا بالنسبة إلى عدد ما لم يُعتبر لغة (98% فيما يخص الأبنية كما رأينا). فهذه هي اللغة المشتركة بين جميع العرب في القديم في جميع مستويات التعبير: العفوي غير الأدبي والأدبي المتفنّن فيه.

II – إحصاء «اللغات» في لسان العرب وما جاء في كتاب «لهجات الفصحى» من الوحدات اللهجية

بعد أن اطّلعنا على ما أحصى العلماء العرب من لغات القرآن وهي المفردات القرآنية والصيغ النحوية التي اختصت باستعمالها بعض القبائل أوجهات معّينة في شبه الجزيرة العربية يحسن بنا أن نتساءل عن نسبة ما سمّوه باللغات في مجموع المفردات العربية. وقد رجعنا للإجابة عن ذلك أوّلا إلى أكبر معجم تراثي وهو «لسان العرب» لابن منظور وثانيا إلى كتاب «المعجم الكامل في لهجات الفصحى» للدكتور داود سلوم[19]. وفي كلا الكتابين تختلط فيه المستويات اللغوية فيما يسميه باللغات من مخرج أو بناء كلمة أو تركيب إلا أنّ الأكثر من هذه اللغات هو من جنس المفردات الخاصة بقبيلة أو عدة قبائل وقد لا يُنسبه فيكون في الغالب أداء مبعثرا في شبه الجزيرة. هذا ويعدّ كِلاهما كلاًّ من الدخيل والمولّد والعامي لغة كقولهما: هذه لغة فارسية أو لغة أهل السواد ويفعل مثل هذا كل من ألف كتابا في اللغة أو معجما بعد القرن الثالث. وها هو ذا ما تحصلنا عليه من الإحصاء على عينة خاصة:

---

(19) وقد رجع الدكتور سلوم إلى اللسان وكل المعاجم التراثية وأضاف إليها ما وجده في الدراسات اللهجية الحديثة من مؤلفين عرب.

الحروف	لسان العرب		كتاب لهجات الفصحى
(ما بدئ أصله بهذه الحروف)	ما أطلق عليه اسم لغة	ما ليس كذلك	ما ذكر أنه لهجي
حرف الجيم	119	3815	82
حرف الحاء	52	6907	171
حرف السين	74	6641	150
حرف العين	174	7878	215
حرف الميم	142	6074	82
حرف النون	138	4152	118

إن المفردات أو الظواهر اللغوية التي اعتبرت «لغات» عند القدامى لا تتجاوز، في هذه العينة من لسان العرب، بالنسبة إلى هذا الجدول، في أقلها 1.3% (حرف الحاء) من مجموع العناصر الموجودة فيه و4% في أكثرها (حرف العين). وأما ما جاء في كتاب لهجات الفصحى فلا تبتعد أعداده كثيرًا عما جاء في لسان العرب. فهذا الإحصاء يؤدينا بالضرورة إلى التساؤلات التالية:

1- هذه المجموعة العظيمة من العناصر اللغوية التي لم يطلق عليها اسم «لغة»: ماذا عساها أن تمثل اللهم إلا اللغة المشتركة بين جميع العرب؟ ولكن هل هي بأجمعها اللغة الأدبية ؟

2- أفيُعقل أن تكون اللغة الأدبية وحدها، بهذا الحجم بالنسبة للعدد الضئيل جدا من العناصر اللهجية[20]؟

(20) – وقد أدخلت في «اللغات» كل الألفاظ الدخيلة والمولدة وحتى العامية القديمة كما قلنا.

3- أفيُعقل، من جهة أخرى، أن تكون لغة التخاطب، لجميع العرب، وهي، في زعمهم، اللهجات القديمة المتمثلة في هذه «اللغات» هزيلة إلى هذا الحد [21] ؟وإن كانت اللهجات العربية القديمة متباينة،كما يزعمون، (أي لم تكن مجرد تنوعات) فهذا يقتضي أن يكون لكل لهجة قدرٌ من الألفاظ خاص بها وكافٍ لتغطية حاجات الحياة اليومية وهذا يتناقض مع ما سجل من اللغات كمًا وكيفًا: فعددما يرجع إلى كل قبيلة، كما رأينا، ضئيل جدا لا يمكن أن يكوّن لهجة كاملة والواقع أنّ هذه الضئالة فيما انفردت به كل قبيلة تستلزم أن يكون لكل قبيلة قدر مشترك كبير من الألفاظ مع غيرها من القبائل ليغطي حاجات الحياة العامة.

4- وبالفعل يوجد في هذه المجموعة غير اللهجية العظيمة الحجم الكثير مما وصل إلينا من لغة التخاطب المشتركة القديمة ممّا ليس لهجيا (في النصوص الكثيرة التي رواها سيبويه وشيوخه ومن جاء بعده وعلماء الكوفة وغيرهم) والكثير منه ما يزال مستعملا في لغة التخاطب اليوم. فإذا كانت هذه المجموعة غير اللهجية تحتوي على كل ما هو موجود أو أكثره في لغة التخاطب[22] فكيف يجوز لنا أن نجعلها لغة أدبية محضة وتكون مندمجة فيها لغة التخاطب كلها أو أكثرها؟

III - توافق البنية التركيبية باطّراد: بين لغة التخاطب القديمة ولغة القرآن ولغة الشعر

إذا اطّرد القياس والاستعمال ولم يكن فيه إلا ضرب واحد من الكلام عند جميع العرب وفي القرآن فإن سيبويه يكتفي، كما سنراه بالتفصيل فيما يلي، بذكر مثال أو مثالين وقد يستغني عن ذكر الشاهد من كلام العرب أو من القرآن الكريم وذلك مثل رفع الفاعل ونصب المفعول فيقول بهذا الصدد: «وذلك كقولك: «ضرب عبد الله زيدا» فعبد الله ارتفع في «ذهب[عبد الله]» وشغلت «ضرب» كما شغلت به» ذهب و«انتصب زيد لأنه مفعول تعدى

(21) – وقد مرّ ردّنا على من ادّعى بأن علماء العربية أهملوا عمدًا تدوين اللهجات احتقارًا لها.
(22) – في الاستعمال القديم وجزء كبير من الاستعمال الحديث.

إليه الفاعل»(14/1). وكذلك هو الأمر بالنسبة لأوصاف الحال. يقول: «وذلك قولك: «ضربت عبد الله قائمًا» و«ذهب زيدٌ راكبًا»(20/1). والكتاب كله شاهد على ذلك.

وكذلك هو الأمر في أحيان كثيرة إذا كثرت العبارة أو النحو من الكلام (كما يقول) وذلك كقوله: «فإن قدّمت المفعول وأخّرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك: «ضرب زيدًا عبدُ الله» لأنك أردت مؤخّرا ما أردت به مقدّما ولم تُرِد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخّرا في اللفظ...**وهو عربي كثير**»(15/1).

وإذا لم يطرد النحو من الكلام في القياس والاستعمال ولم يكن في القرآن والشعر وكلام العرب المنثور ضرب واحد من الكلام بل ضربان أو أكثر **فإن سيبويه يلتزم حينئذ ودائما بذكر شـــاهدين أو أكثر من القرآن والشعر وأقوال العرب التي سمعها هو بنفسه أو من شيوخه**. والذي يهمنا في هذا الفصل هو أنه يأتي دائما -أو يكـــاد- بشاهد من كلام العرب أو مثال يمثل به كل ما سمعه منهم ويأتي بما هو مثله من القرآن إن وُجد[23] ومن الشعر أي **بنظيره من حيث البنية** وقد سبق أن ذكرنا نبذة صغيرة من ذلك.ونودّ الآن أن نجمع فيما يلي عيّنة نحاول أن نبيّن فيها **التوافق التام من حيث البنية بين لغة الشعر و لغة التخاطب وما احتوى عليه الكتاب العزيز**[24].

(23) – كما قال علماؤنا فليس كل ما سُمع من كلام العرب قد قُرئ به أو يوجد في القرآن(مفردة أو صيغة مفردة أو جملة).

(24) – وستتكوّن هذه العيّنة من الأبواب الأربعين الأولى من الجزء الأول من الكتاب (من طبعة بولاق) والمعروف أن هذا الجزء كله مخصّص للأبنية التركيبية (ولا يشرع سيبويه في الكلام عن أبنية الكلم والأصوات إلا ابتداء من الجزء الثاني من طبعة بولاق).

باب الفاعل الذي يتعدى فعله إلى مفعولين

بحرف جرّ أو بدونه

	الفعل و الفاعل	المفعول الأول	المفعول الثاني
توافق البناء	«اختار موسى	قومَه	سبعين رجلاً (الأعراف 155) أي من الرجال
	«أستغفر	الله	ذَنْبًا...» (شعر) أي من ذنب
	«ســمَّيتـُ	ـــهُ	زيدًا أي بزيد

وقال سيبويه بعد ذكره لهذه الأبنية المتناظرة: «وليست «أستغفر الله ذنباً» و«أمرتك الخير» أكثر في كلامهم جميعا. إنّما يتكلم بها بعضهم» (ص17). «وليس كل فعل يُفعل به هذا» (15-16) .

باب كان وأخواتها

توافق البناء	«ما كان	حجَّتَهم	إلا أن قالوا» (الجاثية25).
	«ما كان	جوابَ قومِهِ	إلا أن قالوا» (الاعراف 82).
	وقد علِم الأقوامُ ما كان	داءَها بثهلان	إلا الخِزْيُ ممن يقودها» (شعر).
	ما كان	أخاك	إلا زيد

«...وإن شئت رفعت الأول كما تقول: «ما ضرب أخوك إلا زيداً» وقد قرأ بعض القراء ما ذكرنا بالرفع»(24).

توافق البناء	«ومثل قولهم: »	«من كان	أخاك»	
	قولُ العرب:	«ما جاءتْ	حاجتَك»	كأنه قال:
	ولكنه أدخل التأنيث على ما			«ما صارت حاجتَك»
	حيث كانت الحاجةَ	من كانت	أمَّك	حيث أوقع مَنْ على مؤنث»
	كما قال العرب:			

«...ومن يقول: «ما جاءت حاجتُك» كثير كما يقول: «من كانت أمُّك»...(24)

«ومثل قولهم» ما جاءت حاجتك»:			
... قراءة بعض القراء:	ثم لم تكن	فِتنَتَهمْ	إلا أن قالوا»(الأنعام 23)

«...ومما جاء مثله في الشعر:

«وتَشْرَق بالقول الذي أذعته	شَرِقَتْ	صدرُ القنا من الدم» (للأعشى)

«...ومثله قول ذي الرمة:

«مشيْنَ كما اهتزَتْ رِماحٌ	تسَفَّهتْ	أعاليها مرُّ الرِّياح النَّواسم»(25)
«...وسمعنا من يوثق به من العرب يقول:	اجتمعت	أهلُ اليمامة(26)

« ...وترك التاء في جميع هذا الحدّ والوجه...وإثبات التاء فيه **حسن** إن شاء الله **من هذا النحو لكثرته** في كلامهم»(26).

توافق البناء

باب إعمال ما وإهمالها

ما زيدٌ	ذاهباً	ولا مُحسنٌ زيد
لَعمُرك ما معْنٌ	بتارك حقَّه	ولا منسئٌ معنٌ ولا متيّسرُ (الفرزدق)
ما كلُ سوداء	تمرةً	ولا بيضاء شحمةً (أو شحمةٌ) (مَثَل)
ما زيدٌ	ذاهبًا	ولا َمعنٌ خارجا (29-33)

توافق البناء

باب ما يجري على الموضع

لَيْسَ زيدٌ	بجبانٍ	ولا بخيلا (أو بخيلٍ)
فلسنا	بالجبالِ	ولا الحديدا (أو الحديدٍ) (عُقيبة الأسدي)
فان لم نَجدْ	من دونِ عدنان والدًا	ودونَ مَعَدٍّ فلْتَزَعْك العواذلُ (لبيد)

«والجرّ الوجه»(33-34)

باب الإضمار في ليس وكان

	إنه	أمَةُ الله	ذاهبةٌ
«قول بعض العرب:	ليس	خلَقَ اللهُ	مثلَه

ومثل ذلك في الإضمار قول بعض الشعراء

سمعناه ممن يوثق بعربيته:«إذامتُ	«كان	الناسُ	صنفان: شامتٌ وآخرُمُثْنٍ بالذي كنتُ أصنعُ
«وقال بعضهم:	«كان	أنتَ	خيرٌ منه» (35-36)

باب ما سُمّى بعد سيبويه بالتنازع

ضَرَبني	وضربتُ قومَك
وأبَى فكان	وكُنتُ غير غدور(الفرزدق)
«وإنما الكلام: ضَرَبْتُ	وضربني قومُك
«سببْتُ	وسبَّني بنو عبد شمسٍ من منافٍ وهاشم» (الفرزدق)

(ص38-39)[25]

(25) – التنوع الكبير لعبارات التنازع وما يسميه سيبويه بالاستغناء يتراءى في شواهد التخاطب والشعر والقرآن على حدّ سواء: فكل أنواعه موجودة في المستويين الأول والثاني تكثر في القرآن أيضا.

باب بناء الفعل على الاسم والعكس (ص41-43)

زيدٌ أوزيدًا	ضربتُه	
«أما ثمودُ	فهديناهم	(فصلت 17)
«فأما تميمٌ...	فألفاهم	القومُ رَوْبَى نياما» (بشر بن أبي خازم)
«إنا كلَّ شيءٍ	خلقناه بقدر»	(القمر 49)
يومَ الجمعة	ألقاك فيه	

مثل الباب السابق في «التنازع» (46-49)

رأيتُ	زيدًا	وعمرًا كلمته
«يُدخل	من يشاء في رحمته	والظالمين أعدّ الله لهم عذابا أليما» (الإنسان 31)
«والذئْبَ	أخشاه...	وأخشى الرياح والمطرا» (الربيع بن ضبع)

باب ألف الاستفهام (52-55)

أ عبدَ الله	ضربتَه
أ عمرًا	اشتريتَ له ثوبا
«أثعلبةَ الفوارس	...عدَلت بهم طُهيّة والخشابا» (جرير)
أكلَّ يومٍ زيدًا	تضربُه

باب إعمال الصفات (55-61)

هُنَّ حواجُّ	بيتَ الله
«مما حمَلْنَ به وهن عواقدٌ	حُبُكَ النطاقِ فعاش غيرَ مُهبَّلِ» (أبو كبير الهذلي)
...قالوا : قُطَّانٌ	مكةَ»
هجومٌ عليها	نفسَهُ غير أنه...ينهضِ « (ذو الرمة)

«باب الأفعال التي تستعمل وتُلغى»(61-64)

أظن	زيدًا	ــــ	**منطلقا**
ــــ	زيدًا	**أظن**	أخاك
ــــ	عبدَ الله	أظنه	ذاهبا
ــــ	عبدُ الله	**أظن**	**ذاهبٌ**
«...	وفي الأراجيز	خِلْتُ	اللؤمُ والخوَرُ» (العجاج)

أ أومتى تقول	**زيدًا**	منطلقًا	
«فإن قلت: «أ أنت تقول	**زيدٌ**	منطلق»	**رفعتَ لأنه فُصل فيه وبين حرف الاستفهام**
قال الكميت: «أجُهَّالاً تقولُ	--	بني لُؤَي	**لَعَمْر أبيك أمْ متجاهلينا»**
فَمتى تقولُ	**الدار**	تجمعنا	(ابن أبي ربيعة)

مثل هذا الباب أيضا

أكلَّ يوم	ثوبٌ تلبسُه	
«أكلَّ عامٍ	نَعَمٌ تحوونه	...وتَنْجونه» (شعر)
«فمما لا يجوز فيه الا الرفع: أ عبدُ الله	أنت الضاربُه	**أي الذي ضربه**

باب الأمر والنهي (69-72)

زيدًا	اضربْه
أما زيدًا	فاقْتُلْهُ
عبدُ الله	اضربْهُ
هذا زيدٌ	فاضربْهُ
زيدٌ	فاضربْهُ
«وقائلةٍ خولانُ	فانكِحْ فتاتَهم...كما هيا» (شعر) قال سيبويه :
	«هكذا سُمع

من العرب ينشدونه» (70)

الذي يأتينا	فله درهم»
«الذي يُنفقون أموالهم...	فلهم أجرهُم عند ربهم» (البقرة 274)
كل رجل يأتيك	فهو صالح
«أرَواحٌ مودِّع أم بُكورٌ أنت	فانظر لأي ذاك تصيرُ» (شعر)

باب حروف النفي

ما عَمْرًا	لقيت أباه	ولا عمرًا مررتُ به
«لا الدارَ	غيَّرها بعدي الأنيْسُ	ولا بالدار لو كَلَّمتْ ذا حاجةٍ صمَمُ» (زهير)
«فلا حَسبًا	فخرتَ به لتَيْم	ولا جَدًا إذا ازدحَمَ الجُدودُ» (جرير)

باب البدل (75-82)

رأيت قوْمَك	أكثرَهم أو ثُلُثَهم
« يسألونك عن الشهرِ الحرامِ	قِتالٍ فيه» (البقرة 217)
ولله على الناس حجُّ البيتِ»	من استطاع إليه سبيلاً (آل عمران 97)
«قال سيبويه: وممّا جاء في النصب أنّنا سمعنا:	
من يوثق بعربيته يقول: «خلق الله الزرافةَ	يدَيْها أطولَ من رِجْلَيْها»
« فما كان قَيْسٌ هُلْكُه	هُلْكَ واحدٍ ... تهدَّماً (شعر)
« إنَّ علىَّ الله أن تُبايعا	تُؤْخَذَ كَرهًا أو تجيءَ طائعًا « (شعر)

باب التخفيف وعدمه في إعمال الصفات (82-89)

هذا	**ضاربٌ**	زيدا غدًا
« إنّي بحَبْلِك	واصلٌ	حبْلي وبريشِ نبلك رائشٌ نبْلي « (امرؤ القيس)
مشائمُ ليسوا	مُصلِحِ ينَ	عشيرةً.... غرابُها» (الأخوص الرياحي)

قال سيبويه : «اعلم أنّ العرب يستخفون فيحذفون التنوين والنون :

...هذا	**ضاربُ زيدٍ**	وعمرو
« أتانى على القعْساء	عادلَ وطْبِهِ	...تعادلُه «(الفرزدق)
«كلُّ نفْسٍ	ذائقةُ الموتِ»	(آل عمران 185)
«إنا	مُرسِلو الناقَةِ»	(القمر27)

امتداد الباب السابق (89-96)

هذا الضاربُ	زيداً = الذي ضرب زيدا
هذا الضاربُ	الرجُلَ
هذان الضاربانِ	زيدا
هؤلاء الضاربون	زيدا
والمقيمين	الصلاةَ
والمؤتون	الزكاةَ (النساء 164) «لا يكون فيه غير ذلك لأن النون ثابتة»

« وقد قال قومٌ تُرضي عربيتهم :

	«هذا الضاربُ	الرَّجُلِ» ...
وقال المرار الأسدي:	**«أنا ابنُ التاركِ**	البَكْرِيِّ بِشْرٍ عليه الطيرُ ترقُبُه وُقوعا»
	هما الضاربا	**زيدٍ**
	والضاربو	عمرٍو
	« الفارجي	بابِ الأميرِ المُبهَمِ» (شعر)

باب إعمال المصدر (97-98)

عجبتُ من ضَرْب زيدٌ	عمرًا
«بضَرب بالسيوفِ	رُؤُوسَ قوم ... المَقيل» (شعر)
«إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَة	يتيمًا ذا مقرُبةٍ « (البلد 14-15)
عجبتُ من ضربْهِ	زَيْدًا (مفعول) أو زيدٌ (فاعل)
« من كسوةِ زيدٍ	أباه أو أبوه
«ومنه قولهم : «سَمْعُ أذني	زيدًا يقول ذاك»
«ورأيُ عَيْنَيَّ	الفتَى أخاك ... فعليك ذاك» (رؤبة)

إلى غير ذلك.

الخاتمة : يواصل سيبويه هكذا وصفه الدقيق لأبنية العربية معتمدًا في ذلك على ما سمعه من كلام العرب وأشعارهم ومما في الكتاب العزيز ومستشهدا بالمستويات الثلاث في الغالب (إلا إذا اطّرد القياس والاستعمال معا فيمثل ذلك بأمثلة). ويتضح بما يقدمه من أوصاف وتعليلات **اطراد التوافق بين لغة القرآن ولغة الشعر ولغة التخاطب** من حيث النظام النحوي التركيبي ويلتزم مع ذلك بذكر ما تختص به لغة الشعر ولا يوجد مثله في القرآن ولا في الكلام المنثور وهذا يمسّ غالبا جواز بعض الظواهر كفك المدغم في الشعر دون غيره من مستويات التعبير ولا يخرجه ذلك عن أن تكون لغته هي لغة القرآن ولغة التخاطب من حيث النظام الصرفي النحوي.

IV – ماهية التنوّعات الصوتية في اختلاف الأداء ومدى اتساع ذلك

سبق أن رأينا أن التنوّعات اللغوية في داخل رقعة الفصاحة كانت في أغلبها صوتية وحتى الصرفية منها كانت كذلك لأن اختلاف الأوزان مع اتفاق المعنى لا يمكن أن يعود سببه إلا إلى الاختلاف الصوتي. وأما ما يخص التنوّع المعجمي فقد رأينا منذ قليل الكميّة الهائلة من المفردات التي تنتمي إلى لغة عامة العرب والعدد القليل جدا من المفردات اللهجية (الخاصة بقبيلة أو بإقليم). وأما التراكيب في مستوى الكلم وفي مستوى الكلام–الجملة المفيدة– فليس فيه تنوّع يخالف الاستعمال العام إلا إعمال أهل الحجاز لما النافية وهو جدُّ محدود إذ لا تعمل «ما» عند تقديم خبرها أو في حالة الاستثناء. ثم يقول العلماء، مثل الأصمعي، أنها لغة صارت قليلة بالنسبة لغيرها (لم يجد لها إلا شاهدًا شعريا واحدًا وكذلك هي في النص القرآني). أما الاختلاف في الإعراب كالنصب بلم والجزم بلن فإن وُجد حقًا فإنه كان قليلا جدا في الاستعمال وكذلك إبقاء الألف في حالة الجرّ عند بني الحارث بن كعب مثل: «علاكم» «عوض عليكم». فالشواهد على هذه اللغة قليلة جدا: فحتى لو كانت هذه القبيلة القحطانية وغيرها ممن نطقوا بذلك[26] كثيرة العدد فإن عددها لم يبلغ ما بلغته القبائل الأخرى.

---

(26) – وقد عزاها السيوطي إلى تسعة قبائل (االهمع 40/1) مع أن سيبويه (و معاصريه) لم يسمع من ذلك إلا ما نقله عن شيخه الخليـل (104/2).

كما هو معروف يقسّم اللغويون القدامى الخارطة اللغوية العربية إلى مجموعتين من القبائل كبيرتين جدا: قبائل نجد وقبائل الحجاز وتعوّدوا أن يُطلقوا على الأولى اسم «بني تميم» بالتغليب وعلى الثانية «أهل الحجاز» أو أهل العالية أحيانا[27] إلا إذا قابلوا بين تميم وأسد أوقيس. ويستعمل اللغويون في موضع تميم أهل نجد كثيرا ويضيف بعضهم إلى تميم عبارة: «ومن يليهم» ليوضّح غرضه أنه يقصد أهل نجد. ومما يستدل على صحة هذا التأويل اطراد ما جاء من ذلك عن سيبويه ومعاصريه ومن جاء بعدهم. ثم إن إجماعهم على هذا التقسيم لدليل على قلة التمايز اللهجي في داخل كل واحدة من المجموعتين ووجود خصائص لهجية يشترك فيها العدد الكبير من البطون والقبائل إما شرقا وإما غربا وقد تشترك بعض الجماعات من المجموعتين في خصائص معينة كما سنراه فيما يلي. ولا يمكن أن ينكر هذا التداخل في الاستعمال بين مختلف التنوعات وقد روى كل هذا. ولا يعقل أن يجتمع العلماء الأولون الذين شافهوا فصحاء العرب في كل مكان على الخطأ والكذب في كل ما رووه.فالذي ينبغي التنبُّه إليه هو أن ما يُنسب من اللغات إلى بني تميم بدون تحديد فهو مشترك بين كل القبائل التي تدخل في اصطلاح النحويين في هذه التسمية من أسد وطئ وغيرهما وهو بديهي بالنسبة إلى التسمية الأخرى من أهل الحجاز. وعلى هذا فمجموع الخاصيات التي تُنسب إلى إحدى المجموعتين هي ما اشتركت في استعماله مجموعة كبيرة جدا من العرب وسنرى أن الواقع اللغوي العربي لم يكن بالبساطة التي تصوّرها معاصرونا. فاستيعاب أوصاف اللغويين الأولين لهذه التنوّعات حقيقة تاريخية إذ لا يزيد على ذلك ما جاء في القراءات والأشعار وما روى من المنثور.

ونكرّر هنا ونؤكّد ما قلناه سابقا من أنّ العلماء الأولين أَوْلوا هذه التنوعات اللغوية في جميع المستويات: الصوتية الصرفية والتركيبية والدلالية المعجمية عناية كبيرة جدا ولم يتهاونوا في ذلك ولم يحتقروا أبدًا ما كان يجري من ذلك على ألسنة الفصحاء. إنما الذي

---

(27) — يكثر ابن السكيت من استعمال عبارة «أهل العالية» في مقابل بني تميم (أنظر إصلاح المنطق 30 و90 و91 و139(في مقابل أهل نجد) و207 (كذلك). واستعمل سيبويه أيضا هذه المقابلة بهذا الشكل: «وسألنا العُلويين والتميميين» (47/2).

وصفوه «بالقبيح الذي لا يجوز»(28) هو ما كان هؤلاء الفصحاء في أغلبيتهم الساحقة ينبذونه ويستقبحونه لعدم انتمائه إلى لسانهم على الإطلاق. وما ظهر منه على لسان من يُعتقد أنه فصيح كان سببا كافيا لنفي صفة الفصاحة عنه (بالمعنى الاصطلاحي الذي حددناه). وقُلنا بأن أكبر دليل على هذا الاهتمام الكبير بالتنوّع اللهجي وغير اللهجي هو تصفّحهم الكامل لما جاء من ذلك في القراءات وفي الشعر زيادة على ما سمعوه في لغة التخاطب. وقد يصعب أن ينكر منكر أن ما ورد في القراءات وفي الأشعار ومن منثور كلامهم من ذلك هو كل ما جاء ولو كانت فيه أضرب من التنوعات غير هذه التي ذكرها اللغويون لعثر عليها المحدثون في هذه القراءات(29) وهذه الأشعار(30) ومن يستطيع أن ينكر، بعبارة أخرى، أن ما وصل إلينا من ذلك يمثل الواقع اللغوي وكل الواقع اللغوي الذي شاهده عيانا اللغويون الأوّلون وقد سُجِّل ذلك ودوّنته الأجيال من العلماء؟

وسنتناول فيما يلي، كخاتمة لما سبق في هذا الباب، التنوعات الصوتية في أهم صورها لنبيّن أنّ ما يُسمّى باللهجات العربية الفصيحة، بشيء كبير من التسامح، هو هذه التنوعات بالذات بل وجزء منها فقط كما سنراه.

1) النظام الصوتي العربي و تنوّعاته الفصيحة

يسمّي سيبويه الحروف التي كان ينطق بها أكثر العرب«أصولا» ويسمي بالتالي «فروعا» الحروف التي لا تكثر هذه الكثرة في الاستعمال أو القليلة الوجود. ووصف الأصول والفروع باستفاضة وبدقة مدهشة. قال في كتابه: «فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا... وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هن فروع وأصلها التسعة والعشرون **وهي كثيرة يؤخذ بها وتُستحسن في قراءة القرآن والأشعار** وهي النون الخفيفة والهمزة التي بين بين والألف التي تمال إمالة شديدة والشين التي كالجيم والصاد التي تكون كالزاي وألف

(28) -- أما القبيح الجائز فهو الشاذ عن القياس وعن الاستعمال معًا.
(29) -- لا توجد كل لغة بالضرورة في القراءات المجتمع عليها ويمكن أن توجد في غيرها مما روى بالفعل.
(30) -- ما من لغة (ظاهرة لهجية) إلا ولها شاهد من الشعر فلا بد إذن أن تكون هذه الأشعار التي وصلت إلينا قد استوعبت كل اللغات.

التفخيم يعني بلغة أهل الحجاز... وتكون اثنين وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة **ولا كثيرة في لغة من ترتضي عربيته ولا تستحسن في قراءة قرآن ولا في الشعر** وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف والجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين والضاد الضعيفة والصاد التي كالسين والطاء التي كالتاء والظاء التي كالثاء والباء التي كالفاء وهذه الحروف التي تممتها اثنين وأربعين جيّدُها ورديئها التي أصلها التسعة والعشرون لا تتبين إلا بالمشافهة...»(404/2).

إن الذي يريده سيبويه من وصفه لهذه الستة الأحرف بأنها مستحسنة أنها موجودة في لغة بعض الفصحاء من العرب وهم مع ذلك كثيرون ولا يبلغ عددهم عدد من ينطق منهم بالحروف الأصلية المعادلة لها وأنها قرئ بها القرآن ووردت في الأشعار **فهي جيدة بهذا الاعتبار ليس إلا.**

أما التسعة المستقبحة فأهم سبب في استقباحها هو ندرتها في لغة الفصحاء. ولم يقرأ بها أحد من القراء المشهورين (إلا في بعض الشواذ) ولم تأت في الأشعار إلا على ألسنة غير الفصحاء غالبا. ولهذا قال ابن يعيش: «فهذه حروف مسترذلة[31] غير مأخوذ بها في القرآن العزيز **ولا في كلام فصيح**... وكان الذين تكلموا بهذه الحروف المسترذلة قوم من العرب خالطوا العجم فتكلموا بلغاتهم» (شرح المفصل127/10-128).

يقول سيبويه فيما يخص الحروف غير المستحسنة أنها كذلك» في لغة من ترتضي عربيته» أي أنها غير مرغوب فيها **في تخاطبهم اليومي** إذ ليس كل من ترتضي عربيته هو شاعر أو خطيب ثم إنه يضيف إلى ذلك أنها غير مستحسنة **أيضا** «في قراءة القرآن ولافي الأشعار». فلغة التخاطب عند الفصحاء لا يوجد فيها مثل هذه الحروف ومع ذلك توجد حروف أخرى لا ينطق بها إلا بعضهم وهم كثيرون وتوجد في الأشعار وفي قراءة القرآن. **وعلى هذا فأين هي اللغة المشتركة الأدبية؟** ومثل هذا العالم العبقري الذي ألف «قرآن

---

(31) ـ استرذالها راجع إلى الفصحاء أنفسهم.

النحو» واستطاع أن يلاحظ كل دقيقة في لسان العرب كيف يمكن أن يغفل-هو وجميع العلماء في عصره- عن وجود لهجات هي لغة التخاطب لكل العرب، في زعم بعض المحدثين، في مقابل لغة مشتركة أدبية ينحصر استعمالها في الأشعار وقراءة القرآن فقط؟ هذا لو كان حاصلا بالفعل للاحظه أبسط الناس لوضوحه.

وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه التنوعات اللغوية الفصيحة[32] هي في الواقع جزئية إذ **لم تشكّل أيّةُ واحدة منها مع غيرها من التنوعات نظاما صوتياً كاملا خاصا بقبيلة معينة.** فالذي نجده في عصر الفصاحة العفوية **هو نظام صوتي مشترك بين جميع العرب** غير خاص بالشعر تتخلله تنوّعات صوتية بعضها إقليمي يخصّ إحدى المجموعتين الكبيرتين من القبائل (نجد والحجاز) وبعضها لا يخص أي إقليم فيكون منتشرًا في جماعات هنا وهناك في الجزيرة. وكل هذه الوجوه من الأداء توجد في لغة التخاطب ولغة الشعر على السواء وأكثرها قرئ بها القرآن. ومن هذه الخاصيات الصوتية مما كان يكثر في نجد نجده أيضا في الحجاز وتختلف فيها الجماعات في أكثر من إقليم وذلك كالألف الممالة كما سنراه[33].

فقد لاحظوا أن من أهل الحجاز من كان يحقق الهمزة أيضا(169/2 و170) وهذا بخلاف **ألف التفخيم** فإن سيبويه ينسبها إلى أهل الحجاز فهو إذن أداء إقليمي خاص بأهل الحجاز (وهو أن يُنحى بالفتحة نحو مخرج الواو في مستوى اللسان).

ومثل ألف التفخيم **همزة بين بين** فهي أيضا خاصة بأهل الحجاز وهي عبارة عن تليين صفة الشدة (انفتاح الوترين يكون ألين فلا يكون فيه «انفجار» قوى كما هو الشأن في الحروف الشديدة). قال سيبويه: «تضعف الصوت ولا تتمه وتخفي لأنك تُقرِّبُها من هذه الألف

(32) - يُسمّيها القرّاء بـ: «أوجه الأداء» (Variants)

(33) - الألف حرف في تصوّر اللغويين العرب وهي وجهة نظر معقولة جدا لأنهم يسمون حرفًا كل قطعة صوتية يمكن أن تقوم مقام حرف من حروف الكلمة أي أن يمكن استبدالها من حرف آخر في تصريف الكلم فالألف تستبدل من الهمزة في مثل: قائمة وقوائم: الواو كحرف صامت بديل في صيغة الجمع من الألف (هذا بالإضافة إلى أن حرف المدّ هو امتداد لصوت الحركة مع تناقص الطاقة الدافعة انظر دراستنا المخبرية حول الحركة والسكون وحرف المدّ في مجلة اللسانيات 1 سنة 1972).هذا ويُميل العرب أيضا الفتحة غير الممدودة كما أن هناك وجوه أداء أخرى خاصة بالمصوتات وهي الكسرة المشربة ضما في خيف (khüfa) (360/2) والضمة التي فيها روم الكسرة في مذعور (mḍʻœr) (270/2).

وذلك قولك «سال» في لغة أهل الحجاز إذا لم تحقق كما يحقق بنو تميم «(164/2)» أما الهمزة المبتدأة «فهي محقّقة **في كل لغة**»(165/2).

وأما **الشين التي كالجيم** في «أشدق» فهي تنوّع يحصل بتأثير الحرف المجاور الأقوى فالدال حرف مجهور يجذب الشين فتُشرَب جهر الدال وهي متحركة و الشين ساكنة. ولم ينصّ أي واحد من العلماء الأولين أنها خاصة بإقليم معيّن.وكذلك هوحال الصاد التي تكون كالزاي في «يصدر»: جهر الدال ينتقل إلى الصاد فينطق بها كأنها زاي مفخمة وهي غير خاصة بإقليم.

أما النون الخفية فيقول عنها سيبويه: «ومن الخياشيم مخرج النون الخفية» (405/2) «وتدغم النون في الواو بغنة وبغير غنةّ» (404). وكذلك هو الأمر بالنسبة للياء. وقال أيضا: «وتكون النون مع سائر حروف الفم حرفا خفيًا مخرجه من الخياشيم»(415) «وهي مع الراء واللام والياء والواو إذا أُدغمت بغنة فليس مخرجها من الخياشيم ولكن صوت الفم أُشرب غنة» (415). ومثال ذلك: مَن يقول [34] = mā yyaqūl (النون قلبت ياء وأدغمت في الياء وأُشربت هذه غنة النون). وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى كلمة مُنغُل ومُنخُل: «يخفي النون كما يخفيها مع حروف اللسان والفم...» (413/2).

ويمكن أن نقول في الخلاصة أن النظام الصوتي الفصيح كان ينحصر في عصر سيبويه في:

-- حروف سماها سيبويه بالأصلية وكان **جميع العرب الفصحاء ينطقون بها** سواء كان في لغة التخاطب أم لغة الشعر وقرئ بها القرآن إلا ستّة أوجه من الأداء (تنوعات صوتية= Phonetic Variants) هي كالتالي :

---

(34) -- عدم وجود علامة السكون وعلامة التشديد في الخط دليل على وجود غنة. أنظر الداني، المحكم، ص74.

. وجهان من الأداء إقلميان اختصّ بهما أهل الحجاز في البدو والحضر[35] وهما : همزة بين بين وألف التفخيم.

. أربعة أوجه من الأداء غير إقليمية (لم يختص أي إقليم بها) فهي حاصلة بتأثير الجوار فقط (conditionned) وكانت توجد هنا وهناك في شبه الجزيرة وهي: النون الخفية (النطق بها مقيّد بوجود بعض الحروف بعدها).

. الشين التي كالجيم وهي شين أشربت جهر الدال التي بعدها (في الكتابة الصوتية الدولية: ʒ̆)

. الصاد التي كالزاي: وهي صاد أُشربت جهرًا كما في الأداء السابق (زاي مُفخمة أو صاد مجهورة).

. الألف الممالة والألف كحرف مدّ يعادلها في الصوتيات الغربية الجزء الأخير من المصوّت الطويل ā . وينطق بها هنا بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة (في الكتابة الصوتية: e) ويحصل ذلك بتأثير الكسرة أو الياء في الفتحة الطويلة أو القصيرة وقد لاحظ العلماء **الأولون** أن الإمالة غير مطردة ولا ينفرد بها إقليم معيّن كما سنراه (خلافا لما قاله المتأخرون).

---

(35) – مثل كسرة العين في عماد. التنوعات الصوتية،كما قلنا، قد تكون إقليمية لهجية أو تنوعا منتشرًا بين أكثر من إقليم ومن جهة أخرى تكون قسرية (مُسبّبة بتفاعل الأصوات في الدرج) وغير قسرية (غير مسبّبة) .

النظام الصوتي العربي (في زمان سيبويه)

بحسب ما جاء عند الخليل وسيبويه من الأوصاف والتصنيف للحروف العربية

(بين قوسين: التنوعات الستة المستحسنة)

المخارج / +الصفات (بحسب اتساع المخرج)		شفوي	لثوي	نطعي		شجري	من مؤخر الحنك	لهوي	حلقي		
				ذولقي أو أسلي	صفيري				أدنى الحلق	أوسطه	اقصاه
أصوات الحركات (المصوتات) (1)		ـُ				ـِ					ـَ (1)
البينية (2)	– مداتها	ـُو				ـِي					ـَا (+ ألف التفخيم والممالة)
	– اللين	و				ي					
	– المنحرف			ل							
	– المكرر			ر							
	– الأغن	م		ن (+الخفية)							
	– الناصع									ع	
الرخوة مع تفخيم	مجهور		ظ			ض					
	مهموس				ص (+التي كالزاي)						
من غير تفخيم	مجهور		ذ		ز				غ(4)		
	مهموس	ف	ث		س	ش (+التي كالجيم)			خ	ح	ه
الشديد مع تفخيم	مجهور			ط (3)				ق(3)			
	مهموس										
من غير تفخيم	مجهور	ب		د		ج					
	مهموس			ت			كـ				ء (+بين بين)

(1) – كلها صوت حنجري (من أقصى الحلق) بانفتاح تام في الفتحة وهيئة خاصة للتجاويف والشفتين في الضمة والكسرة.
(2) – هي الحروف التي بين الشديدة والرخوة.
(3) – كانت الطاء مجهورة (دال مفخمة) وصارت مهموسة (تاء مفخمة) وكذلك القاف (الآن بتفخيم +همس).
(4) – الغين والخاء تفخمان مع الفتحة.

2) التنوّعات الصوتية في ظاهرة الإبدال وغيرها من الظواهر الصوتية

إن النظام الصوتي الفصيح واحد إلا في شيء طفيف كما رأينا وهذا لم يمنع من أن يختلف الاستعمال من الجانب الصوتي بين إقليم وآخر وبين الجماعات في الإقليم الواحد. وهذا الاختلاف يحصل بحصول الحوادث الصوتية التي يحدثها الاستعمال مثل إبدال الحروف بعضها من بعض وتعاقب الحركات في اللفظ الواحد وحذف الحروف والمدّ والقصر والإدغام والقلب المكاني وغيرها من التغيرات الصوتية وقد يكون بعض هذه الحوادث جزئيا كما قلنا لا ينتظم على نظام معين وقد يطرد بعضها. وسننظر في ذلك فيما يلي.

ظاهرة الإبدال :

المقصود من الإبدال هنا تعاقب الحروف أو الحركات في اللفظ الواحد مع بقاء المعنى وذلك يحصل بسبب تنوّع الاستعمال بين جماعة وأخرى وهو في هذه الحال أي إذا اختص به إقليم معيَّن إبدال لهجي وقد يكون غير لهجي أيضا إذا كان التنوُّع منتشرًا في جماعات تنتمي إلى أكثر الأقاليم. ولابدّ أن نلاحظ أن التغيرات هنا لا تمس الحروف والحركات في صفاتها الذاتية أي في مخارجها وصفاتها فهذه الحروف والحركات التي تُبدل بعضها من بعض،كل واحد منها هو وحدة قائمة بنفسها من النظام الصوتي وليس تنوّعاً للصوت الواحد.إنما التنوع هنا هو التعاقب الصوتي في اللفظ الواحد.

ثم إن هناك نوعين من الإبدال : **اللغوي المعجمي والإبدال الحاصل بتفاعل الأصوات**(36) وبسبب الميل إلى التخفيف. أما الأول فهو تعاقب حرفين في موضع واحد مع بقاء المعنى لتجانسهما مثل النون واللام في هَتَنت السماء وهَتَلَتْ أو الباء والميم في أَرْمَد وأَرْبَد أو بدون تجانس مثل الفاء والكاف في حَسيفة وحَسيكة أو الخاء والجيم في خلع وجلع وغير ذلك. وفيه اللهجي وغير اللهجي والكثير منه غير خاص بجهة معيَّنة خصوصا إذا لم يعزه أي لغوي. وعدم العزو لا يكون في الغالب تهاونا من اللغويين الأولين كما هو الحال بالنسبة إلى ماجاء

---

(36) — وهذا تقسيم تقتضيه الفوارق التي تتميّز بها الظواهر اللغوية الخاضعة لقوانين صوتية كالمماثلة وغيرها عن التي لا تكون كذلك.

في كتاب الإبدال لابن السكيت.فقد عزا الشيء القليل من هذا الإبدال إلى أصحابه.قال: «ولغة بني أسد اطبأننت[عوض اطمأننت]» (13) و«الدِّمدم... في لغة بني أسد وهو بلغة تميم الدِّنْدِن»(22) و «ولعنَّك قائم وأشهد عنَّك رسولُ الله وهي لغة في تميم وقيس كثيرة»(24) [37] وقال أبو عمرو بن العلاء لرجلٍ من بني حنظلة: «ممن أنت فقال: فُقَيْمج...يريد فُقَيمِي» (88) و«هي الأثافي والأثـاثي لغة لبعض بني تميم»(31). و«قريش تقول كُشطَت وقيس وتميم وأسد قُشطت» (37) قال: «وطيء يُسمّون اللصوص اللصوت»(42) و«يقال قَطْنِي من هذا أي حَسْبِي وأهل نجد يقولون قَدْني»(47). و«أهل العالية يقولون زحلوفة... وبنو تميم ومن يليهم من هوازن زحلوقة» (64). فهذه الألفاظ المعزوة صراحة قليلة جدا بالنسبة لعدد الألفاظ المتعاقبة بهذا الإبدال التي ذكرها ابن السكيت وهي تبلغ ثلاثة آلاف وثلاثين لفظا. فإذا بحثنا عما قاله اللغويون الآخرون ممن عاصره أو جاء بعده بقليل في هذه الألفاظ بالذات فما رأينا أحدًا منهم خالف ابن السكيت فعزا هذه الألفاظ أو بعضها إلى قبيلة معينة أو أكثر من قبيلة إلا ما عزاه هو نفسه إلا النـزْر القليل[38]. وهذا الإجماع من العلماء الأولين هو أوضح دليل على عدم انتماء هذه التنوعات إلى قبيلة أو إقليم إلا ما ذكروه من ذلك.

فكل التنوّعات الصوتية التي أساسها هذا التعاقب بين جميع الحروف الصوامت العربيـة وعلى الرغم من كثرتها وتوزّعها الشامل على الصوامت فإنها لا تكوّن في مجموعها وفي أي جزء منها نظاما منسجما. وقلة ما نسب منها إلى القبائل أو جهات معينة لا يمكن أن يُؤَسَّـس عليه نظام لهجي متكامل الأطراف. وهذه الحال ليست ناتجة عن تهاون اللغويين فـي عَـزْو الألفاظ فإن كان سكت أحدهم عن عزو لغة من اللغات إلى أصحابها فلا بد أن يكـون لغـوي آخر من بين العشرات من العلماء قد قام بذلك بشرط أن تكون هذه اللغة لهجية خاصة بـإقليم أو تكثر فيه ولا تكون لغة انتشرت هنا وهناك، سمعت من ناس من تميم وناس آخـرين مـن أهل الحجاز بل ومن مختلف أقاليم الجزيرة **فهذا قد يسمى عندهم لغة ولا يتصف بأنه لهجي.** ونعتقد أن أكثر الألفاظ التي أجمع العلماء على عدم عزوها هي من هذا النوع.

---

(37) وهي العنعنة. لم يذكرها سيبويه وذكرها تلميذه الأخفش في معاني القرآن قال: «لأن من لغته في «أنْ» :عَنْ» (194).

(38) انظر كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي وأول من ألف في الإبدال هو الأصمعي (الفهرست، 88).

ثم إن هذا الذي ذكرناه يخص صوامت العربية أما التعاقب بين الحركات-مع وحدة المعنى- (كفُعِلة وفُعْلان ومفْعُلة بتعاقب الحركات على الفاء والعين وغير ذلك) فقد أحصى ذلك ابن السكيت أيضا في كتابه «إصلاح المنطق». ويأتي في جزء منه كتكملة لكتابه«القلب والإبدال».وقد سبقه إلى ذلك بعض اللغويين فيما كتبوه من«النوادر» وغيرها مثل يونس واليزيدي ممَّا وصل إلينا من ذلك(وفيما نقله إلينا مثل السيوطي وغيره). ونقل أيضا ابن السكيت من أقوال يونس والكسائي والأصمعي وأبي زيد و الفراء وأبي عمرو الشيباني وأبى عبيدة وابن الأعرابي واللحياني وغيرهم في ذلك الشيء الكثير. وسنكتفي بذكر عينة مما يكون له دلالة بالنسبة إلى موضوعنا هذا.

يقول ابن السكيت: «الفراء: «يقال فيه غِلْظة وغُلظة ويقال رِفْقة ورُفْقة لغة قيس وتميم... وهي الشِقّة والشُقة للسفر البعيد... ومُرْية ومِرْية ... وقال أبو عبيدة: يقال مُرْية ومِرْية من الشك ومرْية الناقة مكسورة... ومِرْية الفرس... **مكسور لا غير**... الكسائي: يقال كِسوة وكُسوَة و إسوة وأُسوة ورِشوة ورُشوة...»(115). أبو عبيدة: رِشوة ورِشًا ورُشًا وقوم يكسرون أولها...فإذا جمعوها ضموا أولها...فيجعلونها لغتين. وقوم يضمون أولها فإذا جمعوا كسروا أولها»(116). « قال الفراء: وسمعت من بعض كلب وِجْنة ووَجنة لبعض العرب بكسر الجيم وفتح الواو...أبو عبيدة وابن الأعرابي: يقال أوطأته عَشوة و وعِشْوة وعُشوة وغِلظة وغَلظة وغُلظة ...»(117). «أبوعبيدة عن يونس: **تقول العرب**: عليه طُلاوة وطَلاوة للحُسْن والقَبول»(112) «وقرأت القراء: «مالها من فَواق» وفُواق وأما الفُواق الذي يأخذ الرجل **فمضموم لا غير**»(107) «أبو زيد قال: تميم تقول المِغزَل والمِصْحَف والمِطْرَف وقيس تقول المُغْزَل و المُصْحَف والمُطْرَف»(120) قال أبو عبيدَة: تميم من أهل نجد يقولون: نِهْي للغدير وغيرهم يقولون نَهْي»(30) وقال يونس: وأهل العالية يقولون: الوَتْر في العدد والوِتْر في الذَّحْل وتميم تقول: الوتر في العدد والذحْل سواء»(30) «ويقـال: الصِرْع لغة قيس والصَرْع لغة تميم وكلاهما مصدر صرعت»(31) يقال...الرُّشْد والرَّشَد... والبُخْل والبَخَل والشُغْل والشَّغَل والشُكْل والشَّكَل...»(86) «وهو الرَّفْغ والرُّفْغ... الفتح لتميم والضم

لأهل العالية»(90). «قال يونس: وأهل العالية يقولون: السُم والشُهْد وتميم تقول السَّم والشَّهد»(91) «أبوعبيدة: يقال ضَعْف وضُعْف...»(91) «أبو عبيدة عن يونس: يقول ناس من العرب: رأيته في عرْض الناس يعنون في عُرْض الناس»(93) «قال أبو زيد: بنوتميم يقولون قِمْع وضِلْع وأهل الحجاز قِمَع وضِلَع» (98-99).

يمكن أن نلاحظ في هذه النصوص لابن السكيت ومِنْ تصفحنا لما جاء في الكتاب ما يلي:

1- لا يعزو ابن السكيت من التنوعات في التعاقب بين الحركات في الكلمة الواحدة-كما مرّ بنا في التعاقب بين الصوامت- إلاّ الشيء القليل. وقد عزا بعض هذه الكلمات الفراء ويونس واليزيدي وغيرهم وسيواصل ذلك اللغويون الذين جمعوا ما وجدوه عند من تقدمهم ولكنه كان قليلا بالنسبة لما ذكروه من ذلك.

2- ومن أهمّ ما لاحظناه هو أن أكثر القبائل والبطون التي انْفَردت بلغة معينة (أي ما لم يشاركها فيها غيرها) **قد لا يزيد انفرادها**، على هذه «اللغة»، إلاّ القليل[39] وذلك لأن أكثر الخاصيات التي ذكروها تشترك فيها القبائل والبطون العديدة وأحيانا من أقاليم مختلفة كما رأينا. ونكرّر ما سبق أن قلناه من أن إجماع العلماء على عدم العزو إلى قبيلة للكثير من الخاصيات قد يكون من أسبابه الهامة هذا التشتّت في استعمال هذه التنوعات.

3- والذي لا شك فيه هو قلة هذه التنوّعات في التعاقب الصوتي وضئالتها بالنسبة لكثرة ما جاء مُوحّدًا بدون أي تنوّع كما رأينا ذلك في مستوى المفردات والتراكيب النحوية.

4- وما يؤكّد ذلك هو أن هذا التعاقب بين الحركات في اللفظ ذي المعنى الواحد -وهو معجمي أي غير ناتج عن تفاعل الأصوات- **لا يخضع لأي نزعة** منتظمة كأن تكون بنو تميم أو أهل الحجاز تميل إلى الضم أو الفتح أو الكسر في أحوال معينة مطردة.

---

(39) -- وذلك مثل فتح هذيل للواو في جمع جوزة وإعراب كنانة ل «كلي الرجلين» وغير ذلك وما ينسب لكل من هذيل وكنانة وغيرهما فقليل أيضا. أما إذا قابلوا بين أهل نجد وأهل الحجاز فالاشتراك بينهما في اللغات واسع جدّا (إلا المحتوى وهي التنوعات).

5- ثم إن الألفاظ التي تتحد في ضم أحد حروفها أو الفتح أو الكسر أو غير ذلك مما عزاه العلماء الأولون والمتأخرون **قليلة جدا** بالنسبة إلى غيرها ولا يمكن أن نتّهم العلماء في جملتهم بعدم الاعتناء بعزو مالم يُعز إلى أصحابه لأن كل ما لم يعزه عالم كما قلنا من العناصر اللهجية الحقيقية فقد كان يمكن أن يعزُوه غيره وخاصة الذين جمعوا كل ما تركه اللّغويون الأولون من مؤلفي المعاجم وغيرها(40).

6- ونلاحظ أيضا أن التنوّع زيادة **على قلة ألفاظه اللّهجية** الحقيقية، **واسع جدا في الكيف دون الكم** فإن ما ذكره ابن السكيّت في كتابيه يكاد يغطّي كل الأبنية الممكنة ومع ذلك فعدد الألفاظ التي يسمّيها اللغويون «لغات» التابعة لكل بناء قليلة هي أيضا إذا قارناها بالألفاظ الأخرى غير «اللغات» ومثال ذلك التعاقب بين فُعْلة وفِعْلة فيما أحصاه ابن السكيت:

- فإن عدد **اللغات**(41) **المتعاقبة على هذين الوزنين في إصلاح المنطق مع اتفاق المعنى هو: 68 كلمة** (ص115).

ومجموع الكلمات التي جاءت بهذين الوزنين في **ديوان الأدب** للفارابي هو: 637 كلمة (من الصحيح وغيره). فنسبة اللغات على هاذين الوزنين هي 9.38% فقط من المجموع.

هذا وإذا أخذنا عينة من «لسان العرب» تتمثل في كل الكلمات التي فاؤها حرف العين وتكون من وزن فُعلة أو فِعلة فإن عددها هو 65 كلمة وعدد اللغات فيها أي المتعاقبة بين فُعلة وفِعلة (مع اتفاق المعنى) هي ستّة فقط(42). عُدْوة وعِدْوة وعُشوة وعِشوة (ولغة ثالثة فيها هي عَشوة) وعُرْية وعِرية.

فكل هذا وما سبق أن ذكرناه يؤكد أن ما يسمّيه المحدثون «باللّهجات العربية» (القديمة) هي مجرَّد تنوعات إقليمية وغير إقليمية للغة العربية الفصيحة ولها مجال واسع في الكيف

---

(40) - ولا بد من التحفظ الشديد مما عزاه المتأخرون دون أن يذكروا مصدر عزوهم فقد تبين لنا عدم صحة الكثير من ذلك بانفراد بعضهم وسكوتهم عن مصدر روايتهم.
(41) - اللهجيّة الحقيقية (التي لا توجد إلا في بطن أو قبيلة أو جهة معينة) وغير اللهجيّة، المنتشرة في أكثر الأقاليم.
(42) - وغيرها المبدوءة بحرف العين جاءت مختلفة المعنى.

دون الكم. ولا يمكن أن تكوّن لضئالة حجمها بالإضافة إلى غيرها من العناصر، مجموعة من اللهجات الحقيقية بالمفهوم المتعارف عليه اليوم في العلوم اللسانية.

ودليل آخر هو ما توصّل إليه الدكتور ضاحي عبد الباقي في كتابه: لغة تميم[43] من نتائج فيما يخص هذا التعاقب الخاص بالحركات قال: «...منه يتبين:

أولا: أن تميما آثرت الضم على الكسر في 22 كلمة مفردة: منها واحدة لم يشع ضمها بين التميميين جميعا وإنما نسبت إلى عمارة منهم وهم بنو عمرو بن تميم وهذه الكلمة هي «آسم». ووجدنا كذلك:

(أ) سبع كلمات وردت عندهم على فُعلة وعند غيرهم على فِعلة.

(ب) ثلاث كلمات نطقوها على فُعلان وغيرهم على فِعلان.

(ج) ثلاث كلمات ضُمت عندهم فاء فُعول المعتلة اللام وكسرت عند غيرهم

ثانيا: اتّجهت إلى الكسر:

(أ) في حالتين قياسيتين هما:

1-فاء الجمع المعتل العين بالياء والذي ورد على وزن فُعُل في اللغة المشتركة

2-هاء الغائب المثنى والجمع المسبوق بياء أو كسرة

(ب) وفي 6 كلمات مفردة... » (ص 201-202)

وقال (ص 203): «إن ما انتهينا إليه **من عدم اتجاه التميميين إلى أيّ من الضم أو الكسر** لا يتفق وما ذهب إليه كثير من المحدثين وعلى رأسهم الدكتور ابراهيم أنيس من ميل

---

(43) - وهو جهد طيب جدا (قد لا نوافقه في بعض ما ذهب إليه وهو قليل). وقد توصل إلى مثل هذه النتيجة الدكتور هاشم الطعان في بحثه القيّم: «الأدب الجاهلي». فعلى الرغم من استعماله لمصطلح «اللغة المشتركة الأدبية» فإنه يقول: «وخلاصة المسألة أن الفصحى هي لغة كل العرب مع احتفاظ كل مجموعة منهم بخصائص لهجية لا تخرجهم من الفصاحة» (ص136). وقال أيضا: «هذه اللغة الأدبية الموحدة هي اللغة المشتركة لجميع العرب...ولم تكن لغة الأدب فحسب» (247).

قبائل وسط الجزيرة وشرقها بوجه عام إلى الضم لبداوتها وميل القبائل الحجازية إلى الكسر لتحضرها (!)» .

وقال أيضا فيما يخص التعاقب بين الضم والفتح:

أولا: إن تميما مالت إلى الضم :

1-في حالة واحدة مطردة وهي فاء فَعلى المعتل اللام بالواو ومثل فُتيا

2-خمسة عشر لفظا مفردا منها

(أ) أربعة ألفاظ جاءت على فُعلة عندهم وفَعلة عند غيرهم (عدوة وعشوة وغلظة وغرفة)...

(ب) والأحد عشر لفظا الأخرى...

في سبع...(بُخْل وزُعْم وشُرْب وصَدُقة وفُواق وقُرح ويُنع) (ص 255)

«ثانيا: انها اتجهت إلى الفتح في:

1- حالة واحدة مفردة (جمع الرباعي المسبوق بمدّ مما عينه ولامه من جنس واحد على فُعَل)

2- تسعة عشر لفظا مفردات...».

ويختم الدكتور:

«وفي الحالتين سواءٌ أضفنا هذه المرجّحات أم لم نُضفها فإنه يصعب علينا القول بميل تميم إلى أيّ من الحركتين الضمّة أو الفتحة وإنما كل **ما نستطيع تقريره أنها اتجهت في أوزان معينة إلى حركة بعينها»** (ص 257).

ويتضح من ذلك ومما ذكرناه أن هذا النوع من الاختلاف بين اللغات وهو التعاقب بين الحركات لا يخضع لا بالنسبة إلى بني تميم و أهل نجد ولا إلى أهل الحجاز إلى نظام

معين أو نزعات منتظمة. وقد ينحصر الاختلاف في اللغات في باب واحد منفرد بل وفي كلمات معينة ومعدودة معزولة عن غيرها.

فإن كانت اللغة التي كان العرب يتخاطبون بها في حياتهم العادية هي من جنس اللهجات فأين هي هذه اللهجات[44]؟. وكيف يمكن أن يكون ما يسّميه بعضهم«باللغة المشتركة الأدبية» بهذه الضخامة المدهشة بالإضافة إلى ضئالة «اللهجات» من حيث الحجم وعَدَم انتظام عناصرها ؟

أما النوع الثاني من الإبدال فهو، كما قلنا، الذي يحصل بسبب الميل إلى التخفيف وخاصة بتأثير الأصوات المتجاورة بعضها في بعض. وقد أحْصَى القدماء والمحدثون الخصائص الصوتية المتعلّقة بهذا النوع ولاحظوا أن الاختلاف القائم يخص: تحقيق الهمزة أو عدم التحقيق والإمـــالة والفتح والإدغام والبيـــان والإتباع والكشكشة وكسر حرف المضارعة والتخفيف (تسكين عين الثلاثي) وغير ذلك.

وسننظر في كل واحدة من هذه الظواهر على التوالي.

تحقيق الهمزة: قد قلنا فيما سبق أن الهمزة المخفَّفة هي تنوع للهمزة المحققة. وخلافا لما يقوله بعض المحدثين وبعض اللغويين المتأخرين فإن تحقيق الهمزة لم ينفرد به أهل نجد إذ أكثر القبائل العربية كان بعض أفرادها أو الجماعات فيها تحقق أو تخفف كما سنراه.يقول سيبويه: «أما التخفيف فتصير الهمزة فيه بين بين وتبدل وتحذف...وذلك قولك: سال في لغة أهل الحجاز **إذا لم تحقّق** كما يحقق بنو تميم»(163/2). وقال أيضا: «وقد بلغنا أن قوما من **أهل الحجاز من أهل التحقيق**...» (170). وقال: «واعلم أن الهمزة التي يحقّق أمثالها أهل التحقيق من بني تميم وأهل الحجـــاز وتُجعل في لغة أهل التخفيف بين بين، تُبدل مكـــانها الألف إذا كان ما قبلها مفتوحا والياء... والواو... وليس ذلك بقياس مُتْلئبّ... إنما يُحفظ عن

(44) – فاللهجة في مفهومها العلمي هي لغة إقليمية أو قبلية تختلف عن لغات إقليمية أخرى تقاربها وعن اللغة المشتركة التي لها قرابة بها أيضا- إن كانت ما تزال موجودة في الاستعمال– بخاصيات كثيرة تكوّن نظاما لغويا معّينا. وهي بذلك مثل أي لغة أخرى:لا بد لها من نظام لغوي خاص.

العرب... فمن ذلك مِنْساة... وقالوا: نَبِيّ وبَرِيّة فألزمها أهل التحقيق البدل» (169-170). بهذا نعلم أن همزة بين بين خاصة ببعض أهل الحجاز وأن التحقيق لا ينحصر في بني تميم. ثم إن أهل التحقيق من الجهتين قد يلجأون إلى البدل مثل: خطيئة>خَطِيَّة ومقرؤ>مقْرو وأبو إسحاق> أبُو سحاق وغير ذلك كثير.قال سيبويه: «واعلم أن الهمزة إنما فعل بها هذا من لم يُخفّفها (من يُحقّقها ولا يجعلها بين بين) لأنه بَعُد مخرجُها ولأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد» (167) .

فعلى أساس هذا الوصف الدقيق وإذا استثنينا « بين بين»-وهو نوع واحد من التخفيف- فليس الأمر بالبساطة التي وصف بها المتأخرون استعمال العرب للهمزة. فحصرهم التحقيق في أهل نجد والتخفيف بالإبدال في أهل الحجاز غير دقيق. ووصف سيبويه المستفيض لذلك هو دليل آخر على تشتُّت «اللغات» وتداخلها وقلة انفراد القبيلة كلها بخاصية أو خاصيات هامة تجعلها تتميّز هي وحدها عن غيرها بنظام صوتي لهجي كامل.

وفيما **يخص تخفيف بناء الثلاثي** يقول سيبويه : «هذا باب ما يُسكّن استخفافًا وهو في الأصل متحرِّك وذلك قولهم في فخِذ فَخْذ...وفي عضُد عضْد وفي كرُم كَرْم وفي عِلمَ عَلْمَ وهي لغة بكر بن وائل وأناس كثير من بني تميم...وإذا تتابعت الضمتان فإن هؤلاء يخففون أيضا...وذلك قولك: الرُّسْل...وكذلك الكسرتان...وذلك قولك في إبِل إبْل... وأما إذا توالت الفتحتان فإنهم لا يُسكِّنون»(257-258). ويضيف بعض الكلمات من غير الثلاثي مثل: انطلْق ولم يلْدَه (257).

الإدغام: أكثر ما يقع إدغام الحرفين في المضعَّف .قال سيبويه: «إذا تحرّك الحرف الآخر[في المضعف] فالعرب مُجمعون على الإدغام... فإذا كان حرف في موضع تسكن فيه لام الفعل فإن أهل الحجاز يضاعفون...وذلك قولك: أرْدُدْ... أما بنو تميم فيدغمون المجزوم»(2/158-153) ويضيف: «**وهو قول غيرهم من العرب وهو كثير**...وذلك قولك: رُدَّ وفِرَّ وعَضَّ» (2/159). ويتفق كل العرب في الفعل الذي يكون ضمير الرفع مثل نون

النسوة فيُفكّ مثل رددْتَ و رَدَدْنَ ويرْدُدْنَ وارْدُدْنَ وشذ عن ذلك القليل منهم (وهم بكر بن وائل. تقول: ردّن كما في الكتاب255/2).

وأما إدغام المتقاربين فأكثر ما يقع بين كلمتين (في درج الكلام)[45] ولا يخص قبيلة دون أخرى في الكثير من الأحيان وأكثر الحروف تدغم في مقاربها بعد قلبها إلى مخرج الحرف المدغم فيه إلا إذا كانت لها فضيلة على الحرف المقارب فيؤْمن بذلك اللبس[46]. وهذه أمثلة من هذا الإدغام: مَعَهُم > مَحُّمْ ومَعَ هَؤلاء > محَّاؤلاء **عند بني تميم** وابعثْ شَبَثًا> ابْعَشَّبَثًا وانْقُدْ طالبا > انْقُطَّالبًا ومذْزمان > مُزَّمان وغير ذلك.

الإبدال بتأثير الجوار ومنها الكشكشة: قال سيبويه: «**أما ناس كثير من تميم وناس من أسد** فإنهم يجعلون مكان **الكاف للمؤنّث** الشين.وذلك أنهم أرادوا البيان في الوقف لأنها ساكنة في الوقف فأرادوا أن يفصلوا بين المذّكر والمؤنث...وذلك قولك : إنَّشِ ذاهبة ومَالَشِ ذاهبة تريد «إنك» و«مالك» (295/2). ليس السبب في ذلك فقط إرادة المحافظة على الفصل بين المذكر والمؤنث إلا أنه قد ساعد على **السبب الحقيقي الذي هو جذب كسرة التأنيث لمخرج الكاف نحو مخرجها** والوصول به إلى مخرج الشين في وسط الحنك.أما تأويل المحدثين أن سيبويه حصر ذلك في حالة الوقف فغير صحيح بدليل المثالين اللذين ذكرهما هو نفسه. ثم القول بان شنشنة اليمن (إبدال كل كاف شينا) هي الكشكشة فليس على ذلك أي دليل[47] وقد أشار أيضا سيبويه إلى نوعين آخرين وهما : زيادة الشين أو السين على الكاف .

الإبدال غير الكشكشة: نكتفي منه بهذه الأمثلة التي عزاها سيبويه صراحة إلى بني تميم قال: «وقد أبدلت الطاء من التاء في فعلتُ إذا كانت بعد هذه الحروف (المفخمة) **وهي لغة تميم**. قالوا فحصْطُ برجلك وحصطُ يريدون: فحصتُ وحصتُ» (314/2) وقالوا»: فزدُ

---

(45) – وقد يحصل ذلك في داخل الكلمة الواحدة مثل: عنبر >عمْبر.
(46) – مثل الميم فلا تدغم في الباء لغنتها والعكس ممكن مثل: اصحبْ مطرًا>اصْحمَّطرًا(الكتاب، 412/2).
(47) – قاله إبراهيم أنيس في «اللهجات العربية»(ص124). فسيبويه حصر الكشكشة كما رأينا في كاف التأنيث في الوقف وغيره وشهادته الدقيقة مع شهادة غيره من العلماء كافية.أما إلحاق السين أو الشين الكاف فهذا يزول عند الوصْل(قال سيبويه:»فإذا وصلوا لم يجيئوا بها «(296/2).

يريدون فزتُ كما قالوا فحصطُ» (314) قال أيضا: «والخاء والغين بمنـــزلة القاف... وذلك نحو: صالغ في سالغ وصلخ في **سلخ**»... **كان الأعرب الأكثر الأجود في كلامهم تركُ السين على حالها. وإنما يقولها من العرب بنو العنبر»** (428).

الإتباع: قال سيبويه: «في فَعيل لغتـــان: فَعيل وفِعيل إذا كان الثـــاني من الحروف الستة (الحلقية) مطرد ذلك فيهمـــا لا ينكسر...إذا كان كذلك كسرتَ الفاء في لغة بني تميم وذلك قولك: لِئيم ونِهيد...أما أهل الحجاز فيجرون جميع هذا على القياس[48]... وأما الذين قالوا مِغيرة ومِعين فَلَيس على هذا[49] ولكنهم أتبعوا الكسرة الكسرة كما قالوا: مِنْتِن وأَنَبُؤُك وأَجؤُك يريد: أَجِيئُك وأُنبِئُك» (255).

أما **كسر حرف المضارعة** فيقول سيبويه عنه : «وذلك[أي الكسر] لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز وذلك قوله: أنت تِعْلَم ذاك وأنا إِعْلَم... وإنما كسروا هذه الأوائل لأنهم أرادوا أن تكون أوائلُها كثواني فَعِل...وقالوا: ضربتَ تَضربُ وأَضْرِبُ ففتحوا أول هذا كما فتحوا الراء في ضرَب... وجميع هذا إذا قلتَ فيه يفعَل فأدخلتَ الياء فَتَحْتَ...**وجميع ما ذكرت مفتوح في لغة أهل الحجاز** وهو الأصل»(256).

كما نرى كسر حرف المضارعة يعمّ كل العرب إلا أهل الحجاز وهم عدد عظيم من الناس أيضا. والكسر ناتج عن تأثير ذهني لكسرة فَعِل (إذ لا يكون كسر حرف المضارعة إلا في هذا) وهذا دليل واضح على ارتباط صيغ الماضي بالمضارع في النظام الصرفي للفعل. ولا يحدث ذلك كلما حصل استثقال في النطق كما في يفعل إلا ما شذ من ذلك.

الإمالة: يقول سيبويه: «وذلك قولهم: سِرْبال وشملال وعماد وكلاب وجميع هذا لا يُميله أهل الحجاز»(260) «وجميع هذا لا يُميله ناس كثير من بني تميم وغيرهم» (الإمالة في الفعل وفي الرباعي من الأسماء) «(260) «وقالوا: مات وهم الذين قالوا: مِتُ...وكيّال وبيّاع... **وكثير من العرب وأهل الحجاز** لا يميلون هذه الألف»(261). هذا وقال أيضا وهو

(48) وقد سبق أن ذلك ظواهر كثيرة غير فعيل.
(49) أي ليس هنا مجرّد إتباع كما في لئيم وفي مغيرة.

شاهد عيان: «واعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يُميل ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه. **فينصب بعض ما يميل صاحبه ويميل بعض ما ينصبه صاحبه. وكذلك من كان النصب من لغته لا يوافق غيره ممن ينصب** ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسرة. فإذا رأيت عربيا كذلك فلا تُرينَّه خلّط في لغته ولكن هذا من أمرهم» (263/2).

إن لهذا النص دلالة واضحة وحاسمة فإن سيبويه **بهذا الوصف الدقيق لواقع الاستعمال** يريد أن يُبيّن أن الإمالة ليست أداء لهجيا محضًا تختص به قبيلة دون أخرى بل هو أداء غير مطرد كما يقول السيرافي شارح الكتاب (خلافا لما شاع عند المتأخرين من النحاة). فالذي ثبت عن سيبويه أن بعض أنواع الكلم مما يميله أهل نجد لا يميله أهل الحجاز«وناس كثير من تميم لا يُميلون الألف و يفتحونها» (216/2).

الخلاصـــة:

إن الظواهر الصوتية التي مرّ ذكرها لا يطّرد أكثرها بالنسبة لا لبابها فقط بل بالنسبة أيضا إلى وجودها كظاهرة في الاستعمال. فقد رأينا أن بعض بني تميم كانت تميل وبعضها تمتنع من ذلك وبعضهم يميل ما لا يميله غيرهم من أفراد قبيلتهم أو من أهل الحجاز. وعلى هذا فليس هناك إمالة تطرد في بابها-إلا في بضعة أنواع من الكلم في داخل الباب الواحد- كما أنه ليس من إمالة تعم الكثير من الكلمات إلا وهي مشتركة بين أكثر من إقليم بل وتتجاوز أهل نجد أو أهل الحجاز. وصرّح من سمعهم بأذنيه أن الاختلاف في القبيلة الواحدة كبير جدا (الكتاب 263/2). فهذه الخاصيّة لا يمكن أن تكوّن نظاما من مكونات لهجية قائمة برأسها عند فصحاء العرب. وأما الهمزة فإن من يحققها كانوا موجودين في أكثر أراضي الجزيرة ولم يكن ينفرد بها أهل نجد. وهمزة بين بين هي الوحيدة التي اختص بها بعض أهل الحجاز لا كلهم. ثم إن الكثير من الظواهر الصوتية مثل الكشكشة كانت تنطق بها أكثر من قبيلة في جهة وأقل من قبيلة في جهة أخرى. يقول سيبويه: فأما **ناس كثير من تميم وناس من أسد**

فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين»(2/295). وكذلك تخفيف الثلاثي مثل «فَخْذ» فكان يفعل ذلك «أناس كثير من بني تميم» وهي لغة بكر بن وائل(257). ونستخلص من كل هذا أن ما انفردت به قبيلة قليل جدا وغير كافٍ ليكوّن «لهجة قبيلة» وكذلك ما انفردت به المجموعات من القبائل غير كثير لوجود أكثر ما سمّوه باللغات في أكثر من إقليم.

3) التنوع الصوتي في الأنظمة الصرفية

نظام الضمائر

كل العرب الفصحاء يستعملون نظاماً واحدًا فيما يخص الضمائر المنفصلة والمتصلة. واختص أهل الحجاز بضم هاء الغيبة فيقولون: جئتُ بِهُو وعليهُمْ وقد يُسكّن هاء المفرد بعض العرب منهم أزد السراة فيقولون: «لَهْ مال» وقرأ بذلك بعضهم. وقالوا هُوْ في الدرج ومدّوا في أنا في الدرج أيضا. وقالوا: عليكمو وأنتمو ويُسمىّ ذلك بالثبات.

إلا أن كل هذا لا يكوّن نظاما لهجيا خاصا بقبيلة أو بإقليم وما هي إلا تنوّعات جزئية نُسبت كل واحدة إلى جماعة معينة وكل العرب متفقون على جوهر النظام ويقول سيبويه عن حذف حرف المد من الضمير أنه أكثر[مع أن] الإتمام عربي (2/291).

نظام أسماء الإشارة

وللعرب الفصحاء نظام واحد أيضا فيما يخص أسماء الإشارة واستعملت فيه بعض اللغات: يقول سيبويه: «سمعت من يوثق بعربيته من العرب يقول: هذِهْ أَمــَةُ الله فيسكّن» (2/198). وحكيت لغات في هاذان وذلك وهؤلاء وأولاء انفرد بالحكاية عنها بعض اللغويين (نُسبت أكثرها إلى الفراء).

نظام الأسماء الموصولة

وللعرب الفصحاء نظام واحد للأسماء الموصولة لا يُخالفها إلا ناس من طيء فإنهم كانوا يقولون: «أتى عليه ذوأتى على الناس» (وهو مثلٌ لهم) وذوهنا بمعنى الذي. وقد حذفوا الياء

في الذى والنون في اللذان واللذين وسُمعت أيضا «الذون». وكل هذا قليل جدا بالنسبة إلى جمهور الناطقين الفصحاء.

نظام الفعل الثلاثي المجرّد

إن الاختلاف بين صيغ الفعل الثلاثي المجرّد أي: فَعَل/يفعُل وفَعِل/يفعَل وفعُل/يفعُل اختلاف **مشترك** هو في حدّ ذاته ومعنى ذلك أنه لا تنفرد بإحدى الصيغ أية قبيلة بل أي إقليم فلا نجد في ذلك ما يستحق أن يقال إنه من لهجة تميم أو أهل الحجاز أو غيرهما بل الذي تنفرد به القبيلة أو الإقليم هو عدد من الأفعال على صيغة معينة .وقد روى عن أبي زيد أنه قال بهذا الصدد: «طُفْتُ في عُليا قيس وتميم مدة طويلة أسأل عن هذا الباب صغيرهم وكبيرهم لأعرف ما كان منه بالضم أولى وما كان منه بالكسر أولى فلم أعرف لذلك قياسا وإنما يتكلم به كل منهم على ما يستحسن ويستخف لا على غير ذلك»(المزهر 207/1)[(50)] .فهذا أوضح دليل على تشتت «اللغات».

أنظمة المزيد من الفعل

اتفقت كل العرب على استعمال نظام واحد في الفعل المزيد من الثلاثي والرباعي واطرد ذلك في القياس و الاستعمال إلا أن بعض هذه الأوزان قد كان يحصل فيها تعاقب بينها وبين فَعل المجرد مع اتحاد المعنى وهي أفْعل وفعّل وفاعل.

ففيما يخص أفْعَل فقد جاء هذا الوزن معاقبا لفَعَل في بعض الأفعال دون غيرها مع اتحاد المعنى كما قلنا ولاحظ اللغويون أن بني تميم كانت تميل إلى أفعل. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى التعاقب بين فعّل وفعَل وفاعل وفَعل ولم يطرد كل ذلك.

نظام المصادر والمشتقات

إن اختلاف مصادر الثلاثي المجرّد موزع على كل الأقاليم ولم تختص أية قبيلة ببعض الصيغ منها **إلا في كلمات معدودة** وقد أحصاها العلماء مثل: الزُعم عند تميم والزَعم عند

---

(50) – أنظر ما قلناه عن كلام أبي زيد في كتابنا: علم اللسان العربي وعلم اللسان العام، باريس السوربون. 1979(163/1).

غيرهم والضَّعف بالفتح عند تميم والضم عند غيرهم والكُره والكَرْه وغير ذلك. ويطّرد المصدر الميمي عند جميع العرب إلا في بعض الكلمات كالمطلَع والمغرب وغيرهما. أما مصادر المزيد فهي تطرد قياسا واستعمالا إلا في القليل من الألفاظ. ولا كلام في المشتقات لاطراد أكثرها والاختلاف حاصل فقط في الصفة المشبهة ومثلها في الاختلاف مثل مصادر الفعل الثلاثي المجرد فأكثرها صوتي. وهذا بخلاف اسم المفعول من الثلاثي المجرد فإن تميم كانت تقول مخيوط عوض مخيط.

التذكير والتأنيث وجموع التكسير

يتفق العرب الفصحاء في أكثر ما يذكّرونه ويؤنّثونه. وهناك عدد قليل من الكلمات وردت مذكرة ومؤنثة كبعض أسماء للأماكن: الطريق والسبيل والسراط والسوق وغيرها. وأسماء لبعض أعضاء الجسد مثل العنق والعضد والعجز وألّف العلماء في ذلك الكثير من الكتب ومن أقدمهم الفراء.قال في كتابه عن المذكر والمؤنث: «العين أنثى تحقيرها عُيينة...والأذن أنثى...والعنق مؤنثة **في قول أهل الحجاز**»(64) «والذراع أنثى وقد ذكّر الذراع **بعض بنى عكل**... والأصابع إناث كلهن إلا الإبهام فإن العرب على تأنيثها **إلا بنى أسد أو بعضهم**» (68-69) «والقدر أنثى...ويذكرها **بعض قيس**»(73) «والحال أنثى وأهل الحجاز يذكرونها» (83). وأكثر ما يذكره الفراء من هذا القبيل غير منسوب إلى قوم أو جهة معينة وحتى ما ينسبه من ذلك فهو غالبا إلى بعض القبيلة. وأما ما يخص اسم الجنس الذي واحده بالتاء فيصرّح: «وكل جمع كان واحدته بالهاء وجمعه بطرح الهاء فإن أهل الحجاز يؤنثونه **وربما ذكروا** والأغلب عليهم التأنيث وأهل نجد يذكرون **وربما أنثوا** والأغلب عليهم التذكير» (91). ففي هذا الجنس من الأسماء التي تذكر وتؤنث فاسم الجنس الذي واحده بالهاء هو العنصر الوحيد الذي تنقسم في استعماله العرب إلى كتلتين من غير اطراد. أما سائر الأسماء الأخرى التي تذكر وتؤنث فلم ينصّ العلماء الأولون في استعمالها على مثل هذا التوزع الجغرافي إلا العدد القليل جدا من الكلمات (كالعنق والعضد والطريق والسبيل وغيرها). وما أحصاه العلماء مثل ابن قتيبة وما نقل في المزهر من الألفاظ التي تؤنث وتذكر

دليل واضح على قلة هذا النوع من الأسماء من جهة وقلة ما هو منسوب منه إلى قبائل معينة.

وفيما يخص جموع التكسير فتنوّع صيغها بالنسبة إلى صيغة المفرد الواحدة مماثل لتنوع صيغ المصدر للفعل الثلاثي المجرد الواحد.وهي موزعة أيضا على كل الأقاليم والقبائل ولم ينسب العلماء أية صيغة إلى قبيلة أو إقليم بل الذي نسبوه بعض الكلمات تنتمي إلى باب معين ولم ينسبوا كل ما دخل فيه. وذلك مثل سكارى بالفتح لتميم وأسد وبالضم لأهل الحجاز وصفوان بالكسر لأهل الحجاز وبالضم إلى تميم و قيس. وهذا تنوّع صوتي في الحقيقة. وأما ما نسبه المتأخرون من فُعَل وفُعُل لأهل الحجاز وفِعَل وفُعْل لأهل نجد فهو يخص بعض الكلمات ههنا أيضا. والذي عزاه سيبويه هو التخفيف إلى تميم في صيغة الجمع الخاصة بفُعُل: حُمْر و أُزْر (112/2). أما فُعُل كلغة لغير بني تميم فعدم التخفيف فيها هو المقصود.

ومما حمل المحدثين على القول بتخليط النحاة بين الفصحى واللهجات هو عدم اهتمام أصحاب المعاجم (وكلهم جاؤوا بعد المبدعين من علماء النحو حتى الذين حشوا كتاب العين) بالإشارة إلى درجة شيوع الكلمة أو الصيغة فقد يذكرون لمصدر الفعل الثلاثي أكثر من ستة صيغ مع أن صيغة واحدة أو صيغتين منها قد شاعتا غالباً ولم تعرف أكثر العرب غيرهما.

الخاتمة :

إن الذي لاحظناه فيما تعرضنا له من اللغات والاختلاف في الاستعمال لا يكوّن مجموعات منتظمة من الخاصيّات اللغوية تختص بها قبيلة واحدة أو بطن فلا يتجاوز بالنسبة إلى كل قبيلة أو بطن عددا قليلا من الخاصيّات وقد لا تخصُّ إلا بعض الكلمات. ولا تنطبق على جميع ما يحتوي عليه الباب بالنسبة إلى كل قبيلة مأخوذة على حدة. فقد يتعذر علينا أن نسمي المجموعة من هذه المميّزات لهجة بالمعنى المصطلح عليه في زماننا إنما هي تنوعات لغوية للسان الواحد. فما تنفرد به قبيلة دون غيرها هو ضئيل جدا. وقد لاحظنا أن الكثير من الخاصيات اللغوية تشترك فيها أكثر من قبيلة أو بطن. والأهم من هذا هو أن لا يطرد

الاستعمال في داخل كل قبيلة فكثيرا ما يشير العلماء الذين شافهوا العرب وسمعوا منهم مباشرة إلى أن هذا يقوله ناس من قيس أو تميم أو بعض طيء أو بعض أهل الحجاز بل ويكاد يكون هذا الذي لاحظوه هو الأكثر. والذي يلفت الأنظار في ذلك هو انقسام العرب حقيقة إلى كتلتين لغويتين: أهل الحجاز وأهل نجد وذلك بامتياز كل منهما بعدد من الخاصيات وإن كان قليلا جدا بالنسبة للكمية الهائلة مما اتفق عليه العرب وحتى في داخل كل كتلة نجد الاختلاف قد يسود فتخرج قبيلة منها مما اتفق عليه غيرها. ويضاف إلى ذلك عدم اطراد الباب فقد يميل بعضهم إلى الضم وبعضهم إلى الفتح أو الكسر فإذا تأملنا ذلك لاحظنا أن كل واحد منهم غير متمسك بأصله وقد تخرج من ذلك الأصل ألفاظ كثيرة كما في الإمالة مثلا فالذي يميله قومٌ هو كلمات معينة ولا يطرد في ذلك إلا قليلا.

هذا وكثيرا ما يتوزع الاختلاف – الصوتي خاصة وبالتالي الصرفي– على كل أراضي الفصاحة كاستعمالهم لصيغ المصادر وجموع التكسير وغير ذلك. فالاختلاف هنا هو تنوّع واسع في داخل العربية الفصيحة وليست تنوعات تنفرد بكل واحدة منها قبيلة أو إقليم.

ومع كل هذا فإن حجم المشترك من هذه العربية الفصيحة أي **حجم ما اتفق على استعماله العرب الفصحاء** الذي سمعه ودوّنه العلماء الأولون **ضخم جدا بالإضافة إلى ما ذكروه من اللغات والاختلاف اللغوي**.وقد بيّنا ذلك بالنسبة للمعجم أي مجموع المفردات وبالنسبة للتراكيب النحوية وبالنسبة للأنظمة الصرفية. فللعرب في كل هذا نظام لغوي واحد بتنوعات طفيفة في المفردات والتراكيب وتنوعات صوتية أكثر منها.وليس هناك لسان مشترك خارج لغة التخاطب إذ ما دوّن من ذلك في الشعر يوجد نظيره في المنثور من كلامهم وما نطق به من اللغات في مخاطباتهم ورد كله في الشعر وأكثره في القراءات.

الباب الثالث

السماع اللغوي

الفصل الأول

محتوى المسموع وخصائصه

إن المدّونة اللغوية التي اختصت بها اللغة العربية وهي ما يسميها القدامى «بالمسموع» (أو «السماع» كاسم)[1] هي، كما رأينا، أعظم مدّونة لغوية شهدها تاريخ البشرية وقد رأينا أن القبائل العربية التي أخذت منها اللغة -ونتج عن ذلك هذا المسموع العملاق- كانت تغطي شبه الجزيرة كلها في الجاهلية[2] وكان الأخذ لما روى واشتهر عند فصحاء العرب من شعر الشعراء الذين وصلت منهم إلينا البيت أو البيتان أو الدواوين الكبيرة. ثم تقلصت رقعة الفصاحة تدريجيا باختلاط العرب بغيرهم وما نتج عن ذلك من اختلال النظام اللغوي للعربية على ألسنة العرب من الجيل الثاني أو الثالث فأوقف العلماء أخذهم وسماعهم من الحواضر حيث كثر ذلك وخاصة عن الشعراء الذين لم تكن لغتهم الأصلية العربية الفصحى وحدها. وحصل ذلك كما رأينا في نهاية القرن الثاني وربما كان بعض الشعراء القدامى يرفض الأخذ عنهم لا لوجودهم في هذا العصر (فقد أخذ العلماء عن ابن هرمة وهو معاصر لبشار بن برد) بل للسبب الذي ذكرناه.

---

(1) - وبعد تأثر النحو بعلم الكلام : «المنقول» (كمرادف للمسموع) .
(2) - إلا«أقصى» اليمن حيث بقيت فيه لهجات سامية قديمة. وأقاصي الشام.

أما القرآن الكريم فقد اشتهر بين النـــاس أن اختلال النظـــام اللغوي للعربية أدى ببعض المسلمين إلى ارتكاب الخطأ في أداء النص القرآني وأن هذا كـــان السبب الرئيـــسي في ظهـــور النحو. وأول من وضع هذا النحو هو أيضا أول من استقرى النص القرآني لاستخراج الثوابت اللغوية الخاصة بإعرابه. ثم كان جميع من جـــاء بعده من النحـــاة هم في نفس الوقت من القراء – بدون استثناء– ثم ألهم الله واحدا من هؤلاء القراء المبرزين وهو أبو عمرو بن العلاء إلى التوسع فيما بدأ به الأولون وذلك بالرجوع إلى كلام العرب الذي به نزل القرآن الكريم مستوحيا في ذلك ما كان قد دعا إليه عبد الله بن عباس من الاعتماد على الشعر لتفسير معاني القرآن اللغوية.

فالذي سنَتطرّقُ إليه في هذا الباب هو محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1- أي نوع من المعطيات اللغوية جمعها هؤلاء العلماء ومن كان الذين أخذ عنهم وهم الذين سماهم بعضهم قديما «**بالمُورِدين**» (من أورد)؟

2- ما هو الفرق بين هذا المسموع وبين ما سمى بعد سيبويه بالشواهد؟

ثم في فصل على حدة:

3- ما هي المقاييس العلمية التي يمكن أن تختبر بها صحته وأسباب تقبله؟

محتوى المسموع: ماذا يوجد فيه من النصوص؟ وما هو مصدره؟

إن كل ما يحتوي عليه هذا المسموع المدوّن كان ينحصر في الأصل في نوعين من النصوص:

- نصوص أخذت وهي محفوظة في الصدور،
- ونصوص حرة عفوية.

I – أما النصوص المحفوظة:

المنقولة شفهيا فهي النصوص التي ينقلها الناطقون باللغة العربية بعضهم إلى بعضهم وجيلا بعد جيل ولم يأخذها العلماء مباشرة من مصدرها الأصلي أي من أصحابها الذين

انشأوها هم أنفسهم. فهي نصوص نقلت على صورة واحدة إلا أن تأدية الناقلين لها كانت مختلفة لاختلافها في الأصل واختلاف المنشأ اللغوي للناقل (في الشعر مثلا). وهذا الاختلاف يقرّبها من النصوص الحرة. أما مصدر هذه التأدية فلا يمكن أن يكون إلا الناطقين العرب الفصحاء إلا النص القرآني لأن القراءة سنة. ويدخل في هذا النوع من النصوص- مع فوارق كبيرة فيما بينها:

- النص القرآني من خلال القراءات **المتوارثة**، كما قلنا [3].

- الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين الذي **توارثه** فصحاء العرب.

ولكل منها شكل أصلي هو بالنسبة للقرآن الكريم مصحف عثمان وفيه اختلافات يسيرة من جهة وما توارثه العلماء من القراءات لهذا المصحف وهي سنة كما هو معروف فإن النص القرآني قد صانه المسلمون وعنوا بالحفاظ عليه بكيفية تكاد تكون معجزة ولم يسبق لأي كتاب مقدس أن يحظى بمثل هذه العناية (الآية الكريمة: «و إنا له لحافظون» يوسف 12و63).

وقلت الاختلافات بذلك إذ التزم الناس بشكل واحد لكل مفردة تفرضهـــا الكتابة إلا أن هذه الكتابة المجرّدة عن الحركات والشكل عموما قد تحتمل أكثر من قراءة فالقراءات المحتملة التي اختيرت هي فقط ما نقله العلماء من القراء عما اجتمع على اختياره أئمة القراءة وهو كله منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد أجازه هو بنفسه وإلى هذا يشير الحديث الشريف: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ»[4].

وبالنسبة للشعر الجاهلي ففي الغالب لا يعرف الشكل الأصلي الذي كان أنشأه الشاعر إذا حصل الاختلاف في الروايات ولا تصل الاختلافات إلى التغيير الجذري للشكل الأصلي إلا

---

(3) - أي التي نقلها عن الصحابة والتابعين الأئمة المعترف بهم.
(4) - راجع في ذلك ما كتبناه عن «أصول تصحيح القراءة عند مؤلفي كتب القراءات وعلوم القرآن قبل القرن الرابع».مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، العدد 90، سنة 2000 (ص111- 155).

نادرا. وهذا ينطبق على شعر المخضرمين أيضا إذ لم يبدأ العلماء في التدوين إلاّ في آخر القرن الأول.

ثم إن هذه النصوص المحفوظة المنقولة في أول الأمر شفاهيا صار لها مظهر كتـــابي زيادة على جانبها الشفاهي. وتناقلها العلماء بهذين الشكلين ولم يَزُل النقل الشفاهي بالنسبة للقرآن نظرًا لخصوصية القراءات بالنسبة للحديث الشريف فالجانب اللفظـــي في القراءات هو أهم جانب.

– **علم العرب محفوظ متوارث:** مفهوم التوارث في البيئة الفصيحة

أما بالنسبة للشعر المحفوظ (من الجاهليين إلى المخضرمين) فهناك ظاهرة هامة جدا اختصّ بها تاريخ العرب لا بد من الوقوف عندها لأهميتها العظيمة.

إن كتاب سيبويه كتبه صاحبه في السبعينيات من القرن الثاني الهجري فقد مضى على بداية التحريات الميدانية اللغوية في ذلك الزمان أكثر من 80 سنة ومع ذلك فقد بلغ النحو في هذا الكتاب مستوى عاليا جدا ومع ذلك أيضا فلم يأت **في هذا الكتاب ولا مرة واحدة كلمة** «**قرأت** في» أو«أخبرني فلان **في كتابه**...» وغير ذلك بل يلجأ سيبويه من أول كتابه إلى آخر سطوره إلى عبارة «سمعت»و «حدثني» مما يدل على أن مصادره هي كلها شفاهية. وهذا لا يعني أن العلماء في زمانه وما قبله لم يلجأوا أبدا إلى الكتابة. بلى، لم يكن هناك سماع إلا مرفوقا بتدوين كتابي كما يشهد على ذلك ما وصل إلينا – في الكتب الموثوقة– من أخبار العلماء الأولين. إلا أن التدوين في الدفاتر والألواح شئ (وهو يساعد الذاكرة) واختيار مصادر المعطيات وكيفية أخذها شئ آخر. وذلك لأن كل ما كان كتب من المعطيات التاريخية والأدبية وغيرها في عصر التدوين الأول وما قبله **برهن العلماء الأولون على أنه مشكوك في صحته لأنه لا تعرف غالبا مصادر ما كانوا يسمونه بالصحف** ولأنّ هذه الصحف حُشيت بالحكايات العجيبة والأساطير الكاذبة وكلام موزون يشبه الشعر وقد يكون شعرًا ونسب هذا «الشعر» إلى أقوام بادوا ولم ينقل عنهم، في الواقع، أي شعر بكيفية مقطوعة.

ولابن سلام الجمحى في ذلك كلام معقول جدا اشتهر بين المُحْدثين ولم يَرضَ عنه الكثير (أنظر فيما يلي كلام ابن سلام الجمحى).

فهذا يصدق على كلام سيبويه كما رأينا بل ويصدق أيضا على كل من وجد في هذا العصر، عصر التحريات الميدانية. فقد بحثنا فيما وصل إلينا من كلام الكسائى ثم فيما يقوله الفراء في معاني القرآن ثم فيما يقوله أبو عبيدة في النقائض وغيره من كتبه وكتب أبى زيد الأنصاري وما عُزي إلى الخليل بن احمد وزملائه (من خلال كتاب سيبويه). فكلهم يعتمدون على مصدر واحد: **فصحاء العرب ليس إلا** (حضريين وبدويين بحسب العصر).

فالمصدر الوحيد وليس هناك مصدر آخر غيره لكل **ما وصل إلينا من المسموع** ممن كان يوصف بالفصاحة كما فهمها العلماء القدامى **هم فصحاء العرب وهم أولئك العرب الموثوق بعربيتهم الذين عاشوا في عصر السماع والتدوين**. فهم الذين سمع منهم الشعر الجاهلي وشعر المخضرمين وهم الذين سمع منهم النحاة واللغويون آلاف الآلاف من العبارات في مخاطباتهم العادية وغير العادية. ولم يأخذ منهم إلا أفراد الجماعة من الباحثين من أهل الاختصاص الذين أجمع العلماء بعدهم على أمانتهم.

وسنذكر فيما بعد بعض ما يمكن أن يستدل به على ذلك من كلامهم فيما يخص الشعر (وسنرى فيما بعد أيضا أن هذه الشواهد ليست كل المسموع ولا يدخل فيه أبدًا ما جاء به غير أولئك العلماء).

يقول سيبويه فيما يخص رواية الشعر: «**سمعنـــاه** ممن يرويه **من العرب** ينشده هكذا» (212/1) «**كذا سمعنـــا العرب** تنشده والقوافي مجرورة» (214) «**وسمعنـــاه ممن يروي من العرب**»(272/1)«وانشد غيره من العرب بيتا آخر فأجروه هذا المجرى»(227)«**كذلك سمعنـــاه من العرب**»(250)«وسمعناهم ينشدون قول العجير السلولي» (442/1)«سمعناه **هكذا من العرب**. وسمعنا **فصحـــاء العرب يقولـــون في بيت** امرئ القيس» (147) «**سمعنا من يـــوثق** به من **العرب ينشده هكذا**» (167) «وسمعناهـــم يقـــولـــون في قول

ابن مقبل» **(466)** «فهذا سمعناه ممن ينشده من العرب»(487/1) **«سمعناه ممن يُنشده عن العرب»**(474)«**سمعنا من العرب** ينشدونه»(44/1) **«هكذا سمع من العرب** تنشده» (70) **«ومن ذلك إنشــاد بعض العرب قول الأعشى»**(94) «سمعناه ينشدون هذا البيت للأخطل هكذا» (259/2) وغير ذلك كثير.

ويذكر سيبويه أيضا ما رواه أصحابه من العلماء عن العرب: «أنشد فيهــا **الأصمعي** عن أبي عمرو لبعض بني أسد» (446/1) «وزعم **أبــو الخطــاب** أنه سمع» (426)«حدثني أبــو الخطــاب **أنه سمع العرب** يُنشدون»(17/1)«وزعم أبو الخطاب **أنه سمع قوما من العرب** يُنشدون هذا البيت» (103/1) «وزعم **يــونس أنه سمع العرب** يقولــون في بيت الأسود بن يَعْفر» (468) «**أنشدناه يونس**»(1/62)«**وحدثنــا يونس أن العرب تنشد هذا** البيت» (77). قال الأصمعي: «**هكذا أنشدناه يونس**» (458). «فأكثر ما يرويه هو من سماعه أو سمــاع شيوخه من العرب». وهو نفسه يصرح بذلك: «**ولم يؤخذ ذلك إلا من العرب**»(121/1) «وهذه **حجج سُمعت من العرب وممن يوثق به يزعم أنــه سمعهــا من العرب**» (121/1) «وهكذا **سمع هذا البيت من أفــواه العرب**» (255) .

وشيوخ سيبويه او شيوخ شيوخه أو زملاؤه الذين ذكرهم في كتابه معروفون كلهم بالثقة والعلم الغزير وهم: أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق والخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب وأبو الخطاب الأخفش وعيسى بن عمر والأصمعي وغيرهم.

ثم إن سيبويه لم ينفرد بهذا السلوك العلمي السليم وهو الاعتماد في سماعه وتدوينه لمعطيات اللغة العربية الفصيحة **على أصحابها أنفسهم** وهم فصحاء العرب ليس غير (وإلا كان سماعه لا يمثل هذه اللغة هي بالذات). وكذلك فعل من عاصره ومن جاء بعده من العلماء فنجد في كتاب معاني القرآن للفراء مثل هذه العبارات:

«سمعت العرب تقول» (معاني القرآن 142/1، 282، 299). «العرب تقول» (42/1، 83، 205/1، 217، 254، 340، 195/3، 252، 254 ، 258، 260، 268، 271، 273،

277، 287). «كقول العرب» (255/1). «من ذلك قول العرب» (96/1، 168، 218). «العرب تقوله في كلامها» (10/3). «سمعنا العرب من أهل هذه اللغة» (41/1). «سمعت كثيرًا من بني أسد» (41/1). «بعض أهل العالية يقول» (231/1) «سمعت بعض بني الحارث» (37/1). «وتلك لغة قريش وتميم تقول» (109/1). «والعرب لا تقوله إلا رفعا» (39/1) «العرب لا تقول» (81/1، 121/3) «والعرب لا تكاد تقول» (92/1).

ويروى عن شيخه الكسائي كثيرًا مثل: «وحكى الكسائي عن العرب» (59/1) «وزعم الكسائي أنه سمع العرب يقولون» (134/1، 111/3) «وقال الكسائي: سمعت العرب تقول» (136/1، 149، 164) قال الكسائي: «سمعت العرب» (14/3، 109، 111، 112) وغير ذلك.

هذا ولا بد أنْ نتنبّه إلى الفوارق التي يفترق فيها سماع النحويين واللغويين عن سماع المحدّثين فسيبويه وكل العلماء منذ زمن أبى عمرو بن العلاء كان مصدرهم الذي أخذوا منه فصحاء العرب الذين **كانوا معاصرين لهم** فأخذوا منهم مباشرة ولا حاجة إلى إسناد بالنسبة لهم إلا الإسناد إلى شيوخهم كما رأينا وكل ما كان يُروى من قديم الشعر كان ينتهي غالبا إلى أبي عمرو بن العلاء (مثال ذلك قول: «أنشدني الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء»). بينما كان أصحاب الحديث مضطرين إلى ذكر أسانيدهم الطويلة- في ذلك الزمان بالذات- إلى التابعين ثم الصحابة.

استخلاص مما سبق لمبادئ السماع عند علمائنا القدامى

يمكن أن يستخلص مما تقدّم ما يأتي:

1- المبادئ العلمية لسماع علماء العرب لمعطيات اللغة وتوثيقها خاصة **مغايرة** للمبادئ التي بُنيَ عليها تدوين الحديث الشريف والأحداث التاريخية وذلك لاختلاف الظروف واختلاف الزمان. فسيبويه والنحاة الذين جاؤوا قبله عاشوا كلهم في زمان الفصاحة السليقية.

وعلى هذا فالسماع من فصحاء العرب وحدهم إذا تحقق العلماء من فصاحتهم **كان كافياً كحجة** أي كمرجع علمي ويكفي أن ينسب العلماء-وهم معروفون- ما سمعوه إلى هؤلاء لتثبيت الرواية ويكون الثبوت مطلقا إذا **أجمع العلماء على ذلك**. وأصل الأصول هنا هو ثبوت فصاحة المنقول بثبوت فصاحة القائل المنقول منه أو الناقل من العرب الفصحاء. ولم يحتج النحوي منهم في ذلك الزمان إلى إسناد لأنه **هو أو شيخه المصدر الأول لما سمعه** فإذا روى عن شيخه فيكون له إسناد إلى عالم واحد فقط بينه وبين العرب. فهم بالنسبة إلى كلام العرب كالصحابة أو التابعين بالنسبة للحديث الشريف(5).

فالأحاديث الشريفة المروية في ذلك الزمان وفيما بعده (والأحداث التاريخية عامة) كانت تحتاج قبل كل شئ أن يعرف فيها المصدر الأول وهو صاحب الخبر الأول فكان يجب أن يكون معروفا وأن يكون كل راوٍ في إسناد الحديث معروفا كفرد ومعروفا كناقل أمين.ثم إن الشعر الذي لم يروه علماء العربية مباشرة عن قائله كالشعر الجاهلي وبعض المخضرمين فلا تثبت صحته إلا إذا كان هذا الشعر معروفا عند فصحاء العرب(6) **سواء كانوا من البدو أم من الحضر** بالنسبة للقرن الأول حتى زمان سيبويه (الفصحاء لا غير). ترويه الرواة منهم لأنهم الذين **تناقلوه جيلا بعد جيل فهم المصدر الأول والوحيد** عند العلماء. فهذا فرق آخر فإذا أجمع العلماء **في ذلك الزمان** على ذلك ثبتت صحته ككلام نُقل من أفواه أولئك العرب وثبت انتماؤه إلى اللغة العربية الفصيحة وقد تثبت نسبته إلى قائله إذا أجمع على ذلك الرواة من فصحاء العرب ولا تثبت بالضرورة وبالتمام الصورة الأصلية.

فيستنتج من ذلك أن اسم الشاعر، في زمان التحريات في عين المكان، **غير مطالب بذكره العالم اللغوي** ليثْبُت انتماء المسموع من الشعر إلى اللغة العربية الفصيحة **فحجيّته**

---

(5) -- ولم يحتج بالطبع إلى إسناد إلى أكثر من ناقل إلا الذين جاؤوا من النحاة بعد القرن الثاني فإن لهم ضرورة أسانيد إلى العلماء الأولين وهؤلاء كلهم معروفون وهم الذين ذكرهم سيبويه وزملاؤه من البصرة وكذلك العلماء الكوفيون الموثقون.

(6) - وهؤلاء الفصحاء من العرب هم فيما يخص الشعر ممن عرفوا بحفظ الشعر ومعرفته الجيدة وروايته وقبل القرن الثالث سواء كانوا من البادية أم من الحضر.

حاصلة من جهة انتمائه إلى المسموع من فصحاء العرب. وهذا الانتماء الأخير هو الذي كان الأهم.

فهذا يفسّر عدم العناية الشديدة بذكر اسم الشاعر لا عند سيبويه فقط بل عند كل العلماء الموثوقين الذين سبق ذكرهم. ويفسر أيضا كثرة مجيء عبارة «قال الشاعر» أي، عند اللغويين، الشاعر الذي نقل شعره فصحاءُ العرب. وهذا لم يمنع من أن يأتي اسم الشاعر كثيرًا على لسانهم. ومن السهل أن يُميز عند سيبويه مثلا بين الحالات التي يذكر فيها اسم الشاعر بالفعل وبين التي لم يفعل ذلك ويكون قد أضاف ذلك غيره في نصه (وقد يكون خطأ) .

فقول من قال[7] «إن النحاة قد يستشهدون على كلام العرب بِبَيْت مجهول القائل» غير وارد أبدا ههنا لأن السماع اللغوي في الظروف التي عرفتها اللغة العربية غير الرواية للحديث النبوي إذ المهم هنا أن يكون الناقلون هم المسموع عنهم من فصحاء العرب المعروفين بذلك عند جميع العلماء لأنهم هم وحدهم توارثوه وهم فصحاء **ولم يكونوا بالضرورة في القرنين الأول والثاني من أهل البادية**.

2- ثم إن الصفة العلمية الأساسية لكل منقول في أي علم من العلوم عند العلماء المحدثين وعند علمائنا القدامى هو **إمكانية التحقيق لصحة ما ينقل** .

أي أن يكون في استطاعة أي باحث التحقيق لما ينقله الباحثون الآخرون (**وهو أعظم** الأصول التي يعتمد عليها علماء هذا العصر). فهذا يفسّر أن يكتفي سيبويه وأصحابه بقوله: «سمعت» و«أنشدني» فكأنه يقول **وهو هنا يخاطب العلماء (في زمانه قبل كل شئ): هاهم العرب الفصحاء** فاسألهم وتأكّد **مما سمعه غيرك** .فدليل السماع في مثل هذه الحالة يكمُن في استطاعة أي باحث أن يشاهد ما شاهده أحد الباحثين قبله -والسماع مشاهدة- وذلك عام ينطبق على كل العلوم وهو معمول به في زماننا، فيما يخص التجارب، في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها من العلوم. فيمكن للباحث أن يعيد التجربة إنْ شكّ في تجربة غيره.

---

(7) – وقول أبي بكر الرازي في ذلك معروف.قال: والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين...(التفسير الكبير، 3/193).

وهذا ما حصل بالفعل في السماع من كلام العرب[8] وحدث ما حدث من الطعن على بعض السماع والاطمئنان إلى بعضه الآخر. وكان يُظلَم العالم عندما كان تردّ شواهده دون أن يكون ذلك مدعوما بحجج أوثق من الأولى مثل ما كان يفعل المبرد وهو يردّ بعض شواهد سيبويه تعسفا وقد ردّ عليه العلماء بعد ذلك بشدة.

ونحن اليوم نطمئن إلى ما روى سيبويه لأنه رواه بالسماع عن فصحاء العرب وحدهم ولأنه لم يأت أي باحث على الإطلاق بحجج مقنعة عند جميع العلماء تناقض ما أتى به سيبويه من المسموع وسنرى كيف كان ذلك وكيف أبطل العلماء كل ما وجّه إليه بعده من اتهامات بالخطأ في الرواية أو التحريف.

والأمثلة على إجراء التحقيق عند العلماء القدامى كثيرة. وبعض ما ذكرناه عن سيبويه وما ذكره عن شيوخه هو تحقيق في الواقع.

وهكذا كان موقف كل العلماء المنصفين الذين جاءوا بعد سيبويه وتفهموا جيدا موقف سيبويه. يقول ابن السيرافي: فهذا الذي رأيته في ديوانه (العجاج) وليس هذا بمفسد لحجة سيبويه **لأنه لم ينقل هذه الشواهد من الدواوين إنما سمعها**. والعرب بعضهم ينشد شعر بعض. فإذا غيَّر هذا عربي يحتج بقوله صار كأنه هو القائل **وليس يجوز أن يفعل مثل هذا رجل عالم**[9] **لأن سيبويه لقي منْ قولُه حجةٌ ولم يأخذ من الصحف**. فإذا سمع من يجوز أن يكون عنده حجة في كلامه نقل عنه وإن لم يره أهلا لذلك تركه (شرح أبيات سيبويه، 396). وقال أيضا: «ولكنه أنشد البيت على الوصف الذي رَوَته الرواة وذكر وجه روايته» (39/1) «سيبويه يُنشد على بعض الروايات التي له فيها حجة فينشده على ما سمعه ويروى راوٍ آخر على وجه آخر لا حجة فيه»[10]. «**والرواة المختلفون إنما أخذوه من أفواه العرب الذين يحفظون**

(8) – فالحادث أو الخبر الذي يستحيل التأكّد من صحته حتى بالاستدلال العقلي لا يمكن في العلم أن يُعتدّ به كحادث حصل بالفعل أو كدليل هو وحده. والتحقيق لما يروي بالمشاهدة قد يمكن تحصيله في زمان (كزمان السماع ههنا) وغير ممكن في زمان آخر.

(9) – أي ليس من حق اللغوي المتحري أن يفعل مثل هذا لأنّ المروى المسموع معطيات محضة لا يجوز تغييرها.

(10) – حجة على وجود ضرب من ضروب الكلام في العربية.

الأشعار. فالتغيير في الإنشاد واقع من جهتهم والشواهد في كل رواية صحيحة. **لأن العربي الذي غيّر الشعر** وأنشده على وجه دون وجه **قوله حجة. ولو كان الشعر له لكان يحتج به ألا ترى أن الحطيئة راوية زهير وكثيرًا راوية جميل والراوى والمروى عنه كلاهما حجّة»** (126/2). وقال ابن ولّاد أيضا: «ما غيّرته العرب بلغاتها فهي حجة لأن لغة الرواة من العرب شاهد كما أن قول الشاعر شاهد» (الانتصار، اللوحة 17). فهذه شهادة واضحة صريحة عن المصدر الذي يروي منه علماء العربية في ذلك العصر وخاصة سيبويه: فهم لا يرجعون إلى ديوان – إذ لم يتم بعد تصحيح التدوين ونشره(11)– ولا من صحيفة على الإطلاق بل يأخذون كل مسموع محفوظ من غير القرآن **من أفواه العرب** والرواة العرب الفصحاء وهم أنفسهم حجة. ولم يعارض هذا الكلام لابن السيرافي أحد من العلماء.

3– أما فيما يخص لجوء العلماء في زمان سيبويه وقبله إلى الكتابة فلا بد من التمييز ههنا بين أمرين:

اللجوء إلى ما كان موجودا في تلك العصور من مكتوب **كمصدر** تستقى منه المعلومات.

اللجوء إلى الكتابة للاستعانة بها على المحافظة على ما ينقل بالسماع.

فأما الأمر الأول فقد رأينا أنه كان محظورًا على العلماء حظرًا باتاً لأن الاعتماد على وثائق مكتوبة غير محقّقة علميا، يختلط فيها الصحيح والزائف من المعلومات هو باتفاق العلماء في كل مكان وزمان أبعد ما يكون عن العلم.وهذا لا يمنع أن ينظر فيها لتوثيق ما عساه أن يكون صحيحا بالأدلة العقلية والنقلية وفيما يخص المعطيات اللغوية والشعرية خاصة فلم ينص النحويون الأولون على لجوئهم إلى ذلك أبدًا (ولم يشر إلى ذلك إلا بعض المتأخرين كما قلنا). ويجب أن نلاحظ أن نفور العلماء من الرجوع إلى تلك الصحف لا يكمن سببه إلى كونها مكتوبة بل إلى أن جميع ما صدر قبل نهاية القرن الثاني من مجموعات أخبارية وشعرية وغيرها لم تكن موثقة علميا(12).

---

(11)- ولم يتم إلا في القرن الثالث بعد العمل الرائع الذي قام به ابن السكيت والسكري وغيرهما.
(12)- والذي يهمنا هنا ليس هو صحة ما يحتوي عليه المنقول بل صحة انتمائه إلى سماع فصحاء العرب المعترف بهم.

وأما الأمر الثاني فليس فقط أمرًا طبيعيا بل ضروريا جدًا لأنه لا يتصور أن لا يلجأ النحوي واللغوي إلى كتابة ما يسمعه من الموردين مع كثرته الهائلة. وفعل ذلك كل العلماء ابتداء من واضعي النحو أنفسهم **وأكبر دليل على ذلك هو وجود النقط ثم الشكل** في أقدم العصور وقد كان يسمى الشكل: «شكل الشعر» (ومخترعُهُ الخليل بن أحمد)[13]. ولكن هذا لا يعني أن يكون ما دوّنوه كتابة هو المصدر لما نقلوه إذ سيبقى السماع ومشافهة العرب الفصحاء والسماع للشيوخ الموثوق بعلمهم كما يقول سيبويه،**الوسيلة الوحيدة لتوثيق المنقول فلا توثيق في ذلك الزمان إلا بسماع** ولا يمكن على الإطلاق أن يقول عالم العربية في ذلك الزمان بأنه وجد هذا البيت من الشعر أو ذاك أو هذا الضرب من الكلام أو ذاك في مكتوب أو صحيفة (على حدّ تعبيرهم) حتى المنسوبة إلى أكبر العلماء.**ولن يحصل ذلك إلا بعد صدور الكتب العلمية الموثقة** مثل كتاب سيبويه نفسه[14] (مع استمرار السماع). وسنرى أن التأليف للكتب غير الموثقة علميا سيستمر على الرغم من نبذ العلماء لها(وإقبال المُحدثين عليها!).

II – النصوص الحرة العفوية

هي نصوص سمعها اللغويون من أصحابها مباشرة فليست بكلام محفوظ ومنقول حفظه الناس من غيرهم وليس بتأدية لكلام سبق أن قيل. فأصحابها هم الذين تكلموا بها عفويا ولم ينقلوها عن غيرهم. وأكثر هذه النصوص هي من الكلام المنثور وفيها، على كل حال، الكثير من الشعر وبعض الأبيات سمعت مع كلام آخر منثور وكذلك العدد الكبير من القصائد سمعت ودوّنت منذ بداية عصر التدوين كقصائد شعراء بني أمية ومن جاء بعدهم.يقول سيبويه: «وزعم يونس أنه سمع الفرزدق ينشد» (1،253) «وزعم عيسى أنه سمع ذا الرمة ينشد هذا البيت نصبا» (250) .

---

(13) – أنظر في ذلك المحكم لأبي عمرو الداني،22.
(14) – وكتب أبي يوسف و الشيباني في الفقه ثم الدواوين المحققة بطريقة علمية في القرن الثالث و غير ذلك.

فهذه النصوص العفوية تزخر فيها الحياة لأنها تتراءى فيها ما كان يعيشه يوميا العربي من أعراب وحضر. فأين توجد هذه النصوص وهل كان المنثور موضع تدوين مثل الشعر وجميع ما دوّن ونشر من النصوص المحفوظة؟

إن هذا الكلام المنثور المأخوذ من لغة التخاطب اليومي كثر مجيئه كشواهد في كتب النحو فسيبويه يذكر منه مجموعة كبيرة جدا ويقارن دائما بين ما يسميه «الكلام» وهو هذا الكلام المنثور من كلام العرب وبين الشعر. يقول: «سمعناهم يتكلمون به في الكلام سمعناهم يقولون: قدى في قدْ ويقولون: ألِي في الألف واللام يتذكر الحارث ونحوه ....»(303-1/304). «وهذا كلام أكثر ما يكون في الشعر وأقل ما يكون في الكلام» (1/277)؛ «وهذا قليل في الكلام كثير في الشعر لأنه ليس بفعل»(1/277) «وما حُذف في الكلام لكثرة استعمالهم كثير» (279) «لأنهم يدعون هذه الهاء في كلامهم وفي الشعر كثيراً» (37).

فكما رأينا وخلافا لما يدّعيه بعض المحدثين فإن سيبويه والنحاة العرب عامة لا يخلطون بين لغة الشعر ولغة الكلام العفوي. فبعض ما يكثر في الكلام العادي كالتوقف بين كلمة وأخرى لا يأتي بالطبع في الشعر وللشعر ضرائر لا يعرفها النثر (وقد تعرضوا إلى ذلك باستفاضة) ولكن العلماء العرب لم يرتكبوا هذا الخطأ الفظيع الذي يجعل من الشعر لغة مشتركة أدبية تختلف عن «اللغات» التي يزعمون أنها لا توجد إلا في التخاطب العفوي وقد أفضنا في الرد على ذلك فيما سبق.

وهناك نوع خاص من الكلام المنثور هو الكلام الجامد الذي لا يجوز استعماله إلا على الصورة التي سار بها بين الناس وهي الأمثال **وما يجري مجراها** من التراكيب الجامدة. وذكر النحاة الكثير من هذا النوع من النثر. والأمثال وما يجري مجراها وإن كانت نثراً فإنها من نوع النصوص المحفوظة ينقلها بعضهم إلى بعضهم كما وردت وهي بذلك قريبة من الشعر لكونها تسير بين الناس. وجزء كبير من اللغة هو عبارة عن تراكيب تحفظ كما سُمعت وتشترك في وجودها كجزء كبير من المعجم في جميع اللغات البشرية وهو ما يسمى بالــ Idiotisms.

ودّون العلاء أيضا الكثير مما سمعوه من كلام العرب غير الشعراء وكانوا يُمْلُون على تلاميذهم في دروسهم نصوصا نثرية كاملة ومختصرة ويعلقون عليها من جميع جوانبها اللغوية والدلالية والنحوية والصرفية. وهؤلاء العلماء هم أبو عمرو بن العلاء وتلاميذه الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد والمفضل الضبّي وابن السكيت واللحياني وغيرهم. كما ألف في الأمثال الكثير من العلماء الأولين(15).

وقد رتب ونشر بعض الإخوان في زماننا ما وجدوه في كتاب سيبويه من شواهد نثرية فأكثره هو سماعه من فصحاء العرب لمخاطباتهم اليومية غير المتكلفة وبهذا يختلف تماماً نحو سيبويه وجميع القدامى من نحو المتأخرين: فالقدامى عاشوا في زمان الفصاحة وشافهوا فصحاء العرب كما قلنا وسجلوا ما كانوا يسمعون منهم من مخاطباتهم ولم يتركوا من ذلك شيئا على الإطلاق بل سجلوا كل العبارات العفوية من تلك التي تدل على حيوية العربية الفصيحة وسجّلوا كل صغيرة وكبيرة ولاحظوا كثرة الحذف والاختزال والإدغام والتخفيف والقلب والتقديم والتأخير فكتبوا كل ذلك بأمانة فائقة لم يُشاهد ذلك عند أية أمة أخرى. وكتاب سيبويه يزخر بهذه العبارات من الكلام المتخاطب به وفي مقامات متنوعة وفعل مثل ذلك أصحابه(16).

ونشرت هذه الدروس أو لخّص منها في مجموعات سميت «بالمجالس» أو «الأمالي» في زمان متأخر جداً عن زمان السماع فوقع هنا ما يقع عادة لما هو خاص بحياة الناس وأحداثها وهو ما حيكَ من الكلام والحكايات التي لا دليل لنا على صحتها أو صحة نسبتها إلى فصحاء العرب. فالكثير منها قد يكون له أصل صحيح ولكن لا يمكن أن يتحقق من ذلك. والطامة الكبرى في ذلك تتمثل في الموسوعات الأدبية كالأغاني والعقد الفريد والكثير من كتب الأدب –و أصحابها لم يكونوا من علماء اللغة– وكذلك كتب الطبقات المتأخرة فإن

---

(15) – نذكر منهم: أبا عبيد وأبا عكرمة الضبّي والمفضّل بن سلامة (كتاب الفاخر) وغيرهم.

(16) – وكان همّ المتأخرين وهي نزعة قديمة بدأت مع تأليف المختصرات في النحو– تقعيد القواعد على شكل محـررّ مع السكوت عن هذه العبارات الحية إلا ما تناقلوه وجعلوه من الشاذ عن قواعدهم. وسنعود إلى هذا الموضـوع إن شـاء الله.

أصحابها رجعوا إلى تلك الصحف التي نبذها العلماء الفطاحل وكل ما روى في كتب الأدب ولم يمنعوا بذلك أن يختلط السماع الصحيح بالزائف.

هذا وإن صعب على اللغويين أن يحافظوا على سماعهم من الكلام المنثور فإن الأمثال وما يجري مجراها من التراكيب الجامدة لم يصبها ما أصاب كلام التخاطب لشبهها بالشعر من حيث سريانها بين الناس. فأصاب كما قلنا المسموع من كلام العرب غير الشعري وغير الأمثال كارثة الاختلاق بالزيادة والتغيير المتعمد وذلك بوجود هؤلاء المؤلفين للكتب الأدبية غير النزهاء أو المتسامحين منهم إذ كان قصدهم من التأليف **الإمتاع لا إثبات المعلومات** والتحقّق من صحتها في غالب الأحيان.

الفصل الثاني

مقاييس الصحة لمحتوى المسموع

I - المقاييس العامة :

يعتمد علماء اللسانيات الغربيون في وصفهم العلمي للغات على ما يسمونه بالمدوّنات اللغوية (Linguistic Corpus) وهي عبارة عن مسموع مسّجل يتكون من كلام تكلم به بعض من يمثل حقّ التمثيل اللغة المراد وصفها. والسؤال الذي يجب أن نطرحه بالنسبة لدراستنا هذه هو:هل المسموع العربي الذي سبق أن وصفناه: يوافق أو يخالف محتواه التصور الذي يتصوره هؤلاء العلماء الغربيون في زماننا لما سموه بالــ Corpus ؟

يحدّد البنويون (Structuralists) من اللسانيين الغربيين مفهوم المدونة اللغوية هكذا: «هي مجموعة من النصوص جُمعت في مكان معين وزمان معين[1] بغيةَ وصفها الوصف العلمي من الناحية اللغوية». وتعتبر هذه المجموعة كمجموعة معطيات وإذا تم الجمع فلا يجوز أن تُمسّ بتغيير أو بزيادة أو بحذف ويتوقف وصف اللغة بالاعتماد على ما يوجد فيها ليس إلا[2]. وما يتصف به هذا النوع من المدونات هو استجابته لما يتطلبه التشدّد العلمي لأننا نخشى، إذا لم نتقيّد بذلك، أن يكون وصف الباحث للغة من اللغات، هو في الواقع، وصف للغة الباحث نفســه وربما لما له من لغتــه الخاصــة[3]. ويقول أحد هؤلاء العلمــاء وهو كَريمــاس (A.-J. Greimas) : «يشترط في إنشاء المدونات ثلاثة شروط وهي: أن تكون ممثلة للغة وشاملة وغير مختلطة»[4].

---

(1) – أنظر F.François في بحثه: La description linguistique في Le Langage ص143.
(2) – راجع مارتيني في كتابه: مبادئ اللسانيات ص31.
(3) – نفس المصدر
(4) – في كتابه Sémantique structurale ص143

وعلى هذا فالمدونة عند هؤلاء هي مجموعة من النصوص تجمع مرة واحدة على اتصال حتى يمكن أن توصف اللغة التي تنتمي إليها هذه المدونة بكيفية موضوعية. ولابد أن تمثل هذه النصوص حالة لغوية واحدة معينة لتلك اللغة ومعنى ذلك أن تؤخذ النصوص في زمان معيّن وفي المكان المعين الذي يوجد فيه الناطقون بها. أما أن تدخل في هذا التمثيل كل العبارات التي نطق بها هؤلاء الناطقون فهذا متعذر والمقصود هو أن تكوّن المدونة عيّنة فقط من هذا الكلام وهذا يقتضي أن يبلغ حجم المدونة مبلغاً يتحقق به التكرار أي أن يكون «مغلقا على نفسه» كما يقول اللسانيون ويعنون بذلك أن يكتمل حجمه بحيث توجد فيه جميع عناصر اللغة ممثلة. ولنلاحظ أن ما جاء به البنويون من جديد هو إغلاق المدونة وأنماط تراكيبها والامتناع المطلق بالتالي من أي زيادة فيه. فهل هذا التصور يوافق أو لاَ يوافق التصور العربي لما سمعه العلماء العرب؟ يجب أن نقول قبل كل شئ أنّ المدونة اللغوية ليست بالضرورة مجموعة نصوص مستقلة يقوم بجمعها لغوي واحد إذ يمكن أن نتصور أن يكون عدد من اللغويين يشتغلون بنفس اللغة ويقوم كل واحد بتحريات ميدانية حول اللغة المعينة فإذا صحّ أن نسند ما يجمعه كل واحد منهم إلى نفسه فلاَ مانع أن نقول عن مجموع هذه المدونات حول اللغة الواحدة أنها المدونة أو المسموع المدون عن هذه اللغة.فهكذا كان مسموع العلماء العرب القدامى.

هذا وينبغي أن نتساءل عن اختيار ما جمعوه من النصوص على أي مقياس علمي حصل ذلك. يجب أن نعترف أن المسموع العربي هو مجموعة من النصوص جمعت في داخل تراب معين حدّد العلماء تخومه وسكانه. واعتبروا أيضا أنه غير قابل لأي تغيير من قبل الآخذ المدّون إذ لا يجوز أبدا أن يضيف اللغوي أي شئ ليس منه. فأي نص أو عبارة سمعت من أهل اللغة يجب على اللغوي أن **يدوّنها كما وردت** عند أهل هذه اللغة وهم هنا فصحاء العرب وحدهم لأنهم هم وحدهم يتكلمون بالعربية الفصيحة هي وحدها واكتسبوها من بيئتهم الفصيحة تلقائيا(5) وتمثيل مسموعهم للغة العربية لا شوبة فيه كما سبق أن رأينا.

---

(5) – وقد يتهاون في ذلك بعض البنويين بالنسبة إلى اللغات الحديثة فالفصيح ليس فصيحا بلغة من اللغات بل بأي لغة يدّعي الناطق بها أنه يتكلم بلغته الأصلية التي تعلمها من بيئته الأولى دون أية لغة أخرى و يبدو صراحة انه لم يتأثر بلغة أخرى فهو بذلك فصيح بالمفهوم العربي الذي وجدناه عند العلماء القدامى. وهذا الفصيح هو ما يسمّيه اللسانيون بـــ: Native Speaker وقد سبق أن ذكرنا ذلك في الباب الأول.

والاعتراض الوحيد الذي يمكن أن يوجّه إلى مسموعهم بحسب مفهوم المدونة اللسانية البنوية هو الاتساع الكبير لأماكن الفصاحة التي سمع فيها أو روي عنهم. فمن ثم يمكن أن يكون حصل اختلاط اللغات أي الاستعمالات اللهجية المختلفة في داخل المدونة الواحدة والمفروض هو أن يكون محتواها اللغوي منسجما لا اختلاط فيه. فكثيرا ما يقول اللغويون أن هذه لغة قديمة ثم إن هناك سماعا حصل بعد سيبويه (وبعضه كان في زمانه على يد الكوفيين) كسماع بعض ربيعة يقفون على المنصوب بالسكون. فهذا شئ لم يعرفه سيبويه وعرفه الأخفش تلميذه وربما أخذه -كأشياء كثيرة أخرى- من الكوفيين. وخلاصة القول في هذا الاعتراض الذي يجعل من مسموع العلماء العرب شيئًا بعيدا عن المدونة اللغوية الحديثة، هو تغطيته لمكان واسع جدا ولزمان طويل جدا يتعذر أن تبقى اللغة فيه على ما كانت عليه.

يمكن أن نجيب عن هذا الاعتراض بما يلي:

فإنه غير صحيح أولا أن لا يمكن أن تحتوي المدونة اللغوية- في أي وقت كان- إلا على استعمالات مطردة منسجمة وألا تكون منها عناصر قديمة أو محدثة أو بعبارة أخرى ألا تحتوي على تحوّلات زمانية (دياكرونية) بدعوى أنها تختص بحالة أو وضع واحد للغة في زمان واحد. والواقع أن في داخل الحالات اللغوية المستقرة يمكن أن نكتشف بقايا من نظام لغوي قديم جدا والكثير من الشواذ عن القياس هي من هذا الجنس وذلك مثل الأسماء لغير العاقل التي تجمع جمع مذكر سالم في العربية : مثل الأرضين والعالمين وغير ذلك.

يقول Greimas بهذا الصدد: «إن التغييرات الصادرة من المتكلم تتكرر في داخل المدونة الفردية : فما يصدر من كلام من متكلم واحد يحصل بالضرورة في محور الزمـــان [وهو غير خارج عن الزمان] [6]. ثم إذا كان هناك كلام تفصله عن كلام آخر[بنفس اللغة] بمدة ثلاث ثوان أو بمدة ثلاثة قرون فهذا لا يغيّر جوهر علاقاتهما الزمانية»[7] .ويصرح مارتيني أن «كل لغة تصاب بالتغيير في كل وقت ... فيكفي أن ننظر مجارى استعمالها بالتفصيل

(6) - Sémantique Structurale، ص145.
(7) - نفس المصدر 149

لنكشف عن بعض المسائر التحويلية يمكن أن تفضي بها بعد مدة طويلة إلى لغة غير اللغة الأولى» (8) .

وعلى هذا فليس من مدونة إلا وفيها هذه الاختلافات الناتجة عن التحوّل الطبيعي عبر الزمان. هذا وما يسمونه بـــ «الحالة اللغوية» هو مفهوم جدّ نسبي. فقد بيّن العلماء الآن وخلافا «للنحاة المحدثين» (9) أن التحولات الصوتية في اللغات تحصل دفعة فهي تحوّلات في كيفية التلفظ بحرف مفاجئة تطرأ فجأة وتبقى بجنبها الكيفية القديمة ودرجة انتشار النطق الجديد أو بقاء النطق القديم قد لاحظه علماؤنا (10).

فهل معنى ذلك أن يمكن أن يأتي في نفس المدونة نصوص تنتمي إلى عصور مختلفة كالفرنسية أو الإنكليزية القديمة والفرنسية أو الإنكليزية المعاصرة؟ بالطبع لا. لأن النظـــام اللغـــوي لكل واحدة من هاتين اللغتين في هذين الزمانيين مختلف تماما فالفرنسية المعاصرة لغة أخرى غير اللغة الفرنسية التي تكلم بها أهل العصر الوسيط. وعلى هذا فإن المقياس العلمي الأساسي هو ثبوت النظام اللغوي. نعم يمكن أن تحصل تغيرات في هذا النظام – ويستحيل ألا تحصل– إلا أنها قد تكون جزئية ولم تعمّ كل النظام بل بعض العناصر اللغوية ويبقى النظام بالرغم من ذلك هو هو بحيث يمكن أن يحصل به التفاهم وأن يفهم خاصة رجل من عصرنا ما حفظ من كلام رجل سابق عاش في عصر آخر. فاللغة وإن كانت قد أصابها التغيير فلا يزال يحسب أصحابها بأنها نفس اللغة التي عرفها أجدادهم من خلال ما وصلهم من كلامهم. وهذا يشير إليه اللغوي الفرنسي الكبير أنطوان مايي (A. Meilllet) فيما يخص اللغة اللاتينية بأنهـــا قد بقيت بالرغم مما أصابها من التغيرات الجزئية ... «لغة أوربا الرومانية من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن السادس بعده» (11).

---

(8) – Eléments 173-174.

(9) – هم Yunger Grammatikers الألمان أصحاب النظرية الخاصة بقوانين التحوّل اللغوي.

(10) – أنظر خصائص ابن جني: 386/1 حيث يستعمل المصطلح «لغة قديمة».

(11) – في كتابه: Linguistique historique et Ling.générale ص121. وقد يناقض هذا تحديد العلمـــاء العـــرب للفصيح بعدم تغيُّر لغته و الحق أن التغير في تحديد الفصيح يخصّ الفرد ومخالفته لغة الجماعة. أما الجماعة فالتغيُّر فـــي لغتها يؤدي حتمًا إلى تحولها إلى لغة أخرى إلا إذا كان طفيفا جزئيا لا يخل بالنظام النحوي الصرفي (مثل الوقـــف علـــى المنصوب بالسكون و التخفيف الذي لا تسقط به علامات الإعراب في الدّرْج).

فالغاية التي كان يرمي إليها اللغويون العرب لم يكن الوصف لطور من أطوار اللغة العربية في أثناء تطوّرها ولا الوصف لأسلوب خاص بزمان معين بل هذه العربية التي نزل بها القرآن الكريم التي كانت تمكّن بدويا من القرن الثالث الهجري أن يفهم أكثر ما قاله شاعر من القرن الأول أو ما قبله. فهناك شبه عميق نجده بين التفاهم الذي يحصل عبر الزمان بالتفاهم الذي يحصل عبر المكان لأنه كلما ابتعدنا من وسط هذا الزمان أو وسط هذا المكان صار التفاهم اكثر فأكثر صعوبة وأقل فأقل إمكانا.

فالتحوّلات التي تصيب اللغة في الزمان كالتحولات التي نجدها في داخل الأرض الواحدة: ثبوت النظام اللغوي أو تحوّله جزئيا أو كليا يمكن أو يعوق تدريجيا هذا التفاهم حتى يصير ممتنعا تماما لتحوله إلى نظام آخر أي إلى لغة أخرى (12).

وعلى هذا فإن العلماء العرب كانوا يقصدون هذه العربية كنظام لغوي خاص ثابت عبر المكان والزمان يُمكن أن يعرف بمقياس واحد وهو إمكانية التفاهم به إلى أن يصير ذلك ممتنعا.

ا- خصائص المسموع اللغوي العربي ونقد المفهوم البنوي للمدونة

يحتاج مفهوم المدونة الذي تصوره البنويون إلى نظر ومناقشة. فلا بد من أن نقول بالنسبة إلى اللغوي العربي القديم بأنه لم يفكر في يوم من الأيام أن يعتمد في وصفه للغة العربية على مدونة مغلقة تدون مرة واحدة ونهائية «حتى يتفادى كما يرجوه البنويون المحدثون، ما يمكن أن يحدثه هو نفسه من الكلام الذي يوافق مذهبه اللغوي ويمزجه بكلام غيره ممن سمع منهم». فهذا الاهتمام بالموضوعية هو في حد ذاته محمود جدًا إلا أن الحل الذي يقترحونه لضمانها وهو إغلاق المدونة هو شئ غريب عنهم (ظهر مع هؤلاء البنويين في زماننا فقط). فما كانوا يدونونه منذ أول سماع يبقى طوال السنين مفتوحًا ونعني بذلك ما سبق لنا أن قلنا بأن أي لغوي في ذلك الزمان (زمان التدوين) كان يمكنه أن يسمع من

---

(12) - هذا قد لا ينطبق في زماننا على أكثر البلدان.

فصحاء العرب في أي وقت شاء وان يروي من شيوخه ومما سمعه منهم. فسماع هذا اللغوي لا ينحصر فيما سمعه هو ودوّنه بنفسه مباشرة من فصحاء العرب – وكان يمكن أن يكتفي به في نظر البنويين – بل يتألف من جميع المعطيات اللغوية التي وصلت إليه إلى حدّ ذلك الوقت. ويكوّن هذا الذي تجمّع من سماعه وسماع غيره طول حياته مجموعة مكتملة من النصوص مهما كان. إلا أن هذا المسموع يبقى عند هذا اللغوي مفتوحا في كل وقت ما دام يشتغل بالبحث في اللغة العربية. والواقع أن اهتمام العلماء القدامى كان منصبا دائما على توسيع دائرة معرفتهم بالعربية طوال العصور التي حصل فيها السماع وعلى هذا أضافوا إلى ما كان عندهم كل المعطيات التي لم تسمع بعد إلى غاية زمانهم وزد على ذلك اهتمامهم العظيم في التأكد من صحة ما وصل إليهم والوقت الطويل جدا الذي كانوا يقضونه في التحقيق للمعطيات فلا نبالغ إذا قلنا أن جلّ أعمالهم في السماع كان ينحصر في تفقدهم في عين المكان أو عند الثقات من العلماء الاستعمال الحقيقي لعدد كبير من ضروب الكلام وعن مدى شيوعه عند أكبر عدد ممكن من العرب الموثوق بعربيتهم كما رأينا فيما سبق. وكان التحقيق لا يختص بصحة الخبر أو الرواية بل يتناول أيضا – وبكثرة – أقوال العلماء ومذاهبهم العلمية.

فمجموع هذه النصوص المحققة التي قضى في جمعها وتحقيقها العلماء الأولون (والتحقيق للشعر دام إلى عصر أبي سعيد السكري المتوفى في 275) بمثل ما يعادل المدونة اللغوية الحديثة من حيث هي نصوص تمثل بكيفية موضوعية اللغة المراد وصفها فقط.

ويمكن أن يقول قائل: إذا كان الأمر كذلك فبأي شئ كان العلماء العرب المتحرون يعصمون أنفسهم من الأهواء والسلوك غير العلمي كإدخال النصوص التي تناسب أهواءهم ومذاهبهم اللغوية والسكوت عما يعارضهم في ذلك ؟ فإننا رأيناهم بالفعل يبحثون دائما عن معطيات جديدة. أفلم تكن في نيتهم هذه، الرغبة في الانتصار لمذهبهم خاصة ودحض حجج الخصوم بذلك؟.

يمكن أن نقول في الإجابة أنه ليس من الغريب أن يحاول اللغوي الدفاع عن مذهبه بالبحث عن المزيد من الحجج المسموعة من الفصحاء وقد يكون العكس هو الغريب.كما أن اللجوء إلى المدونة المغلقة (مع وجود الفصحاء) لتفادي الذاتية في التحري اللغوي هو أيضا فكرة غريبة. نعم قد وجد منهم –وهم عدد قليل جدا– بعض أهل الكوفة خاصة كانوا يباهون بما وجدوه من غريب العبارات والاستهتار بالغريب من الشعر أو الكلام المنثور فيضيفون إلى المسموع ما لم يقع عليه إجماع في ثبوته. وحصل العكس عند المبرد وهو الردّ الباتّ لكل مسموع لا يوافق مذهبه. والحق أن هذا لم يحصل **بتاتا** عند الأكثرية الساحقة من العلماء وخاصة عند سيبويه وشيوخه وسيردّ على المبرد العلماء في ذلك ردّاً شديداً كما سنراه فيما يلي.

فعلى الرغم من وجود هذا العدد الضئيل من اللغويين غير النـــزهاء فإن ما يوجّه إليهم من عدم التحرّج في الرواية والسماع لا يمكن أبدا أن ينطبق على الجماعة وذلك لأسباب كثيرة منها:

1– أن اللغوي العربي الذي ينتمي إلى هذه الجماعة لا يعتمد فقط في الوقت الذي يقوم بتحليل المعطيات اللغوية طوال عمله هذا على ما سمعه ودوّنه هو بنفسه بل أيضا على جميع المسموع أي كل ما سمعه ودوّنه العلماء إلى ذلك الوقت وكان تحت تصرفه [13] وفي متناول يده: من قراءات قرآنية وشعر جاهلي وإسلامي والآلاف المؤلفة من العبارات التي تكدّست في المسموع عن الفصحاء منذ بداية السماع والتدوين.

2– ثم إن هذا المسموع كان لا يجوز للغوي أن يمسّه بتغيير أو زيادة إطلاقاً [14]؛ فإن جاز أن يزيد في حجمه بإضافة ما سمعه من معطيات جديدة فلا يتم له ذلك إلا بإجماع العلماء على صحته أي بأن يكون كل العلماء أو أكثرهم سمعوا ذلك فلا يعترض على صحته

---

(13) – وهذا ظاهر في كل صفحة من كتاب سيبويه.
(14) – سنرى أن ما ادعاه أبو أحمد العسكري –بعد ابن قتيبة– من تحريف النحاة للشعر هو كذب فظيع جدا بالنسبة للفطاحل من العلماء.

أي واحد: **فعدم اعتراض العلماء اللغويين على ما يرويه أحدهم هو الدليل الأهم عندهم على صحة روايته.** وقد يحصل ذلك باتفاق ما سمِعَه العلماء بدون قصد للتحقيق. وكل ما يسمع من المعطيات فيبقى موضوع شك مالم يحصل هذا الإجماع على عدم الاعتراض. وعلى هذا فالسماع عند العرب هو **دائما سماع جماعي:** فما يعتمد عليه اللغوي هو **مسموع كل واحد من العلماء** مما أجمع عليه من معاصريه وممن سبقوه. أما ما ينفرد به أحدهم فيقبل إذا كان ثقة ولا يكون ذلك من العلم المقطوع به مع ذلك:فالمجمع عليه هو وحده المقطوع به. وهذا الذي انفرد به أحدهم هو في الغالب غلط أو توهم ولا يقبل إذا عارضه سماع آخر كثير في نفس الشاهد (من العلماء الثقات) .

فاللغوي العربي الذي ورد منه سماع من الفصحاء فليس إلا فردا من هذه الجماعة التي تعاون أفرادها على السماع الواسع وتتالوا في الزمان إلى غاية اختفاء الفصاحة العفوية. فهو يمثل كل الجماعة إذا كان ممن وثق به العلماء وبما يرويه. وهذا التصور للسماع اللغوي بني كله **على مفهوم الإجماع أي الحجة التي أساسها الجماعة ليس غير** .

3- فيستنتج من ذلك **أولا:** أن اللغوي وغيره لا يمكنه أبدا أن يصرح بأي شيء يخص: الوجود بالفعل لضرب من الكلام أوصيغة مفردة أو تركيب بدون رجوع دقيق إلى هذا المسموع الجماعي وبدون الاحتجاج به.

ثانيا: أن هذا السلوك العلمي هو الذي يمنع الباحث من أن يقول بهواه لان هذا الهوى من المحال أن يشاركه فيه جميع العلماء المعاصرين له والسابقين عليه. فهذا هو أصح ما يمكن أن يوثق به خبر وأنجع وسيلة لتحقيق الموضوعية.

فالرجوع إلى «عالم من المعطيات» تصوّره العلماء كمجموع المشاهدات والعمليات السماعية التي أُجريت وأجمع على صحتها بتوافق تامّ بين مسموع بعضهم ومسموع بعضهم الآخر يبدو لنا **أقرب بكثير إلى السلوك الذي يتصف به العالم المتعطش في الوقت نفسه إلى الزيادة في العلم وإلى التشدّد الكبير في قبول المعطيات.** وهذا أبعد ما يكون من مفهوم المدونة المغلقة .

هذا وصحيح أن البحث عن المعطيات المتقطع، من هنا وهناك، وفي أي زمان قد يدعم عند بعض الباحثين ما يكون فيهم من الذاتية التي تساعد على التوهم والشبهة. إلا أن السلوك المعاكس المتطرف الذي يؤدي بالباحث إلى أن يغلق مدونته كما يفعله الوصفيون في زماننا ليبني عليها **هي وحدها** كل أوصاف اللغة هو سلوك عقيم من الناحية العلمية بل هو غير منطقي إذ ليس من حق أحد أن يطالب الباحث باكتفائه بعيّنة من المعطيات المعينة والمحدودة جدا وأن يمنعه من أن يرجع إلى ما شاهده زملاؤه ومن جاء قبله وأن يمنعه من كل تحقيق بدعوى أن ذلك سيجنّبه الاختيار التعسفي للمعطيات. ويمكن أن نتصور سلوكا آخر أعقل من هذا وهو ما آنتهجه علماؤنا القدامى من توثيق الجماعة من أهل الاختصاص لما يأتي به الباحث من المعطيات وهذا هو أكثر موضوعية من التعسف الذي دعا إليه البنويون من الاكتفاء المطلق بمدونة مغلقة **لأن المنهج العربي هو رجوع إلى المسموع الجماعي لا إلى مسموع شخص معيّن.** وبذلك يعصم الباحث نفسه من الاختيار الذي أساسه الهوى ومما هو في نفس الخطورة وهذا المذهب «الذرّى»[15] الذي اختص به هؤلاء البنويون.

ب- الاعتراضات على الشواهد والمسموع عامة: ما قيمتها العلمية

من المعروف أن الطريقة العلمية السليمة فيمـا يخص تقبّل المعطيـات التي يتحصل عليها الباحثون هو التوقف عن تصديق ما يقوله أو ينقله الباحث مالم يقم الدليل على صحته. وقد يصير هذا التوقف شكاً بل إنكارا بذلك إذا خالف جميع الباحثين الآخرين:وهذا التوقف أو الشك المنهجي هو شيء حاصل في بحوث العلماء القدامى[16]. يقول أحد المعلّقين على كتاب سيبويه بخصوص صيغة الفعل: «أما جَبَى يجبىَ وقَلَى يقلَى فغير معروفين **إلا من وُجيه ضعيف فلذلك أمْسَكَ عن الاحتجاج لها** وكذلك : عضضت / تعض غير معروف»[17] (254/2) يعني «بالوجه الضعيف» الرواية الضعيفة وهي التي لم ترد عن ثقة أولم تسمع من

---

(15) – سمى بذلك لأنه يقتصر دائما في تحليله للظواهر على تجزئة الشيء المشاهد إلى أصغر الأجزاء.
(16) – ونسبه الغربيون كمنهج علمي إلى أحد فلاسفتهم وهو ديكارت.
(17) – هذا الكلام هو تعليق لأحد العلماء لم يذكر اسمه اختلط بكلام سيبويه وبيّن ذلك الدكتور ماهر عبـاس جلال باعتماده على شرح ابن خروف (مجلة المجمع الأردني، العدد 64 (2003) ص187).

فصحاء العرب. وقال سيبويه أيضا عن عيسى بن عمر الثقفي – وهو عالم كان أسنّ منه بكثير وهو من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء وزميل للخليل بن أحمد: «وزعم عيسى بن عمر أن ناساً من العرب يقولون : «إذنْ أفعلُ ذاك» في الجواب. فأخبرت يونس بذلك فقال: لا تُبعِدَنَّ ذا ولم يكن ليروي إلا ما سمع» (412/2) . هذا ولم نعثر عند سيبويه إلا على اعتراضات قليلة بالنسبة لما كان سمعه من شيوخه. وهذا دليل لا على تسامح سيبويه وقبوله لكل ما يروى له بل للأمانة العظيمة التي كان يتصف بها العلماء الأولون [18]. وشهادة الجاحظ على ذلك معروفة: «فالعلماء الذين اتسعوا في علم العرب متى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم هم الذين نقلوا إلينا وسواء علينا جعلوه كلاما وحديثا منثورا أو جعلوه رجزا أو قصيدا موزونا» (الحيوان 4/ 184) .

وهناك مثال آخر لهذه الأمانة التي عرف بها علماؤنا القدامى فقد قدّم أبو حاتم السجستاني[19] اعتراضا على ما حكاه له شيخ الجيل في ذلك الزمان وهو أبو زيد الأنصاري: قال في كتاب المذكر والمؤنث: «وحدّثني أبو زيد أنه سمع من العرب من إذا قيل: أين فلانة وهي حاضرة قال: «هاهوذه» فأنكرته وتعجّبت **فرددته** مستفهمًا. فقال **سَمِعتُه من أكثر من مائة نفس** وكان صدوقا» (المذكرّ والمؤنث، ص 210).

1- التعسّف في ردّ الرواية: اشتهر بذلك المبرد وحده

إن أول من اعترض على بعض الشواهد التي احتج بها النحاة–وبشدة لم يُرَ لها مثيل– هو كما سبق أن قلنا، أبو العباس المبرد النحوي الذي تتلمذ على المازني والجرمي وهما من تلاميذ الأخفش صاحب سيبويه. وذلك في مختلف كتبه منها الكامل والمقتضب وخاصة كتابه الذي ألفه في شبابه المسمى بـــ «مسائل الغلط» [20]. وقد ردّ عليه الكثير ممن جاء بعده من علماء

(18) وسنرى أن كل ما قيل فيهم هو من اختلاف الرواية ومما قاله الضعفاء من العلماء من ذوي الدراية القليلة و الرواية غير المأمونة.

(19) – وكتابه المذكر والمؤنث ذكره صاحب الفهرست و غيره. بخلاف كتب أخرى نسبت إليه و ليست له ككتاب «فعلت وأفعلت وكتاب المعمرين» وما نسب إليه في هذا الذي لم يذكره أحد من العلماء في أي زمان وهو «فحولة الشعراء» بل جاء متناثرًا في الموشح للمرزباني.

(20) – فيه 131 مسألة وردّ على كل ما قدمه فيها من نقد لسيبويه ابن ولاد وهو من تلاميذه (المتوفى في 332) في كتاب رائع سماه: «الانتصار» (طبع حديثا).

العربية وهناك من حذا حذوه في ردّ الرواية وهو ابن قتيبة وهو معاصر له وادعى المبرد صراحة بتغيير سيبويه للرواية وسنرى مدى التعسف الذي وصل إليه هذا القول وغيره بشهادة العلماء العرب أنفسهم.

فمما اشتهر من ردود المبرد على روايات سيبويه ردّه لرواية هذا البيت:

وكم مَوْطن لولايَ طِحْتَ كما هوى بأجرامه من قُلّة النيق مُنهوي

فينكر المبرد[21] أن تأتي لولا مع ضمير متصل فيجب أن يقال : لولا أنا[22] حسب زعمه.

وقال السيرافي شارح الكتاب وهو تلميذ ابن السرّاج والزجاج صاحبي المبرد ما يلي: «كان أبو العباس المبرد يُنكر لولاي ولولاك ويزعم انه خطأ لم يأت عن ثقة وان الذي استغواهم بيت الثقفي وأن قصيدته فيها خطأ كثير... وما كان لأبي العباس أن يُسقط الاستشهاد بشعر قد روى قصيدته النحويون وغيرهم واستشهد بهذا البيت وغيره من القصيدة **ولا أن يُنكر ما أجمع الجمــاعة على روايته عن العرب**» [23]. وقال الأعلم الشنتمري : «**ثم أجمع النحويون المتقدمون من البصريين والكوفيين على الرواية عن العرب** لولاك ولولاي واستشهد سيبويه ببيت يزيد بن الحكم الثقفي... وردّ المبرد على ما رواه سيبويه...»[24] ثم نقل الأعلم ما قاله السيرافي.

2) ردّ المبرد فيما يخص البيت للفرزدق الذي أعمل فيه «ما» مع تقدم الخبر وهو:

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتَهم إذْ هم قريشٌ وإذ ما مِثْلَهم بَشَرُ

---

(21) – واتبعه أبو أحمد العسكري في نهاية القرن الرابع في كتابه «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف». وكذلك بعض المحدثين وردّ على هؤلاء خاصة بما ذكره ابن السيرافي الدكتور جمعة في كتابه عن شواهد الشعر في كتاب سيبويه والدكتور حسن موسى الشاعر في كتابه:اختلاف الرواية في شواهد سيبويه الشعرية بحُجج جدّ مقنعة.
(22) – أنظر الكامل للمبرد، 247/3.
(23) – شرح الكتاب، تحقيق ع. هارون، 388/2 (في الهامش).
(24) – النكت في شرح الكتاب، 664/1.

قال ابن ولاد: «إنما هي رواية عن العرب والحاجة في مثل هذا على العرب أن يقول لهم: لِمَ أعربتم الكلام هكذا من غير ضرورة لحقتكم؟ أو يكذّب سيبويه في روايته وهو غيره بخلاف هذه الحال. وإذا كان غيرَ مكذَّب عنده فيما يرويه وكانت العرب غير مدفوعة عما تقوله مضطرّة بالوزن أو غير مضطرة فعلى النحوي أن ينظر في علته وقياسه... فأما قوله: «الفرزدق لغته رفع الخبر مؤخرا فكيف ينصبه مقدما؟ [فابن ولاد يجيبه هكذا:] «ليس ذلك بحجة **لأن الرواة** عن الفرزدق من **الشعراء قد تغيّر البيت على لغتها وترويه على مذاهبها** فيما يوافق لغة الشاعر ويخالفها **ولذلك كثرت الروايات في البيت الواحد**. ألا ترى أنّ سيبويه قد استشهد ببيت واحد لوجوه شتّى. وإنما ذلك **على جهة ما غيّرَتْه العرب بلغتها لأن لغة الرواة من العرب شاهد** كما أن قول الشاعر شاهد إذا كانا فصيحين. فمن ذلك ما أنشده سيبويه لزهير:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى　　　ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

ورواه أيضا: ولا سابقا شيئا في موضع آخر. وكذلك أنشد قول الأعور:

فليس بآتيك منهيها　　　ولا ناصر عنك مأمورها

بالرفع والجرّ وهذا كثير (الانتصار، المسألة السابعة، 17- 19). ولابد من الإشارة إلى أن سيبويه قال عن إعمـــال ما مع تقديم الخبر بأنه «لا يكـــاد يُعرف» (29/1). فليس يدافع عن أية قاعدة وإنما روى ما سمعه وصرّح أنه قليل جدّا.

3) واستشهد سيبويه ببيت لجرير:

ألا أضحتْ حبالُكم رماما　　　وأضحت منك شاسعةً أماما (343/1) وروى المبرد عن عمـــارة بن عقيل[25] الشطر الثاني هكذا: وما عهدٌ كعهدك يا أُماما والشاهد عند سيبويه هو في الترخيم (حذف التاء في أمامة) بغير نداء للضرورة (كما يفهمها العلماء الأولون). وقال

(25) – من أحفاد جرير. والبيت موجود في ديوان جرير كما رواه المبرد.

ابن السيرافي: «وأقرب الأحوال في هذا أن يكون الإنشادان روايتين ويكونان بمنزلة بيتين. فيكون كل إنشاد يُحتجُّ به على اللفظ الذي ورد عليه. ولا تُردّ كل رواية بالرواية الأخرى» (14/2).

وأُقحم هذا البيت كما أنشده المبرد وكلام للمبرد[26] في نوادر أبي زيد يقول فيه عن إنشاد سيبويه: «وهذا شئ يصنعه النحويون ليعرّفوك كيف مجراه متى وقع في شعر...» وجاء أيضا في النوادر بعد هذا الشاهد لسيبويه لعبد الرحمن بن حسّان:

«من يفعل الحسنات اللهُ يشكرُها... [قال الأخفش الصغير:] وأخبرنا أبو العباس عن المازني عن الأصمعي أنه أنشدهم: من يفعل الخير فالرحمان يشكره. قال فسألته عن الرواية الأولى فذكر أن النحويين صنعوها ولهذا نظائر...» (النوادر 31-32). فهذا وما سبق ذلك كلام للمبرد حكاه الأخفش الأصغر وأقحم في النوادر!

فالمبرّد كعادته يرد ّالرواية التي لا تناسب رأيه إما بمجرد الطعن في صحّتها وإمّا باتّهام النحاة بتغييرها أو باختلاقها بدون أن يأتي على ذلك بأي دليل. وفي هذا الشاهد بالذات فأقرب الأحوال كما قال ابن السيرافي أن تكون هناك روايتان وسيبويه كما قال الأعلم«أوثق» من أن يتهم فيما رواه (شرحه على هامش الكتاب،343/1).

وكثيراً ما ينفرد المبرد فيما يرويه من بديل وذلك بروايته هو وحده عن المازني عن الأصمعي كالذي حكاه من بديل لرواية سيبويه لبيت عبد الرحمن بن حسان السابق الذكر ويشهد على انفراد المبرد بالرواية والحكم ما قاله أحد العلماء الكبار من معاصري ابن جنى: «قول... : لولاك... جائز عند جميع متقدمى النحاة ومتأخريهم، كوفيهم وبصريهم إلا أبا العباس محمد بن يزيد فإنه كان لا يُجيزه ويطعن فيما ورد في الشعر منه وينسب قائله إلى الشذوذ ومفارقة السماع والقياس ومما جاء في الشعر من هذا قول ابن أم الحكم...» [ويذكر بعد هذا شاهدين آخرين] (الجليس الصالح ، 421/1)

---

(26) – هو بلا شك كلام أبي الحسن الأخفش تلميذ المبرد كما أشار إلى ذلك البغدادي في الخزانة على أنه كلام من شرحه للنوادر(389/1).

4) واستشهد سيبويه بهذا البيت للعجاج:

فقد رأى الراؤون غير البُطَّل أنك يا معاوِ يا ابنَ الأفْضَل (334/1)

كشاهد على حذف الياء والهاء من معاوية أي بترخيمَيْن اثنين[27]. قال ابن السيرافي: «وقد أنكر بعض النحويين إنشاد سيبويه هذا البيت. وقال: إنما هو: إنك يا معاوية ابن الأفضل... فيقال له: لو جاءت رواية بما ذكرت لم يمتنع من قبولها... فإن قال: فأنا لا أنكره ولا أنسب سيبويه إلى تهمة وضع رواية. وسيبويه سمع هذا البيت يُنشد فظنّ أن الياء التي هي من حروف مُعاوي منفصلة عنه وأنها الياء من يا . ولا يمكنكم أن تقولوا إن الذي سمعه سيبويه يُنشد قال لسيبويه: أنا أريد يامعاو بلا ياء وأنادي نداء آخر فأقول: يا ابن الأفضل. قيل له إذا كان سيبويه سمع هذا البيت يُنشد ولفظه يحتمل أمريْن أحدهما ما قاله سيبويه والآخر ما زعمت ورأينا لما قلت نظيرًا في كلام ورأينا لما قاله نظيرًا لم نَعْمد إلى قول سيبويه فنردّه والشعر يحتمله. وأقل الأحوال أن يكونا وجهين في الإنشاد.

فإن قال: وأين وجدتم شعرا فيه ترخيم بعد ترخيم؟ قيل له: قد قال سعد بن المتنحّر:

أيا بَجي أيا بَجي أَدّ أخي إنْ أخي لعنكُم غير دعي

أراد: بجيلَة فرخَّم ترخيما بعد ترخيم.وهذا الشعر يوضح مـــا ذهب إليه سيبويه» (398-396).

5) كما اتهم المبرد سيبويه باللجوء إلى بيت شعر مصنوع في زمانه وهو:

حَذِرٌ أمورًا لا تضير وآمن ما ليس مُنْجِيَهُ من الأقدار

زاعما أن فَعِل كصيغة مبالغة لا تعمل عمل الفعل مثل اسم الفاعل والصفة المشبهة.

ثم روى بهذه المناسبة عن المازني أنّ أبا يحى اللاحقى حكى أن سيبويه سأله عن شاهد في إعمال فَعِل فعمل له هذا البيت! وقال ابن السيرافي بهذا الصدد: «وإذا حكى ابو يحى مثل

---

(27) والشطر في ديوانه هو: أنك يا يزيدُ يا ابن الافحل (شرح ابن السيرافي 395).

هذا من نفسه ورضى بأن يخبر انه قليل الأمانة وأنه أؤتمن على الرواية الصحيحة فخان لم يكن مثلهُ يُقْبل قوله ويعترض به على ما أثبته سيبويه وهذا الرجل أحبّ أن يتجمّل بأن سيبويه سأله عن شئ فخبّر عن نفسه بأنه فعل ما يُبطل الجمال ويثبت عليه عارَ الأبد. ومن كانت هذه صورته بعُد في النفوس أن يسأله سيبويه عن شئ»(ص270) .

هذا الكلام من ابن السيرافي جدّ معقول ولكن أعقل من ذلك هو القول بان مثل هذا الاعتراف هو من المحال إذ ماذا عساه أن يستفيد من هذا الاعتراف المخزى إذ لم يُرْوَ لنا أنه ندم على كذبه ثم أقوى دليل على عدم صحة الحكاية أن أبا العباس المبرد **هو أول من نقد مذهب سيبويه** في إعمال صيغة المبالغة وبشدة كعادته وهو الذي نسب في نفس الوقت إلى المازني- بعد موته بالطبع- حكاية اللاحقى **هو وحده لأننا لم نسمع بهذه الحكاية عن أحد من العلماء غير المبرد وعن طريق المبرد.** فكيف نثق بذلك؟ أيحقُ أن يكون **المبرد المعترض** على رواية سيبويه و**المصدر الوحيد** للحكاية التي تحاول أن تجعل من هذا الشاهد بيتا مصنوعا؟ وهو المصدر الوحيد لأنه لم يروها عن المازني ولا عن أي شخص آخر غيره وقد شاعت هذه الحكاية وانخدع بإسنادها المتصل كثيرون مع وجود المبرد من رجال هذا الاسناد ! [28] وليس هناك إسناد آخر !

6) واستشهد سيبويه ببيت لامرئ القيس:

فاليومَ أشْربْ غيرَ مُستَحقِبِ إثْماً من الله ولا واغلِ (2/297-248)

والشاهد فيه تسكين الفعل المضارع للضرورة بالمفهوم القديم.

وردّ هذه الرواية المبرد وزعم بأن الرواية الصحيحة هي: فاليومَ أُسقَى أو فاليوم فأشرب (حكى ذلك أصحاب ابن السراج والزجاج تلميذي المبرد) وهكذا ورد في الكامل (195/1).

فرد عليه كل العلماء الذين حكوا ذلك عنه مباشرة أو عن تلاميذ المبرد وأشهرهم ابن جنى وشيخه أبو علي الفارسي. قال في الخصائص (75/1): «واعتراض أبي العباس في هذا

(28) - وفي جميع ما يرويه المبرد كبديل لرواية غيره فينفرد أحيانا كثيرة كما قلنا بروايته إما عن المازني أو الجرمي شيخه وإما عن عمارة بن عقيل في شعر جرير.

الموضع إنما هو ردّ للرواية وتحكم على السماع بالشهوة، مجردة من النصفة ونفسه ظلم لا من جعله خصمه وهذا واضح» وقال أيضا:«[و] سيبويه...إن لم يكن أزكى [من القراء] فقد كان أذكى ولا كان بحمد الله مزنّا بريبة ولا مغموزا في رواية لكن قوله: «فاليوم أشربْ غير مستحقب» وقوله: «وقد بدا هَنْكِ من المئـــزر»... فمُسكّن كلُه. والوزن شاهد ومصدقه. وأما دفع أبي العباس ذلك فمدفوع وغير ذي مرجوع إليه. **وقد قال أبو علي [الفارسي]**[29] **في ذلك في عدة أماكن** وقلنا نحن معه ما أيّده وشدّ منه»(2/340-341). وقال في المحتسَب (1/110-111): «وأما **اعتراض أبي العباس** هنا على الكتاب **فإنما هو على العرب** لا على صاحب الكتاب لأنه حكاه كما سمعه ولا يمكن في الوزن غيره. وقول أبي العباس: «إنما الرواية فاليوم فاشرب فكأنه قال لسيبويه: كذبت على العرب ولم تسمع ما حكيته عنهم. وإذا بلغ الأمر هذا الحدّ من السرف فقد سقطت كلفة القول معه وكذلك إنكاره عليه أيضا قول الشاعر: «وقد بدا هَنْك من المئزر» فقال: إنما الرواية: وقد بدا ذاك من المئزر. وما أطيَبَ العرس لو لا النفقة!» .

وقال ابن قتيبة في هذه الرواية-على الرغم من تساهله كما سنراه: «ولولا أن النحويين يذكرون هذا البيت ويحتجون به في تسكين المتحرك لاجتماع الحركات **وأن كثيرًا من الرواة يروونه هكذا** لظننته: «فاليومَ أُسقى غير مستحقب[30]» (الشعر،45) .

7) وأورد أبو العباس ثعلب حكاية هي أشبه بالمُلح والطُرف منها بالحقـــائق. قال: «بعضهم لسيبويه: كيف تنشد: «يا صاحِ يا ذا الضامر العَنْس والرَّحلِ ذي الأقتاب والحِلْس». قال: بالرفع. فقال: فأيش تصنع بقوله:والرحل.قال:من ذا أَفِرُّ.وصعد في الدرجة. قـــال: الشعر معناه: يا صاحبَ العَنْس و«الرحْل.فقال: يا صاحِ يا ذا الضامر العَنْسِ» (مجالس، 275). قدّم ثعلب ردّه على الرواية في شكل مُلحة فزاد على تعسّف المبرد الحكاية المستطرفة! (وروى المبرد هذا البيت بالرفع مثل سيبويه وقال: «يريد الذي ضَمَرَتْ عنسُه»

(29) – هو تلميذ الزجاج كما قلنا.
(30) – ورد هكذا في ديوان امرئ القيس وورد في نسخ الديوان كما رواه سيبويه.

(المقتضب، 223/4) أي: يا هذا الضامرُ العَنْسِ والرحلِ... وليس كما فهمه غير سيبويه: يا صاحبَ الضامرِ العنسِ.

8) واستشهد سيبويه بهذا البيت لعبيد الله بن قيس الرقيات:

لا بارك اللهُ في الغواني فما   يُصبحْنَ إلاَّ لهنّ مُطَّلبُ

وذكرت في الديوان رواية الكتاب ونُسبت فيه للخليل: روى الخليل: «في الغواني هل يُصبحْن» جعل الغواني مثل الضوارب أخرج ذوات الياء مخرج التمام فأعربه (ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، ص3).

وقال أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن: «لا بارك اللهُ... «فإن كانت في موضع نصب حرّكتها لأن النصب ضعيف ويجوز إسكانها في الشعر» (إعراب 241/1) .

وقال في شرح شواهد سيبويه: قال أبو الحسن قال أبـــو العبـــاس: وهذا البيت مغيّر والرواية هي: لا بارك الله في الغواني يُصبْحنَ لهن مُطَّلبُ (ذكره البغدادي في شرح شواهد المغنى 387/4). والعجيب هو أن المبرد قال في المقتضب(142/1) : «فإذا اضطرا إلى الياء المكسورة ما قبلها أن يُعربها في الرفع والخفض فعل ذلك لأنه الأصل كما قال قيس الرقيات: لا باركَ الله في الغواني... لأن غواني فواعل فجعل آخرها كآخر ضوارب».

فهناك تناقض واضح! يزيدنا شكا في نسبة كتاب«شرح شواهد سيبويه» إلى النحاس هذا الذي وصل إلينا من كتابه[31]. كما نعجب لمن احتجّ بما جاء في كتاب شرح الشواهد هذا مع وجود الكلام الموثق الذي قاله أبو جعفر في الإعراب.

وقال ابن السيرافي فيما يخص الاستشهاد عند سيبويه: «هذان الوجهان لا يُدفع جوازهما ولكن الرواية على ما أنشد سيبويه. ولم يقل سيبويه إنه لا يجوز غير ما انشده ولكن أنشد البيت على الوصف الذي روته الرواة وذكر وجه روايته» (39/1).

---

(31) – أنظر ما قاله الدكتور زهير زاهد محقق الإعراب وشرح الشواهد(الإعراب 29/1–30).

ونذكر ههنا أيضا نقدا شديدا لسلوك المبرد لابن وّلاد في ردّه لرواية من روايات سيبويه: «وهذا موضع التكذيب فيه أشبه من التخطئة لأنه ليس بقياس. فقاسه فَيُردّ عليه ويُخطأ فيه وإنما ذكر أن بعض العرب قال ذلك فإن كانت التخطئة لمن قال ذلك من العرب فهذا رجل يجعل **كلامه في النحو أصلا وكلام العرب فرعا فاستجاز أن يخطئها إذا اتهمت بفرع يخالف أصله**... فهذا الذي للنحوي أن يفعله وهو أن يمثل ويعتل لما جاء عن العرب فأمــا أن يردّه فليس له ذلك» (الانتصار، 118).

هذا وأثار سلوك المبرد، زيادة على هذه الردود، انتقادا أشد من هذا لأحد الأدباء من القرن الرابع وهو على بن حمزة البصري (375م) وهو معاصر لأبي علي الفارسي. قال في كتابه«التنبيهات على أغاليط الرواة»: «وكان أبو العباس صحفيا ومن نقل اللغة من الصحف صحّف... وروى بيث امرئ القيس: فاليوم أُسقى... ولم يقل امرؤ القيس إلا: فاليوم أشربْ.وهذا مما اشتهر بتغييره لروايته... ولا سبيل لكاره إسكان«أشربْ» في قول امرئ القيس... والهرب مما يجئ للشاعر الفصيح في شعره مما قد جاءت أمثلة لغيره من الفصحاء جهل من الهارب»(ص117).

وقال أحد تلاميذ المبرد نفسه (وتلاميذ تلاميذه يتحفظون كلهم من ردّه للروايات بل يعارضونه في ذلك[32] وهو أبو إسحاق الزجاج. قال: «أنشد سيبويه وزعم أنه مما يجوز في الشعر خاصة:

إذا اعْوجَجْن قُلتُ صاحبْ قوّم (الكتاب، 325/2) بإسكان الباء وأنشد أيضا: «فاليوم أشربْ غير مستحقِبٍ... فالكلام الصحيح أن تقول: «ياصحبُ أقبلْ ويا صاحبِ أقبل» ولا وجه للإسكان وكذلك: فاليوم أشربُ» وروى غير سيبويه هذا البيت على ضربين: روى:

---

(32) - إنّ هؤلاء العلماء الفطاحل كالسيرافي والزجاجي والرمّاني وأبى علي الفارسي وابن جني هم الذين عرّفوا قيمــة ما كتبه الخليل وسيبويه ورفعوا ذلك عاليا بكتاباتهم العلمية الموضوعية كشروحهم الرائعة لكلام سيبويه وشــيوخه. فهــم يكوّنون في نظري وكما سنراه، المدرسة الخليلية القديمة.

فاليوم أشربْ... ورواه أيضا: فاليوم أسقى... **ولم يكن سيبويه ليروى إلا ما سمع** إلا أن الذي سمعه هؤلاء هو الثابت في اللغة» (معاني القرآن، 136/1-137) .

وقال أبو جعفر النحاس (338م) تلميذ الزجاج وابن ولّاد: «وأما إسكان الهمزة [في: بارئكم] فزعم أبو العباس أنه لحن لا يجوز في كلام ولا شعر لأنها حرف الإعراب **وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة** [يعني في الشعر] وانشدوا:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قوِّمِ (إعراب القرآن 226/1)

وقال أبو علي الفارسي من تلاميذ الزجاج وشيخ ابن جني: «فسيبويه يجوّز ذلك [في الشعر أي إسكان حرف الإعراب] ولا يفصل بين القبيلتين [حركتي البناء والإعراب] في الشعر وقد روى ذلك عن العرب **وإذا جاءت الرواية لم تردّ بالقياس** فمما أنشد في ذلك قوله: «وقد بدا هَنْكِ من المئزر» وقوله فاليوم أشربْ... وقوله: «إذ اعوججن قلتُ صاحبْ قوّم» [ثم يذكر أمثلة أخــرى رويت] (الحجة، 79/1-80).

2- ما قاله ابن قتيبة ومن جاء بعده :

وظهر في عصر المبرد من اعترض على شئ (قليل) من شواهد سيبويه وهو ابن قتيبة. قال في «الشعر والشعراء» ناقلا ذلك مما قاله المبرد: «وقد رأيت سيبويه يذكر بيتًا يحتجّ به في نسق الاسم المنصوب على المخفوض على المعنى لا على اللفظ وهو قول الشاعر:

مُعاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ   لسنا بالجبال ولا الحديدا

وقد غلط على الشاعر لأن هذا الشعر كله مخفوض»(45/1-46). وقال أيضا: «وكقوله في بيت آخر:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة   ومختبطٌ مما تُطيح الطوائحُ

وكان الأصمعي يُنْكر هذا ويقول:ما اضطرّه إليه وإنما الرواية: لِيَبْكِ يزيدَ ضارعٌ لخصومة» (46-47).

وردّ على هذا الاتهام غير الموضوعي ابن السيرافي في شرحه لشواهد سيبويه. فقال: «وبلغني عن بعض من تأدّب بالنظر في أبيات من الشعر ودخل على بعض السلاطين الذين لا يميزون من دخل إليهم إلا بحسن الزي والهيئة أنه أنكر استشهاد سيبويه بهذا البيت. وقال: البيت مجرور ومعه أبيات مجرورة. ولم يعلم **أن هذا البيت يُروى نصبا ومعه أبيات منصوبة ويُروى جرًّا مع أبيات مجرورة...**» وقد وقع في كتاب سيبويه مثل هذا وذلك أن بعض الأبيات تروى على وجه من الإعراب مع غيره ويُروى على وجه آخر... **فلا ينبغي أن يذهب إنسان له علم وتحصيل إلى أن سيبويه غلط في الإنشاد** وإن وقع شئ مما **استشهد به في الدواوين على خلاف ما ذكر** فإنما ذلك [أنه] سمع إنشاده ممن يستشهد بقوله على وجه فأنشد ما سمع **لأن الذي رواه قوله حجة** . فصار بمنـــزلة شعر يُروى على وجهين» (199-201).

ثم إن سيبويه سبق في الزمان ابن قتيبة بمائة سنة وكان العرب الفصحاء في عهده كثيري العدد في المُدُن والبوادي على السواء خلافًا لزمان ابن قتيبة فسماع سيبويه كان يحصل عليه مباشرة بدون وساطة **ولم يأخذ سيبويه** كما يؤكّد على ذلك ابن السيرافي **من كتاب أو من ديوان** بل شافه فصحاء العرب فكانت حُجَجُه أصحّ وأوفى. ونعجب لمن اتهمه بالغلط(33)وهم من قوم أخذوا الأدب واللغة من الصحف غالبا (ولم تكن كلها موثوقة). فبما أن **رواية** سيبويه **هي بنفسها مصدر موثوق به لقدمه ولسماعه المباشر وعدم اعتراض معاصريه** عليه في ذلك ولا من تتلمذ عليه فكيف يعترض عليه برواية أخرى بعد مرور قرن من لم يشافه هؤلاء الفصحاء ونحن نعرف أن الاختلاف في روايات الشعر هو شئ عادي عند العرب؟ بل وتداخل بعضه في بعض.

(33) – أما اتهام مثل سيبويه بتعمّد التغيير «ليوافق ما أراده» فهو أفظع.

أما دليل هذا المعترض[34] ومن اتّبعه في ذلك أن هذا البيت (الذي قافيته: الحديدا) هو من شعر كله مخفوض[35]، فصحيح أن البيت ورد ضمْن شعر مخفــوض القوافي نسب إلى عقيبة بن هبيرة. فتلك رواية وما ذكره سيبويه رواية أخرى والذي ورد في كتــاب سيبويه متبوع ببيت منصوب القافية وهو:

أدِيرُوها بني حَرْبٍ عليكم   ولا تَرْموا بها الغرض البعيدا

فقد أورد أبو عبيدة هذا البيت كما ورد عند سيبويه في نقائض جرير والأخطل(1-3) والبلاذرى في «أنساب الأشراف» (52/4) منسوبا في الأول إلى عبد الله بن همّام السلولي وفي الثاني إلى علي بن الغدير الغنوي. وورد الشطر الثاني فقط كما ذكرناه مع شطر أول مختلف تماما في طبقات ابن سلام: «فإن عرفتْ لكم فتلقفوها»(ص628) وجاء في «مروج الذهب» للمسعودي: «فقد علقت لكم» وبرواية أخرى أيضا فيما نسبه أبو الفرج إلى ابن الأعرابي[36] .

فقد ثبت بذلك أن البيت الذي ذكره سيبويه[37] بعد الشاهد تختلف رواياته اختلافا شديدا كما تختلف النسبة إلى قائله ولم يثبت في كل هذه الروايات إلا الشطر الثاني. وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون الذي سمع منه سيبويه جمع بين هذا البيت أو شطره الثاني وبين الشاهد المنسوب إلى عقيبة الأسدي ولا يستعبد أيضا أن تكون هناك أبيات لم يذكرها سيبويه جاءت منصوبة القوافي مع الشاهد كما قال السيرافي. ومهما كان فإن اختلاف الروايات وتعوّد الشعراء على إقحام ما يسمعونه من الشعر أو اشطار الأبيات عند غيرهم في أشعارهم هو شئ معروف وصفه أحد الشراح لشواهد الكتاب باستفاضة في كتابه كما ذكره صاحب الخزانة(ص263).

---

(34) – وقد تبعه في ذلك أبو أحمد العسكري كما هو معروف وكلامه هو مجرّد «سلخ» لما قاله ابن قتيبة.
(35) – وصار هذا الشعر عند العسكري :»قصيدة مشهورة» ! (255/1).
(36) – نص على ذلك محمود شاكر محقق الطبقات.
(37) – قال السيرافي في شرح الكتاب:»ومن روى البيت بالنصب أنشد الأبيات منصوبة ولم يرو هذا البيت المجرور (الذي هو:أكلم أرضينا...من حصيد)»(53/3).

وهناك أمر آخر مهم جدا فيما يخص هذا الشاهد **وهو سماع الفراء من العرب للبيت المذكور كما سمعه سيبويه**-وعاش الفراء في عصر سيبويه تقريبًا- قال: «ويُنشد (الحديدا) خفضا **ونصبا** وأكثر ما سمعته بالخفض»(المعاني 348/2). فهذه شهادة صارمة لا تترك أي مجال للشك ولا يمكن أن ننكر ما أتى به سيبويه ونصدق بذلك قول ابن قتيبة الذي جاء بعد هاتين الشهادتين بقرن كامل ولم يبن قوله على سماع من العرب إذ لم يذكر من أين أتى به[38].

والذي يقوى ما قاله سيبويه هو وجود أكثر من مثال لهذه الظاهرة وخاصة في القراءات القرآنية ثم هذا الذي أَدْلَى به الفراء من سماعه المحسوس من العرب وهو كوفي فاتفاق هذين العالمين كافٍ للقطع بشهادة سيبويه.

وما يقال عن هذا الشاهد يقال أيضا عن الشاهد الآخر:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبط بما تُطيحُ الطوائح

ويُروى أيضا«ليبكِ يزيدَ ضارعٌ...». فهذه رواية أخرى ثابتة عن الثقات كما أن ما ذكره سيبويه رواية أخرى ثابتة أيضا.

وأخذ هذا الكلام، كما أشرنا إلى ذلك، أبو أحمد العسكري (م386) ونقله في كتابه «ما يقع فيه التصحيف والتحريف». قال: «ومما غلط فيه النحويون من الشعر ورووه موافقًا لما أرادوه: روى عن سيبويه عندما احتجّ في نسق الاسم المنصوب على المخفوض قول الشاعر: معاويَ... ولا الحديدا[39] وغلط على الشاعر لان هذه القصيدة مشهورة وهي مخفوضة كلها وأولها...»[40] (ص256).

وقال: «ومما قلبوه وخالفهم الرواة قول الشاعر: «لِيُبك يزيد...». وقول الآخر:

(38) - بل اعتمد على رواية واحدة وهي المقطوعة المخفوضة.
(39) - وعلق عليه محقق الكتاب قال:»و البيت الشاهد من شعر مخفوض لا غير»! (ص256 هامش 2).
(40) - ذكر ههنا في أبيات مخفوضة القافية.

«فلئن قوم أصابوا عزة وأصبنا من زمان رنقا[41].

ورواه الرواة «فلقد كانوا». وكذلك قول الآخر:

مَن كان لا يزعم أني شاعر فيدن مني تَنْهَهُ المزاجر،[42]

إنما هو «فلْيدنُ مني» وبه أيضا يصحّ الشعر» (ص257-258) .

ومما أضاف أبو أحمد العسكري إلى كلام ابن قتيبة، هو كما قلنا، هذه العبارة: «موافقا لما أراده» وعبارة أخرى لم يقلها ابن قتيبة: «لأن هذه القصيدة **مشهورة** وهي مخفوضة كلها».

وفي كل هذا النوع من الاستشهاد والخاص بالعلماء القدامى فإن الذي يقوى ثقتنا بما يروون هو مجيئهم بأكثر من شاهد ثابت لإثبات نفس الظاهرة وهو **دليل على عدم احتياجهم إلى اختلاق الشاهد الواحد** مع وجود الشواهد التي تُثبت ما وصفوه من هذه الظواهر.

وفي ختام هذا الفصل فيحسن أن نذكر ما قرره أكثر النحويين فيما يخص رواية الشعر ويتلخّص في قول ابن السيرافي[43]: «واعلم أن اختلاف الإنشاد إذا وقع في مثل ذا الموقع (اختلاف ما في الكتاب وما في ديوان الشاعر) لا ينبغي أن يُنسبه أحد إلى اضطراب سيبويه إنما الرواية تختلف في الإنشاد. ويسمعه سيبويه يُنشد على بعض الروايات التي له فيها حجة على ما سمعه ويَرْوي راوٍ آخر على وجه آخر لا حجة فيه. والرواة المختلفون إنما **أخذوه من أفواه العرب** الذين يحفظون الأشعار. فالتغيير في الإنشاد واقع من جهتهم والشواهد في كل رواية صحيحة لأن العربي الذي غيّر الشعر وأنشده على وجه دون وجه قوله حجة»(24/2).

ومن كل هذا الذي ذكرناه يتّضح ما يلي:

---

(41) - ذكر هذا البيت هكذا في معاني القرآن للفراء(66/1).
(42) - كذلك 160/1.
(43) - وسبق أن ذكرنا من ذلك شيئا.

1- إن أهمّ ما يعتمد عليه المعترضون على شواهد سيبويه وغيره هو **اختلاف الروايات** ولا يأتون بدليل على ما يدّعونه من خطأ بعضها أو التغيير المتعمد من قبل النحويين اللهم إلا وجود رواية تأتي كلها مخفوضة كما في الشاهد الذي قافيته (الحديدا). وفي ذلك أيضا ليس هذا دليلا مقنعا وقد بينا ذلك.

فاختلاف الروايات هو ظاهرة طبيعية ولا يوجد ديوان إلا وتكثر فيه بل وفي كل صفحة أحيانا كلمة: «ويروى» ولا سبيل إلى تضعيف إحداها دون الأخرى إلا بدليل كما قلنا.

2- والسبب في هذا الاختلاف كما بيّنه العلماء القدامى هو استحالة أو صعوبة بقاء الرواية الشفاهية في جميع الأحوال بدون أن يصيبها تغيير. أما بالنسبة لديوان العرب فالمغير هو في الحقيقة **الراوي من العرب الفصحاء** لا العالم من علماء العربية. فهؤلاء العلماء هم على هذا مضطرّون إلى الاعتداد بكل الروايات لأنها كلها حجة ما دامت رائجة في وسط العرب الفصحاء الذين يستشهد بكلامهم سواء منهم الشعراء أم رواتهم وغيرهم.

3- أما الاعتقاد بأن وجود الشاهد في ديوان الشاعر على صورة معيّنة هو الأصل فيجب أن يكون هو المرجع في تصحيح الشواهد فهو-هكذا بدون قيد ولا شرط-في منتهى السذاجة.فالشرط الأول هو أن يكون الديوان قد حققه عالم خبير على جميع نسخه والواقع أن الكثير من الدواوين قد طبعت في زماننا هذا طبعة مجرّدة من كل ما يجعل من النشرة نشرة علمية وحتى المحققة قد ينقصها أحيانا الاعتماد على كل النسخ الموجودة بالفعل. ثم إن هذا الاعتقاد قد يعتمد صاحبه على الفكرة الساذجة هي أيضا بأن كتب الأدب ومجموعات الشعر بما فيها الدواوين هي المعين الوحيد حتىّ للعلماء الأولين لكل ما قاله العرب من الشعر وغيره من التعبير الأدبي. فإذا اختلف ما استشهد به النحويون عما جاء في هذه الكتب فالذنب على هؤلاء فهم الذين غيروه ليطابق ما قعّدوه من قواعد!

وفي هذا الاعتقاد أنواع من المغالطة إذ فيه تجاهل صارخ لأحداث التاريخ. فكيف يمكن أن تكون كتب الأدب وحتى كتب اللغة هي المعين لكل الناس في كل زمان

وخـــاصة في زمان سيبويه وشيوخه وهذه الكتب لم تكن ظهرت بعد في زمانهم! فأين هم ومن هم الأدباء واللغويون الذين ألّفوا كتبا في الأدب وعملوا ونشروا دواوين شعرية قبل مجيء سيبويه؟ وإذا رجعنا إلى أقدم المراجع الصادرة في أواخر القرن الثاني فإن كل من ذكر فيها من علماء العربية قد كان نقله عن غيره والنقل عنه ينحصران في السماع لا غير ولم يذكر عن أحد منهم أنه رجع إلى ديوان مدوّن على الإطلاق. والذي نعرفه هو أن من أقدم من عمل ديوان شعر هو الأصمعي وعاش إلى عام 213 وأبو عمرو الشيباني المتوفّى في 206 وابن الأعرابي المتوفّى في 231 وهو الذي روى أقدم مجموعة شعرية من شيخه المفضل الضبيّ (المفضليات) وكل هؤلاء لا يمكن أن يكون قد تمّ عملهم للدواوين والمجموعات الشعرية إلا في أواخر القرن الثاني وما بعده. أما «الصنعة» أي التحقيق العلمي لجميع الروايات فلم يتم إلا على يد سعيد السكرى المتوفّى في 275[44] وغيره من العلماء. فبعد أن نشرت هذه الدواوين العلمية واطمأنّ العلماء لما احتوت عليه تعوّدوا على الرجوع إليها.

وعلى هذا فما جاء في كتاب سيبويه مما سمعه من العرب مباشرة وما سمعه العلماء من قبله وكل ما جاء من الشعر في مجاز القرآن لأبي عبيدة، (وهو قديم كما سنتبينه) فهو منبع موثق لكلام العرب **سبق في الزمان كل ما دُوّن في ديوان أو في مجموعات شعرية** وقد أجمع العلماء القدامى على القول بأن سيبويه لم يأخذ من ديوان أو صحيفة .فكل ما ورد فيهما كان بالضرورة يعتبر حجة.فكيف يدّعى المدعون أنه مغيّر عما جاء في الدواوين بفعل فاعل وهم أولئك النحويون الأولون السابقون في الزمان لانتشار الدواوين؟!

II – المقاييس التاريخية لصحة الرواية :

كان العلماء العرب القدامى يكتفون بفصاحة المأخوذ عنه بعد أن يكونوا تأكدوا من ذلك بوسائل مختلفة وعرض ذلك على العلماء في غالب الأحيان. فالمهم هنا هو كون المسموع

---

(44) – راجع في كل هذا فهرست ابن النديم.

عنه موثوق تماما بعربيته. أما الشعر فلا يحتاج من حيث هو كذلك إلى أن يذكر اسم الشاعر ولا اسم الناقل لان السماع عند العلماء القدامى هو سماع يتحقق ويصير موضوعيا بالجماعة كما قلنا: **لا يمكن أن يثبت السماع ثبوتا لا يُردّ إلا «بمجيئه من أكثر من وجه»** من العلماء (لا من أي واحد) والمعروفين بأمانتهم أو بإجماع منهم على صحة ما روى من أحدهم.

أما التأكد من اسم الشاعر فيما يخص الشعر فإن كان ذلك غير ضروري لإثبات السماع الفصيح فإنه جدّ ضروري في التمييز بين الصحيح والمصنوع وبين المنحول وغير المنحول. وقد نص على ذلك مع الكثير من المعلومات المفيدة من الناحية التاريخية ابن سلام الجمحي في كتابه «طبقات [فحول] الشعراء» وهو نص استغلّ في زماننا لأغراض مختلفة أكثرها مشبوهة. يقول ابن سلام:

«وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ولاحجة في عربية ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه من أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شئ منه أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي. وقد اختلف العلماء بعد في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه» (4-6).

وقال: «وكان ممن أفسد الشعر... محمد بن إسحاق... كان من علمـــاء الناس بالسير... فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر، أتينا به فأحمله.ولم يكن ذلك له عذرا. كتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة... أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين؟ (7- 8) «فلو كان الشعر ما وُضع لابن إسحاق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم» (11). «لم يذكر عدنانَ جاهليٌّ قط غير لبيد بن ربيعة في بيت واحد...وقد روى لعباس بن مرداس بيت في عدنانَ... والبيت مريب... فما فوق عدنان أسماء **لم تؤخذ إلا عن الكتب والله أعلم بها،لم يذكرها عربي قط...ولم يرو قط عربي منها بيتًا واحدً للشعر»**(10-11) .

وقال أيضا: «وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولّدون وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال» (46-47).

قال: «وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الراوية وكان غير موثوق به. كان ينحل شعر الرجل غيره وينحل غيره شعره ويزيد في الأشعار»(48):

لا بدّ أن نتذكر أن ابن سلام قد التقى في شبابه بأكبر علماء اللغة العربية (وعاش زمانا طويلا بعدهم) بل كان واحدًا منهم وذكر في كتابه أنه سأل سيبويه عن قراءة. قال: «وكان الحسن وأبو عمرو بن العلاء ويونس يرفعون: نُردُّ ونكذّبُ ونكونُ. قلت لسيبويه: كيف الوجه عندك؟ قال: الرفع...» (19-20) [الآية: يا ليتنا نُردّ... الأنعام 27]. وسمع أيضا من يونس وسأله الأصمعي عن قصيدة(204).

ويوثقه جميع العلماء بدون استثناء وما يقوله في كتابه عن تاريخ النحو والنحاة هو من أصح ما قيل في ذلك لأسباب ذكرنا بعضها في مكان آخر. كان الجامعون للأشعار و«أحاديثها» كما هو معروف الرواة من فصحاء العرب وسمّاهم علماء العربية «بعلماء العرب»(45) أو علماء قبيلة معينة كغطفان(46) وكانوا من فصحاء العرب ثم ظهرت طبقات أخرى من الرواة وكانت هذه الطبقات في نهاية القرن الأول ثم في القرن الثاني ومن نهاية القرن الأول إلى نهاية القرن الثاني توالت هذه الطبقات كالتالي:

1- طبقة قديمة ممن كان اشتهر من رواة أخبار العرب وآدابهم وأنسابهم وكانوا ثقات عرفوا الكثير من الصحابة والمخضرمين فكثر علمهم وذلك مثل قتادة بن دعامة الذي أخذ العلماء عنه كثيرًا.

2- طبقة من الإخباريين كانوا غزيرى العلم ولكنهم غير متحرّجين في قبول ما كانوا يأخذونه عن غيرهم من أخبار أو أشعار وذلك مثل ابن إسحاق الذي ذكره ابن سلام.

---

(45) – النقائض، 639 وأمالي القالي 276/2

(46) – أنظر طبقات ابن سلام ص109 و فيما يلي.

3- رواة محترفون من المولّدين كان بعضهم ممن يضع الأشعار والأخبار أو يزيد فيها أو ينحلها لغير صاحبها. وأولهم حمّاد الراوية ثم بعض من ذكرهم رجال الجرح والتعديل (جناد بن واصل ومحمد بن دأب ومحمد بن سهل وغيرهم) .

4- علماء العربية لغويين ونحويين وكلهم من البصرة أو الكوفة. وأقدمهم كانوا من القراء (إلى غاية سيبويه) . فهؤلاء كانوا المرجع الأساسي في رواية الأشعار الصحيحة وجمعها. وهم أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري وأبو الخطاب الأخفش وغيرهم من البصرة والمفضل الضبي وأبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي وابن السكيت وغيرهم من الكوفة.

إن ابن سلام الجمحي هو أول من بيّن في كتابه هذا، هذه الحقيقة التي أشرنا إليها: **الذين تمّ على أيديهم جمْع الشعر وتدوينه تدوينا علميا هم علماء العربية وحدهم.**

وقد شاركهم غيرهم **في الجمع فقط** في زمان مبكر لكن بدون تحقيق علمي. وأكبر دليل على ذلك **هو مجيء أسماء هؤلاء العلماء اللغويين كمحققين في كل الدواوين الموثوقة** وذكر الفهرست (أوثق كتاب في ميدانه كما قلنا) لاسمائهم أيضا كأصحاب«الصنعة» لجميع الدواوين الموثوقة. هذا ما سننظر فيه فيما يلي.

1- دواوين الشعر الجاهلي:

اتّهم بعض المستشرقين رواة الشعر الجاهلي ومُدوِّنيه كلهم بالكذب واتبعهم في ذلك الدكتور طه حسين وردّ عليه بعض العلماء المعاصرين وكل ذلك معروف. فالذي قد عرفناه إلى الآن في هذه الدراسة أن نزاهة الذين رووا الشعر من علماء العربية لا يمكن أن تلحقهم مثل هذه التهمة الفظيعة لأنهم كما سبق أن قلنا لا يقبلون إلا المسموع الذي ورد من أكثر من وجه والذي يمكن التأكد من ذلك لدى فصحاء العرب في أي وقت شاء الباحث في ذلك الزمان ما دامت الفصاحة السليقية قائمة.

وقد اعتمد المتهمون على النص الذي سبق ذكره من ابن سلام وخاصة ما يدور حول الوضع والنحل ولاسيَّما ما قاله عن حماد الرواية. وسكت المتهمون عما هو الأساس في هذا النص وهو:

أولا: الاحتجاج بالإجماع **والسماع الجماعي** فالسماع إذا حصل وتظاهر من عدة أشخاص في أماكن متفرقة وكل على حدة (دون أخذ بعضهم من بعض) وكان المسموع واحدًا(47) في جميع الروايات فلا نتصور كيف يمكن أن يُتّهم كل هؤلاء بالكذب. أما إذا انفرد أحدهم بسماع أو حصل اختلاف بينهم فإن عدم الاعتراض على أحدهم في سماعهم هو أيضا إجماع.

ثانيا: قدّم ابن سلام في بداية كتابه كيفية نشوء النحو والتحريّات اللغوية في عين المكان وذكر أسماء النحاة واللغويين من أول نشأة البحث اللغوي إلى زمانه. **وفي هذا سرّ لم ينتبه إليه المتهمون.** فابن سلام بهذا الطرح لتطور العلوم اللغوية عند العرب **يريد أن يبين أن رواية الشعر الصحيحة هي من عمل هؤلاء اللغويين هم وحدهم.**

ونستطيع أن نبيّن الآن أن كل ما صحّ من هذا الشعر القديم هو كما قلنا من عمل اللغويين ليس غير وذلك بالتعرض إلى ما وصل إلينا من **الدواوين للشعراء القدامى** وفوق كل شيء **باستعراض أسماء الذين رووا أو صنعوا هذه الدواوين لأن هذا أثرٌ تاريخي ملموس لا مناص من قبوله.** وهذا هو أصحّ من أنْ نكتفي بالاستماع إلى مؤلفي كتب الأدب وكتب الطبقات وقد ذكروا هم أيضا أسماء لأصحاب هذه الدواوين.

وسننظر في دواوين بعض الشعراء الكبار ونعتمد في ذلك على ما جاء به كتاب فؤاد سزكين في «تاريخه للتراث العربي».

---

(47) — وليس بالضروري أن يتواتر تواترًا واسعا.وقد يكفي عقلا أن يتفق في الرواية راويان اثنان لا يعرف أحدهما الآخر أو ثبت عدم تواطئهما.

النابغة الذبياني

الذي وصل إلينا من ديوانه ذُكر فيه أنه برواية أو بصنعة الأصمعي[48]. وقال صاحب الفهرست: «وعمله أيضا الأصمعي فقصّر وابن السكيت فجوّد والطوسي»[49].

طرفة بن العبد

يقول فؤاد سزكَين بأن لمخطوطات ديوانه (وهما مخطوطتان) شرحاً لابن السكيت وأن هذا الشرح يعتمد على الأصمعي ولا يذكر شيئا آخر[50].

وقال عن مقدمة شرح ابن الانباري لمعلقة طرفة أن «فيها سلسلة إسناد متصلة مؤكدة من المتلمّس عن طريق الأعشى وعُبيد وسماك بن حرب وحماد الراوية إلى الهيثم بن عدي» وأنه يوجد «نفس الإسناد في أخبار المتلمس وطرفة في كتاب الأغاني (طبعه2.ج21ص126). «وقد يكون عبيد المذكور في ذلك الإسناد عبيد بن شريّة» (17/3).

زهير بن أبي سُلْمى

له ديوان نسب شرحه إلى ثعلب وجمعت فيه أكثر الروايات (22/3). واعتمد سزكين هنا على الدراسة الجيدة الوافية التي كتبها الدكتور ناصر الدين الأسد لروايات هذا الديوان[51]. أشار في هذه الدراسة إلى وجــود مخطوطة للديوان فيها قول صريح بأنها منقولة عن ابن كيسان النحوي (ت372) الذي «قرأه على أحمد بن يحي ثعلب وكان قد قرئ على أبي عمرو الشيباني» (مصادر533). وقال الدكتور الأسد أيضا فيما يخص المخطوطة المشار إليها بأن الأصول من الروايات ترجع إلى الأصمعي وأبي عبيدة فيما يخص البصريين وإلى حماد الراوية والمفضل الضبي وأبي عمرو الشيبــاني فيما يخص الكوفيين» (528-530). ويقول أيضا: «وقد تضمّنت هذه النسخة 53 قصيدة ومقطعة لزهير وروي خمسٌ منها عن حماد الرواية ونص على واحدة منها بقوله: «وهي متهمة عند المفضل» ومع

---

(48) – تاريخ التراث العربي، 8/3.
(49) – الفهرست، 178.
(50) – تاريخ التراث، 17/3–18.
(51) – مصادر الشعر الجاهلي، 526–542.

ذلك رواها أبو عمرو. وذكر في أربع منها أنها يشك في نسبتها إلى زهير وأنها قد تروى لغيره» (مصادر 532).

وذكر صاحب الفهرست: «رواه جماعة فقصروا واختلفت روايتهم. وصنعه السكّري فجوّد صنعه».

علقمة بن عبدة الفحل

قال فؤاد سزكين بأن «النسخ التي وصلت إلينا من الديوان ترجع إلى صنعة الأصمعي وأن هناك رواية أخرى ترجع إلى ابن السكيت» (25/3).

لبيد بن ربيعة

وقال هنا: «قد وصلت صنعة الطوسي...وقد اعتمد فيها الطوسي على أبي عمرو الشيباني وعلى الأصمعي وعلى ابن الأعرابي الذي له أيضا صنعه الديوان» (35).

وقال صاحب الفهرست: «وعمله أبو عمرو الشيباني والأصمعي والطوسي وابن السكيت» (230).

عمرو بن كلثوم

قال: «كان ديوانه بصنعة ابن السكيت» (38).

الأعشى ميمون

جاء في الديوان الذي حققه جاير (R.Geyer) وأعاد طبعه مع تحقيقات قيمة الدكتور محمد محمد حسين وأشار إلى أن كل قصيدة فيه ذكر اسم راويهـا وهي كالتالي: أبو عمرو بن العلاء (8 قصائد) وأبو عبيدة (7 قصائد) وأبو عمرو الشيباني (قصيدة واحدة) وغير ذلك.

وذكر صاحب الفهرست أن الذي عملوه: «أبو عمرو [الشيباني] والأصمعي وابن السكيت والطوسي وثعلب» (230).

وجاء في تاريخ التراث أنه كان للأعشى راوية مسيحي (يُسمّى عبيد أويحي أويونس بن متّى) وعنه روى سماك بن حرب (طبقات الزبيدي 176) وأبان بن تغلب (الأغاني 112/9) وحمّاد الراوية (الشعر والشعراء 198 والأغاني ط.21،126/2).

امرؤ القيس بن حُجر

قال فؤاد سزكين: «أما صنعة الديوان...فكانت في المقام الأول ثمرة جهود المفضل الضبي والأصمعي وأبي عمرو الشيباني وأبي عبيدة ومن المرجح أن أشهر صنعة للديوان وأهمها...كانت من عمل السكري» (30/3). وهناك صنعة وصلت أيضا إلينا وهي صنعة الطـوسي. وبالفعل تتضمن كل النسخ تقريبا هذه الأسماء كأصحاب رواية أو صنعة. وقد اعتمد أبو الفضل إبراهيم في تحقيقه للديوان (في 1959) على الأصمعي والمفضل والطوسي والسكري وابن النحاس. وجاء في الفهرست: «رواه أبو عمرو والأصمعي وخالد بن كلثوم ومحمد بن حبيب وصنعه من جميع الروايات أبو سعيد السكري فجود... وعمله ابن السكيت» (229).

وذكر أبو الطيب اللغوي- **بعيدًا عن كل هذه النسخ من الديوان**- ما يلي:

«... أخبرنا أبو حاتم قال: قال الأصمعي: كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُتَفًا سمعتُها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء» (مراتب النحويين 117).

عروة بن الورد

قال في تاريخ التراث: «يوجد الديوان مخطوطا...مع شرح لابن السكيت (وطبع مرتين). وذكر صاحب الفهرست أن الأصمعي وابن السكيت عملا ديوانه (230).

أبو دؤاد الإيادي وعدي بن زيد من الحيرة

وقال أيضا: «أما ديوان أبي دؤاد فكان مثل ديوان عدي بن زيد مجالا لصنعة اللغويين...» وذكر ديوانه بشرح ابن السكيت في خزانة الأدب 190/4 (107). وبالفعل ذكر ابن النديم بأنَّ جماعة عملت ديوانه (230) وذكر أيضا أن لابن الكلبي «كتاب عدي بن زيد» (الفهرست 147) استغله أبو الفرج في أغانيه (2/97-154).

وقال ابن قتيبة: «وذكر أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال:... والعرب لا تروي شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية» (الشعر 182) وقال في ص 190: «[قال الأصمعي أو أبو عبيدة]: والعرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية». وقال أيضا: «وعلماؤنا لا يَرَوْنَ شعره حجة» (176).

الأسود بن يَعْفُر النهشلي

قال: «توجد له قصيدة بائية مع شرح لهشام بن الكلبي» (132/3). وذكر ابن سلام أن للفضل الضبي مائة وثلاثين قصيدة له وأن البصريين ليس لهم هذا العدد.

حاتم الطائي

قال فؤاد سزكين: «وتُنسب صنعة ديوانه عند ابن النديم (في الفهرست132) إلى المرزباني وترجع هذه الصنعة إلى رواية ابن الكلبي»...وذكر ابنُ النديم (في الفهرست ص111) أن الزبير بن بكار ألف «كتاب أخبار حاتم» (177/3). وسمى ابن النديم هذا الكتاب للمزباني: «كتاب شعر حاتم الطائي» (نفس الطبقة).

طُفَيْل الغنوي

قال: «كان ديوانه بصنعة الأصمعي...وقد وصل إلينا الديوان بهذه الرواية وترجع رواية أخرى غير كاملة من الديوان إلى ثعلب» (18/3).

فالذي ينبغي أن يُلاحظ في هذه القائمة هو أنَّ الدواوين –التي وصلت إلينا خاصّة– ترجع روايتها إلى نوعين من الرواة: **اللغويين وغير اللغويين.** وأننا إذا استثنينا حاتمًا الطائي في هذه القائمة فكل من نصّ عليه فيها أولم يُنَصّ فقد ذُكر له في تاريخ التراث العربي **رواية أو عدة روايات للغويين** (رواية واحدة على الأقل). وقد أحصينا في الفهرست لعمل اللغويين وحدهم: ثمانية وأربعين شاعرًا أكثرهم من الجاهليين وأما ما ذكر كرواية أو جمع لأخباري غير لغوي فهو قليل جدا. فالشعراء الذين روى شعرهم – زيادة على اللغويين– أو نسب إليهم ذلك هم: طرفة وزهير والأعشى ميمون وقيس بن الحدادية (وامرؤ القيس حسب أبي الطيب

اللغوي). وأما ما أحصى بروكمان وسزكين من الدواوين الشعرية التي توجد في مختلف المكتبات في زماننا فقد ثبت أنّ كل هذه الدواوين تتضمن ذكر رواية أو صنعة للغويين إلا ديوان حاتم كما قلنا. وهذه وثائق تاريخية ملزمة.

فبهذا يتضح جيدا أن **دواوين الشعر** وخاصة الشعر الجاهلي **هي من عمل علماء العربية وحدهم**[52] وأن الذين شاركوهم في الرواية من الأخباريين قليلون جدًّا ولم يكونوا أبدا وحدهم في رواية الشعر ولا يُعرف من ذلك إلا حالة حاتم الطائي وربما يزيد على ذلك شيء قليل جدا.

وسنذكر الآن الفوارق القائمة بين هاتين الفئتين من الرواة.

أما اللغويون فينقسمون إلى ثلاثة أقسام بحسب الزمان: منهم، الرواة الجامعون للشعر والمحققون له لأول مرة وهم أبو عمرو بن العلاء (ت في 154) والمفضل الضبّي فيما بعد (يُذكران غالبا كالمصدر الأقدم للرواية الصحيحة) ثم الرواة الجامعون أصحاب صنعة الديوان وهم من تلاميذ هذين الرائدين: الأصمعي وأبو عبيدة تلميذَا أبي عمرو بن العلاء وأبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي من أصحاب المفضل ثم أصحاب الصنعة من عدة روايات وهم ابن السكيت والطوسي وآخرهم وأوسعهم علما وأجودهم عملا أبو سعيد السكري.

أما غير اللغويين فهم في الأكثر من الأخباريين والنسّابين بعضهم كانوا علماء محققين غير متساهلين فيما يخص الشعر وغيره مثل الزبير بن بكار ومحمد بن حبيب وقد اعتمد عليهما السكري زيادة على ما أخذه من روايات اللغويين. ومنهم من تخصص في رواية الشعر في وقت أبي عمرو بن العلاء وهو حماد الرواية ومنهم من كتب في أخبار الشعراء ولم يكُن له علم واختصاص في التمييز بين الصحيح وغيره مثل ابن إسحاق وغيره.

والفرق بين هذين النوعين من الرواة واضح جدا فيما يخص الشعر:

- فاللغويون لا يأخذون إلا من فصحاء العرب ولا يتقبلون أي معطيات أخرى في الشعر واللغة من أي شخص آخر.

---

(52) باستثناء عالمين اثنين وهما الزبير بن بكّار ومحمد بن حبيب وكانا من تلاميذ اللغويين. انظر فيما يلي.

– ويحاولون أن يميزوا دائما بين الموضوع وغيره والمنحول وغيره إن حصل ولهم في ذلك طريقة علمية خاصة سننظر فيها فيما يلي.

– يقومون بتحريات واسعة في البوادي وأراضي الفصاحة للحصول على معلومات صحيحة حول الشاعر وشعره (انظر مثلا نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة).

– لا يأخذون إلا بالسماع ويمتنعون فيما يخص الشعر واللغة من الأخذ من «الصحف» (أي كتب الأخباريين القدامى)[53].

أما الأخباريون – باستثناء الزبير بن بكار ومحمد بن حبيب وهما أقرب إلى اللغويين لتشدّدهم–فلم يصرّح أحد منهم أنه قام بالنسبة لما يرويه من الشعر[54] بما يقوم به اللغويون إذ ليس لهم نفس الأغراض بالنسبة إلى الشعر. ومنهم من يتساهل في قبوله ما يسمعه إلى حدّ بعيد ومنهم من اتهمّ قديما بالوضع والنحل. فهؤلاء يجتمعون في عدم النظر في صحة ما يروُون من الشعر ولا همّ لهم بذلك إذ لا يعتبرون ذلك من مهامهم فهم لا يقصدون تدوين الشعر بالذات وبالأحْرى تحقيقه إنما يستحسنون الإتيان بما يبدو لهم لتزيين ما يحكونه من أخبار أو إثراءه وقد يخصصون كتابًا كاملاً لشاعر من الشعراء. وقد ذكر ابن النديم عناوين هذه الكتب.

أما الاحتجاج بهذا الذي رواه الأخباريون فيما يخص الشعر أو محاولة تنـــزيه مثل حماد الراوية مما اتّهمه العلماء القدامى فهو حاصل في زماننا وسبب ذلك هو التسوية المطلقة التي يقيمها بعضهم بين ما كان يقوم به العالم اللغوي وما كان يتمسك به من المبادئ العلمية الدقيقة وبين الرواية المجردة ومن ثم بين نوعين جدّ مختلفين من الرواة: المحقق المتحرى وغير المحقق الذي يحكي كل ما يسمع. ونستعظم أن يُقرن أبو عمرو بن العلاء المؤسّس للتحرّيات اللغوية الميدانية عند العرب بمثل حمّاد الراوية الذي لا نعرف في الحقيقة وفي غالب الأحوال من أين كان يستقي علمه. وعرفنا أن اللغويين لا يأخذون إلا بالسماع ومن فصحاء العرب

(53) – ونكرر ما قلنا من أن التدوين يقتضي بالطبع التسجيل كتابيا. ولا نشك أن الكتابة كانت بالفعل مستعملة منذ زمان قديم.
(54) – أما فيما يخص الأخبار فقد كان بعضهم يتحرّى ما يجده منها وكانوا في ذلك من العلماء المحققين.

فقط وما اشتهر منه عندهم خاصة **لأنهم هم وحدهم الذين توارثوه** فلا مصدر موثوق للشعر غير ما عرفه أكثرهم وعن علم صحيح (ولاسيما عند أهل الاختصاص بالشعر من العرب).

وسبب قديم في هذا التخليط بين جميع الرواة هو ما فعله أبو الطيب اللغوي من إدراج أسماء لبعض الأخباريين في كتابه عن «مراتب النحويين» (وتبعه في ذلك مؤلفو كتب الطبقات). وكان أذكى منه وأنصف للحقيقة ابن النديم إذ أفرد للرواة اللغويين بابا ولا يوجد فيه أي أخباري وخصص للأخباريين والنسَّابين وأصحاب السير بابا آخر لا يوجد فيه أي لغوي وأدخل فيه حمادًا الراوية وجناد بن واصل وهشام بن الكلبي وغيرهم[55].

أما السّر في عدم أخذ اللغويين مما كانوا يسمـــونه بالـــ«صحف» فهو لأن هذه الصحف -وقد أشرنا إلى ذلك قبل- كانت تتكون أساسا من كتب أو أوراق مكتوبة غير منسوبة إلى مؤلف معروف[56] أو منسوبة إلى أخباريين عاشوا في زمان قديم -كزمان معـــاوية- ومنهم ابن مفرِّغ الحميري (ت69) وعُبيد بن شَرِيَّة (ت69) ووهْب بن مُنبّه والشرقي القطامي (155) وعوانة بن الحكم الكلبي (153) ومحمد بن الســـائب الكلبي (146) وغيرهم وبيّن ابن سلام ما في هذه الكتب من الأساطير والخرافـــات والشعر المنحول. فلم يأخذ **العلمـــاء اللغويون أي شيء من الصحف إلى غاية سيبويه والأخفش والفراء وابن السكيت والطوسي والسكري**. وسنستدل على ذلك فيما بعد.

وخالف ابن قتيبة كل اللغويين (وكان أقرب إلى الأخباريين) فرجع إلى تلك الصحف وأضاف إليها روايات وحكايات أخذها من حيث لا ندري وظهر بعده بعض الأخباريين المتخصصين في أخبار الشعراء فأدمجوا ما ادّعوا انه من كلام اللغويين في رواياتهم وحكاياتهم التي أخذوها عن الأخباريين السابقين-منها ما قاله ابن قتيبة نفسه!-فأضافوا إليها ما شاء الله وكل هذا موجود في كتاب الأغاني والموشّح للمرزباني والعقد الفريد وغيرها مما صار عند أكثر المثقفين في زماننا (مع الأسف) المصدر الموثوق الأول للشعر العربي وأخبار الشعراء وأعلام ما قبل الإسلام وما بعده (انظر مقدمة هذا الكتاب وفيما يلي).

---

(55) -- ومن الذين كانوا أقرب إلى اللغويين كما قلنا الزبير بن بكار ومحمد بن حبيب واعتبر محمد بن سلام الجمحي منهم مع أنه لغوي بسبب كتابته لطبقات [فحول] الشعراء.

(56) -- مثل صحيفة يوسف بن سعد التي كانت تحتوي على شعر أبي طالب (طبقات ابن سلام، 244).

ويجدر بنا أن نمعن النظر الآن في عمل بعض هؤلاء الأخباريين وفيما نُسب من أقوال غريبة إلى الأصمعي وأبي عبيدة ولم يقلها أحد منهما إذ تعارضها أقوالهما وأفعالهما كما سنراه.

2- توضيحات هامّة حول هذه الدواوين:

ديوان زهير وحمّاد الراوية

ذُكر حماد الراوية في شرح الديوان المنسوب إلى ثعلب[57] في بعض المواضع: يقول المحقق في ص16 من الطبعة الأخيرة (الحاشية 3): «روى صعوداء[58] بين البيتين 16و17أبياتا ستة عشر وقال:**لم يروها أحد من الرواة غير حماد**». وجاء في ص 113 (الحاشية5): وزاد بعده صعوداء [وبعد ذلك 3 أبيات] وقال:... وهذه الثلاثة الأبيات لم يروها أبو عمرو. وهي في رواية حماد. وجـــاء أيضا في ص187: [قصيدة] 19 «وقال زهير, وهي في رواية حمّاد...» وقال المحقق في هامش النص: «هذه القصيدة...نُسبت إلى كعب بن زهير وهي في ديوانه (!)... ولها في رواية صعوداء مطلع غزلي... **وقد أقحمت هذه الأبيات الثلاثة في رواية ثعلب.** «وجاء في ص206: «ومن غير هذه الرواية: قال حماد...وقال: المحقق في حاشية (1) في حاشية س: هذه القصيدة من رواية حماد «ومن حاشية (9): «وقال الأصمعي: وليست لزهير...». وجاء في ص229: «وقال زهير يعاتب امرأته...ولم يروها المفضل. من كتاب حمّاد وقُرئت على أبي عمرو الشيباني».

في هذا الشرح للديوان ذكر اسم الأصمعي 117 مرة كراوٍ وكشارح واسم أبي عمرو الشيباني 82 مرّة كذلك. أما اسم حمّاد فلم يأت إلا 17 مرة. ومهما كان فحماد ينفرد كثيرًا بما يرويه من الشعر وكثيرًا ما يتضح أنه منحول. أما ما يرويه الأصمعي فلا يذكر حمادًا كمصدر لما ينقله أبدًا وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى أبي عمرو إلا في العبارة المذكورة أعلاه: «وقُرئت على أبي عمرو» ولا نعتقد أنها تعني أنه أخذ ذلك عن حماد **فكيف يمكن أي يرتاح**

---

(57) - بتحقيق الدكتور فخر الدين قباوة.

(58) - هو محمد بن هبيرة الأسدي. من اللغويين الأدباء الكوفيين. معاصر لعبد الله بن المعتزّ (الفهرست،116).

إلى ما يرويه حماد هو وحده لو صح أنه أخذ عنه وهو الذي جاب الآفاق وتجوّل في كل أرجاء الجزيرة ليتأكد من صحة ما يسمعه.

شعر طرفة والأعشى

جاء ذكر بعض الرواة لشعرهما من غير اللغويين فذكروا، كما رأينا، إسنادًا بالنسبة لطرفة وبأخَرة إذ يبدأ بالهيثم بن عدي ويستمر بحماد ثم سماك بن حرب ثم عبيد ولا ندرى من هو. وقد أجمع العلماء على اتهام الهيثم بن عدى في الرواية فأضف إلى ذلك حمادًا كمصدر للهيثم! وأما الأعشى فذكر لشعره أيضا سلسلة ترتفع إلى رواية مسيحي يسمى يحي بن متي وقالوا إن سماك بن حرب (أيضا!) روى عنه وعرفنا من قبل أن حمادا روى عنه (وذكروا كذلك أبان بن تغلب وشعبة بن الحجاج وهما من القراء المعروفين!).

ولكلا الشاعرين رواة موثوقون من اللغويين كالأصمعي وأبي عمرو الشيباني كما مرّ بنا ولا علاقة لهم بما يقول الأخباريون.

شعر امرئ القيس وحمّاد

إن القول الذي نُسب إلى الأصمعي: «كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الرواية إلا نُتفًا سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء» هو قول غريب حقا: رواه في الأصل رجل واحد وهو أبو الطيب اللغوي ونسبه إلى أبي حاتم السجستاني ومن هذا–في زعمه– إلى الأصمعي. وورد هذا القول مرة واحدة في كتاب واحد له وهو «مراتب النحويين». ولم يأت في كتاب آخر في ذلك العصر ولا فيما وصل إلينا من كتب الأصمعي أو أبي حاتم مع أنهما عند أبي الطيب القائل والناقل عنه لما رواه. هذا ولم يرد هذا الكلام فيما تركه لنا أي لغوي معاصر للأصمعي أو أبي حاتم مثل أبي عبيدة وجميع اللغويين الكوفيين: كأبي عمرو الشيباني وابن الأعرابي والطوسي وابن السكيت وغيرهم. فما بال أصحاب الأصمعي سكتوا عن ذلك وهم كثيرو العدد؟ ثم الديوان نفسه الذي وصل إلينا في نسخ مختلفة بروايات كثيرة مختلفة: لم يرو هذا الكلام أي راو ممّن شغل بعمل الديوان وصنعته **مع أنّ الدواعي كثيرة جدا** إلى أن يقول أحدهم كما قال أبو الطيّب على لسان الأصمعي: «كل هذا

الذي جمعتُه وصنعتُه فأكثره من رواية حمّاد والقليل منه من غيره». فهذا السكري الذي أجمع العلماء على جودة عمله للدواوين فلم يشر أبدًا إلاَّ إلى الأصمعي وأبي عمرو الشيباني والمفضل الضبي وغيرهم من الذين ذكرهم وكذا فعل غيره من صانعي الديوان فما الذي منعهم من أن يقولوا ما قاله أبو الطيب اللغوي؟ فهذا القول الخطير لوصحَّ لما أمكن أن ينفرد بنقله ناقل واحد لاستحالة إخفائه على المدى الطويل وفي كل أمصار الإسلام. ولا يمكن أن يقال إن حمّادًا كان هو المصدر الأقدم لكل هؤلاء لأنه لو صح ذلك لذكره **في الديوان بالذات** أحد رواته على الأقل ولو كان ممن ساهم في رواية هذا الديوان لذكر اسمه كما ذكر في ديوان زهير[59]: فلماذا يأتي اسمه كراوٍ في ديوان زهير ولا يأتي في ديوان امرئ القيس الذي هو من رواية حماد في أكثره فيما زعم أبو الطيب بما عزاه لغيره.

ثم إنّ أبا الطيب روى أيضا كلاما آخر فيما يخص حمّادا ويُنسبه أيضا إلى الأصمعي عن طريق أبي حاتم السجستاني: «قال أبو حاتم: قال الأصمعي: جالست حمادا فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرض روايته وكان قديمًا» (198). فكيف لا يجد الأصمعي عنده هذا القدر من الشعر ويجعله المصدر الأساسي لشعر امرئ القيس؟ ثم من أين له كل هذا الذي رواه إذا لم يرض رواية حمّاد؟! لا شك أن حمّادًا كان من أقدم من روى الشعر من المولدين إلا أنه لم يكن موثوقا عند علماء العربية وهم أهل التحقيق في المعطيات الشعرية وربما قارنوا بين ما كان يرويه حماد وبين ما سمعوه رائجا عند فصحاء العرب الموثوق بهم إلا أن هذا قل من نقله إلينا.

3- مصادر الأشعار في كتب اللغويين والنحويين:

أما الشواهد التي وردت في كتب اللغويين والنحويين فإن هؤلاء العلماء **الذين هم المرجع الأول والأخير في كل هذا لا يذكرون أبدا حماداً كمصدر كان ينبغي أن يرجع إليه لينشدهم شعراً**. ففي أقدم الأزمنة نرى سيبويه يذكر جميع العلماء بعبارة: «أنشدني» مثل

(59) وحتى مجيء اسمه في ديوان زهير لا يعني أن روايته كانت هي الأصل للروايات الأخرى.

أنشدني **يونس عن أبي عمرو بن العلاء» ولا يذكر إنشادًا عن حماد على الإطلاق** وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى العلماء الآخرين وسننظر في ذلك بالتفصيل فيما يلي.

أما سيبويه: فأكثر شواهده التي هي من سماعه الخاص فهو يكثر في ذكرها من هذا القول: «سمعنا فصحاء العرب أنشدوا هذا البيت» (148/2) و«هكذا سمعناه من العرب» (نفس المصدر) و«وسمعنا من يوثق به من العرب يُنشده هكذا» (بتخفيف الهمزة) (167) و«سمعنا ممن يرويه من العرب ينشده هكذا» (2/2) وغير ذلك. فشهادته حاصلة مباشرة عن العرب. أما ما يحكيه عن شيوخه فأكثر من يذكره هو يونس (17 شاهدًا شعريا) ثم الخليل بن أحمد (9 شواهد) ثم أبو الخطاب (8 شواهد) ثم عيسى بن عمر ثم ذكر شاهدين للأصمعي سَمِعَهما منه مباشرة –وهذا يدلّ على أنه كان زميله في البحث– ولا يوجد أي ذكر كما قلنا لحماد ولا لأي راوٍ من غير اللغويين ويؤكّد سيبويه دائما إذا لم يُسَمِّ اسم الراوي أنه سمع ذلك من ثقة أي من عربي يوثق بعربيته أو من عالم **يوثق بعلمه** مثل: «كل هذه البيوت سمعناها من أهل الثقة هكذا» (469/1) ومثل: «أنشدناه من نثق به وزعم أنه جاهلي» (288/2).

وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى ما وصل إلينا من كتب تلميذه سعيد بن مسعدة الأخفش وما نُقل من كلام الكسائي وما وصل إلينا مما كتبه تلميذه الفراء: لا نجد أي ذكر لحمّاد ولا أي أخباري كمصدر للشعر المروى.

وأما اللغويون الذين تخصّصوا في تدوين الشعر واللغة من البصرة والكوفة فلا يذكر أحد منهم حمّادًا وغيره من الأخباريين أصلا مثل ابن السكيت في كتابه الهام: «إصلاح المنطق» ولا الأصمعي في أي كتاب مما وصل إلينا ولا أبو زيد في نوادره. أما أبو عبيدة فلم يذكر حمادًا كمصدر لأي شعر وقد جاء في «الديباج» ما يلي: «وحدّثني أبو جعفر الكوفي وغيره أن حمادًا الراوية كان ذات يوم قاعدًا في نفر من بكر بن وائل وتميم فتنازعوا الحديث...» (148). والمتحدث هنا هو أبو عمرو المدني أحد من ذكرهم أبو عبيدة في رواية الأخبار. ولم يأت ذكر حماد إلا في هذا المكان. أما «النقائض» فلم يرد اسم حماد إلا مرة واحدة أيضا: قال: «فأما حماد الراوية فزعم أن مالك بن نويرة افتكّه...» (784). ولم يأت

اسمه في مكان آخر على الإطلاق. وفي كلا الموضعين[60] ذُكر حماد كراوٍ لخبر لا كراوٍ لشعر وكذلك فعل بالنسبة لبعض الأخباريين مثل هشام بن الكلبي. ذكره في النقائض سبع مرات كراوٍ للأخبــار لا للشعر. وسنرى في البـــاب الذي نخصّصه لمناهج البحث الميداني أن جميع من ذكرهم أبو عبيدة من رواة الشعر هم من فصحـــاء العرب ليس إلا.

وقال سيبويه عدة مرات: «سمعناه ممن يرويه عن العرب» (142/1) وقد يقال: فلعلّ حمادًا يدخل في هؤلاء الراوين الذين لم يذكرهم سيبويه. فهذا جدّ مستعبد لأن رواة الشعر الذين يكثر مجيء أسمائهم عند علماء العربية المشهورين معروفون **ولا يأتي اسم حماد** عندهم، كما رأينا، **كمصدر للشعر عند أحد منهم أبدًا فكيف يأتي عند سيبويه**[61].

أما أن يكون حماد قد **جمع شعرا كثيرا** -ولا ندري في الغالب من أين أخذه لا كعالم محقق بل كمنادم للملوك يريد أن يَبْهَرهم بما يحفظه كثرة[62] - فهذا حاصل لا محالة وإن كنا نشك في أن يكون كثر العلماء الذين رجعوا إليه ثم حاولوا تحقيق ما وجدوه عنده **إذ لم ينص على ذلك أحد منهم نصا صريحا إلا في زمان متأخر** وخاصة في كتب طبقات اللغويين[63].

شعر عدّي بن زيد وأبي دؤاد الإيادي وما قال عنهما ابن قتيبة:

سبق أن رأينا ابن قُتيبة يُنسب إلى أبي عبيدة (ص182 من كتاب الشعر والشعراء) فيما يخص عدي بن زيد وأيضا إلى الأصمعي (ص190) فيما يخص عديّا وأبا دؤاد الإيادي أنّ العرب لا تروي شعرهما لأن ألفاظهما ليست بنجدية» (!)[64] وقال هو عن عدي: «وعلماؤنا

(60) – بل في موضع واحد وهو الذي في النقائض لأن ما جاء في الديباج هو مجرّد حكاية لكلام أبي عمرو المدني.

(61) – واغلب الظن أن هذه العبارات لسيبويه قد يكون الراوي فيها إما أحد الرواة العرب وإما أحد اللغويين الثقات (ومنهم أبو زيد وأبو عبيدة من معاصري سيبويه ولم يذكرهما سيبويه) أو مجموعة منهم ويحصل ذلك عند شيوع الشاهد شيوعًا واسعا(عند الرواة العرب وعلماء العربية).

(62) – ذكر أبو عبيدة مرة واحدة أن حمادا كان ذات يوم قاعدًا في نفر من بكر بن وائل وتميم وتنازعوا الحديث (الديباج،148).

(63) – انظر ما رواه عن أبي حاتم ابن الشجرى في مختاراته. أما قول الراوي في ديوان امرئ القيس: «هذا آخر ما صحّح الأصمعي» فهو لا يعني بالضرورة ما رواه حماد فصحّحه الأصمعي إذ لم يذكر اسم حماد في هذا السياق. هذا وقال ابن دريد في الجمهرة: «هذا رواه حماد الراوية لامرئ القيس ودفعه البصريون» (1214).

(64) – وربما ألهمهُ ذلك اطّلاعه على ما قال ابن سلام عن عدي: «كان عدي يسكن الحيرة ويراكن الريف فلاَن لسانه». ولم يقل ابن سلام أكثر من هذا (الطبقات، 117). ويظهر ضعف ما يرويه ابن قتيبة ههنا وقلة عنايته بذلك نسبته هذا الكلام مرة إلى أبي عبيدة ومرة إلى الأصمعي(!).

لا يَرَوْن شعره حجةً (176). وهذا أيضا قول غريب جدا يُعْزى للأصمعي وليس ذلك بصحيح لأن الأصمعي وجميع اللغويين الذين جمعوا الشعر في ذلك العصر عن العرب رووا أبياتا كثيرة لعدي وأبي دؤاد. ولا يمكن أن يرووا ذلك إلا عن العرب. فكيف يقول أبو عبيدة هذا الكلام وهو يستشهد بشعر عدي. وكذلك جميع العلماء فكيف يقول ابن قتيبة أنه ليس بحجة عند العلماء!

يقول أبو عبيدة: «كما قال عدي بن زيد:

وما قصرتُ عن طلب المعالي   فتقصُر بي المنية أو تطولُ (النقائض 119)

وأدرج في كتابه الديباج قصيدة عدى المشهورة التي مطلعها (في قصة الزباء مع جذيمة الأبرش):

دعا بالبقّة الأمراء يومًا   جذيمة عصرَ ينجوهم ثبينا (111-112)

فهذا نص ثابت لا يمكن ردُّه فكيف ينشد أبو عبيدة قصيدة بأكملها لعدي ويقول بعضهم في زعم ابن قتيبة، إن العرب لا تروي شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية؟ والمعروف عن أبي عبيدة أنه لا يأخذ الشعر إلا من العرب (كل العرب الفصحاء من أي إقليم وأي عصر)[65].

واستشهد أيضا في كتابه «مجاز القرآن» ببعض الأبيات لعديّ (3 أبيات في 294/1 وبيت واحد في 361/1 و16/2 -53-57-60).

وجاء في نوادر أبي زيد الأنصاري: «وقال عدي بن زيد:

فليتَ دفعتَ الهمَّ عني ساعةً فبِتْنا   على ما خلَّيْتَ ناعمي بالِ (ص 25).

وقال أيضا: «**وأنشدونا من غير وجه** لعدي بن زيد العبادي:

إذا أنت باريتَ الرجالَ فلا تَلَعْ   وقلْ مِثلَ ما قالوا ولا تتزيَّد[66] (240).

---

(65) وقد يُنسب بعض الأخبار إلى الكلبي أما فيما يخص اللغة والأشعار فلا يفعل ذلك. أنظر فيما يخص النسبة إلى نجد ما قلنا في مقدمتنا.

(66) - روى هذا البيت في كتاب النوادر (ص 305-306): «فاكهت الرجال» عوض «باريت».

وهذا نص صريح على أن الكثير من العرب أنشدوا هذا البيت فسمعه أبو زيد من عدة أشخاص منهم. ثم إن أبا زيد يصرّح أيضا أنه أخذ الشعر الذي ذكره في نوادره إما من المفضل أو من العرب ليس إلا (أنظر نوادره ص2 و57 و105 و176 و179 و180 وغيرها).

وجاء في أضداد الأصمعي 49 رقم 47 : «قال عدي:

وما خُنْتُ ذا وصل وأبت بوصله   ولم أجرم المضطّر إذ جاء جائعا

(ذُكر في كتاب الأضداد لأبي حاتم 194). واستشهد أبو حاتم بهذا البيت لعدي:

من رَأيتَ المنونَ عَرَّيْنَ أم مَنْذا عليه من أن يضام خفيرُ (المذكر والمؤنث 153)

هذا **واستشهد سيبويه بثمانية أبيات من شعره:** ستة منها ذَكَر مَعَها اسم عدي وهي في طبعة بولاق: 1/70-162-361-440-458؛ 2/369. وكذلك أبو عمرو الشيباني في كتاب الجيم فقد استشهد بستّة عشر بيْتًا له وفي جمهرة ابن دُريد نجد لعديّ تسعة عشر شاهدًا وغير هؤلاء كثيرون.

وجاء في «المأثور من اللغة» لأبي العَمَيْثَل: «قال عدي بن زيد:

أعاذلَ قد لاقيتَ ما يزَعُ الفتى   وطابقت في الحِجْلين مَشْيَ المقيَّدِ (ص 78)[67].

وعلى هذا فقد استشهد بشعره كل اللغويين والنحويين القدامى فمن أين لهم هذا الشعر؟ فما حكاه ابن قتيبة يقتضي أن يكون جميع هؤلاء اللغويين قد أخذوه من مصدر آخر غير العرب إذ لم يرووه حسب زعمه! أيُعقل هذا ؟

أما أبو دؤاد الإيادي فاستشهد بشعره أبو عبيدة نفسه! وذلك في مجاز القرآن (113/1 و140/2) وسيبويه (1، 43) ولا مصدر لسيبويه إلا العرب وشيوخه عن العرب!

---

(67) – وذكر في كتاب الاختياريْن للأخفش الصغير بعض الأبيات له (ص 703 و732) وقد تفطّن بعض العلماء إلى هذه المُجازفة التي نسبها ابن قتيبة من غير حق إلى أبي عبيدة والأصمعي وما أثار ذلك من الردود في القرن الرابع. فقد قال الجرجاني في كتابه «الوساطة» وكيف يكون ذلك وهذا معاوية يفضل عديًا على جماعة الشعراء وهذا الحطيئة يجعل أبا داود أشعر الناس (31-40).

كما استشهد به الأصمعي نفسه أيضا وهو لا يروي إلا عن العرب وذلك في كتابي النبات (ص 21) وخلق الإنسان (174). وجاء في طبقات ابن سلام ما يلي: وكان عيسى يقرأ (الزانية والزاني...النور2) وكان ينشد: ياعديا لقلبك المهتاج» (20/1) والبيت لأبي دؤاد وعيسى هذا لا يروي إلاّ عن العرب كسائر النحاة من عصر سيبويه.

ثم زيادة على كل هذا فإنّ اللغويين قاموا بصنعة ديوانيهما وهذا لا يتفق أبدًا مع ما ادّعى ابن قتيبة بما عزاه إلى أبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء من هذا الكلام الغريب: كيف يعلمون ديوانيهما والعرب لا تروي شعرهما؟ ولم يثبت عن أحدهم أنه أخذ من غيرهم الشعر.

III - مناهج توثيق النصوص عند النحاة العرب وتحقيقها:

إن تحقيق النصوص ونقدها ظهر عند العرب مع ظهور علم العربية كما ظهرت هذه العلوم أول ما ظهرت **مع ظهور التصفّح العلمي للنص القرآني** ودراسة قراءاته المتوارثة عن النبي صلى الله عليه وسلَّم.فأما جمع اللغة والتدوين المنتظم للنصوص فجاء امتدادًا وتوسيعًا لهذا الذي بدئ به في دراسة النص القرآني. وأحسّ أهل الاختصاص في ذلك الوقت بحاجتهم المسيسة إلى توثيق وتصحيح لكل ما يسمعونه ويروى لهم وخاصة في المجالس الأدبية غير العلمية. ويشهد على ذلك قول ابن سلام: «ولا اختلاف في أن هذا موضوع تكثر به الأحاديث ويستعان به على السهر عند الملوك والملوك لا تستقصي» (61). ولذلك تشدّدوا في قبول المسموع أيا كان النص.

وفيما يخص رواية الأشعار خاصة فقد تفطّن العلماء من أول أمرهم إلى خطر الوضع وما ذكره ابن سلام في ذلك يدل على أن العلماء تصدّوا بحزم كبير لهذا الخطر وضبطوا في نقد النصوص بعض المقاييس كما سيفعله المحدّثون بالنسبة للحديث الشريف. ويشترك العلماء من الفئات المختلفة في عدة مقاييس كما يختلفون في بعضها الآخر بحسب موضوع بحثهم ونقدهم. وقد سبق أن تطرقنا في مقدمتنا إلى هذا القدر المشترك .وهذه صور ملخصة من أعمال التصحيح والتوثيق للنصوص:

1) لابد من التأكد كما قال ابن سلام من وجود النص عند فصحاء العرب والتأكّد من معرفتهم أو عدم معرفتهم للبيت المريب أو القصيدة المشكوك فيها بل وإجماع «علماء القبيلة»[68] على صحة ذلك وصحة نسبته. وحدّد ابن سلام هؤلاء العرب «بنسبته إياهم إلى «أهل البادية» لأنه ألف كتابه في أواخر عُمره أي حوالي سنة 227 وهو يخاطب أهل عصره وكانت الفصاحة السليقية (والشعراء الفصحاء خاصة) قد اختفت في الحضر في ذلك الوقت. ولا شك أن الكثير مما كان رائجاً من الشعر في المدن قد بحث عنه علماء العربية وخاصة فريق أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي **في القرى والبوادي على حدّ سواء** أثناء رحلاتهم الطويلة والكثيرة. ولم يقم بذلك بأي دور أبدًا حماد[69] ومن يماثله **فهذه كانت ميزة العلمـــاء** في هذا الميدان ولا أدرى لماذا ما يزال يذكر معاصرونا حمّاداً بجنب أبي عمرو والمفضل كالند لهما ؟ وقتادة بن دعامة هو من جملة من كان يُقصد للتأكد عن «الحروف» وعن الشعر القديم. وكان من علماء العرب في الشعر الكثير من الشعراء الأمويين ورواتهم وذلك مثل رؤبة بن العجـــاج وذى الرمة والفرزدق وجرير والكميت وغيرهم[70] وذكر أبو عبيدة أسماء لبعض هؤلاء العلماء فقال: «وهي مصنوعة لم يعرفها أبو بردة ولا أبو الزعراء ولا بوفراس ولا سريرة ولا الأغطش وسألتهم عنها قبل مخرج إبراهيم بن عبد الله بسنتين فلم يعرفوا شيئا وهي نقيضة لها أخذت من حـــماد الراوية» (المزهر180/1) ويقول أيضا: حدّثنا أبو المختار وفراس بن خندق القيسي (قيس ثعلبة) وعدة من **علماء العرب** قد سمّاهم فراس بن خندق» (النقائض 639) .

2) كما لابد أن يكون التحقيق والحكم الأخير من عمل العلماء من أهل العلم بالشعر **وكلهم كانوا في ذلك الوقت من علماء العربية** إذ هم الذين قضوا أعمارهم في جمعه وتدوينه

---

(68) – يقول ابن سلام مثلا أخبرني بعض أهل العلم من غطفان (109) وأيضا: «فقال بعض رواة قيس وعلمائهم» (438).

(69) – لم ينصّ على ذلك أحد من الناس حتى الكذابون الملفقون من بعض الأدباء. وما قالوه يقتصر كما قلنا على نسبة الرواية لجزء من ديوان. وغالبا ما يكون صاحب هذه النسبة إلى حماد أبو الفرج في الأغاني .

(70) – مثال ذلك ما قاله ابن سلام عن يونس أنه أخذ من ذي الرمّة قصيدة عبيد بن الأبرص الحائية (76–77). وقال الجاحظ : «كان الفرزدق راوية الناس و شاعرهم وصاحب أخبارهم» (البيان 322/1) قد بيّن ذلك باستيفاء الموضوع الدكتور ناصر الدين الأسد في مصادر الشعر الجـــاهلي .

تدوينا علميا دقيقا. وصار لا يقبل أي شيء من ذلك إلا إذا كان **مصدر الرواية المحققة هو** أبا عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والفريق الذي تتلمذ عليهما من البصريين والكوفيين ومنهم ابن سلام نفسه. وهم الذين اشترطوا أن يكون المصدر ومرجع التحقيق **فصحاء العرب من أهل الاختصاص (بالشعر) وحدهم** مع المراجعة الدائمة لعلماء العربية (في زمانهم).

ومثال لهذا التحقيق ما جاء عن أبي عبيدة قال: «هو عندي بـــاطل (بعض ما ادعـــاه بعض الجهال) مختلط أُخذ من جهال **وجاء الشعر الثابت** الذي لا يُردّ بغير ذاك» (النقائض 238/1).

وقد سبق أن قدمنا بعض الأمثلة تناسب هذا الموضع فهذه أمثلة أخرى تؤكد ما قلناه: قال سيبويه :

«**أنشده فيه يونس مرفوعـــا** عنهم» (61/1) «وحدثنا يونس أن العرب تنشد هذا البيت» (77) «وبعض العرب الموثوق بعربيته ينشد هذا البيت نصباً» (153) «كما أنشد كثير من العرب لأمية بن أبي الصلت ...» (199) «ومن ذلك هذا البيت تنشده العرب **على أوجه** بعضهم يقول... وبعضهم يقـــول»... (200)«وزعم يونس أنه سمع الفرزدق ينشد ...» (253) «وزعم من نثق به أنه سمع رؤبة يقـــول» (272) «هكذا أنشدنـــاه يونس» (458) «وسمعنا فصحاء العرب يقولون في بيت امرئ القيس...» (147/2) «هكذا سُمع من العرب تُنشده» (70/1) «وهذا شبيه ببيت سمعناه ممن يوثق بعربيته يرويه عن قومه» (157) سمعناه ممن يرويه من العرب يُنشده هكذا» (212) «وعلى هذا أنشدت بنو تميم قول النابغة» (364) إلخ. وهذا الكلام من سيبويه يؤكّد أن العرب الفصحاء كانوا هم وحدهم في ذلك العصر المرجع الوحيد فكل مسموع صحيح معتمد فلا بد أن يرفقه مثل هذا القول: «الدليل على ذلك إنشاد العرب هذا البيت كما أخبرتك» (468/1) فكأنه قال: أفرأيت كلام العرب؟ فارجع إليهم إن شئت!

فهذه الشواهد التي يذكرها سيبويه بعد ذكره للمرجع تبيّن جيداً الدقة الكبيرة التي تتصف بها أعماله في جمع المادة (وهذه شواهد فقط ولكنها تمثل المادة الكبيرة التي استقريت) وفي

تحقيق صورة النص بقوله «أنشده مرفوعاً» أو «بالنصب» أو مخفّفا وغير ذلك وقِسْ على ذلك كل المادة التي جمعها مع غيره وحققها بالسمــاع الدقيق والمقابلة بين مختلف الأوجه التي سمعها ودّونها.

هذا فيما يخص مصدر الرواية والتأكد من صورتها أو صورها التي سُمعت بالفعل أما ما يخص التأكد من صحة النسبة إلى قائل معيّن فهذا لا يظهر أي أثر له في كتاب سيبويه ولا في أي كتاب ألّفه النحويون ككتب الأخفش والفراء وغيرهما. أما من تخصّص في جمع التراث اللغوي الأدبي كالأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة فالذي نجده عند هؤلاء بصفة خاصة هو إنكارهم لبعض الأشعار لأنهم سألوا عنها فصحاء العرب من أهل الاختصاص بالشعر فلم يعرفوها، وهذا لم يمنعهم من السؤال عن قائل الشعر الحقيقي عند هؤلاء الفصحاء . قال ابن سلام: «وقد زيد فيها [قصيدة أبي طالب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم] وطولت. رأيت في كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة وقد علمت أنه قد زاد فيها فلا أدرى أين منتهاها. **سألني الأصمعي** عنها: فقلت: صحيحة جيدة. قال: أتدري أين منتهاها؟ قلت: لا أدري» (204). وقال: «وأخبرني خلف الأحمر أنه سمع أهل البادية من بني سعد يروون بيت النابغة للزبرقان بن بدر... **وسألت يونس** عن البيت فقال: هو للنابغة أظن الزبرقان استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه لا مجتلباً له... وقد تفعل ذلك العرب لا يريدون السرقة» (47-48) وقال أيضا: «أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن تميم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم ... **فسألناه عن شعر أبيه** ... فلما نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا و**إذا كلام دون كلام** متمم وإذا هو يحتذي على كلامه فذكر المواضيع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعلها» (40) وقال: «**أجمع أهل العلم** على أن النابغة لم يقل هذا ولم يسمعه عمرو ولكنهم غلطوا بغيره من شعر النابغة» (49-50) .

يتضح من هذا أن العلماء في زمان سيبويه اهتموا بالفعل بالبحث عن القائل الحقيقي للشعر الذي سمعوه ودوّنوه وتخصص في هذا البحث بالذات فريق أبي عمرو والمفضل. ورأينا ابن السلام يذكر أيضا يونس من المهتمين بذلك .

وعلى هذا يبدو أن النحويين ممن جاء بعد يونس وجيله إن كانوا ساهموا بقسط كبير جدا في السماع إلا أنهم اعتمدوا كثيراً على شيوخهم وهؤلاء «اللغويين» كالأصمعي وأبي عبيدة ويونس وأبي الخطاب وعيسى بن عمر والخليل، في تصحيح نسبة القائل ولذلك لم يظهر منهم فيما كتبوه الاهتمام الكبير بهذا الموضوع ثقة منهم فيما سمعوه من شيوخهم وزملائهم «اللغويين» وكانوا محقين في ذلك.

والسكوت في كتاب سيبويه وغيره عن أسماء الشعراء -وإن كان ثبت أن ما نسبه سيبويه من شواهده يفوق النصف من مجموع شواهده- قد أثار قلقا كبيراً عند تلاميذ الأخفش بصفة خاصة وهو الذي ورث كتاب سيبويه وأخذه عنه الناس. ونخصّ بالذكر الجاحظ (من حيث انه كان من أقرب العلماء إلى علماء العربية) وما نسب إلى الجرمي من البحث الواسع عن الشعراء الذين سكت عن أسمائهم صاحب الكتاب. أما الجاحظ فلا نعجب أن يقول مثل هذا الكلام: «.. **لا يُقبل** في مثل هذا **إلا بيت صحيـــح** الجوهر من قصيدة صحيحة **لشاعر معروف**.و إلا فإن كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيت فيها أجود من هذا البيت... أما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر...قد طغت الرواة في هذا الشعر...فزعموا أنه ليس من عاداتهم أن يصفوا عَدْو الحمار بانقضاض الكوكب... وقالوا في شعر بشر مصنوع كثير... وبعد فمن أين علِم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم وهو جاهلي ولم يدّع هذا أحد إلا المسلمون ؟ فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة» (الحيوان 272/2).

أما ما روى عن الجرمي أنه قال: «نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً. فأما الألف فقد عرفت أسماء قائلها فأثبتها وأما الخمسون فلم أعرف قائليها» (خزانة الأدب 8/1). فهذا الكلام لم يقله الجرمي ولا عجب في ذلك إذ لم يروه أحد من العلماء في كتبهم بل تناقله أصحاب الطبقات (المتأخرون) [71]. إلا أنه ثبت أنه نسب بعض الشواهد إلى قائليها والحق أن كل من عُنى بكتاب سيبويه بالتحقيق أو الشرح والتعليق عني بالضرورة

(71) – د. جمعة، شواهد الشعر في كتاب سيبويه ص 188–190.

بالبحث عن القائلين لشواهده المسكوت عنهم وأخص بالذكر السيرافي (ثم إبنه) والزجاجي[72]. والذي يهمنا هنا هو هذا الاهتمام الكبير الذي ظهر في النصف الأول من القرن الثالث بهذا الموضوع. **فنحن في عصر آخر غير زمان سيبويه** والذين استشهد بشعرهم من فصحاء العرب المجهولين أو غير المشهورين من الشعراء كانوا قد ماتوا وهم من أصحاب الشواهد التي لم يستطع أي واحد من العلماء أن يكشفوا عنهم وبلا شك أنهم كانوا يتجاوزون الخمسين [73].

فبمرور الزمان صارت الحاجة إلى ذكر القائل لكل شعر مسيسة جدا عند علماء القرن الثالث لأن الحقيقة التاريخية تقتضي ذلك وهذا إذا أردنا أن نطبقه على زمان سيبويه فيكون ذلك منا إجحافاً وتعسفا لأن مصدر السماع الوحيد المجمع عليه بين العلماء هم في ذلك الزمان فصحاء العرب (حضرًا وبدوًا) ومن سمع منهم من العلماء. فهذا مرجع موثوق والشعر المسموع عنهم أي الموثوق بعربيتهم «ثابت لا يردّ» كما يقول أبو عبيدة[74] والشعر والنثر في ذلك سواء وكان يكفي أن يقول العالم لمعاصريه: «أفرأيت قول العرب؟» وهذا لا يمكن أن يحتج به إلا إذا كان القائل أو القائلون أحياء يستطيع أي باحث أن يتحقق مما شاهده وسمعه غيره[75] أو بعد موتهم بإجماع العلماء في رواياتهم وما نسبوه من المسموع.

هذا ويمكن أن نستنتج من كلام الجاحظ وما قال أيضا ابن سلام أن العلماء كانوا دققوا مقاييسهم في نقد النصوص وظهرت عندهم لأول مرة في التاريخ مناهج نقدية جديدة وهي تخص النظر العلمي في المضمون من جهة والشكل من جهة أخرى.ويدخل في المضمون مقياس التاريخ (و ظهر هذا المقياس في هذا الزمان عند المحدِّثين أيضا).

إن النظر في المضمون يؤدي بالضرورة إلى المقارنة بين ما قاله الشاعر وما هو راجع إلى زمانه الذي عاش فيه فإذا قصد شيئا لم يكن موجودا إلا بعد زمانه فهو دليل على أن هذا

---

(72) – نفس المصدر 190.
(73) – نفس المصدر ابتداء من 179.
(74) – النقائض، 238/1 وقد مرّ.
(75) – أما فيما يخص الخلاف في نسبة الشاهد فهذا راجع إلى خلاف الرواة من العرب فيما بينهم (انظر المصدر السابق 196 و ما بعده).

الشعر موضوع ومنحول إلى من لم يقله. وهذا ما أشار إليه الجاحظ(76) وكذلك هو الأمر إلى ما كان يضعه من الشعر «الصحفيون» والقصاص في ذلك العصر وما كان يضعه المولدون. فما وجد فيه العلماء من العيوب يرجع إلى عدم الموافقة للزمان ويمكن أن يكشفها هذا النوع من المقاييس. وكذلك هو أمر الشكل فقد يختلف الأسلوب من بيت إلى آخر فيصير ركيكا أو على الأقل دون ما كان عليه قبل كما لاحظه أبو عبيدة في شعر متمّم بن نويرة عند إنشاد ابنه له. وربما وجدوا من اللحن والخطأ في العربية ما يثير إنكار العلماء أن يكون من الفصحاء خصوصا إذا كان من جنس الأخطاء التي كانت معروفة عند المولدين في ذلك العصر. ومهما كان فإن أصل الأصول في جميع الأعمال التوثيقية هو إجماع العلماء بالمفهوم الذي أشرنا إليه وهو «مجيء السماع لنفس المسموع وبالنسبة للزمان الواحد **من أكثر من وجه**»(77) سواء كان ذلك في رواية الشعر أو كلام العرب وغير ذلك.

ويجب أن نكرر هنا ما قلناه في المقدمة من أن الشعر العربي كان حافظ عليه العلماء إلى غاية ما تسلط عليه مرة أخرى«صحفيون» آخرون في نهاية القرن الثالث والقرن الرابع بصفة خاصة. وأولئك العلماء هم الذين يذكرهم كل ديوان موثق زيادة على من ذكرناهم مما نسب إليهم «صنعة» الدواوين من القرن الثالث فهناك علماء فطاحل تتلمذوا على أولئك ومنهم محمد بن حبيب (م245) وأبو سعيد السكري (م275).

(76) — أنظر أمثلة أخرى في الشعر و الشعراء 14/1 و التبريزي، حماسة،313 .
(77) — وهو غير التواتر كما سنراه.وهذا الإجماع أعمّ من إجماع الفقهاء كما سنراه أيضا.

الفصل الثالث

المسموع والشواهد

I - المسموع المسقرى غير الشواهد:

يجعل بعض الباحثين في زماننا من الشواهد التي ذكرها علماؤنا في كتب النحو واللغة هي المادة التي استقراها هؤلاء العلماء لاستنباط القواعد النحوية والصرفية وغيرها وكذلك بالنسبة إلى اللغة فقد يستشهد اللغوي على وجود مفردة بمدلول معيَّن بآية قرآنية أو بيت شعر أوكلاهما مثل النحوي، ظنا منهم-أي معاصرينا- أن العلماء القدامى قد عرضوا هذه الشواهد لا كدليل فقط على صحة ما بنوه من القواعد وما ذهبوا إليه من الأقوال **بل لأنهم بنوا عليها هي نفسها قواعدهم**. أو بعبارة أخرى: يعتقد بعض معاصرينا أن سيبويه وغيره من العلماء القدامى كلما استشهد ببيت شعر أو بيتين فقد **بنى قاعدته على ما ذكره من الشواهد وحدها! فهيهات أن يكون الأمر كذلك**. وقد أدّاهم ذلك إلى ظلم علمائنا القدامى بمثل هذه الأقوال المجحفة: أن يكون بنى النحاة العرب قواعدهم على المثال الواحد أو المثالين فكان استقراؤهم لكلام العرب بالضرورة ناقصا[1]. هذا وقد سبقهم إلى ذلك بعض رجال الفكر القدامى من غير علماء العربية كابن حزم في قوله: «العجب ممن وجد لأعرابي جلف أو لامرئ القيس أو الشماخ أو الحسن البصري **(!) لفظا في شعر أو نثر** جعله في اللغة واحتجّ به وقطع به على خصمه ولا يستشهد بكلام خالق اللغات ولا بكلام الرسول وهو أفصح العرب وما في الضلال أبعد من هذا» (الإحكام 36/4).

(1) - وهناك من تفطن إلى أن تصفح النحاة لكلام العرب لم يقتصر على هذا العدد من الشواهد ولكن اقتنعوا بأن استقراءهم كان ناقصا مهما كان.

فهذا في اعتقادنا واعتقاد كل إنسان منصف إجحاف وظلم[2] لأن هذا البنيان العظيم الذي بنته الأجيال المتتالية من النحويين إلى غاية سيبويه يكون قد استُخرِج من عدد قليل من العبارات بحيث يمكن أن يُكتفى في النظر فيها برجل واحد في وقت قصير. والذي نلاحظه من عمق التحليل والاتساع العظيم للأماكن التي جرت فيها تحريات اللغويين وبحوثهم لا يسمح لنا بأن نقول بمثل هذا القول الساذج والمغرض.

ويبدو لنا أن سبب قول هؤلاء المحدثين وابن حزم فيما مضى هو هذا الاعتقاد الخاطئ بأن الشواهد هي وحدها المادة اللغوية التي استقراها علماء العربية. وسنرى فيما يلي أن الواقع هو على عكس ذلك.

- **الدليل الأول على اتساع المادة اللغوية التي نظر فيها النحاة:** ما يقوله سيبويه وأصحابه: فلنراجع مثلا ما روى سيبويه من سماعه لكلام العرب يقول:

«فهذا إنشاد بعضهم **وأكثرهم** ينصب ...» (1/ 23) «والوجه **الأكثر الأعرف** النصب» (44) «وجاء في الشعر من الاستغنـــاء أشد من هذا» (37) «فهذا عربي حسن والأول **أعرف وأكثر**» (78) «**لأن أكثرهم يقـــول...**» (121) «و يكون فيه الوجه **في جميع اللغات**» (194)

«ولكن **بعض العرب يجرُّه**» (217) «**وهذا في الشعر أكثر من أن أحصيه لك**» (239)

«فهذا **الغالب في كلام الناس**»(242) «**قول العرب كلهم**» (307)

«وزعم لي بعض العرب أن «**يا هذا زيدٌ**» **كثيرً في كلام طيء**» (307-308)

«وزعم يونس أنها **لغة كثيرة في العرب جيدة**» (314) «**ليس أحد يقول**» (343)

«وليس في الدنيا عربي يجعلها هاهنا صفة... **لا يتكلم بها العرب**» (395)

«وهذا لا يرفعه أحد» (398) «لا يتكلم به العرب ولا يستعمله منهم ناس كثير» (462)

---

(2) - ولا عجب من موقف ابن حزم هذا وهو ظاهري كامل الظاهريةِ أي ممن ينكرون القياس (العربي) أشدّ الإنكار وينبذونه نبذًا وجزء كبير من أعمال النحاة قد بنى على هذا القياس (والذي يرضى به ابن حزم هو القياس الأرسطي ليس إلا.وسنرى ذلك بالتفصيل في دراسة لاحقة إن شاء الله).

«وهو في الكلام قليل لا يكادون يتكلمون به» (452) «**ولا يعلم هذا جاء في شعر البتة**» (453)

«**فكل العرب تذكِّره**، أخبرنا بذلك يونس» (35/2) «**وليس في الدنيا عربي يجعلها** هاهنا صفة للمظهر» (395)

«وهذا مذهب إلا أنه ليس يقوله أحد من العرب»(47) «ليس عربي يقول» (54)

«**وسألنا العُلْويين والتميميين فرأيناهم يقولون** « (47)

«**وهذا قول جميع من نثق بعلمه وروايته عن العرب**» (54) «وزعم يونس أنها لغة كثيرة في العرب جيدة» (314)

«ونحو هذا أكثر من أن يُحصى» (46) «**وذا أكثر من أن يُحصى**» (95) «**وهو أكثر من أن أصفه لك**» (146) (و196 و396)

«**وهو أكثر من أن يُحصى**» (151) «ولا تكاد العرب تكلم به» (173) «ولكني لم أسمعه» (178)

«وأكثر العرب تقول»(230) «وهذا لا يكاد يوجد في كلام العرب» (232) «وأكثر العرب»...أكثرهم...» (121/1-297/2/230-249-264 إلخ)

«**وقال أكثر العرب**» (249) «**في كلام العرب كلهـا**» (253) «**وذلك في لغة جميع العرب**» (256)

«ويكون فيه الوجه في جميع اللغات» (194/1)

«وهي لغة لبعض أهل الحجاز فأما العامة فلا يميلون» (261)

«والذين لا يميلون في الرفع والنصب **أكثر العرب وهو أعمّ في كلامهم**» (264)

«ولو كان كذلك **لم يقل من لا يُحصى من العرب**» ...(293)

«**الذي تكلم به العامة**» (312) «**وذلك مطرد في كلامهم**» (362) والتنوين والنون عربي مطرد (101/1)

«فكل هذا فيه اللغة المطردة **إلا أنا لم نسمعهم قالوا إلا استروح**...»(362)

«والرفع في جميع هذا عربي كثير **في جميع لغات العرب**» (120/1)

«**وسمعنا ناساً من العرب كثيراً** يقولون...» (166/1) «ومن العرب من يقول ...» (207/208/229/236/249/283/489/2/36/81/88/96/105/145/204/ 204/226/286)

«**ولم نسمع عربيا يقــوله** وله وجه من القياس»(313) «أنهــا لغة كثيرة في العرب جيدة» (314)

«**وجميع ما وصفناه من هذه اللغات سمعناه من الخليل رحمه الله ويونس عن العرب**» (318)

«**وليس في الدنيا عربي يرفع** ... » (415) «**وكل ذا تكلم به عامة العرب**» (477)

«سمعنا ذلك من فصحاء العرب **لا يعرفون غيره**» (20/2)

«لم تقله العرب وليس له نظير في كلامها» (158) «ليس عربي يقول»(39)

«وذلك **قليل في الشعر**»(152)

«وليس من العرب أحد إلا وهو يقول» (126) «وذلك **في لغة جميع العرب** إلا أهل الحجاز» (256)

«فقد **اجتمعت العرب** على تخفيفه» (165) «**أجمعوا** فيها على **لغة هذيل**» (191)

«**سمعنــا ذلك من تميم وأســد**» (285) «سمعنــا بعض **بني تميــم** من **بني عدي** يقولــون...» (287)

«**وأما غيرهم من قيس**» (288)

وذكر سيبويه أسماء القبائل والجهات التي امتازت بشيء من ضروب الكلام وسنرى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

هذا وأحصينا عدد المرات التي سمع سيبويه فيها هو بنفسه من العرب مباشرة فبلغ خمسة وثمانين مرة. وينبغي أن تضرب في عشرة وأكثر لأن الذين تناولهم بالسماع كثيرون جدا.

يتضح من كلام سيبويه ما يلي :

أن مسموعه يتكون مما سمعه هو وهو كثير وما رواه عن شيوخه وهو أيضا كثير ويدخل في هذا الأخير كل قول منه يصرّح فيه باطراد الضرب من الكلام المستعمل **عند جميع العرب وعامتهم** أو **عند أكثرهم** أو عدم وجود الشيء على الإطلاق مثل قوله: «ليس في الدنيا عربي...». ثم عرفنا أن هذا المسموع واسع جدا من حيث المساحة التي غطاها سماعهم وذو حجم كبير جدا نظرًا لا لكثرة الشواهد بل لكثرة ما سمعوه بالفعل من الكلام ولا سيما **كثرة من أخذوا منهم** فهذا هو المهم لأن الذي سمعوه **يدل على كثرته المهولة في هذه المساحة العظيمة التي تجوّلوا** فيها من رقعة الفصاحة ابتداء من زمان أبي عمرو بن العلاء وهذا العدد الخارق للعادة ممن سمعوا عنهم. ودليل آخر هو أن النحو من الكلام الذي يسمعونه كانوا لا يكتفون في كتبهم بذكرهم -كحجة- الشاهد أو الشواهد التي هي في الحقيقة مجرد أمثلة يمثلون ويحتجون بها على وجود هذا النحو من الكلام أو ذاك بل يلتزم سيبويه وشيوخه دائما، كما بيناه، بوصف هذا الذي يذكره من الشواهد على أنه **مطرد أوكثير أم قليل أو يكاد لا يتكلم به العرب. فعلى هذا المسموع الواسع الذي سمعه أو نقله من غيره اعتمد هو وشيوخه** لوصفه ولاستخراج الثوابت. وهو كل هذه الضروب من الكلام التي ذكر النحاة جزءا منها فقط **كأمثلة** في كتبهم. وهي هذه الشواهد النحوية أي كنماذج مثالية كما سنراه فيما يلي وجاءت هي بعينها أو كمثال لها في دواوين الشعر وفي القراءات (وللنحاة مساهمة كبيرة جدا في تدوينها وتصحيحها كما سنراه) وثانيا في المعاجم وكِتب اللغة(3) .

(3) - وجزء منها في كتب الأدب لكن بشيء كبير جدا من التحريف و الزيادة.

ولو كانت الشواهد هي في عددها المحصور كل المسموع الذي بنى عليه اللغويون أوصافهم لما احتاج سيبويه أن يقول: «**وسألنا العلويين والتميميين فرأيناهم يقولون...**» **وفي كلام العرب كلها**» «**وفي جميع لغات العرب**» «**وقول العرب كلهم**». وهذا يقتضي أن يكون سمع هو أو مَن جاء قبله من أكثر من واحد في أكثر من مناسبة وأكثر من مقام وأكثر من عبارة وذكر عن الخليل أنه «زعم أنه **قد وجد في أشعار العرب**» رُبَّ «لا جواب لها من ذلك قول الشمّاخ...»(453،1-454). وقال سيبويه أيضا: «**ونظير**» حقا أنك ذاهب «**في أشعار العرب** قول العبدي...» (368/1) وهذا يدل على أن الشواهد التي ذكروها جزء فقط من الكمية الهائلة وهي أشعار العرب التي تصفحوها. فكيف يكون استقراؤها مع ذلك ناقصا؟ وقال سيبويه أيضا «والحمد لله» **فينصبها عامة بني تميم وناس من العرب كثير**... وسمعنا ناسا **من العرب كثيرًا** يقولون: «التُّرابَ لك والعجب لك» (166/1) «وكل هذا على ما سمعنا **العرب تتكلم به رفعًا ونصباً**»(165) «سمعنا ذلك من **تميم وأسد**...**أما ناس من تميم**...» (285-286). فكل هذا يدل على اتساع الميدان الذي جرت فيه التحريات اللغوية التي قام بها سيبويه وشيوخه والكثرة المدهشة للكلام الذي سمعوه وسجلوه وكثرة من سمعوا منهم.فالذي سمعوه بالفعل هو في الواقع أكثر وأكثر **أضعافا مضاعفة من الذي مثلوا واحتجُّوا به**. وفي الغالب يكون هو المثال الذي يجمع كل ما سُمع من المئات بل الآلاف من فصحاء العرب. **فالمسموع المستقرَى بالفعل** هو كل هذا الذي سمعوه ودوّنوه وكان كبيراً جدا. وعلى هذا تكون الشواهد جزءًا صغيرا من هذا الذي سمعوه أو دونوه.

ثم إنَّ هذا المسموع في كتاب سيبويه وكتب النحاة القدامى لم يأت على شكل مدونة نصوص طويلة أم قصيرة مثل ما جاء في زماننا من المدونات اللغوية بل جاء في هذه الكتب كشواهد فقط مفصلا على أبواب النحو ولذلك توهم بعضهم بأنه-أي مجموع الشواهد- هو كل ما أجروا عليه استقراءهم مع أنه مجرّد استشهاد. وأكبر دليل على ذلك هو وجود هذه الأنواع من العبارات واللغات الممثلة بالشواهد على اختلاف ألفاظها بكثرة مَهُولة فيما وصل إلينا من المسموع المدوّن. والذين دوّنوه هم علماء العربية أنفسهم كما قال الزجاج: «ولا يُلتفت إلى الشذوذ **إذا لم يروه النحويون القدماء الذين هم أصل الرواية**» (إعراب القرآن، 98/2).

إن الشواهد وإن لم تكن هي المسموع كله أي المدونة اللغوية التي كانت موضوع التحليل اللغوي عند النحاة الأولين (وهيهات أن يكون الأمر كذلك !) إلا أنها مستخرجة منه **كعيّنة صغيرة جدا تغطي المسموع كأمثلة وحجج لا كمادة لغوية يستقريها اللغوي** فليس من قبيلة ولا قرية ولا إقليم من رقعة الفصاحة من عصر المهلهل[4] إلى آخر القرن الرابع إلا وهي ممثلة تمثيلا وافيا في أغلبها. ولذلك فما يمكن أن نستخلصه من النظر الممعن في الشواهد الشعرية مثلا هو إمكانية التثبت ممن أخذ منهم من القبائل وما ينطبق على الشعر ينطبق على النثر لأن حجم الشواهد النثرية في كتاب سيبويه وغيره التمثيلية منها خاصة أكثر بكثير، كما سنراه، من الشواهد الشعرية وهو شيء طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار العبارات التي رُويت على صيغة واحدة أي القياسية.

فكيف يكون إذن استقراؤهم ناقصا وقد مسحوا شبه الجزيرة مسحاً كاملا (في رقعتها الفصيحة) لم ير له مثيل **فلا توجد قبيلة كما قلنا ولا إقليم ولا قرية إلا وقد جاء ذكرها وذكر كلام أهلها** وما اختصت به من اللغات **في هذا المسموع إلا القليل النادر**. فإذا قال سيبويه: «فهذا قول العرب كلهم»فإن تصفحه لإثبات ذلك لا يمكن أن يكون ناقصا فمشاهدته لهذا الاطراد في الاستعمال يلزم منه أن يشترك فيه الكثير من الباحثين وهذا هو الذي حصل بالفعل في أكثر من80 سنة (من عهد أبي عمرو بن العلاء إلى عصر سيبويه). وعلى هذا فالأصول أو الثوابت والأوصاف لكل ضروب الكلام كانت نتيجة لتصفح واسع جدا ويدلّ على ذلك، كما قلنا، كل هذا الذي نسبه النحاة من ضروب الكلام إلى جميع العرب أو إلى بعضهم وما أنكروه لعدم وجودهم إياه عند أحد منهم.أما ثقتنا بما يصرّح به سيبويه من إجراء الاستقراء الواسع أو ما قام به سابقوه **فهي ثقة كل العلماء الذين عاصرهم** والذين جاؤوا بعده بما قاله وعدم تكذيب أي واحد منهم **من الثقات** لما نقله من سماعه وسماع أصحابه واستقرائه لهذا المسموع الواسع[5] أو ما اخبرنا به بما قام به من ذلك.

---

(4) – وكل ما أنتجه الشعراء قبل جمع اللغة و التحريات اللغوية في عين المكان فمصدره كما قلنا هم فصحاء العرب الذين شافههم علماء النحو واللغة ابتداء من نهاية القرن الأول.

(5) – أما ما انفرد به المبرد من الردّ على بعض رواياته –وهو قليل– فقد ردّ عليه العلماء **كلهم** في ذلك الزمان وخاصة السيرافي في شرحه وابن السيرافي في شرح شواهد الكتاب وابن ولاّد في الانتصار وأبو علي الفارسي وابن جني ثم الشنتمرى في شرحه لشواهد الكتاب أيضا وغيرهم. واتهم أيضا ابن قتيبة سيبويه، كما رأينا، وبعده، أبو أحمد العسكري وطبعا بعض معاصرينا. وقد سبق أن بيّنا عدم إنصافهم لعلمائنا الأوائل.

بل وسلوك علماء العربية بعد سيبويه يدل دلالة واضحة على هذه الثقة التامة بما رواه سيبويه وشيوخه وذلك بعد معارضتهم لأكثر رواياتهم بواقع الكلام وباحتذائهم بذلك حذوهم في كل أعمالهم وعملياتهم العلمية. فهذا الأخفش (سعيد بن مسعدة) يحكي عما قام به-مثل أستاذه- من تحريات واسعة لدى فصحاء العرب. يقول في كتاب«القوافي»: «وقد سمعت هذا من العرب كثيرًا ما لا يُحصى» (47) «وقد سمعت من العرب مثل هذا ما لا يحصى»(51) وقال في «معاني القرآن» و«هو كثير في كلام العرب»(20) و«في جميع كلام العرب إلاّ في هذه اللغة الشاذة القليلة» (42) «وهي اللغة الكثيرة» (78) «وهو كثير في كلام العرب»(134) «وهذا لا يكاد يُعرف» (66) إلخ. وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن: «واستعرض العرب حتى تنتهي إلى اليمن هل يعرف أحد...» (306) و«هي لغة أهل العالية وأهل نجد يقولون...»(163) «**وعامة العرب** يقولون...»(217) «والعرب إذا بدأت... (92) «والعرب تريد شيئًا تحوّله...»(63) «والعرب تؤكد الشيء وقد فرغ منه...» (70).

وكذلك كان الكوفيون يفعلون : قال الفراء في معاني القرآن:«وهما جميعًا كثيرتان في كلام العرب» (206/3) «مما لا أحصيهم في أشعارهم» (218) «وهو أكثر من أن يضبطه كتاب»(214) «أكثر في كلام العرب» (225). ويقول ابن السكيت في«إصلاح المنطق»: «ولا يقول الفصحاء إلا بالكسر» (31)«وأكثر ما سمعت...»(36) «سمعت جماعة من الكلابيين يقولون» (105) «وأجمعوا على الفتوة بالواو... ولم أسمع بـ«دغيات» إلا في بيت لرؤبة» (141) إلخ. وقال أيضا ابن الأعرابي في زمان سيبويه أو عبيده: «قد سمعته من أكثر من ألف أعرابي...» (التنبيه على حدوث التصحيف (62)). هذا **وإن كان الاستقراء الواسع يقتضي السماع الواسع**[6] لا محالة فإن العكس غير صحيح إذ لا يمتنع عقلاً أنْ يكون السماع واسعًا مع استقراء ناقص للمسموع[7] إلا أن هذا الذي يجوز عقلا هو غير حاصل

---

(6) – أما اتهام البصريين-بعد سيبويه- الكوفيين بعدم تحرجهم في اختيار المأخوذ عنه فهو جانب آخر سنتطرق إليه في دراسة مقبلة إن شاء الله.

(7) – قد يُستعمل لفظ الاستقراء لكل تصفح وقد يرادف السماع إذا كان هذا السماع عبارة عن تصفّح واسع لكلام العرب ولا يتم هذا إلا بالسماع لأكبر عينة منهم تغطي أكبر مساحة من أراضيهم. وهذا الذي حصل بالفعل.أما من حيث التصور العقلي فيمكن أن نتصور سماعا بدون تصفح أي مجرد تسجيل سمعي وكتابي لعدد قليل أو كثير لكلام الناس بدون قصد للاستقراء.

بالفعل بالنسبة لاستقراء النحويين لمسموعهم إذلا يمكن أن يحصل إجماع على مدى ثمانين سنة على المشاهدة الفعلية في أكثر صورها للاطراد أو الكثرة أو القلة أو عدم وجود الشيء[8] إلا **بحصول الاستقراء الواسع على المسموع الواسع** وسنرى ذلك بالتفصيل في تحليلنا لاستقراء النحويين العرب القدامى (في دراسة خاصة إن شاء الله).

II - بيان حقائق :

1) اعتماد النحاة على النثر أكثر من اعتمادهم على الشعر :

أما ما ادّعوه من أن الشعر هو وحده كان المادة التي استخرجوا منها أوصاف العربية «وقواعدها» فيكفي أن نذكر هذه الضروب من الكلام التي اعتمد عليها سيبويه أو ذكرها كحجج لما أثبته منه. وها هي ذي نبذة من ذلك:

1-«وذلك قولك: ضرب عبد الله زيدًا» «فعبد الله» ارتفع ههنا كما ارتفع في «ذهب» وشغلت ضرب به كما شغلت به «ذهب» وانتصب«زيد» لأنه مفعول به تعدّى إليه فعل الفاعل. فإن قدّمت المفعول وأخّرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك: «ضرب زيدًا عبدُ الله» ... **وهو عربي جيّد كثير** (1/14-15).

- «ويتعدى هذا الفعل إلى كل ما اشتُقّ من لفظه اسما للمكان وإلى المكان... وذلك قولك: ذهبتُ المذهبَ البعيد»... **وقد قال بعضهم :** «ذهبتُ الشام» وجلستُ مجلسًا حسنا وقعدت مقعدًا كريما وقعدت المكان الذي رأيت وذهبت وجها من الوجوه «وهذا شاذّ [في القياس] لأنه ليس في ذهب دليل على «الشام» وفيه دليل على المذهب» (1/15).

2- «تقول: «كان عبدُ الله أخاك» فإنما أردت أن تخبر عن الاخوة وأدخلت «كان» لتجعل ذلك فيما مضى وذكرت الأول كما ذكرت المفعول الأول في ظننت وإن شئت قلت: كان أخاك عند الله فقدمت وأخّرت كما فعلت ذلك في «ضرب»... إلا أن اسم الفاعل

---

(8) – أما اختلاف الرواية للمسموع فهذا يخص في الأكثر (وفي الشعر) الرُّواة من فصحاء العرب لا العلماء إلا القليل (والذي يهمنا هنا هم العلماء الأولون) ورواه العلماء كما سمعوه.ويكثر الاختلاف عند العلماء بشدة تحرجهم لقبول المعطيات أو قلته وهذا غير الاختلاف في الأقوال والنظريات وسنرى كل ذلك فيما بعد.

والمفعول فيه لشيء واحد» (21) وتقول: «من كان أخاك» و«من كان أخوك» كما تقول: «من ضرب أباك»... «ومن ضرب أبوك»... **ومثل قولهم** : «من كان أخاك» قول العرب: «ما جاءت حاجتَك» كأنه قال: «ما صارت حاجتك»... كما قال بعض العرب «من كانت أمَّك...» ومن يقول من العرب: «ما جاءت حاجتُك» **كثير** كما يقول: «من كانت أُمُّك»... وزعم يونس أنه سمع رؤبة يقول: «ما جاءتْ حاجتُك» فيرفع (24-25).

يقول سيبويه في المجموعة الأولى من تحليلاته: «وذلك قولُك» ويأتي بكلام ثمّ يوضّح بنيته النحوية: فعل«شغلَهُ»[9] اسمٌ وجاء بعدهما اسم ثانٍ فارتفع الأول كما ارتفع «زيد» في«ذهب زيد» وانتصب الثاني. ونص على جواز تقديم الثاني على الأول وأخبر أيضا **عن سماعه وسماع غيره** من العلماء **أن التقديم هنا عربي جيد كثير**.

ثم ذكر أن الفعل يتعدّى أيضا إلى مفعول فيه وهو المكان لأن في الفعل دلالة على المكان لا مكان معيّن بل مكان عام.ونصّ على سماع آخر وهو قول بعضهم«ذهبت الشام» فيقول إنه شاذ لأنه مكان معيّن (وكان يجب إدخال حرف الجرّ).

فالملاحظ هو أن القياس المطرد في استعمال الفصحاء قد سمع منه سيبويه والعلماء قبله آلاف الأمثلة فيكتفي بذكر مثال وهذا المثال قد يكون قد سُمع هو بعينه وقد يكون على **قياس ما سمع**. ويذكر بعد ذلك تنوع هذا الاستعمال ويؤكد على أن التقديم للمفعول على الفاعل هو مسموع من العرب بكثرة فائقة فهو عربي جيد: ولا يحتاج ههنا أيضا أن يذكر عبارة سمعها هي بعينها **لأنه سمعت مثلها من العرب الآلاف من العبارات**.

أما فيما يخص المفعول الذي يدل على المكان فالذي يدل عليه الفعل دلالة عقلية لا وضعية هو المكان العام لا المكان المعين ومع هذا وجد في المسموع عبارة «ذهبتُ الشام» فيذكرها هي بعينها لقلة ما ورد في المسموع ما هو مماثل لها أي ما هو من بابها وقد تكون هي بالذات سمعت من الكثير من العرب (قد تكون كثيرة في الاستعمال هي دون غيرها من نظائرها).

---

(9) – هذا التحليل دقيق–كجميع ما يقول سيبويه–ولكل مصطلح (مثل»شغل» هذا) مدلول دقيق جدا ينتمي إلى نظرة علمية شاملة اندثرت بعد القرن الرابع.

وأما المجموعة الثـــانية فيذكر سيبويه هنا أيضا كلاما تطّرد بنيتُه في المسمـــوع بأوجهها المختلفة (بتنوعاتها) ويلحق كعادته هذه البنية بالجنس من البنى الذي تنتمي إليه وهو الفعل مع فاعله وما يدخل عليه من الزوائد ويبين الفرق: «فكان» تتصرّف كفعل ويجوز فيها من التقديم والتأخير ما يجوز للفعل إلا أنّ فاعلها ومفعولها يدلان على شئ واحد دائما. ويذكر سيبويه التنوعات التي تطرد على شكل أمثلة قد تكون سمعت هي بعينها أو قيست على المسموع.

ويذكر-كما فعل في الأول- كلامًا سُمع هو بعينه وهو قول العرب: «ما جاءت حاجتَك». فيبيّن أنه جاء على بناء «من كان أخاك»[10] ويؤكّد ذلك بما سمعه من العرب: «من كانت أمّك». فهذا قد يبدو أنه شاذ (عن بابه) وليس بشاذ لأنه جاء على بناء ما هو مطّرد (استبدال الفاعل بالمفعول والعكس) وهو مع ذلك شاذ من ناحية أخرى وهو تأنيث الفعل ويفسر ذلك سيبويه بأنه جاء كالمثل والمثل يأتي دائما على صيغة جامدة. ثم يلاحظ أنه قد وردت في المسموع أيضا هذه العبارة بعينها بالرفع: «ما جاءتْ حاجتُك» **ويؤكّد أن العرب الذين سُمع منهم ذلك كثيرون.**

وهناك أمثلة كثيرة جدا مماثلة لهذه التي ذكرناها على هذا النمط نذكر منها ما يلي:

3- يقول: «وسمعنا من يوثق به من العرب يقول: «اجتمعتْ أهل اليمامة» لأنه يقول في كلامه:اجتمعت اليمامة يعني أهل اليمامة فأنّث الفعل في اللفظ إذ جعله في اللفظ لليمامة فترك اللفظ على ما يكون عليه في سعة الكلام... **وترك التاء** في جميع هذا **الحدّ والوجه** وسترى ما إثبات التاء فيه جيّد إنْ شاء الله من هذا النحو لكثرته في كلامهم» (26/1) .

- يقول سيبويه: «تقول: ما عبد الله أخاك وما زيد منطلقا. وأما بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل أي لا يُعملونها في شئ وهو القياس لأنه ليس بفعل وليس ماكليس... وأما أهل الحجاز فيشبهونها بليس إذ معناها كمعناها... ومثل ذلك قوله عز وجل: «ما هذا بشرًا»

(10) - ذكر السيرافي أنها على مثال:»أيّةَ حاجةٍ كانت حاجتُك»(شرحه، 392/2)ويلاحظ أن هذه العبارة قابلة لاستبدال الفاعل بالمفعول مثل «من كان أخاك»ومن كان أخوك».

(يوسف31). وبنو تميم يرفعونها إلا من درى كيف هي في المصحف... فإذا قلت: «ما منطلق عبدُ الله»... رفعت... ولا يجوز أن يكون مقدما مثله مؤخَّرًا... وتقول: «ما زيدٌ إلا منطلق»، تستوي فيه اللغتان...»(28-29) .

- ويقول أيضا: «إذا قلت: إنه مَنْ يأتينا نأته»... فمن ذلك قول بعض العرب: «ليس خَلَقَ الله مثله»: فلولا أن فيه إضمارًا لم يجز أن تذكر الفعل ولم تُعمله في اسم ولكن فيه من الإضمار مثل ما في إنه»(35) «وقد زعموا أنّ بعضهم يجعل «ليس» «كما» وذلك قليل لا يكاد يُعرف فقد يجوز أن يكون منه»: ليس خلق الله مثلَه أشعر منه» و«ليس قالها زيد»... **هذا كله سُمع من العرب**. والوجه والحد أن تحمله على أنّ في ليس إضمارًا وهذا مبتدأ كقوله: «إنه أمة الله ذاهبة». إلا أنهم زعموا أنّ بعضهم قال: «ليس الطيبُ إلا المسكُ وما كان الطيب إلا المسكُ» (73).

- ويقول أيضا: «وذلك قولك :هذا الضاربُ زيدًا فصار في معنى: «هذا الذي ضرب زيدًا» وعمل عمله... وهو وجه الكلام. وقد قال قوم من العرب تُرضى عربيتهم: «هذا الضاربُ الرجل»، شبهوه بالحسن الوجهِ» (39).

- وقال: «هذا باب ما لا يعمل فيه ما قبله... فلا يكون إلا مبتدأ... لان ألف الاستفهام تمنعه من ذلك.وهو قولك: «قد علمتُ أعبدُ الله ثمّ أم زيد»... كما أنك إذا قلت: «عبد الله هلْ رأيته» فهذا الكلام في موضع المبنى على المبتدأ الذي يعمل فيه فيرفعه. ومثل ذلك: «ليت شعري أعبدُ الله ثمَّ أمْ زيد» «وليت شعري هل رأيته». فهذا في موضع خبر«ليت»...ومن ذلك: «قد علمتُ لعبد الله خير منك». فهذه اللام تمنع العمل كما تمنع ألف الاستفهام... وتقول «قد عرفتُ زيدًا أبو من هو وعلمت عمرًا أبوك هو أم أبو غيرك«فأعملت الفعل في الاسم الأول لأنه ليس بالمُدْخل عليه حرف الاستفهام ... ومما يقوى النصب قولك:...» قد دريتُ عبدَ الله أبو من هو«كما قلت ذلك في «علمتُ» **ولم يُؤخذ ذلك إلا من العرب**... وإنْ شئت قلت: «قد علمت زيدٌ أبو من هو»، كما تقول «اذهبْ فانظر زيدٌ أبو من هو» (120-121). «وبعض العرب يقول: «لقد علمتُ أيَّ حينٍ عُقبتي وبعضهم يقول: «لقد علمتُ أيُّ حين عُقْبتي» (122). إلى غير ذلك مما ذكره سيبويه في كتابه.

أما فيما يخص تأنيث الفعل في«اجتمعت أهل اليمامة» وهي عبارة سُمِعت من العرب بكثرة فيصرّح سيبويه أن الحدّ أي الوجه الأكثر مع انه القياس هو ترك التاء. ثم بعد هذا يتعرض لما المشبَّهة بليس في لغة أهل الحجاز وهي ظاهرة لهجية تخص جماعة كبيرة من العرب وهم أهل الحجاز فيكتفي بذكر الآية الكريمة: «ما هذا بشرًا» ولم يذكر أي شاهد معين من لغة التخاطب في هذا الموضع (ولا من الشعر)[11]. ويلاحظ أن في لغة أهل الحجاز«ما» لا تقوى على العمل مع النفي وتقديم الخبر لأنها ليست بفعل.

وفيما يخص«ليس» فيذكر عبارة سُمعت هي بعينها من العرب: «ليس خلق الله مثله» ويبّين أنها لم تخرج عن حدّها وهو الدخول على المبتدأ والخبر لأن فيها إضمارًا مماثلاً لما في: «إنه من يأتينا نأته» وذكر مع ذلك عبارتين معينتين وهما: « ليس خلق الله مثله أشعر منه» و«ليس قالها زيد» جُعلت «ليس» فيهما مثل «ما» وقال إن ذلك قليل لا يكاد يُعرف. ثم أكّد أن **ما ذكره من العبارات قد سُمع كله من العرب.**

وفي نفس هذا السياق يذكر أيضا كلاما سمع من بعض العرب وهو: «هذا الضاربُ الرجلِ» بالجرّ وكان قد ذكر أن الوجه هو النصب بإعمال اسم الفاعل. كما يصرح أن الكلام المسبوق بأداة استفهام أو لام الابتداء لا يعمل فيه ما قبله ويأتي بالكثير من الأمثلة التي تكون سمعت هي بعينها أو رُويت بألفاظ مختلفة ويدل على ذلك قوله: «**ولم يؤخذ ذلك إلا من العرب**».

مما تقدم يَتبيَّن أن سيبويه وهو من النحاة المتقدمين المبدعين اعتمد اعتمادا واسعا على ما سمعه هو من العرب وما سمعه من سبقه من العلماء وأما ما يخص لغة التخاطب ففيما يعرضه في كتابه من العبارات النثرية نلاحظ أنه:

1- يكتفي بذكر عبارة واحدة وما يتصرف منها تكون مسبوقة بقوله: «وذلك قولك» و«تقول» وتكون هي المثال أي النموذج اللفظي والدلالي لضرب من الكلام سمعه أكثر من مرة من العرب هو ومن سبقه من العلماء. وتمثل هذه العبارة:

---

(11) - روى السيرافي أن الأصمعي قال: «ما سمعته في شئ من أشعار العرب» يعني نصب خبر«ما» (شرحه 17/3) وجاء مثل عربي بإعمال «ما» ذكره سيبويه وذلك هو: «ما كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة» (الكتاب 33/1).

- ضربا واحدا من الكلام المطرد أو الكثير الاستعمال ووَصْفُه له هو الضابط النحوي الذي استنبطه هو أو النحاة الآخرون من **السماع الجماعي** للمئات وأحيانا الآلاف من العبارات في شتّى الحالات الخطابية وشتى الجهات ويسميه **حدًّا وأصلا وبابا**. وذلك مثل: «ضرب عبد الله زيدًا» و«ذهبت المذهب البعيد» و«كان عبد الله أخاك» والضاربُ زيدًا» وغير ذلك.

- ضربا آخر من الكلام المطرد أو الكثير أو القليل يكوّن وجها من وجوه الحد السابق وتُعدّ **هذه العبارات النموذجية بالآلاف في الكتاب وهذا يدل على سماع واسع جدا**.ولا يمتنع أن تكون بعض هذه النماذج من الكلام قد سمعت هي بعينها كما قلنا. والدليل على ذلك هو قول سيبويه نفسه في عدة مناسبات: «**كل هذا سمع من العرب**» .

2- يذكر سيبويه الكثير من الحجج أي العبارات التي سُمعت هي بعينها ورويت وفيما يخص المنثور من كلام العرب فقد تكون:

- وجها من وجوه الحد وهو عربي كثير وجيد وليس هو الحد مع ذلك وعباراته هي مماثلة للعبارات النموذجية من النوع الثاني الذي سبق ذكره إلا أنها سمعت كلها هي بعينها من أفواه العرب وتكون مسبوقة في الكتاب بـــ: «من ذلك قول العرب» أو«هذا قول العرب» أو«بعض العرب» أو«لغة لقبيلة كذا». وقد يكون هذا الوجه لهجيا وغير لهجي. وذلك مثل: «زيدًا ضرب عبدُ الله» و«ما كلُّ سوداء تمرةً» و«ما جاءتْ حاجتَك» و«الضارب الرجلِ» وغير ذلك.

وقد أحصينا في الكتاب **أربعمائة وستة عشر شاهدًا** سُمعتْ هيَ بعينها من الكلام المنثور. أما الكلام المنثور الممثل بأمثلة (قياسية) فيبلغ عدده في الكتاب **أربعة آلاف وتسعمائة وخمسة عشر مثالا** ويمكن أن نميّز فيه بين ما هو مثال تركيـــبي وبين ما سمع من الكلام المنثور هو بعينه مثل الشعر باستعمال النحاة منذ أقدم الأزمنة لرموز تقوم بدور المتغيّرات وذلك، فيما يخص الأسماء، مثل: زيد وعمرو وَعبد الله وخالد وبشر ورجل وامرأة وأبو وأم وقوم وأمير وغير ذلك، ومن الأفعال مثل: ضرب وانطلق ورأى واشترى وأكرم

وصام وغير ذلك ومن الصفات والظروف:حسن الوجه ومشتقات «ضرب» وخير واحسن واليوم وأمس وغير ذلك. وعدد هذه الرموز محصور ومعروف وكل مثال يرفقه غالبا تقدير يخص كثرة استعمال العرب له واتساع استعمالهم.

والخلاصة مما سبق هو أن الأصول أي الحدود والأبواب المطّردة لا يمثل لها سيبويه ومن سبقه (فيما يظهر من كلامهم في الكتاب) بأمثلة مسموعة هي بعينها **لكثرتها الهائلة واستئناس العرب والعلمـــاء**[12] **بها** بل بأمثلة تكون في الغالب نموذجية إلا أنها تمثل بالفعل كل ما سمع من الكلام المطرد وما يتفرع عنه. ولا يذكر سيبويه من كلامهم العـــادي الذي كان يجري يوميا في مخـــاطباتهم إلا **الوجـــوه من الكلام التي ليست حدًّا في ذاتها ولم تأت في جميع لغـــات العرب** وذلك مثل لغات القبائل أو الضروب من الكلام الخاصة التي ليست لهجية بل توجد بكثرة أو بقلة هنـــا وهناك في شبه الجزيرة عند فصحاء العرب ليس إلا.

2) سماع الكوفيين لِكلام العرب المنثور:

أما فيما يخص النحاة الكوفيين فإن نحن نظرنـــا في أقدم كتاب وصل إلينـــا منهم يتعرّض فيه صاحبه إلى كلام العرب –وهو معـــاني القرآن للفراء– فإننـــا نلاحظ أن الفراء عندما يُنسب إلى العرب الكثـــير من ضروب الكلام فواضح أن كلامه هذا قد سبقه تصفّح منه واسع جدا –كجميع النحاة الأولين– ثم قد ذكر في هذا الكتاب عددًا كبيرًا من الشواهد النـــثرية. فهو مثل سيبويه يستشهد بما سمعه هو بنفسه أو ما نقله عمن سبقه من النحاة– وخـــاصة شيخه الكسائي– فيقـــول مثلا:

«**العرب تجعل** اللام التي على معنى«كي» في موضع «أنْ» في أردتَ وأمرت فتقـــول: «أردت أن تذهب» و«أردت لتذهب»...(26/1). «**ومن كلام العرب** أن يُضمروا «من» في مبتدأ الكلام فيقولون: «منا يقول ذلك ومنا لا يقوله»(271/1) **وتقول** «أرأيتَك» وأنت تريد «أخبرني» وتهمزها وتنصب التاء منها وتترك الهمزة إن شئت وهو اكثر الكلام» (333/1).

---

(12) – يجب ألا ننسى أن سيبويه يخاطب في كتابه معاصريه من العلماء–كسائر العلماء في ذلك الزمان– فلا يحتاج أن يحتجّ بعبارة نقلت هي بعينها لضرب من الكلام يكثر مجيئه في كلام العرب كلهم.

و«العرب إذا أوقعت فعل شئ على نفسه قد كُنى فيه الاسم قالــوا في الأفعـــال التـــامة ما يقولـــون في الأفعـــال النـــاقصة **فقـــال للرجل**: قتلت نفسك وأحسست إلى نفسك... فإذا كـــان الفعل ناقصـــا، **قالـــوا**: «أظنُّني خـــارجا»... وربمـــا جـــاء في الشعر: «ضربَتَك»... **والعرب يقولون**: «عدمتُني» و«وجدتني» و«فقدتُني» وليس بوجه الكلام» (333/1-334) «**والعرب تقول**:»... **ويقولـــون**: «ذهبت الشام» و«ذهبت السوق»... «وخرجت الشام» **سمعناه** في الأحرف الثلاثة: خرجت وانطلقت وذهبت وقال الكسائي: **سمعت العرب يقولون**: «انطلق به الفور» فتنصب على معنى إلقاء الصفة[13]... واستجازوا في هذه الحروف إلقاء«إلى» لكثرة استعمالهم إياها (243/3) وقولهم: «هو الضاربُ الرجلِ فإنهم يخفضون الرجل وينصبونه» (236/2) وقلما **تقول العرب**: «زيدًا عليك» أو«زيدًا دونك» (260/1) و**سُمع بعض العرب** تقول: «كما أنت زيدًا» و«مكانَك زيدًا» (323/1) و«سمعت العرب تقول: «الحمد لله سرارَك وإهلالَك» وسُمع منهم: «الحمد لله ما إهلالَك إلى سرارك»، يريدون: ما بين إهلالَك إلى سرارك (15/2) و«للعرب في «لعلّ» **لغة** بأن يقولوا: «ما أدرى أنك صاحبُها» يريدن «لعلك صاحبها» **ويقولون**: «ما أدري لو انك صاحبها» (350/1).

يتبيّن من هذه النصوص أن الفراء ينتهج كنحوى المنهج الذي سار عليه سابقوه من البصريين وخاصة سيبويه فهو يذكر دائما من كلام العرب المنثور عبارات يكون سمعها هي بعينها أو جاءت على مثال ما سمع منهم.أما هذه الأخيرة فهي حدود ومُثُل مفردة أو كثيرة وتكون مسبوقة غالبا بقوله: «تقول العرب» ويَرِد ذلك على لسانه كثيرًا جدًا.أو بقوله«من كلام العرب». أما ما سمعه بالفعل أو سمعه شيخه الكسائي فهي في الغالب أوجه من الكلام خارجة عن الحد وقد تكون من لغات العرب الكثيرة أو القليلة اللهجية وغير اللهجية.

وسنرى في دراسة خاصة الفوارق القائمة بين المسلكين البصرى والكوفى من الجانب النظري والمنهجي.ويمكن من الآن أن نلاحظ أن كلتا المدرستين تعتمد أساسا على القياس واستنباط الحدود مع إثبات كل الأوجه من الكلام الخارجةِ عنها الكثيرة والقليلة.

---

(13) -- الصفة في مصطلح الكوفيين هي حرف الجرّ.

هذا **ويبلغ عدد الشواهد التي ذكرها الفراء** في كتابه هذا فيما يخص كلام العرب المنثور فقط **ثلاثمائة وستين عبارة.**

3) السّر في اعتماد النحاة أكثر على كلام العرب :

وقول آخر ادعاه أيضا أصحاب القول السابق: وهو «تهاون» العلماء القدامى بالقرآن في استنباطهم لقواعدهم حتى دعا أحدهم إلى إعادة العمل الاستنباطي بالاعتماد على القرآن وحده! وهذا القول في اعتقادنا إجحاف وظلم أيضا. فكل هذه الأجيال من العلماء الذين عنوا بالنظر في النص القرآني – وهو أول ما قام به النحاة وكانوا في الأول كلهم من القراء – ثم في كلام العرب يكونون قد ارتكبوا هذا الخطأ الفظيع:أن يكونوا قدّموا الشعر على القرآن في هذا العمل الاستنباطي– بدليل العدد القليل من الشواهد القرآنية التي وردت في كتاب سيبويه وهو يمثل في الواقع نصف العدد لما استشهد به من الشواهد الشعرية.

فصحيح أن هذه الشواهد الشعرية هي في العدد ضعف ما استشهد به العلماء من الآيات القرآنية والحق أن هذا جدّ طبيعي ولا يدل أبدا على أي تهاون من قبل النحاة العرب –معاذ الله– والاستدلال على ذلك يحتاج إلى معرفة علمية خاصة بالألسنة البشرية وعلومها. فالموادّ اللغوية التي يعتمد عليها في الوصف العلمي للغات (ومنه استخرجت الثوابت) ليست كلها من نوع واحد. فمنها **المغلقة** التي تتكون من نص واحد لا نظير له في هذه المادة اللغوية فبما أن هذا المصدر اللغوي مكتمل بهذا النص فله إذن حَدٌّ أي بداية ونهاية، وعناصره على هذا معدودة. وهكذا هو النص القرآني فهو بالنسبة للنحاة مصدر لغوي محدود الحجم والعناصر وليس مثل ما كان كلام العرب شعراً ونثرا في زمان الفصاحة وخاصة في عصر التدوين إذ كان **مصدراً لغويا مفتوحا** فلم يزل العلماء يسمعون من فصحاء العرب **بدون انقطاع** حتى نهاية الفصاحة العفوية فلا بد أن تكون عناصره غير محدودة العدد بالنسبة إلى هذا الزمان المعيّن [14].

---

(14) – أما الآن فهذا المصدر أصبح مغلقا لذهاب أصحابه وانغلاق المدونة الفصيحة السليقية نهائيا بالنسبة للعربية الفصحى العفوية (الحاصلة بدون تلقين) .

فإذا كان الأمر كذلك فلا عجب أن نجد كلام العرب في الشواهد متفوقا في الكم على الشواهد القرآنية. والغريب **هو أن لا نعجب من وجود هذا الفرق نفسه في الذي دوّن من المسموع غير الشواهد**: فالدواوين الشعرية الفصيحة التي دوّنت أكبر حجما بالطبع من النص القرآني ولا يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك.

وقد تفطن إلى ذلك علماؤنا. يقول الأعلم الشنتمرى ردًّا على المبرد: «**ليس كل لغة توجد في كتاب الله** جل وعز ولا كل ما يجوز في العربية يأتي به القرآن والشعر وللمبرد مذاهب تجوَّزها لم توجد في الفرآن» (النكت 457/1). وقال الفراء: «والقراء لا تقرأ بكل ما يجوز في العربية» (معاني القرآن 245/1) وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «...إنها تجوز في العربية وإنه لا يعرف أحدًا قرأ بها» (معاني القرآن للزجاج) وقال الزجاج نفسه: «ولا ينبغي أن يُقرأ بما يجوز إلا أن تثبت رواية صحيحة أو يقرأ به كثير من القراء» (51/1) وقال أيضا: «فلا تقرأنَّ بحرف لم يقرأ به وإن كان ثابتا في العربية»(153).

فما في المسموع من كلام العرب نظما ونثرا، هو بالطبع كما قلنا، أكبر حجما مما في القرآن الكريم من العبارات فكيف يلام علماء العربية بكثرة استشهادهم بكلام العرب وقد نزل القرآن بكلامهم؟

الباب الرابع

التحريات اللغوية الميدانية ومناهجها

المشاهدة المباشرة:

كيف تمّ السماع من أفواه العرب

إن التحريات اللغوية في عين المكان بدأت عند العرب في زمان مبكّر جدًا وقد اشتهر أبو عمرو بن العلاء بأنه أول من بادر إلى السماع من أفواه العرب وإلى تدوين كلامهم وأول من تجول في شبه الجزيرة لهذا الغرض ويمكن أن نعرف تاريخ الشروع في هذا النوع من التحريات بالرجوع إلى ما قاله الفارابي الفيلسوف في «كتاب الحروف» حيث قال: «وأنت تتبيّن ذلك متى تأمّلت أمر العرب في هذه الأشياء ... وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين وكان تولّى ذلك من بين أمصار أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق» (ص147). ولا ننسى أن الفارابي أخذ كل هذه المعلومات التي ضمّنها كتابه هذا من علماء العربية الذين عاصرهم وخاصة أبا بكر بن السراج. ويؤكّد ذلك ما جاء في سيرة أبى عمرو بن العلاء من أنه فرّ مع أبيه من الحجّاج بن يوسف إلى الجنوب وبعد مدة بلغه نعي الحجاج في الوقت الذي كان يقوم فيه بتحريات لغوية **وتوفى الحجاج في 95هـ.**

فالذي سنتطرق إليه في هذا الباب هو كل ما يتعلّق بهذه التحريات اللغوية التي قام بها اللغويون والنحاة العرب الأولون ومنهم **أبو عمرو بن العلاء المؤسّس الحقيقي للجغرافية اللغوية** إذ لم يُسبق إلى ذلك في تاريخ علوم اللغة عامة. وذلك كالسؤال عمن قام بالتحريات من هؤلاء العلماء الأولين واستمرّوا إلى أي عصر منذ أن بدأ بذلك الفريق الأول. وأين

حصلت بالضبط وما هي المناطق التي تردّد إليها العلماء – وإن كنا عرفنا من قبل أن بحوثهم الميدانية غطّت في الواقع كل الجزيرة تقريبا ولم تترك أي قبيلة وأي بطن وأية قرية دون أن يغشاها العلماء إلا القليل ويدل على ذلك ما نُقل عن اللغويين من الأوصاف والتحليلات الكثيرة ويشهد ذلك على اهتمامهم الكبير بتغطية كل الجزيرة ولا سيما ضخامة ما جمعوه من كلام العرب وتنوّعه الجغرافي وما دوّنوه من الدواوين الشعرية وهو عظيم جدا ولم يسبق العرب إلى مثل ذلك ونتلمس هذا التنوّع الكبير في أسماء الشعراء الذين استشهد بهم العلماء فسيبويه **وحده** لجأ إلى 236 شاعر يمثلون 26 قبيلة [1] من مختلف الأقاليم.

هذا وقد اعتمد هؤلاء اللغويون على مناهج خاصة لم تكن بالبسيطة حسب ما يظهر من أسئلتهم التي كانوا يلقونها على العرب. وسنحاول أن نصف هذه المناهج وتقنيات التحري اللغوي التي استعملوها بالتفصيل كما سنتعرض أيضا إلى ما كان يشترط على المتحرّي المدوّن لكلام العرب من جهة وما كان يشترطه هذا المتحري على المورد الذي يؤخذ منه اللغة ويدوّن كلامه. ثم في ختام هذا الباب سننظر في وسائل التدوين من أنواع الكتابة التي استعانوا بها لتسجيل الكلام كما سمعوه أي بجميع العلامات الخَطيّة الصوتية التي ضبطوا بها الأصوات اللغوية اللهجية وغيرها.

وسنخصص الفصل الأول من هذا الباب لتطور التحريات اللغوية القديمة.

---

(1) – ذكر ذلك الدكتور جمعة في كتابه: شواهد الشعر في كتاب سيبويه، ص295.

الفصـل الأول

أصحاب التحريات والسماع

من اللغويين من البداية إلى القرن الرابع [1]

إن العلماء الذين سنذكرهم ههنا إنما هم الذين حصل لهم سماع بالفعل من أفواه فصحاء العرب وخاصة الذين قاموا بتحريات في عين المكان أي كل مَنْ رحل إلى منازل القبائل المختلفة أو القرى المختلفة بحسب العصر الذي عاش فيه.

إن أبا عمرو بن العلاء هو الذي ابتدع، كما قلنا، طريقة السماع اللغوي الميداني **ولم يسبقه إلى ذلك أي لغوي آخر**. ويحكى عنه أبو محمد اليزيدي أنه تجوّل في البدو بما يقرب من أربعين سنة[2]. ويقول عنه الجاحظ أنه عرف الكثير من الفصحاء الذين عاشوا في زمان الجاهلية (البيان ، 1، 32).

ولد أبو عمرو سنة 68 أو 70 بمكة ونشأ في البصرة كما جاء في كتاب غاية النهاية لابن الجزرى قال: «وتوجه مع أبيه لما هرب من الحجاج فقرأ بمكة والمدينة وقرأ أيضا (بعد ذلك وقبل ذلك) بالكوفة والبصرة على جماعة كثيرة «**فليس في القراء السبعة أكثر شيوخا منه**» (289/1). وذكر أنه قرأ على 19 من القراء أكثرهم من التابعين منهم الحسن البصرى وحُمَيْد بن قيس الأعرج وأبو العالية الرياحى وسعيد بن جُبَير وشيبة بن نِصاح وعاصم بن أبى النجود وعبد الله بن كثير وعطاء بن أبى رباح وعكرمة بن خالد وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد بن جَبْر وابن مُحَيْصن ونصر بن عاصم ويحى بن يعمر وأبو جعفر المدني وغيرهم.

---

(1) – لم نذكر في هذا الفصل إلا من كان له مساهمة معتبرة في السماع و التدوين وهم أكثر اللغويين من هذا العصر.
(2) – مجالس العلماء للزجاجي، 171.

والجدير بالملاحظة، أنه قرأ على تلميذى أبى الأسود الدؤلى يحى بن يعمر ونصر بن عاصم وعلى عكرمة مولى ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والأولان هما أول من استخرج مع أستاذهما أبي الأسود كما ورد الخبر في ذلك، بعض القواعد الأساسية للعربية باستقرائهم للنصّ القرآني **وهم الذين اخترعوا النقط لضبط القراءة**(3) وأما الآخرون فقد نقلوا إلى أبي عمرو بدون شك اهتمام ابن عباس بأشعار العرب **والرجوع إليها** لتوضيح بعض المفردات القرآنية.

ثم إن إقامته في الحجاز وبواديها في شبابه في زمان الحجاج وبعده كانت له فرصة للاستماع إلى كلام العرب القروي منهم والبدوي والدليل على ذلك ما يحكى عن ارتباكه إزاء كلمة «فرجة» هل هي بالضم أم بالفتح في زمان هروبه مع أبيه من الحجاج فسمع قائلا يقول:

ربما تجزع النفوس من الأمـــ   ـرِ له فَرجة محل العقال

بفتح الفاء ثم سمع في هذا الحين نعي الحجاج فقال: «فما أدري بأيهما كنت أشدّ فرحا بقوله «فرجة» أو بقوله «مات الحجاج» (النــزهة لابن الأنباري، 32).

قال ابن سلام عن أبي عمرو: «كان أوسع علما (من ابن أبي إسحاق الحضرمي) بكلام العرب ولغتها وغريبها» (14) وقال أيضا: «وسمعت يونس يقول: لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شئ واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء **في العربية** أن يؤخذ كلّه ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك»(16). وهذا هو الواقع فإن أبا عمرو امتاز عن جميع العلماء المعاصرين له بإلمامه وإحاطته لأكثر مِنْ تخصُّص وبتفوقه الكبير على غيره في كل واحد منها: القراءات واللغة والشعر والنحو وبذلك تتضح العلاقة العميقة التي كانت تربط هذه الميادين في ذلك الزمان فهو مثل الخليل مبدع لم يسبق إليه وواسع الاطلاع. وقد سبق أن أشرنا إلى أن علماء العربية هم الذين جمعوا أشعار العرب **بالطريقة العلمية اللائقة**

---

(3) – أما السريان والعبريون فقد كان لهم نقط منذ القدم ولم يكن له وظيفة تمييزية محضة بين الحركات مثل النقط العربي.

أي بمقاييس موضوعية **والجدير بالملاحظة أنهم كانوا كلهم من القراء في أقدم الأزمنة إلى غاية سيبويه.**

ثم إن إجماع العلماء الذين تتلمذوا على أبي عمرو أو على هؤلاء، على القول باتساع علمه« بألفاظ العرب ونوادر كلامهم وفصيح أشعارهم وسائر أمثالهم» [4] لدليل على توسعه في تحرياته الميدانية فقد تجوّل من العراق إلى اليمن ومن الحجاز إلى البحرين ويدل على ذلك كثرة ما ينسبه إليه تلاميذه وخاصة الأصمعي من الروايات الخاصة بالشعر ككثرة ما يقول الأصمعي: أنشدنـــا أبو عمرو في مختلف كتب الأدب واللغة وصرحوا أنهم قرأوا عليه شعر امرئ القيس وزهير وغيرهما وكذلك ما نسبه إليه اللغويون والنحويون من الروايات الخاصة بلغات العرب والأقوال المتعلقة بالنحو. فقد جمع الكثير من أقواله صاحب لسان العرب وذكر سيبويه آراءه في الأبنية النحوية الصرفية أكثر من خمسين مرة. وتوفى أبو عمرو في 154 على الأرجح.

وأما من علماء الكوفة المعاصرين لأبي عمرو(وقد جاء بعده بعدد من السنين) **فالمفضل الضبّي** وهو أول كوفي قام بما قام به أبو عمرو من التحريات في عين المكان وقد وثقه ابن سلام وغيره من العلماء. وله المفضليات المشهورة جمعها عنه تلميذه ابن الأعرابي وروى عنه أبو زيد من البصرة.

هذا وتعلّم من أبي عمرو طرائق التحري الميداني في اللغة وتدوين الشعر ثلاثة من اللغويين وهم الذين خلفوه بعد وفاته وأكملوا العمل العظيم الذي بدأه وهم **الأصمعي** (المتوفى في215) و**أبو عبيدة** (المتوفى في211) و**أبو زيد الأنصاري** (المتوفى في 205). وقد بث فيهم أستاذهم حماسًا عظيما لهذا النوع من البحث. وقال عنهم أبو الطيب اللغوي: «وكان في هذا العصر ثلاثة هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب لم يُر مثلُهم قبلهم ولا بعدهم.عنهم أخذ جلّ ما في أيدي الناس من هذا العلم، بل كله وهم أبو زيد وأبو عبيدة

---

(4) – تهذيب اللغة للأزهري 1، 8.

والأصمعي وكلهم أخذوا عن أبي عمرو اللغة والنحو والشعر ورووا عنه القراءة»(70). وليس في هذا الكلام أي مبالغة: بالفعل إذا استثنينا ما انفرد به أبو عمرو الشيباني الكوفي وزملاؤه فما رووه من اللغة وما جمعوه من الشعر يمثل القسط الأكبر من كل ما جُمِع من الشعر المسموع من فصحاء العرب. ثم لا يخلو من رواياتهم أي كتاب في اللغة. وعلى أساس هذه المعطيات وما جمعه الكوفيون صنع ابن السكيت والطوسي والسكّرى دواوين الشعراء كلهم. وحصل لتلاميذ أبي عمرو مثل ذلك بفضل تجوّلهم الواسع جدا الذي لم يشاهد له مثيل في تاريخ الإنسانية فالأصمعي يكاد يكون المصدر المطرد في كل رواية. أما اللغة فقد واصلوا ما بدأه أبو عمرو من تدوين للمفردات فصنفوها على المعاني أي بحسب ما نسميه اليوم بمجالات المفاهيم وجعلوا دفاتر خاصة لأنواع النبات والحيوان (كتاب النخيل وكتاب الإبل والشاة وكتاب النبات والشجر وغير ذلك) والمياه والدارات وخلق الإنسان وغير ذلك[5] وكل هذا معروف.

وتتلمذ على أبي عمرو بن العلاء قبل هؤلاء خلق كثير أشهرهم هم في اللغة والنحو **عيسى بن عمر الثقفي** (المتوفى في149) و**الخليل بن أحمد** الفراهيدى (المتوفى في175) و**يــونس بن حبيب** (182) و**أبو الخطاب الأخفش** و**أبو عمر اليزيدى** (المتوفي في 202) ونص الفراء في كتابه معاني القرآن على أن **أبا جعفر الرؤاسي** أخذ عن أبي عمرو قال: «حدثني أبو جعفر الرؤاسي عن أبي عمرو بن العلاء (1، 182). وكل هؤلاء سمعوا من فصحاء العرب في أقاليم كثيرة من شبه الجزيرة. وقد مرّ بنا أن سيبويه روى الكثير من المسموع عن شيوخه وأكثر ما ينسبه إلى يونس والخليل وأبى الخطاب وعيسى بن عمر.وهؤلاء هُم أقدم من قرأ على أبى عمرو وقد ذكر سيبويه بعض الأبيات الشعرية يقول عنها بأن **يونس سمعهــا مباشرة من الفرزدق** (1، 253) و**رؤبة** (1، 289) وكذلك عيسى بن عمر عن **ذي الرمّة** (1، 250).

---

(5) – أحصاها صاحب الفهرست ولم يفته شئ من ذلك. أنظر الدراسة النفيسة لهذه الدفاتر وما تلاها مــن كتــب للغــة للدكتور حسين النصار (المعجم العربي).

وعُرف **الخليل بن أحمد** باتساع سماعه ويصرح سيبويه أن أكثر ما يقوله شيخه فيما يخص الأبنية والتراكيب فهو موجود في الاستعمال الحقيقي لفصحاء العرب. قال: «وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه»(2، 47) و«كذا وجدنا العرب تقول»(1، 197)[6]. والخليل هو أول من فكر في وضع معجم يبنى على استفراغ تقاليب الأصول كما هو معروف ولا شك أنه بدأ في حشو ما صنعه من هيكل لهذا المعجم وذلك لوجود بعض التعريفات الأصيلة فيما يخص المصطلحات اللغوية أو الفقهية القديمة مثل تحديده لمفهـوم العلة لا كسبب عام (كما هو عند المتكلمين والفلاسفة بعدهم) بل كـ: «حدث يشغل صاحبه عن وجهه» (العين. ط.درويش 1، 100) وهو مفهوم خليلي محض: الحدث الذي يجعل الشيء يخرج عن بابه[7] فهو عامل اضطراب يحاول النحوي أن يكشف عنه ويحدّده وهذا هو التفسير العلمي كما سنراه. وللخليل تلاميذ كثيرون أشهرهم همـا **سيبويه** (المتوفى في 180) و**النضر بن شُمَيْل** وذكروا عن الثاني أنه أقام أربعين سنة في البـادية وله بعض الكتب في اللغة (الفهرست، ص57 ط. طهران).

ومن تلاميذ سيبويه المبرزين أبو الحسن **الأخفش** [الأوسط] (المتوفى في 215) و**قطرب** (المتوفى في 206). أما الأخفش [الأوسط] فقد كان له سماع كثير أيضا فمن ذلك ما جاء في كتابه معاني القرآن: قال: «وسمعت من العرب من يقول...(93) و«سمعت بَلْعَنْبر تقول» (118) «وسمعت العرب الفصحاء يقولون...»(273) وغير ذلك.ويكثر عنده كما عند سيبويه هذه العبارة: «هذا قول العرب»(179 و275 و283 و300 و319 و403 و410) وغير ذلك كثير. وكما سنراه في دراسة لاحقة،إن شاء الله، فالأخفش كان أساء الفهم لبعض ما قاله سيبويه-وهو قليل- وتبعه على توهمه أكثر النحاة بعده (ذلك مثل تحليله لـ «أقائم الأَخَوَانِ»). ولا شك أن قطربا سمع كثيرا من العرب هو أيضا كما تدلّ على ذلك عناوين

---

(6) – وقد قرأ أيضا على أبي عمرو خلف الأحمر واتهمه بعض من جاء بعده ابن سلام. وقولهم كان أفرس واحد ببيـت شعر قد تأولوه على أنه اتهام بالوضع و ليس الأمر كذلك لرواية ابن سلام لما جرى من تبادل الآراء بينهما.

(7) – والخليل هو من أجل العلماء بالنسبة لكل زمان وكل جنس من الناس.وله عبقرية خاصة وأفكار سابقة لأوانها كمـا سنبين كل ذلك إن شاء الله في هذه المجموعة.

مؤلّفاته الكثيرة[8] وما وصل إلينا من النقول نقلها العلماء عنه (ذكروا شيئا من كتابه في النوادر وغير ذلك).

ومن علماء الكوفة **خالد بن كلثوم** وهو قديم. ذكره ابن سلام في كتابه قال عنه: «كيف يروى خالد مثل هذا وهو من أهل العلم وهذا شعر متدايع خبيث» (الطبقـات، 148). كما اشتهر في هذا العصر من أهل الكوفة في العربية والسماع عن العرب-وفي القراءات- **الكسائي** (المتوفى في 189) من تلاميذ أبي جعفر الرؤاسي. وأكثر الفراء من ذكر سماع الكسائي في كتـابه معاني القرآن. قال: «وزعم الكسائي أنه سمع العرب يقولون (1، 134 و3، 111) و«حكى الكسائي عن العرب»(1، 59) و«قال الكسائي سمعت العرب تقول» (1، 282) (أنظر أيضا: 1، 323 و1، 233 و3، 109 و111 و243 وغير ذلك). وخلف الكسائي **الفراء** (المتوفى في 207) على رأس علماء اللغة والنحو في الكوفة ثم بغداد (ولهذا سموا بالبغداديين وهم غير المدرسة التي سمّيت الآن بالبغدادية) وكتاب معاني القرآن حافل بما سمعه صاحبه من أفواه العرب مباشرة وكان سماعه حقا واسعا أيضا وإن أكثر من السماع عن بعض بني أسد (1، 141 و242) المجاورين للكوفة إلا أنه لم يكتف بذلك فقد سمع من بني الحارث(1، 173) وعقيل (216) وتميم (109) وبني سليم (342) وبني سعد (262) وكثيرًا ما يذكر «العرب» بدون تحديد كمصدر سماعه (1، 42-51، 114، 122، 217 وغير ذلك).

فهؤلاء هم المؤسّسون الحقيقيون للسماع اللغوي العلمي وكلهم مدينون لأبي عمرو بن العلاء بالمبادئ العلمية التي بنى عليها السماع اللغوي وطريقة السماع وأنواع التقنيات المتعلقة بذلك.

ولا بد ههنا من ذكر العالم الكبير المتخصص في سماع الشعر وهو **محمد بن سلام** الجمحي (139-232) الذي ذكرناه في أكثر من مناسبة وهو في الحقيقة مخضرم بين هؤلاء

---

(8) - زيادة على كتابه في المثلثات الذي وصل إلينا وله شروح كثيرة.

الذين مرّ ذكرهم وكانوا كلهم من تلاميذ أبى عمرو بن العلاء-ومن تلاهم لأنه عاصر سيبويه وسمع من أكثر من واحد مثل يونس وغيره. **وهو أول من حرّر المبادئ العلمية لنقد السماع الخاص بالشعر** وسبق أن تناولنا ذلك. وما جاء في كتابه«طبقات الشعراء»(وهذا عنوانه الأصلي) هو، كما قلنا، من أصحّ وأوثق ما وصل إلينا في أخبار اللغويين ونشأة النحو وأخبار الشعراء، هذا بشرط أن يحذف ما ليس منه وهو ما أضاف إليه محققه المرحوم محمود شاكر من كتاب «الشعر والشعراء» ومما نسبه صاحب الأغاني إلى ابن سلام وكله كذب وافتراء(9) لأنه لا يتلاءم مع التحفظ الشديد الذي اتصف به موقف ابن سلام إزاء النقل وتحرّجه في قبول كل ما يروى وذلك مثل حكاية يونس مع رؤبة (ص767) وحكاية حماد مع بلال بن أبى بردة (ص48) وغيرهما كما سبق أن بيّناه في المقدمة.

ومثله اللغوي النحوي **أبو الحسن الأثرم** (المتوفى في 232). سمع من الكثير من فصحاء العرب وقرأ على الأصمعي. قرأ عليه ثعلب وأبو العيناء والزبير بن بكار.

ومن علماء الكوفة الذين أخذوا عن المفضل الضبّى **أبو عمرو الشيباني** (110-213) وهو الذي جمع دواوين القبائل والكثير من دواوين الشعراء فبذلك وبما حفظه من اللغة يكون من أوسع اللغويين سماعا وروى عنه الطوسي وابن السكيت وله كتاب الجيم وهو عبارة عن معجم للغريب الذي لا يعرفه إلا القليل من العرب. ومنهم **ابن الأعرابي** (150-231) أخذ أيضا من أبي زيد الأنصاري (وهذا الأخير من المفضل أيضا) وذكر أسماء من أخذ عنهم من فصحاء العرب. ومن اللغويين الكوفيين الذين أكثروا من السماع من العرب نذكر أبا محمد عبد الله بن سعيد المشهور **بالأموى** الذي أطال الإقامة في البوادي (توفى في 203) وأخذ منه ابن السكيت. وأخذ عن أبى عمرو الشيباني وابن الأعرابي وعن الأعراب **أبو سعيد الضرير**. ومن هؤلاء اللغويين **ثابت ابن أبي ثابت** وعلى بن المبارك **اللحياني** من تلاميذ الكسائي وأخذ عن الأصمعي وأبى عبيدة وأخذ عنه ابن السكيت كثيرًا. ومنهم **أبو نصر الباهلي** (توفى في 231) أخذ عن الأصمعي وأخذ عنه ثعلب ويذكره ابن السكيتِ أيضا في كتبه.

---

(9) – كما حاولنا أن نبيّنه في مقدمتنا.

ولا بد من أن نذكر ههنا أربعة لغويين كان أصلهم من الأعراب الفصحاء نزحوا إلى البصرة أو الكوفة وتتلمذوا على علماء العربية وأقدمهم **المُؤَرِّج السَّدوسي** (توفى في 195) وقال عن نفسه أنه تعلم القياس في حلقة أبي زيد (النـــزهة، 105). وثانيهم **أبو مِسْحَل**، أخذ عن الكسائي وكان وفد من البادية على الحسن بن سهل وله كتاب النوادر. والثالث هو **أبو مالك عمرو بن كركرة** صار ورّاقـــا في الحضر والأخير هو **أبو العَمَيْثَل** الأعرابي (المتوفى في 204) ووصل إلينا منه كتاب المأثور من اللغة (طبع في 1988). وهناك أعراب آخرون مثلهم.

القرنان الثالث والرابع:

تتلمذ من البصرة على أصحاب أبي عمرو **أبو حـــاتم السجستـــاني** (المتوفى في250) وقرأ أيضا على الأخفش (توفى في 255) وتشهد كتبه أنه سمع كثيرا من فصحاء العرب. قال في كتاب المذكر والمؤنث: «أنشد أعرابي من شق اليمامة...» (59) «وسألت بعض الفصحاء عن تأنيثه فأنكره» (105) «وسمعت من العرب من يقول...» (120) «وقد يذكّرها قوم فصحاء سمعت ذلك ممن أثق به منهم» (117). أما النحويون الذين جاؤوا بعد الأخفش فبعضهم ألّف كتبا في اللغة مثل أبي إسحاق **الزيادي** (توفى في 249) (كتاب الأمثال وكتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار) و**التوّزي** (توفى في 230) (كتاب الأضداد وكتاب النوادر) وأبي الفضل **الرياشي** (المتوفى في 257) (كتاب الخيل وكتاب الإبل وما اختلفت أسماؤه من كلام العرب) إلا أن هذه الكتب لم تصل إلينا حتى نعرف هل نزلوا الميدان مثل شيوخهم والمرجّح أنهم سمعوا من الأعراب. أما تلميذا الأخفش: أبو عمر **الجرمى** (225) وأبو عثمان **المازني** (248) فغلب عليهما النظر في النحو. أما **المبرد** (285) فله سماع أيضا إلا أنه لم يبلغ في ذلك ما بلغه سابقوه. وأكثر ما يرويه فهو من شيوخه أو من الكتب.

ومن الكوفيين الذين ينتمون إلى هذا العصر أبو العباس **ثعلب** (المتوفى في 291). فله سماع من العرب وله «مجالس» في ذلك مشهورة وهوَ أول من حاول أن يستخرج اللغة «الواضحة» التي يستعملها كل العرب وسميت «بفصيح ثعلب» ولها شروح كثيرة. وممن

ألَّف في أمثال العرب فأجاد **المفضل بن سلمة** في كتابه «الفاخر» (وكتب الأمثال كثيرة). ومن أعلام هذا العصر الذين يرجع إليهم الفضل الكبير في التدوين العلمي للشعر الذي كان يسمى عندهم بالصنعة للدواوين وذلك باللجؤ إلى منـــاهج التحقيق المماثلة للمناهج الحديثة فهم –وقد سبق أن ذكرناهم– أبو يوسف يعقوب ابن **السكّيت** (243) وأبو سعيد **السُكّري** (212–275) وأبو الحسن **الطوسي**. وكان ابن السكيت أكثر أهل عصره سماعًا من العرب ويظهر ذلك جليًا في كتابه «إصلاح المنطق». ولا بد من ذكر عالم عبقري جمع بين البحث في اللغة والبحث في العلوم الدقيقة وهو **أبو حنيفة الدِّينَوري** (توفى في 282) وله كتاب النبات لم يؤلف مثله.

ولابد أن نشير ههنا إلى عالم لغوي متميّز عاش في هذا العصر وكان قد تجوّل بجزيرة العرب تجوّلا واسعا كما يدل على ذلك ما وصل إلينا من كتابه: «التعليقـــات والنوادر» وهو أبو على هارون بن عيسى **الهَجَرى**. ولا يعرف أصحاب كتب الطبقات عنه شيئا مع أن بعض من ألف في جغرافية الجزيرة العربية مثل السمهورى قد اقتبس منه الكثير ويؤكد ذلك محقق هذا الكتاب العلامة حَمَد الجاسر رحمه الله.

وبالسكري ختم التدوين العلمي الدقيق للشعر في هذا العصر.أما السماع للغة فلم ينته بنهاية القرن الثالث إذ بقى الكثير من الناطقين بالعربية على فصاحتهم السليقية في الكثير من الأقاليم. وواصل العلماء التأليف في اللغة وظهرت في نهاية القرن الثالث ثم في القرن الرابع المعاجم الكبيرة الأولى بعد كتاب العين وهي الجمهرة لابن دريد وتهذيب اللغة **للأزهري** والصحاح **للجوهري**. كما استمر التأليف للمجالس والأمالى في اللغة والأدب كأمالي أبي على القالى تلميذ ابن دريد. إلا أن هذه الكتب (وكذلك كتاب الجمهرة) لم تؤلف على أساس السماع المباشر للعرب بل مصدرها كما يدل عليها اسمها الدروس التي كان يلقيها كبار الشيوخ في اللغة. ونستثني من ذلك معجمين عظيمين بناهما صاحبهما، كما قلنا، في جزء كبير منهما على السماع المباشر. ففي وسط القرن الرابع رحل الجوهرُي إلى الحجاز وتجوّل في وسط القبائل ثم ألف بعد سماعه الواسع معجمه المشهور المسمى بالصحاح (وتوفى بنيسابور في

396 كما قال ياقــوت). وقال عنه السيوطي: «وغالب هذه الكتب [كتب اللغة] لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح بل جمعوا فيها ما صحّ وغيره وينبّهون على مالم يثبت غالبا وأول من التزم الصحيح مقتصرًا عليه: الإمام أبو نصر...**الجوهري**» (المزهر1، 97). وصاحب المعجم الآخر هو أبو منصور الأزهري ومعجمه هو «تهذيب اللغة». وسبق أن ذكرنا كيف أتيحت له الفرصة للسماع من العرب. قال في مقدمة كتابه: «منها تقييد نكت حفظتها ووعيتها من **أفواه العرب** الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرانيهم سُنَيَّات إذ كان ما أثبته كثير من أئمة أهل اللغة في الكتب التي ألفوها والنوادر التي جمعوها لا ينوب مناب المشاهدة» (1، 6).

وآخر من سأل العرب في اللغة وسمع منهم هو **ابن جنّى** (المتوفى في 392) كما مر بنا وفي آخر حياته لاحظ أنه لم يبق في عصره من يجوز أن يؤخذ بلغته لزوال الفصاحة السليقية.

الفصل الثاني

البيئة الطبيعية للتحريات وأوصاف المساهمين فيها

I - مناطق السماع وأماكنه:

لقد رحل اللغويون العرب إلى كل صُقْع من أصقاع شبه الجزيرة وكانت رحلاتهم للسماع من أفواه العرب واسعة جدا وخاصة في العصور الأولى. فكان ينتقل بعضهم من البصرة أو الكوفة إلى وسط نجد وغربيه وإلى العالية ثم الحجاز ومنه إلى ما يتاخمه شرقا كالبحرين[1] ومن الحجاز إلى شمال اليمن. فيقطعون المسافات البعيدة بعزيمة قوية جدّا.

وأكبر دليل على تغطية أبى عمرو بن العلاء وتلاميذه وفريق المفضل الضَّبّي الكوفي الذين سبق ذكرهم للمساحات الشاسعة من شبه جزيرة العرب للسماع من أفواه العرب هو ما جاء في كتب اللغة والنحو من ذكر أسمائهم بكثرة عجيبة -ولا سيّما الأصمعي- وأسماء القبائل والبطون والأقاليم والقرى كلها مع عَزْو المتحرّين إليها لما سمعوه ودوّنوه مباشرة من أفواه فصحاء العرب ويقال مثل ذلك بالنسبة لكثرة ما صنعه أبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي ومن جاء بعدهما كالسكرى من دواوين القبائل على المعطيات الكثيرة المتنوعة التي جمعها هؤلاء الباحثون. وقد أحصاها ابن النديم وذكر أسماء القبائل فبلغت 60 قبيلة من شتّى الأقاليم فهذا عجيب حقًّا. كما ذكر سيبويه في كتابه 38 قبيلة أو جماعة أو قرية عزا إليها ما سمعه هو أو شيوخه. وهاهي ذي القبائل أو الجماعات التي عُزِى إليها شئ أو أشياء في الكتاب: أزد السراة: 4 مرات، أسد: 11 مرة، الأنصار: مرتين، باهلة 3 مرات، بجيلة مرة، بكر بن وائل 5 مرات، تغلب:مرة، تميم:56 مرة (وتدخل معها غالبا قبائل نجد) أهل

(1) - البحرين كتسمية تغطي قديما مساحة كبيرة. جاء في معجم البلدان : «هو اسم جامع للبلاد على ساحل بحر الهند **بين البصرة وعمان**» (1، 347).

الحجاز:71 مرة، بالحارث: مرتين، حرماز: مرة، خثعم: مرتين، دارم: مرة، ربيعة: مرة، سعد: 7مرات، سلول: 3مرات، سُليم: مرة، ضبة: مرة، طُهيّة: مرة، طئ: 4مرات، بنو عامر: مرة، عبد القيس: مرة، عبس: مرتين، عديّ: مرة، عمان: مرة، بَالعَنْبَرَ: مرة، قُشير: مرة، قيس: 6مرات، كلاب: مرة، كليب: مرة، الكوفة: 5 مرات، مازن:مرة، المدينة: مرة، مذحج: مرة، مكة: 3مرات، هذيل: مرتين، يشكر: مرة.وكل ما جاء من ذلك فهو لغات.

ينبغي أن نلاحظ أن كثرة ما عزاه سيبويه إلى بني تميم وأهل الحجاز بالنسبة إلى القبائل الأخرى سببه كما قلنا، هو التسمية الأولى أي بنو تميم فإنه يطلقها على **أهل نجد** غالبا، كما قلنا، وهم كُثْر وكذلك هي القبائل الحجازية.

ثم قلة ما يُعزى إلى القبائل أو القرى بالنسبة إلى ما عزاه إلى العرب أو أكثر العرب (كما سنراه فيما يلي) لدليل آخر على ما سبق أن قلنا واستدللنا على صحته:وهو وجود عربية واحدة بتنوّعات لهجية وغير لهجية.

ولا شك أن سيبويه وهو تلميذ كل هؤلاء الذين نزلوا الميدان بدون استثناء قد فعل مثلهم وأكثر التجوال إذ لا يُعقل أن يأخذ ما سمعه من شيوخه وتعلّم منهم طريقة السماع العلمي ولا ينــزل مثلهم الميدان مع ذكره العدد الكبير جدا من «النحوّ» أي الضروب المتنوّعة من الكلام **وقد جاءت كلمة «العرب» في كتابه أكثر من خمسمائة وثمانين مرة!**في عبارة: «قول العرب» وغيرها ويستحيل أن يكون سمع كل هذا الذي ذكره من العرب القاطنين في البصرة أو من المِرْبَد مع كثرة ما جاء في كتابه من التأكيد الصارم أن بعض ما سمعه: «تتكلم به **العامة** [من العرب]» (1، 312) أو «فينصبها **عامة** بني تميم»(1، 166) أو «على ذا تتكلم به **عامة العرب**» (2، 477) «وليست... أكثر في كلامهم **جميعا** وإنما يتكلم بها بعضهم»(1، 27، 24) «**وليس في الدنيا عربي** يجعلها هنا صفة...لا يتكلم به العرب»(395، 402) و«هذا لا يرفعه **أحد**»(398)و«ليس عربي يقول»(2، 54) و«**ليس من العرب أحد** إلا وهو يقول» (2، 126) و«لا تكاد العرب تتكلم به»(173) أو«هذا لا يقوله أحد»(2، 78 و82) و: «وأهل الحجاز وغيرهم **مجتمعون على**...»(2، 160) و«لم تقله العرب وليس له نظير في

كلامها» (2، 157) أو«فقد **اجتمعت العرب** على تخفيفه»(2، 165) أو«ولم نسمعهم قالوا...»(2، 221) أو«وغيرهم من العرب وهم كثير لا يلحقون الهاء في الوقف»(2، 279) و«**سمعنا** ذلك من **تميم وأسد**...أما ناس من بني تميم فيقولون...»(2، 285) و»وسمعنا بعض تميم من بني عدي يقولون...»(2، 287) و«أما أهل الحجاز وغيرهم من قيس فألْزمتها الهاء في الوقف وغيره كما ألزمتْ طيء الياء»(2، 288) وغير ذلك. يقول من جهة أخرى: «وسمعنا رجلا من أهل البادية قيل له: أتخرج إن أخصبت البادية. فقال : أنا إنيه؟ منكرًا لرأيه»(1، 406) و«سمعت من العرب من يقــول: ألاتا، بلى فا»فإنمـــا أرادوا: ألا تفعل وبلْى فأفعل»(2، 62)[2] فمِثْل هذين الحادثين لا يشاهدهما إلا من كان في البادية.ثم كيف يجوز لباحث نزيه موثوق بعلمه مثل سيبويه، كما شهد على ذلك جميع العلماء، أن يدّعى أنّ هذا«عربي جيد كثير» (1، 15-27) و«الوجه الأكثر الأعرف»(46) و«الأول **أعرف وأكثر**»(78) و«أعربه وأكثره»(79) و«**أكثرهم** يقول...»(121) و«الرفع في جميع هذا **كثير في جميع لغــات العرب**»(110) «**هو كلام أكثر العرب**»(117) «من لا **يُحصى من العرب**» (293) وغير ذلك دون أن يكون عاين ذلك في أكثر من مكان.

1 - المناطق الهــامة:

يذكر المتحرون من فريق أبى عمرو بعض المناطق أو الأماكن الهامة التي أقاموا فيها وأجروا فيها تحرياتهم وهي زيادة على المناطق الكبرى مثل الحجاز والسراة واليمامة واليمن والبحرين وغيرها:

- حِمَى ضَرِيَّة في نجد
- حِمَى الرّبَذة في نجد أيضا قريبة من المدينة
- قُباء كذلك
- رَمْلة اللِوى

(2) - نسب المبرد هذه الحكاية للأصمعي في الكامل 236.

- الجفر

- وادي بالعنبر

- القَصيم وغير ذلك

وسنتعرض لكل واحدة منها ولغيرها فيما يلي:

ففي نهاية القرن الأول وبداية الثاني ينقل إلينا أبو عمرو بن العلاء، كما قلنا، الكثير من المعطيات اللغوية من اليمن (شماله حيث كان العرب ينطقون بلغة ابني نزار) ومن بلاد هوازن وبلاد تميم ويخبرنا عن أفصح من سمع منهم فيذكر من هؤلاء: «**عليا هوازن** وسُفلى تميم» (فضائل القرآن لابن كثير،67 والمزهر،1،211). وقد سُمّيت «عليا هوازن» بعجز هوازن«وهي عند أبي عبيد: سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف (فضائل القرآن لأبي عُبيد، 346-347). وأضاف أبو عبيد: «أما سُفلى تميم فبنوا دارم»[3]. ونزلت هوازن (بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس) «ما **بين غور تهامة إلى ما والى بيشة** وبِرْكًا ناحية **السراة** و**الطائف** وذا **المجاز** و**حُنَيْن وأوطاس** وما صاقبها من البلاد» (معجم ما استعجم،87). وكان لهوازن في الواقع جزء من نجد وجزء من السروات. جاء في معجم البلدان: «الحجاز هو جبال تحجز بين تهامة ونجد **يقال لأعلاها السراة**» (1، 205) وفيه أيضا: «يقال: سراة ثقيف ثم سراة فَهْم وعَدْوان [من قيس] ثم سراة الأَزْد... وقال الحازمي: السراة الجبال الحاضرة بين تهامة واليمن ولها سعة»(204). وينسب السيوطي إلى الأصمعي هذا القول: «قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الشعراء ألسنة وأعربهم أهل السروات وهنّ ثلاث. وهن الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن. فأولها لهذيل وهي تلي الرمل من تهامة ثم علية السراة الوسطى وقد شركتها ثقيف في ناحية منها ثم سراة الأزد، أزد شنوءة وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الأزد»(المزهر 1، 483). وقد أكّد الخليل قول أبي عمرو فيما يخص أزد السراة. قال: «أفصح الناس أزد السراة» (الفاضل،113).

(3) – نقل ذلك الزركشي في كتاب «البرهان»(1، 283).

وجـــاء في معجم البكرى أيضا: قال السّكوني: «إذا أردت أن تصدّق الأعراب إلى **العجز**، يريد عجز هوازن ترتحل من المدينة ... فتنـــزل ذا القَصَّة فتنـــزل بني عُوال من بني ثعلبة بن سعد ثم تنـــزل الابْرق، أبرق **الحِمَى** وهي لبنى أبي طالب ثم تنـــزل إلى الرَّبذة ثم عُرَيْج وهي لحرام بني عدىّ بن جُشَم بن معاوية ثم تنـــزل المضيَّح فتصدّق بني جُشم ابن معاوية تنـــزل الماعزة... وهي لبني عامر من بني البكّاء ثم تنـــزل بطن تُرَبة فتصدّق هلال بن عامرو الضّبّاب. ثم تنـــزل تَرِيم وهي لبني جُشم ثم تنـــزل السِّئ فتُصدّق بني هلال ثم نـــاصفة وهي لبني زِمَّان بن عدى بن جُشم ثم الشيـــشة وهي لبني زِمّان أيضا ثم تُرعى وهي لبني جُداعة ثم تأتي بُوانة» (ص236).

وأكثر هذه الأماكن قد زارها اللغويون وكثيرا ما يذكرون الحِمَى وهو ههنا **حِمَى الرَّبذة**. يقول عنها ياقوت: «الرَّبذة من قرى المدينة[4] على ثلاث أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة» (3، 24) وقال أيضا: «قال الأصمعي يذكر نجدًا: والشرف كبدنجد **وفي الشرف الرَّبذة**[5] وهي الحمى الأيمن» (نفس المصدر). وجاء في معجم البكرى: «الربذة... هي التي جعلها عمر رضى الله عنه حِمَى لإبل الصدقة» (636) «ويسرة الربذة الخبرة وهي من الربذة مهبَّ الشمال وهي في بلاد غطفان وإن أدنى المياه من الخبرة ماء لبني ثعلبة بن سعد [بن ذبيان]» (633). (وذكرت في أمالي القالي ص36و51 من الجزء الأول).

ويوجد حمى آخر أشهر وهو **حِمَى ضَرِيَّة**[6] كثر ذكره في الأمالي وغيرهـــا (1، 65 و2، 35، 288، 244). «وهو أكبر الأحماء» (معجم البكر،860) وضرِيّة ... في طريق مكة من البصرة من نجد. قال الأصمعي«الشرف كبد نجد وفيها حمى ضرية وضرية بئر»... وقال غيره: ضرية أرض بنجد ويُنسب إليها حمى ضرية ينـــزلها حاجّ البصرة **لها ذكر في**

---

(4) – كانت تابعة لوالي المدينة (أنظر فيما يلي : يليه امرأ المدينة).

(5) – وقال الهَجرى في التعليقات والنوادر: «ثم تزيّدت الوُلاة الحمى أضعافا ثم أُبيحت الأحماء في أيام المهدى فلمْ يحْمِها أحد بعد ذلك»(1403).

(6) – ووصف الهجرى هذين الحميين وصفا وافيا في كتابه «التعليقات والنوادر»(29 صفحة).

أيام العرب وأشعارهم... وفي كتاب نصر: ضرية صقع واسع بنجد... يليه **أُمراء المدينة** وينـــزل به حاجّ البصرة بين الجديلة وطِخْفة وقيل: ضرية قرية **لبني كلاب** على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب» (معجم البلدان، 3، 457).

ويقول لغدة الأصفهاني في «بلاد العرب»: وضريّة سُرَّة الحمى وهي قرية عظيمة غَنَّاء يطؤها الطريق (أي الطريق من البصرة إلى مكة). فيها **بنو عامر**[ومنهم بنو كلاب وبنو هلال]... وبناحية ضرية فيما بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم جبل يقال له زُحَيْف وجبل يقال له الجُحْد وهما **لبني كلاب**» (391-392).

أما سفلى تميم التي قال أبو عبيد أنها بنو دارم وهم من تميم فقد صرّح العلماء أن لبنى دارم بُرْقة ثَهْمَد (معجم البلدان، 1، 392) وثهمَد هو «جبل في حمى ضرية». فهو إذن في جوار الحمى **الذي كثرت زيارات اللغويـــين له.** قال أبو عبيدة:... والبيضة: بالْصمَّـــان لبنى دارم... وفي كتاب نصر[7] البيضة بفتح البـــاء بجانب الصمـــان من ديار بنى دارم بن مـــالك بن حنظلة [بن مالك بن زيد مناة بن تميم] «(معجم البلدان، 1، 532). وقال أبو منصور:... الصمـــان... أرض فيها غلظ وارتفـــاع... وكانت لبنى حنظلة والحَزْن لبنى يربـــوع«(نفس المرجع، 423). والجدير بالملاحظة أن الذي كان يسهّل على الأصمعي وزملائه الرحلة إلى هذه الأراضي هو **وجود طريق خاص كان يُسمى «بالمنكدر»**. جاء في معجم البكرى: قال أبو مجيب الربعي: «يخرج من البصرة على طريق المنكدر لِمَنْ أراد مكة فيسير إلى **كاظمة** ثلاثا ثم إلى **الدوّ** ثلاثا ثم إلى **الصمّان** ثلاثا ثم إلى **الدهناء** ثلاثا» (841-842). وكل هذه الأماكن هي منازل لبنى تميم[8] وجاء أيضا في «بلاد العرب»: » يقول أهل المدينة: أخذتَ التهامية أم النجدية؟ فالتهامية التي على عُسفان والجُحْفة والنجدية التي على طريق الرَّبذة. قال: وللبصرة إلى مكة طريقان: أما أحدهما فالصحراء عن يسارك وأنت مُصْعد إلى مكة لَيَالٍ. فإذا ارتفعت فخرجت من فَلَج فأنت في الرمل فإذا جاورتَ النِّباج

(7) – هو أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الفزارى.له كتاب البلدان (توفّى في 561).
(8) – وقال البكرى: «ظهرت تميم ...إلى بلاد نجد وصحاريها فحلوا منازل بكر وتغلب التي كانوا ينـــزلونها في الحرب التي كانت بينهم ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجَر ونزلوا مابين اليمامة وهجَر»(1، 88).

والقريتيْن فقد أنْجَدْتَ. «وإذا أخذت طريق **المنكدر** إلى كاظمة فثلاث إلى كاظمة وثلاث إلى الدوّ وثلاث إلى الصمّان وثلاث إلى الدهناء» (338) وقال الأصفهاني: «وكان الحاجّ يأخذونه [المنكدر] فتركوه لقلة الماء»(286).

ونسبوا إلى أبى عمرو بن العلاء أيضا أنه قال: «أفصح العرب أهل **يذْبُل والقعاقع**» (الشعر والشعراء، 318). وذكر لغدة الأصفهاني في كتابه أن الأصمعي قال: «يذبل والقعاقع وابنا شمَام **لباهلة**» (238) وقال لغدة أيضا: «وهو جَبَل لباهلة وتراه من مسيرة يومين وهو قريب من السَّوْد» (237) و«السود: قرية لباهلة بالوَشْم[9] بأطرافه» (238). فكلا المكانين إذن في اليمامة وينسب لغدة يذبل لبنى قشير أيضا[10] (234).

كما ذكر، من جهة أخرى، أن أبا عمرو قال: «نحن دخلنا جوف **وَالِغين**. ثم قال: وتيك والغون بالبحرين» (35).

هذا ويُنسب أيضا إلى أبى زيد الأنصاري من تلاميذ أبى عمرو أنه قال: «ما أقول قالت العرب إلا إذا سمعته من عجز هوازن وبنى كلاب وبنى هلال أو من عالية السافلة أو من سافلة العالية وإلا لم أقل قالت العرب» (المزهر، 483). لولا ما أضافه في آخر كلامه من عالية السافلة والعكس لحذف أكثر من نصف القبائل التي سمع منها اللغويون بالفعل ولا شك أن أبا زيد أراد أن ينوّه بذكره بصفة خاصة لبطون قيس كبنى كلاب وبنى هلال لكثرة ما سمعه منهما مما هو أفصح و«أعرب» وأكثر تمثيلا للغة العرب.فقد سبق أن ذكرنا قول أبى عمرو في أهل يذبل والقعاقع وهم من بنى كلاب، أي من قيس أيضا.

أما ما قاله عن عالية السافلة وسافلة العالية فقد صرّح بهذا الصدد أن «أهل العالية أهل المدينة ومن حولها ومن يليها ودنا منها». والعالية في معجم البلدان: «اســم لـِ كل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمائرها إلى تهامة فهي العالية وما كان من جهة تهامة فهي السافلة... وإذا نسبوا إليها قالوا عُلْوى... وقال قوم: العالية ما جاوز [وادى] الرمّة إلى

(9) – الوشم من بلاد نجد واحدى منازل بنى تميم.
(10) – في معجم البكرى: «يذبل جبل طرف منه لبنى عمرو بن كلاب وبقيّته لباهلة مُليل وعرّاض» (1391–1392).

مكة وهم عُكل وتميم وطائفة من بني ضبة وعامر كلها وغنيّ وباهلة وطوائف من بني أسد وعبد الله بن غطفان ومن شقة الشرقي أبان بن دارم وهم عُلويون وأهل إمَّرة من بني أسد وألمامهم وطائفة من عوف بن كعب بن سعد بن سُليم. وعَجُزُ هوازن ومحارب كلها وغطفان كلها **علويون نجديون** ومن أهل الحجاز من ليس بنجدى ولاغوري وهم الأنصار ومزينة ومن خالطهم من كنانة...» (3، 71).

ولبني كلاب **الجفر** الذي ذكرناه في أول هذه الفقرة وهو **جفر البعر** ذكره القالى في أماليه (ص1، 257) كمكان للتحريات اللغوية قال الأصمعي: «جفر البعر ماء يأخذ عليه طريق الحاج من حَجْر اليمامة بقرب راهص وقال أبو زياد الكلابي: جفر البعر من مياه أبي بكر بن كلاب بين **الحمى** وبين مهبّ الجنوب على مسيرة يوم وقال غيره جفر البعر بين مكة واليمامة على **الجادة** وهو ماء لبني ربيعة بن عبد الله بن كلاب» (معجم البلدان 2، 146). وقال الهَجَرى: «وكان لبنى الأدرم-وهم من بنى تميم بن لؤى- ماء قديم على طريق أهل ضرية إلى المدينة على ثمانية ميلا من ضرية يسمى **الجفر** (1409-1410). وقد يكون هذا هو الذي ذكره اللغويون.

رملة اللوى، قال الأصمعي: «وقف علينا أعرابي ونحن في رملة اللوى قال...: «(الأمالى1، 158). اللوى اسم للكثير من الأماكن. ولم نعثر على هذه التسمية بالذات أي بإضافة الرملة إلى اللوى. أما اللوى فقد ذكرلغدة الأصفهاني: «ثم ترد المجازة **وهي من طريق مكة الذي يأخذ عليه البصريون** عليه المنار من بطن فلْج...وأكثر أهلها **[بنو] العنبر** و**[بنو] يربوع**... ثم تجوز المجازة فتقع في اللِوَى... عن يساره رملة عظيمة تسمى الشيخة وأظن اللوى لبني يربوع» (331-332). ويقول الهمداني في«صفة جزيرة العرب» بهذا الصدد: «ومن المياه القديمة توضح وهي بين **رمل الشيخة** وشرج بذات الطلع...» (241).

أما **القَصيم** (الأمالى، 1، 170) فقد قال عنها السكوني: «القصيم بلد قريب من النّباج يسرة» ...وقال الأصمعي بعد ذكره لوادي الرمة: «وأسافل الرُّمَّة تنتهر إلى القصيم وهو رمل لبني عبس»(معجم البلدان، 4، 367). وقال الأصفهاني: «والقصيم موضع ذو غضًا فيه

مياه كثيـــرة... وأهل القصيم يسكنون في عنـــام الخوص وهي منازل بني عبس... وبالقصيم ماء لبنى أسد في الرمل» (بلاد العرب، 340 -341) .

وذكروا **قُباء** (أمالى المرتضَى، 500) وقالوا عنها: هي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة... وهناك مسجد التقوى» (معجم البلدان، 4، 302).

وادي بني العنبر: قال الأصمعي: «نزلت في واد من أودية «بني العنبر...» (الأمالى 2، 267). فبنو العنبر بطن كبير من تميم كان لهم وادٍ يسمى فَلْجا والآخر الأَعْزَلة.ولا شك أن الأصمعي يقصد هنا فَلْجا. جاء في معجم البلدان:» «قال أبو منصور: فَلْج اسم بلد ومنه قيل لطريقٍ تأخذ من **طريق البصرة إلى اليمامة طريق بَطْن فلج**... وقال غيره: فَلْج وادٍ بين البصرة وحمى ضَرِيّة من منازل عدِيّ بن جُندب بن العنبر بن عمرو بن تميم من طريق مكة. وبطن [فَلْج]: وادٍ يفرّق بين الحَزْن و**الصمّان** يُسْلك منه طريق البصرة إلى مكة قال أبو عبيدة: «فَلْج لبني العنبر... وهر بين الرُحَيْل إلى المجازة وهي أول الدهناء» (4، 272).

العيون: جاء في أمالى القالى: «قال أبو زيد لأعرابية **بالعُيون**» (2، 279-280). قال صاحب معجم البلدان: «قال السكوني: من واسط إلى مكة طريق يخرجون إليه من واسط فينـــزلون العيون وهي صُماخ وآدم ومُشرَّجة... وبالبحرين موضع يقـــال له العيون»(4، 181).

هذا وما يدلّ على معرفة الأصمعي (وزملائه أيضا) الواسعة لهذه الأماكن ومختلف أقاليم شبه الجزيرة هو وصفه الدقيق لها في كتـــابه عن «جزيرة العرب» الذي ذكره صاحب الفهرست (ص 61) وإن كان الكتاب مفقودا فإننا نعرف ذلك من خلال النقول الكثيرة -تعدّ بالمئات- في كل الكتب التي وصلت إلينا من الجغرافيين العرب وغيرهم مثل كتاب لغدة السابق الذكر ومعجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت وغيرها.

أما الذين واصلوا هذه التحريات بعد هؤلاء مثل ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني وأتباعهما الكثيرين فذكرهم للأماكن الخاصة قليل جدا يكاد لا يكون فكأنّ الأصمعي وأبا عبيدة

قد انفردا بذلك ونعتقد أن السبب في ذلك هو انفراد هذين اللغويين بما رَوَوْه من الحكايات الخاصة بلقاءاتهما الكثيرة مع فصحاء العرب (مثل ما جاء في كتب النوادر لمن جاء بعده) وهذه الروايات لا تقتصر على رواية اللغة بل تتجاوزها إلى ذكر الحادثة أو القصة إن كانت هناك قصة.

ولابد من ملاحظة هامة نختتم بها ذكرنا للمواضع الجغرافية الخاصة التي ذكرها الأصمعي وغيره: **إن عزو اللغويين لما سمعوه هو دائما عزو إلى قبيلة أو بطن أو قرية أو إقليم فيه مجموعة من القبائل.** ولا ينحصر هذا العزو كله في ذكر المواضع الجغرافية الخاصة كالقرى أو جهات معينة من البوادي كالرمل والجبل والوادي وغير ذلك كما هو الشأن في الجغرافية اللغوية المعاصرة في البلدان الغربية. وسبب ذلك واضح جدا فالنظام الاجتماعي في شبه الجزيرة العربية كان نظاما قبليا محضا حتى في الحضر فالمرجع الموضوعي بالنسبة للغة هو القبيلة أو القرية لا القرى وحدها.

وهذا يفسّر اهتمام اللغويين الكبير في عزوهم لسماعهم إلى القبيلة أو القرية وسكوتهم عن الموضع الذي تحصّل فيه على سماع.فجغرافية اللغة عندهم هي جغرافية قَبَلية قَرَوية في الوقت نفسه. و**معرفة علماء اللغة في تلك العصور بمنازل القبائل في شبه الجزيرة** بل وكذلك معرفة تاريخ نزوحهم من إقليم إلى آخر كان كل ذلك يجعلهم يكتفون بذكر القبيلة أو أحد فروعها أو القرية إن اختصت بميزة لغوية معينة[11].

وعلى هذا فاطّلاعُنا على ما عزاه اللغويون من اللغات اللهجية إلى القبائل أو البطون يُمكّننا من معرفة المواضيع الجغرافية التي استعملت هذه اللغات. وأما تحديد المساحات التي «مسحها» اللغويون في العصور المتتالية (إلى غاية القرن الرابع) فقد سبق أن ذكرنا الأقاليم التي صرّحوا هم بأنفسهم بأنهم رحلوا إليها للسماع وأن ما أجروا فيه من التحريات يكاد يغطي شبه الجزيرة كلها في القرن الثاني إذا استثنينا الجهات التي اختلطت فيها العربية

(11) – فيما يخص الحضر فالفصيح السليقي فيه زال بعد نهاية القرن الثاني كما قلنا فما سبق.

بغيرها جزئيًا أو كليًا. ويصعب أن ننكر هذه الحقيقة لأن المسموع من العرب شعرًا ونثرًا عظيم جدًا لا يمكن أن يكون سمعه اللغويون كله في البصرة وحدها أو الكوفة ثم لا يُعقل أن يكونوا جمعوا الدواوين الشعرية كلها في مكان واحد أو مكانين لأنهم كانوا يتحرون الصحيح منه وقد رأينا أن هذا الصحيح كان لا يوجد إلا عند «أهل العلم بالشعر» من أفراد القبيلة وكان لابد من البحث عنهم والذهـاب إليهم وقد ذكروا أسمـاء بعض هؤلاء «العلماء» من القبيلة كما فعل ابن سلام الجمحي وأبو عبيدة .

وكثرة رحلاتهم وكثرة ما سمعوه في أثناء تنقّلاتهم لم يمنع من أن يكون الكثير منهم قد سمع من أعراب قدموا البصرة في «بعض ما يقدم له البدوى من الجلب والميرة» كما يقول ابن السلام» (طبقات، 47). وكان من الطبيعي أن يغتنم اللغويون فرصة وجود الفصحاء من قبائل العرب البعيدة (وكان مجيئهم للميرة، كما قلنا، أو التجارة أو مجرد نزوح) للسماع منهم. **وههنا لا بد من التمييز أيضا بين العصور**. ففي الزمان الأول: نهاية القرن الأول وبداية الثاني كان أكثر العرب الذين سكنوا المدينتين البصرة والكوفة لا يزالون على فصاحتهم، كما في سائر المدن في ذلك الزمان. وكان أكثرهم استقروا في «العراقين» بعد تأسيسهما في عام 17 وذكر المؤرخون القبائل التي نزح منها عرب البصرة وهي: **قبائل العالية**(12) **وتميم** – وكانت أكثرهم عددا– **وبكر بن وائل وعبد القيس** من البحرين **والأزد** وبعض القحطانيين **كطئ وعدى وهمدان**(13). وبدأ اللحن ينتشر منذ البداية لوجود الكثير من العجم في البصرة وغيرها من المدن العربية.وجمع اللغويون الأولون الشعر الذي سمعوه من أهل المدن من الذين بقوا على فصاحتهم مثل الأخطل وأكثر الشعراء الأمويين ومنهم من كان يتردد إلى البصرة كجرير والفرزدق ودام ذلك إلى زمان سيبويه. وواصل اللغويون السماع في البصرة كما كانوا يفعلون وذكروا مكانا اشتهر أيما شهرة بما كان يجري فيه منذ القدم من النشاط الأدبي وهو **المِربَد** وكان سوقا للإبل(14) في غربيّ البصرة.ولا شك أن الكثير من اللغويين

---

(12) – من بينهم:قيس وكنانة وقريش وغيرهم.
(13) – أنظر البلاذري، فتوح البلدان،ن 346–372.
(14) – وصار سوقا عامة تتخذ فيه المجالس الأدبية و الشعرية خاصة مثل سوق عكاظ في الجاهلية. وصار أيضا بعد ذلك حيًا عظيما من البصرة ثم خرب.

استغلوا وجود الأعراب في هذا المربد للسماع منهم وخاصة بسبب تنوّع أصولهم القبلية. فقد روى الجاحظ عن الجارود بن أبي سبرة أنه قال: «عليكم بالمربد فإنه يطرد الفكر ويجلو البصر ويجلب الخبر و**يجمع بين ربيعة ومضر**» (البيان، 1، 350).

وجاء في نوادر القالى: «قال أبو عمرو بن العلاء يسأل الأصمعي:» من أين أقبلت؟ فيجيبه: جئت من المِرْبَد. فيقول: هات ما معك». فيقرأ عليه الأصمعي ما كتبه في ألواحه. فإذا أحرف ستة لم يعرفها أبو عمرو فيخرج يعدو في الدرجة ويقول للأصمعي: «شمّرت في الغريب» (نوادر القالي، 182) .

ونشك في صحة هذا الخبر وفيما حكاه صاحب الأغاني حول المربد. أما ما نسبوه لأبى عمرو عن طريق ابن دريد وأبي حاتم والأصمعي فيشبه في ختامها الحكاية التي رواها ثعلب عن سيبويه بعد إلزام بعضهم إياه في زعمهم: «مِنْ ذا أَفرُّ وصعِدَ في الدرجة»! (مجالس ، 275 وقد مضى).

ثم إن أبا عمرو لم يعرف مصطلح «الغريب» بمعنى اللغة التي لا يعرفها إلا الأعراب[15] وسبق أن بيّنا أن هذا المدلول لكلمة «غريب» لم يعرفه سيبويه ولم يظهر إلا بعد وفاته أو في آخر حياته .هذا وكيف يمكن أن يقول هذا الكلام السخيف مثل أبى عمرو بن العلاء وهو كلّه وقار ويعترف بتفوق الأصمعي عليه وهو شابّ لا خبرة له بعد، وقد روى القفطي عن الأصمعي أنه قال: «جلست إلى أبي عمرو بن العلاء ولي تسع عشر سنة وتوفي أبو عمرو ولي سبعٌ وعشرون سنة (أي في سنة 154) ما سمعت أحدا يسأله عن شئ عَيَّ بجوابه ولا سألتُه أنا إلا وجدت عنده منه علما» (إنباه، 4، 134).

هذا وقد جاء في كتب اللغة الكثير من الأخبار حول لقاء اللغويين مع الأعراب في البصرة وكان اللغويون شديدي الحِرص على لقاء هم: فقد كانوا يتلقفونهم ويعرضون عليهم النـــزول عند أحدهم فيقضون معهم الأيام يسمعون منهم ويكتبون كل ذلك.قال بهذا الصدد أبو

(15) – أي بعد اختفاء الفصاحة السليقية من أهل الحضر.

عبيدة:«[رفعَ كَذَبَ الضيْقُ] ما خلا أعرابيا من غَنيّ وكان فصيحا فإنه نصب وذلك أنه دخل منـــزلي فرأى شويهة مضرورة فقال: ما بال هذه على ما أرى؟ فقلت: إنّا نَعْلُفُها قال: كذب عليك البزْرُ والنَّوَى. فأتيت يونس بن حبيب فكتبها عنه وكتب بعده علما كثيرًا» (النوادر لأبى مسحل، (ص.115). وقال أبو زيد : «كنا يوما عند المفضّل [الضبي] **وعنده الأعراب** فقلت: أيهم يقول شِيرة؟» (أمالى القالى 2، 214) [قال الأصمعي:] «قدم أعرابي البصرة فنـــزل على قوم من بني العنبر وكان فصيحـــا فكنا نسير إليه فلا نعْدم منه فائدة» (نفس المصدر2، 283). وعن الأصمعي أيضا: «قدم علينا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير فقصدته... فقال: ما حاجتك؟ فقلت بلغني ما خصّك الله به فجئتك أقتبس من علمك...» (2، 92-93). وغير ذلك[16] .

هذا وكثيرًا ما كان يفاجئ الأعراب العلماء في حلقاتهم ويقتحمون الجمع من الطلبة ليسألوهم عن معنى بيت شعر أو مفردة وذلك مثل هذه الحادثة التي يرويها القالى في أماليه: «حدثنا أبو عثمان الاشناندْاني قال: كنا يوما في حلقة الأصمعي إذ أقبل أعرابي يرفل في الخزوز فقال: أين عميدكم؟ فأشرنا إلى الأصمعي. فقال: ما معنى قول الشاعر...»(2، 265). ومثل هذه الاقتحامات من الأعراب لحلقات اللغويين في البصرة تروى بكثرة في كتب الأدب.

2- أماكن اللقاء الخاصة:

كان اللغويون يلتقون بفصحاء العرب للسماع منهم في شتّى الأماكن وكان اختيار المكان متوقفا أساسًا على وجود المُورد الذي يمكن أن يستفيد منه اللغوي. وكان يحدث اللقاء أحيانا بكيفية تلقائية وهذه أمثلة من ذلك:

- **في ظل خيمة**: قال الأصمعي: «بينما أنا سائر بناحية بلاد بني عامر إذ مَرَرتُ بحلّة في غائط يطؤها الطريق وإذا رجل ينشد في ظلّ خيمة له وهو يقول: (أبيـــات يتلوها حوار) (أمالى،1، 117).

(16)- أنظر أيضا لقاء أبي عبيدة بابن متمّم بن نُويرة في البصرة وكان قد نزل النحيت من قرى البصرة (الطبقات 47).

- **في نادٍ من نوادي العرب:** جاء في الأمالي: «نزلتُ بقوم من غني مجتورين وهم قبائل من بني عامر بن صعصعة فحضرت ناديا لهم وفيهم شيخ لهم طويل الصمت **عالم بالشعر** وأيام الناس يجتمع إليه فتيانهم ينشدونه أشعارهم فإذا سمع الشعر الجيد قرع رأسه بمحجنه فينفذ حكمة عليه... فحضرتهم يوما والشيخ جالس بينهم فأنشده بعضهم يصف قطاة...» (2،264) حكى ذلك الأصمعي وروى هذه الأشعار وعلّق عليها.

- **في سوق من أسواق العرب:** حكى المرتضى في أماليه لقاء في ســوق ضرية (1،494).

- **في منــزل رجُل كريم:** الأمالي: 1، 196-170 (انظر فيما يلي)

- **قرب ماء من مياه الحيّ** :جاء أيضا في الآمالي: «... فما سرنا كبير مسير حتى لقِينَا شيخٌ على حمار... وهو يترنَّم فسلم عليه صـــاحبي وسأله عن نسبته فاعتزى أسديـــا من بني ثعلبة فقال: أتنشد أم تقول؟ فقال: كُلاً. فقال: أين تؤمّ؟ فأشـــار إلى ماء قريب من الموضع الذي نحن فيه فأناخ الشيخ... ثم قال: أنشدنا -رحمك الله- وتصدَّقْ على هذا الغريب (الأصمعي) بأبيات يعيهن عنك ويذكرك بهن فقال...» (1،170).

- **في مكان يحبس فيه الأسرى:** قال القالي: «حدثني أبو يعقوب وراق أبي بكر بن دريد قال حدثني محمد بن الحسن عن الفضل بن محمد بن العلاف قال: لما قدم بغاء ببني نمير أسري، كنت كثيرًا ما أذهب إليهم **فأسمع منهم** وكنت لا أعدم أن ألْقَى الفصيح منهم، فأتيتهم يوما عقب مطر وإذا فتى حسن الوجه نهكه المرض يُنشد...» (1،220). وغير ذلك كثير.

الفصـل الثـالث

العنصر البشري في التحريات الميدانية

I - اللغوي المتحرّي : أوصافه:

كان من أهمّ صفات اللغوي المتحرى الولوع الشديد بما كان يقوم به من بحوث بل والاستهتار بالسؤال عما كان يبحث عنه مما يخص اللغة وحرصه على اكتشاف عبارات جديدة ومفردات وتراكيب لم يسمعها من ذي قبل وتجواله الواسع لِلْحصول على نصوص شفاهية متنوعة شعرًا ونثرًا. وقد ذكروا في كتب اللغة والأدب ما كان يبلغه فرح اللغوي عند حصوله على بغيته وقد تمرّ الأيام والشهور قبل أن ينال ذلك. وذلك مثل ما حصل لأبي عمرو بن العلاء عندما سمع أحد الفصحاء ينطق بكلمة «فرجة» بفتح الفاء (وقد مر بنا هذا الخبر).

كما كان يجب على المتحري أن يحفظ ما يسمعه وخاصة أبيات الشعر لأن المعلومات اللغوية تتميَّز عن غيرها بأنها شفاهية مسموعة فينبغي أن تؤدّى كما سُمعت. وكلّ النصوص المسموعة هي هكذا فلابد من حفظها ويترتب على ذلك ضرورة امتلاك المتحري لذاكرة قوية جدا وبالفعل فقد ذكروا عن أكثر من لغوي أنه كان يحفظ الكثير من القصائد والأرجاز والأمثال كالأصمعي نفسه فإنه يحكى أنه كان يحفظ ما يقرب من اثنى عشر ألف أرجوزة (المزهر،2، 404). وهذا ليس بغريب عند العرب.

وكان يتصف اللغوي في ذلك الزمان بالقدرة الكبيرة على تحمّل المشاق الخاصة بالسفر والتنقلات البعيدة ولذلك كان يجب أن يتمتّع بصحة جيدة وامتلاك لجميع قواه الجسدية حتى

يتمكن من قطع مسافة مثل التي توجد بين البصرة وحمى ضرية وهي ما يقرب من 750 كيلومترًا على خط مستقيم ونفس المسافة من هذا المكان إلى اليمن.

ويحكى عن الأصمعي حكاية(1) حول ما كان يعاني من المشاق: قال: «كنت نازلا عند رجل من بني الصداء من أهل القصيم وكان –والله– واسع الرحْل كريم المحلّ فأصبحت وقد عزمت على الرجوع إلى العراق فأتيت أبا مَثْواى فقلت: إني قد هَلِعْتُ من الغُربة واشتقت أهلي ولم أفِدْ في قَدْمتي هذه إليكم بكبير علم وإنما كنت أغتفر وحشة الغُربة وجفاء البادية للفائدة. فأظهر توجُّهًا ثم أبرز غَداءً له فتغدَّيتُ معه وأمر بناقة مَهْرية... فارتحلها واكتنفها ثم ركب وأرْدَفني وأقبلها مطلعَ الشمس. فما سرْنا كبير مسير حتى لَقِينا شيخٌ على حمار له... وهو يترنم فسلم عليه صاحبي وسأله عن نسبه فاعْتزى أَسَدِيًا من بني ثعلبة فقال: أتنشد أم تقول؟ فقال: كلاّ فقال أيْن تؤمّ ؟ فأشار إلى ماء قريب... قال: «أنشدنا، رحمك الله...ثم أنشدني... فقُمتُ والله وقد أُنْسِيتُ أهلي و**هان عليَّ طولُ الغُربة وشَظَفُ العيش سرورًا بما سمعتُ**...» (الأمالي،1، 170-171) .

ويتصف المتحري أيضا بسمعه المُرْهَف ليتبيَّن عند سماعه لمالم يعرفه من عناصر اللغة على أي بنية بُنيت هذه العناصر ولابد لذلك من التمييز الدقيق بين الأصوات. ولنا في الخليل وسيبويه خير من يمثل ذلك فقد ميّزا بين المتشابه من الأصوات وذلك مثل الفوارق القائمة بين الحركات المختلسة والسكون ولم يُوفَّق غيرُهما في ذلك لصعوبته(2). وقال في ذلك الأزهري: «ويُرْوى عن العرب الجزم المحض في أمثال هذه الهاءات **وهو وَهْم** لأن العربي يختلس الحركات اختلاساً خَفِيًّا إذا سمعه الحضري ظنه جزمًا وذلك الظن منه وَهْم» (علل القراءات، 220).

هذا وينبغي للمتحريّ أن يكون متمكنا من اللغة وأن يكون أقرب ما يمكن ممن يسمع منه وأن تكون له حاسّة لغوية قوية. و يجب أن يندمج في الوسط الذي يبحث في لغة أصحابه

(1) – سبق أن ذكرنا نبذة منها.
(2) – راجع في ذلك الخصائص، 1، 72-73.

اندماجا كاملا لغويا واجتماعيا فيصبح بطول الإقامة كأنه واحد من هؤلاء الذين يسمع منهم وتنشأ بذلك وبتلطفه معهم روابط صداقة وثيقة. قال الأصمعي بهذا الصدد: «كنت أغشى بيوت الأعراب أكتب عنهم كثيرًا حتى ألِفوني وعرفوا مرادى» (المزهر، 2، 307) [(3)]. وقال أيضا: «كنتُ **مؤاخيًا** لرجل من أهل حِمَى ضريّة وكان جوادًا رَثَّ الحال فمررت به يومًا في **بعض تردّدي على الأحياء** فإذا هو كئيب فسألتُه عن شأنه فقال: (أبيات)...» (الأمالي، 12، 36). وجاء في مجالس العلماء: «[قال الكسائي]: فلما صرت إلى ظاهر الكوفة ولقيت القبائل جعلتُ أسألهم فيخبروني مشافهة ويُنشدوني الأشعار... فما زلت أكتب عنهم حتى نفدت نفقتي وشحب وجهي وجلدي وصرتُ كرجُل منهم» (166-167).

وأخصّ ما وصف به الأزهري أبا عمرو بن العلاء وميَّزه عن غيره قوله هذا: «**ليس كل لسان يطوع لما يطوع له لسان أبي عمرو لأن صيغة لسانه صارت كصيغة ألسنة العرب الذين شاهدهم وألِف عادتهم**» (عِلَل القراءات، 47).

II - المُورِد: أوصافه وما يشترط فيه من شروط:

فصاحة المورد هي الصفة الأساسية وكما سبق أن قلنا لا تؤخذ اللغة إلا من أصحابها أي الذين يخضعون في استعمالهم للغتهم لما تواضع عليه الناطقون بها وهم هنا عامة العرب الفصحاء كما يقول النحويون الأولون. ويكفي أن يكون الموردون فصحاء لم تتغير لغتهم. هذا و كُلّما كانوا أفصح كان السماع أصحّ لأن الأفصح عندهم هو **الأعرب** و المراد من هذا الوصف هو أن يُمثّل بطريقة كلامه أكثر العرب في كلامهم.

وقد رأينا أن اللغوي لا يرتاح أمام العربي الذي يريد أن يسمع منه حتى يتيقن من فصاحته ولا يثقون في ذلك بأحد من العرب خصوصا في زمان الانتشار الواسع لِلَّحن.

(3) - انظر أيضا المزهر، 2، 312 .

وهذا كان يحملهم في غالب الأحيان على اختبار المورد فيطلبون منه في الأول أن ينشدهم شعرًا ثم يحاولون أن يلقنوه بعض العبارات المشبوهة أو الملحونة -كما سبق أن رأينا (في الباب الأول).

وكان يُستحب أن يكون المورد واسع المعرفة بكلام العرب وألفاظهم وعباراتهم وأمثالهم حافظا لِشيءٍ من أشعارهم إن أمكن ولهذا يجب أن يكون طلق اللسان لا يضن بما يعرف.

وسمعوا أيضا من العربي اللسان، الأعجمي الأصل كما رأينا فلم يشترط في السليقي اللسان أن يكون عربيا من حيث العرق أبدا. وقد أطلنا الكلام في ذلك فيما سبق.

كما رأينا أن الفصحاء لم يكونوا محصورين في القرنين الأول والثاني في أهل البدو بل الكثير من أهل الحضر سمع منهم وجُمعت بالسماع المباشر أشعار الشعراء من الحضر من أولئك الذين عاصرهم اللغويون الأولون مثل أبي عمرو بن العلاء ويونس وعيسى بن عمر والخليل وغيرهم وتلاميذهم.

أما فيما يخص السنّ والجنس فليس هناك أي فرق بين الموردين الذين سمع منهم اللغويون بالفعل. فقد سمع الأصمعي من الأطفال وكتب كلامهم كما سمع من الكثير من الأعرابيات وغيرهن من الفصحاء. وسمع من الكثير من الشيوخ وقال في ذلك السيوطي: «كذلك لا يشترط في العربي الذي يُحْتَجُّ بقوله البلوغ فأخذوا عن الصبيان». قال ابن دريد في أماليه: «...الاصمعي. قال : سمعتُ صبية بحمى ضريّة يتزاجرون فوقفت وصدّوني عن حاجتي وأقبلت أكتب ما أسمع إذْ أقبل شيخ...» (المزهر، 1، 140). أما الموردات فقد نجد في الأمالي عددا كبيرا من الروايات عن الأعرابيات وقد كثر مجيء اسم أعرابية: وهي أم الهيثم كما ذكروا أيضا غنيَّة أمّ الحُمارِس البَكْرِيَّة (إصلاح المنطق، 347، 42، 388) وغيرهما.

فكل هؤلاء الأعراب كانوا بداة من «أهل الجفاء» كما يقول سيبويه[4] ولم يكونوا كلهم من الظواعن بل الكثير منهم كانوا من سكان المجمّعات القروية الصغيرة وهي كثيرة في شبه

(4) - الكتاب، 1، 27 والخصائص، 2، 26-27.

الجزيرة نذكر منها حَجْر في اليمامة وهَجَر في البحرين وضريّة التي كثر ذكرها في الأمالي. والعدد من الأعراب الذين سمع منهم اللغويون كان بلا شك كبيرًا جدا ويكفي أن نعدّ الموردين «المعتمدين» (انظر فيما يلي) فقط ليتبيّن لنا ذلك.

وبعض هؤلاء الأعراب من علماء البطن والقبيلة نزحوا إلى البصرة أو الكوفة ولا نقصد بذلك الأعراب الذين نزحوا في قديم الزمان إلى المصرين بعد تمصيرهما أو من نزح من العشائر بأكملها إلى العراق بل رواة القبيلة الذين كان لهم علم واسع بأشعار العرب وأخبارهم وأنسابهم. فهؤلاء بعد تحضرهم صار أكثرهم يحترف مهنة التعليم في الكتاتيب أو صاروا يعملون كورّاقين ينسخون الكتب ويتجرون بها. وقد سبق أن ذُكِر بعضهم مثل أبي مسحل وأبي مالك عمرو بن كركرة وغيرهما.

III - انقسام المُوردين إلى مُعتمَدين وعارضين وإحصاء الصنف الأول :

كان الفصحاء من العرب الذين أخذ اللغويون بلغتهم ينقسمون من أقدم العصـــور إلى:

1- مُورِد **معتمد** بالنسبة إلى جماعة من المتحريّن أو إلى واحد منهم فقط. وذلك بحكم العادة واستعداد المورد ثم الثقة المودعة فيه: يُرجع إليه بكيفية دائمة وأقواله حجّة يُستشهد بها.

2- أو **عارض** ويدخل في هذا الصنف الجمهور من العرب الفصحاء الذين تُرتضى عربيتهم ولا يُرجع إلى نفس الأشخاص منهم بكيفية دائمة.

وهم كل الذين سُمع منهم ولم تذكر أسماؤهم وكل الذين سيشير إليهم سيبويه وشيوخه وفريق أبي عمرو من اللغويين بقولهم: «أكثر العرب أو عامتهم» أو «ناس من تميم وأسد» أو «بعض أهل الحجاز». وكذلك «يقول العرب». ثم يدخل هؤلاء في العدد الكبير جدا من الأفراد في عبارة من جاء بعد سيبويه وهي: «سمعت أعرابيا أو سمعت أعرابية».

أما الطبقة الأولى من الموردين فتتصف، زيادة على الصفات التي ذكرناها بهذه المزايا:

- كل واحد منهم كان معروفاً غالبا لدى الأوساط العلمية في ميدان اللغة وقد عرفّونا بأسمائهم وأخبروا عن بعضهم فيما يخصّ نسبهم وأصل منشأهم وعلمهم بالعربية وبالشعر وغير ذلك. إلا أن أكثرهم لا يُعرف عنهم إلاّ أسماؤهم ونَسَبُهم في الغالب وحصول الرواية عنهم. ومنهم فئة قليلة مثل المنتجع بن نَبْهان وأبى مَهْدية وأبى خيرة قد ذُكروا أكثر من غيرهم فيما روى عنهم.

- كان عددهم قليلا بالنسبة إلى الصنف الثاني وإن كثروا،

- أغلبهم استقرّوا في البصرة أو الكوفة هذا فيما يخص اللغة،

- وفيما يخصّ الشعر فالذين يذكرهم المتحرّون للشعر مثل أبى عبيدة فكانوا في البداية من علماء القبائل، ويوجد أكثرهم في البوادي (أما في العصر الأول ففي البوادي و القرى)

- وبعضهم كانوا من الشعراء المشهورين مثل الفرزدق ورؤبة بن العجاج وذى الرمة.

قائمة الفهرست

ذكر ابن النديم 49 من هؤلاء الموردين وقد أَسْنَدَ إلى الكثير منهم أبو عبيدة في النقائض ومجاز القرآن وكتاب الخيل وكذلك الأصمعي وأبو زيد فيما وصل إلينا من كتبهم أو نُقل عنهم.

وأقدم «المُعْتمدين» هم الذين عاشوا في زمان أبى عمرو بن العلاء وفريقه وأشهرهم:

- **أبو مَهْدِي أو أبو مهدية الباهلي:** أوثق ما ورد فيه اسمه هو كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1،38 و2،64 والحيوان للجاحظ،5،309 وله خبر في الأمالى سنتطرق إليه فيما يلي[5].

---

(5) - قال ابن السكيت في إصلاح المنطق: «قال: وسمعتُ منتجعاً الكلابي وأبا مهدي يقولان...»(201) فقد يفهم من هذا أنه سمع هو نفسه هذين الأعرابيين وليس الأمر كذلك لوجود كلمة «قال» قِبل هذا النص وما يدل على أن القائل هنا ليس هو ابن السكيت هو ذكره لقول الأصمعى قبل ذلك: «**قال الأصمعي: أنشدنا أبو مهدي**...» فيستحيلٍ أن يصرّح بهذا – وهو اعتراف بأن أبا مهدي كانٍ عائشا في زمان الأصمعي –ويدّعى أنه سمع من أبى مهدي شيئا. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى المنتجع: قال ابن السكيت : «قال **الأصمعي: سألت منتجع** ابن نبهان...»(202).

- **منتجع أو المنتجع بن نَبْهان العَدَوي**: كذلك ورد اسمه في مجاز أبي عبيدة: 2،400 وفي الديباج، 24 والنقائض، 478 . وله خبر مع أبي مهدي في الأمالي.

- **أبو الدُّقَيْش القنانى الغَنَوي**: ذُكر في كتاب العين والجمهرة والكثير من المصادر.

- **أبو البيداء الرِّياحي**: اسمه أسعد بن عصمة. ذكره ابن النديم وقال بأنه زوج أمّ أبي مالك بن كركرة. وهو أعرابي «نزل البصرة وكان يعلم الصبيان بأجرة... يؤخذ عنه العلم وكان شاعرًا» (49).

- **أبو مالك عمرو بن كركرة**: سبق أن ذكرناه. «كـان يعلم في البادية وورّق في الحضر وكان **مولى بني سعد**. وجاء في كتب الطبقـات أن أبا مالك كان يحفظ اللغة كلهـا...»**!** (49).

- **أبو خَيْرة** ويُسمّيه أبو عُبيدة: **أفار بن لقيط** العَدَوي في النقائض، ص473. وهناك أعرابي باسم نهشل بن زيد العدوى يكنى أيضا بأبي خيرة ذكره ابن النديم (الفهرست 51) ويبدو أن ما جاء على لسان أبى عبيدة أصَحّ لأنه أخذ هو نفسه عن هذا الأعرابي.

- **رؤبة بن العجاج الشاعر المشهور**: المتوفى في 145. أخذ عنه كل علماء اللغة في زمانه.

- **أبو طُفَيْلة الحِرْمازي**: ذكره أبو عبيدة في النقائض 2،15 .

- **البَهْدَلي**: يقول عنه ابن النديم: اسمه عمرو بن عامر ويكنى أبا الخطاب وكان راجزًا فصيحا راوية. «أخذ عنه الأصمعي وجعله حجة وروى شعره» (52).

- **جهم بن خلف المازني**: كان في زمان خلف والأصمعي كما جاء في الفهرست وأضاف أنه «من آل أبي عمرو بن العلاء» (52).

- **درواس**: روى عنه في النقائض، 678 و653 و239 .

– **أبو زياد الكلابي** (يزيد بن عبد الله): قدم بغداد بعدما أصيبت البادية بمجاعة في أيام المهدي. روى عنه ابن الأعرابي والفراء وله كتب في اللغة (الفهرست، 50 وأمالي القالي، 2،207،256).

فمن الأعراب الذين ذكرهم سيبويه ولم يكن لهم شهرة نذكر:

– **أبو مُرْهِب:** ذكره سيبويه مرة: «وسمعت أعرابيا وهو أبو مُرهب يقول...»

(1،165) ولعله هو أبو مُرْهِب رَتْبيل الدبيري من بني أسد الذي رُوي عنه في النقائض، 238.

– **أبو ربيعة:** كذلك جاء في الكتاب: «زعم أبوا الخطاب... أن أبا ربيعة كان يقول...» (1،164).

– **وفي القرنين الثالث والرابع**[6]:

– **عمارة بن عُقيل** (بن بلال بن جرير الشاعر): أخذ عنه المبرد كثيرًا وأبو العيناء ولم يوثقه أبو حاتم في كتاب المذكر و المؤنث. وقد سبق أن ذكرناه وكذلك أبا مِسْحَل وأبا العَمَيْثَل من الأعراب الذين انضمّوا إلى العلماء وألّفوا في اللغة.

– **أبو داود الأعرابي:** روى عنه ثعلب (المجالس، 344) وكذلك **أبو سليمان** (المجالس، 258).

– **الصقيل العقيلي:** ذكره الجاحظ في البيان (2، 156) وغيرهم كثيرون.

وكثر الأعراب في مدن العراق في هذه الفترة وهذا ما تؤكّده كثرة ما جاء في كتابي الجاحظ: البيان والتبيين والحيوان من أسماء هؤلاء الأعراب وكذلك فيما صدر من كتب أدبية ولغوية بعد الجاحظ.

---

(6) – قد ذكرنا بعضهم في الباب الأول.

وقد لجأ الكثير من العلماء الكوفيين إلى الأعراب الذين سكنوا في ضواحي الكوفة من بني أسد خاصة وبني عكل وغيرهم. وأهمّ من ذكر منهم ورُوِى عنهم:

- **أبو ثَرْوان العُكْلى:** روى عنه الفراء في معاني القرآن (1،4) وابن السكيت في إصلاح المنطق،123،213 والإبدال،7.

- **أبو الجرّاح وهو جرو بن قطن العُقيلى:**ذكره ابن السكيت في اصلاح المنطق، 103،134،213 . وهو ممن شهد على سيبويه

- **محمد بن عبد الملك الفَقْعَسي الأسدي الكلابي:** يقول القفطى أنه أدرك المنصور ومن بعده وعنه أخذ العلماء مآثر بني أسد» (3،9) وغيرهم.

الفصل الرابع

منهجية التحري اللغوي الميداني وتقنياته

I – هل كان المتحرّون عند سماعهم يأخذون ويتركون؟ وكيف كان ذلك:

1) أغراض التحري :

رأينا من قبل أن الذي كان يهم المتحرى مثل سيبويه وشيوخه و الأصمعي وزملائه هو قبل كل شئ فصاحة المورد ورأينا سيبويه كلما ذكر عبارة قد تكون بعيدة عما هو مألوف في كلام العرب أضاف هذه الأوصاف: «ممن تُرتضى عربيته» أو«الموثوق بعربيته». فبعد أن يتيقنوا من ذلك فلا يمتنع أحد من اللغويين من السماع المطلق ومن الكتابة لكل ما يسمعونه وقد مرّت بنا أمثلة متنوعة لذلك. ولا يختلف في ذلك البصريون والكوفيون. فلا اختيار لأي نوع من المعطيات في أثناء سماعهم عن العرب ولا اختيار أيضا في تدوينهم لها. فهل هذا معناه أن اللغويين القدامى كانوا يتقبلون كل ما يسمعونه من العرب الفصحاء ولا يختلفون في ذلك؟ يمكن أن نجيب عن هذا بنعم: لا يترك اللغوي مما يسمعه شيئا إذا تحقق من فصاحة المورد.هذا إذا قصدنا بذلك عملية السماع في حدّ ذاتها إلا أن الأهداف التي يهدف إليها المتحرى من السماع قد تختلف. فهناك السماع الذي يريد من ورائه صاحبه أن يجمع شعرا لشاعر معيّن قديم أو شعرا لقبيلة ويسمع حينئذ من مجموعة معينة وهم أهل العلم بشعر القبيلة وقد يرمي اللغوي إلى أن يجمع كلاما في مختلف المستويات:مخاطبات عفوية وخطب معينة أو نثرا يتخلله آيات من القرآن وشعر وأمثال وحكم وغير ذلك وهذا كان بلا شك أكثر ما كان يهم الروّاد من المتحرين في أول الأمر. وقد يكون همّ المتحرى بعد هذه المرحلة الهامة أن يوجّه تحرياته إلى جانب واحد أو أكثر، من جوانب اللغة للتأكد من وجود صيغة أو تركيب معين في الاستعمال أو يريد أن يتعرّف على كثرة استعمال الناطقين لعبارة أو صيغة معينة

أو قلتها في بعض الجهات أو عند بعض القبـــائل.وهذا ما يعبّر عنه سيبويه بأنه «كثير أو قليل أو لا يكاد يعرف». وقد روى عن أبي زيد أنه قام بتحريات واسعة للحصول على معلومات إحصائية تخص الفعل. قال: «**طفتُ في عليا قيس وتميم مدة طويلة أسأل عن هذا الباب** [فَعَل/يفعِل] **صغيرهم وكبيرهم لأعرف ما كان منه بالضم أولى وما كان بالكسر أولى.فلم أجد لذلك مقياسًا وإنما يتكلم كل امرئ منهم على ما يستحسن ويستخف لا على غير ذلك**» (المزهر، 1، 207-208).

وهذا السماع الذي قام به أبو زيد الأنصاري هو سماع تكميلي وتحقيقي إذ يهدف إلى التأكّد من شئ لم يتم الكشف عنه فيما سبق من التحريات مما يدخل في السماع الشامل الواسع.

فكل هذا يخص تحديد ميدان المسموع فالاختيار هنا هو اختيارٌ لحقل معين من المعطيات بحسب الحاجة أو لغرض معين ولا يمسّ السماع في حدّ ذاته.

2) **السماع ملازم له الإحصاء عند القدامى:**

(لا سماع ولا تدوين إلا بإحصاء وتقدير الشيوع)

أما اختيار المعطيات فهو حاصل لا محالة إلا أنه يأتي بين سماعين أي بين الانتهاء من جولة أولى من السماع وقبل الشروع في جولة ثانية أي في مرحلة يكون المسموع الذي جُمع ودوّن قد بلغ حجما كافيا للنظر فيه. فكل ما نقرأه في كتبهم-وكتاب سيبويه خاصة- من الملاحظات الخاصة بالإحصاء قد سبق أن عاينه المتحرى في الميدان أثناء التحريات المتتالية وذلك: «وهو عربي كثير أو «يقولها بعض العرب» أو هو قليل لا يكاد يُعرف» وغير ذلك. أما ما انفرد به شخص واحد من الفصحاء فقد ينص عليه أكثرهم. إلا أن الاختيار من هذه المعطيات لا يتم إلا بالرجوع إلى هذه المعلومات الإحصائية الخاصة بالاستعمال التي تحصل عليها في عدة تحريات فالذي يهمّهم في أثناء التحري هو **مدى اتساع الاستعمال** قبل كل شئ مع كثرة المستعملين. ونعني بالاختيار ههنا قبولهم للكثير والقليل إذا تجاوز الأفراد والتنبيه

على «القليل الذي لا يكاد يُعرف» مع رفضهم المطلق لغير الثابت أي ما سُمع من غير الموثوق بعربيته أو سُمع من موثوق مرة واحدة وخالف الجميع أو المروى برواية ضعيفة (فيما يخص الشعر مثلا) والنص على ذلك وعدم السكوت عنه أبدا.

وقد يحصل الاختيار مؤقّتًا بعد التصفح الإحصائي لجزئيّات المسموع المدوّن في جهة معيّنة أو جهات كثيرة في النهاية أو في مدونة خاصة (لا مجرّد الاستقراء كما يفهمه أرسطو وكما سنراه في دراسة لاحقة) ومثال لذلك ما قاله سيبويه عن الخليل أنه: «**قد وجد في أشعار العرب** رُبَّ لاجواب لها» (1، 453). وقد أحصى العلماء كل الخاصيات اللغوية في استعمال العرب لها من خلال ما سمعوه كجميع الأوزان وجميع أنواع التراكيب وغير ذلك.وهذا دليل واضح على تمسُّك العلماء القدامى **بالتصفح الكيفي والكمي الواسع للمسموع**. ويقتضي البحث أحيانا أن يكون الحكم غير نهائي ولهذا لا يكتفي المتحري من أمثال سيبويه وشيوخه بسماع ناقص بل يقومون بسماع شامل سماعًا تلو الآخر وهذا معنى قول سيبويه: «وسألنا العلويين والتميميين يقولون... لا يجعلون ذلك إلا نكرة» (2، 47). وقد يكثر مجئ النحوّ من الكلام المسموع كثرة قد تعجز اللغوي عن حصره فيعبر عن ذلك بـــ: «ونحو هذا **أكثر من أن يُحصى**»(2، 196) وكذلك هو عدد الذين سُمِع منهم: «ولو كان كذلك لم يقل **من لا يُحصى من العرب**...»(2، 293).

هذا ولا يُعقل أن يحكُم مثل سيبويه وشيخه الخليل وغيرهما من العلماء الثقات بمثل هذه الأحكام الخطيرة بدون أن يلجأوا إلى المسح الكامل لمساحات واسعة وسمعوا من عَدَد كبير جدا من العرب وقد فعلوا ذلك على مراحل لأن كل ما وصفوه من هذا المسموع وهوكثير جدا لا يخلو أبدًا من هذه الأحكام. وعلى هذا **فكل سماع أيًا كان يلازمه تحليل إحصائي**. وهناك إحصاء آخر لا يتم أثناء التحريات بل بعد انتهائها وهو الحصر لكثرة مجئ الشئ في الكلام ولا يخص مدى شيوعه فقط. وهذا الذي يشير إليه سيبويه بقوله: «**وتعرف ذلك بأنك قد أحصيت كل ما جاءت فيه إلا القليل** إن كان قد شذّ» (2، 348).

أما موقف المتحرى في التحريــات اللغوية الحديثة (التي تدخل في إطار الجغرافية اللغوية) فهو كذلك: لا يسمح لنفسه أن يردّ بعض ما يسجّله مما يسمعه. غير أنه منذ أن نشأ هذا النوع من البحوث بقيام جيليرون (Gilliérion) بتحرياته لضبط الأطلس اللغوي لفرنسا إلى غاية جان سيجى (Jean Seguy) وهمرشتروم (Hammarström) فقد لوحظ شئ من الاختلاف في موقف المتحرى إزاء ما يسمعه ويسجّله. فمنهم من كان يهدف إلى وصف كل ما يتصف به الخطاب من جزئيات الأوصاف وخاصة الفردية منها ومنهم من كان يرمي إلى استخراج الأوصاف المستمرة فقد يردّ ما هو فردي وقد سموا النــزعة الأولى بالانطباعية (Impressionist) والنــزعة الثــانية بالتنميطية (Normalizant). وقد تؤثّر اهتمامات كل نزعة في منهجية السماع والتدوين إلا أن التنميط لا يمكن أن يتحقق إلا بعد التدوين الكامل النهائي وإلا كان البحث غير موضوعي.

فهذه المواقف تشبه ما كان عند العرب من النزاع بين الاعتداد الكبير بالمسموع وبين الميل إلى تفضيل النمط المستنبط من المسموع على الجزء من المسموع الذي يعارضه.وقد سارع أكثر المحدثين إلى الجزم بأن هذا النــزاع بالذات هو نفس الخلاف الذي كان قائمًا بين نحاة البصرة والكوفة منذ الخليل وسيبويه. وهذا، في اعتقادنا، حكم غير دقيق لأنهم يجعلون وجه الشبه واحدا تماما ويذهبون إلى أبعد من هذا حيث يجعلون النحاة البصريين من الذين يريدون أن يخضعوا اللغة للمنطق -ومنطق أرسطو ليس إلا[1]!- وأن الكوفيين هم ممن يحترم الناطقين العرب ولا يُهدِرُون المسموع مثل أهل البصرة. وقد شبّهوا هذا الخلاف المزعوم بخلاف وُجد قديما بين مدرسة نحاة الإسكندرية اليونانية وهم أصحاب القياس (بمعنى التناسب) ومدرسة بركاما (Pergama) اليونانية التي كانت تقول بغلبة الشذوذ في اللغات وعدم خضوعها للقواعد. وهذا وهْم آخر سائد إلى الآن. وهذه بعض ما يمكن أن ندفع به هذا القول:

---

(1) – وأول من قال بذلك هو المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون.

1- فمدرسة بركاما كانت تنبذ القياس بخلاف الكوفيين ويكفي الرجوع إلى كتبهم للاقتناع بذلك (أنظر النقطة 6 فيما يلي).

2- السماع عند البصريين يماثل تماماً السماع عند الكوفيين من حيث الاهتمام العظيم الذي أبداه كل واحد من البصريين والكوفيين إزاء المسموع ولم ينقص سماع إحدى الفئتين عن سماع الأخرى كيفًا وكمًّا إلا بعد زمان سيبويه وعند أفراد قلائل.

ويكفي لنتأكّد من ذلك أن نرجع إلى النصوص الموثقة في اللغة والنحو مثل كتاب سيبويه وكتب تلميذه الأخفش وأبي عبيدة و الأصمعي وأبي زيد وأبي حاتم من البصريين وما وصل إلينا من كتب الفرّاء وابن السكيت وأبي عبيد القاسم بن سلام وغيرهم من الكوفيين. فكلها تزخر بذكر ما سمعوه من العرب(2) وفيها نفس المصطلحات الخاصة بالسماع(3) وتذكر نفس القبائل وكثيرًا ما تذكر نفس العبارات المسموعة منهم مثل: «هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» وغير ذلك كثير.

3- والفرق الوحيد الذي نلاحظه يكمن في **التساهل** في قبول المسموع وتوثيقه **عند بعض الكوفيين وهم قلة في ذلك**(4). وهذا أمرٌ ثابت وأقدم من صرّح به وأوثقهم في الوقت نفسه هو ابن سلام الجمحي في قوله: «وذكر بعض أصحابنا أنه سمع **المفضل** يقول: له 130 قصيدة ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريبا منه. وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي و**يتجوّزون** في ذلك أكثر من تجوّزنا» (الطبقات، 148) وقال بعد هذا: «وأسمعني بعض أهل الكوفة شعرًا زعم أنه أخذه عن **خالد بن كلثوم**... فقلت له: كيف يروي خالد مثل هذا **وهو من أهل العلم** وهذا شعر متداع خبيث فقال: أخذناه عن الثقات- ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله -»(نفس المصدر). ويلاحظ أن ابن سلام لا يتّهم لا المفضّل ولا خالد بن كلثوم في كلامه هذا. والحق أن كل العلماء من الكوفة الذين تتلمذوا على هذين العالمين كانوا لا يقبلون

---

(2) - وتكاد تأتي عبارة «سمعت» في كل صفحة من كتبهم: البصريون و الكوفيون في ذلك على السواء (وأما كتاب سيبويه فهو كله معرض كبير للمسموع يمتدّ إلى ألف صفحة وكأن سيبويه ألفه لهذا الغرض فقط (لكثرة اعتداده به).
(3) - تختلف مصطلحاتهم في النحو خاصة.
(4) - خلافا لما ذكره أصحاب كتب الطبقات وكتب الأدب مثل الأغاني.

كل ما يُروى. إنما ما وصفوه من الزيادة في الرواية جاء من بعض من لم يشتهر من زملائهم وبعض من ظهر منهم في القرن الثالث مثل أبي العباس ثعلب. ولا شك أن أكثر البصريين- مثل الأصمعي والخليل وسيبويه وغيرهم- كانوا يتشدّدون إلى ما لا مزيد عليه في قبول المسموع.

4- والدليل على كل هذا هو التحرّج الكبير الذي أبداه البصريون والكوفيون الذين ذكرناهم في أول هذا الباب. فبالنسبة إلى سيبويه فإن تحرّجه كان عظيما جدًا بالنسبة إلى **المسموع الثابت الذي لا يُردّ** (كما كانوا يقولون). فهو يقدّم دائما السماع على القياس وذلك مثل قوله: «استَحْسِنْ من هذا ما استحسنت العرب وأجْرِه كما أَجروه»(1، 255) «لأننا لم نسمعه من بنات الأربعة إلا أن تسمع شيئا فتجيزه فيما سمعتَ ولا تجاوزه» (2،42) و«فهذا لم تقله العرب وليس له نظير في كلامها»(2،157) و«فهذا أقوى من أن أُحْدث شيئالم تتكلم به العرب»(2، 89). وغير ذلك كثير. ومثل هذا الموقف يوجد عند أكثر النحاة:بصريين كانوا أم كوفيين وقد عبّر عن ذلك ابن جِـنى وهو من أتبـاع مدرسة سيبويه بهذا الكلام الموجز: «السماع يُبطل القياس»(المنصف، 1، 240) ومعناه هو أن السماع إذا ثبت فهو وحده المعمول به إذا عارضه القياس.

5- وهناك استثناء لذلك وبالنسبة لهذا الاحترام الشديد للنقل الثابت وهو سلوك المبرّد غير الموضوعي فهو الذي كان يَردّ الرواية الصحيحة تعسُّفًا إذا عارضت بعض مقاييسه وقد مرّبنا بعض ذلك وحاولنا أن نردّ عليه ما كان يدّعيه.وقد ردّ عليه كل العلماء البصريين الذين جاؤوا بعد تلميذه ابن السراج كابن ولاّد وأبى على الفارسي وابن جنى وغيرهم. والمبرد بذلك وعلى هذا الأساس لا يمثل المدرسة الخليلية إطلاقا فهو شاذّ في سلوكه هذا وإن صار زعيما لمدرسة البصرة بعد المازني[5].

(5) - كانت حجج المبرد قوية في ظاهرها وذلك مثل قوله: «والسماع الصحيح و القياس المطرد لا تعترض عليهما الرواية الشاذة»(الكامل، 1، 22). وقال أيضا: «هذا معمول على فساد وليس البيت الشاذ والكلام المحفوظ بأدنى إسناد حجّة على الأصول المُجْمَع عليها في كلام ولا نحو ولا فقه»(ذكره ابن السراج في أصول النحو ص 95 من المخطوط).وكل هذا يمكن أن يصحّ إذا صح أن الرواية شاذة و الواقع أن أكثر ما يردّه المبرد فهو مسموع من أكثر من وجه فكلما اعترف بذلك قال: «فرواية برواية و القياس حاكم بعد»! (المقتضب، 2، 175). ويحتاج هنا أيضا إلى دليل يُستدل به على صحة القياس.

6- ثم إنّ الكوفيين، **من النحويين خاصة**، قد أظهروا مهارة كبيرة في إجراء القياس واعتمادهم على العقل ولم يكونوا أصحاب سماع فقط وهو أمر ثابت أيضا ويكفي أن يتصفح أي واحد كتاب معاني القرآن للفراء وغيره من كتبه ليَقتنع بما نقول وكذلك ما وصل إلينا من كلام شيخه الكسائي وإن لم يبلغ المستوى العالي لاستدلالات الخليل وسيبويه ومن جاء بعدهما من البصريين.

7- لم يتأثّر الخليل وسيبويه بمنطق أرسطو ولم يحصل هذا التأثير بالفعل إلا في زمان ابن السراج وابن كيسان كما يظهر ذلك بوضوح في كتاب أصول النحو لابن السراج وفيما ألفه الثاني كما شهد بذلك صراحة الزجّاجي (فهو شاهد عيان لهذا التأثير) وحصل إذن بعد نضج النحو واكتهاله(6) لا قبل.

وسنتناول هذا الموضوع في دراسة خاصة إن شاء الله.

II - منهجية التحري:

1) أنواع التحري:

إن التحريات التي أجراها اللغويون في جولاتهم الأولى كانت تهدف بدون شك إلى الجمع الواسع النطاق للمعطيات اللغوية ولا تنحصر في البحث عن نوع واحد من المعطيات ولم تخص منطقة معينة وهذه هي **التحريّات المنبسطة المتسعة** إلى أكثر من إقليم كالتي قام بها أبو عمرو بن العلاء. فكان ينظر اللغوي بعد ذلك فيما جمعه من النصوص شعرًا ونثْرًا وهذا يسمح له بأن يصرّح أن: «هذه لغة كثيرة في العرب» (الكتاب،1، 314) «وجاء في الشعر من الاستغناء أكثر من هذا» (1، 37) «ومما جاء في الشعر منونا» (1، 84) و«كما أنشدنا **كثير من العرب**»(1، 199) «وغير هؤلاء من العرب **وهم كثير**»(2، 279) و«لم نسمعهم قالوا...»(2، 221، 225) فكلما استعمل اللغوي كلمة تدل على التعميم «ككل أو

(6) - راجع بحثنا: «النحو العربي ومنطق أرسطو». مجلة كلية الآداب ، جامعة الجزائر لسنة 1965.

عامتهم» أو «جميع لغات العرب» وغير ذلك، فذاك إشارة واضحة إلى أن الهدف من التحري كان الجمع الواسع للمعطيات كالذي حصل في التحريات الأولى الشاملة ولا نستبعد أن تكون تكررت بالنسبة إلى نفس الفريق(7). وكثيرًا ما كان يتصف التحرّي بأنه حُرّ أي غير مرتبط بهدف معين إلا الجمع والمَسْح الشامل للاستعمال اللغوي:يبحث فيه عن اللغات المختلفة والأشعار القديمة والحديثة (الإسلاميين) وكثرت الحكايات في كتب الأدب عن مثل هذا السماع حيث يقول فيها اللغوي للأعرابي: هل تنشد شعرًا أو تقول؟ (وقد ذكرنا مثل هذه العبارة منذ قليل).

وقد يكون السماع مكثفا يُعنى فيه بموضوع معين ويكون عدد الموردين محصورًا يقتصر فيه اللغوي على مورد واحد أو اثنين ويكون إما من المعتمدين وإما من العارض منهم وقد يكون الهدف محصورا مثل هذا إلا أن المسموع عنهم قد يكونون كثيرين وذلك مثل البحث الذي قام به أبو زيد للتأكُد من حركة عين المضارع في الاستعمال.وأما الموردون المعتمدون فقد كان لقاء اللغويين معهم والسماع منهم هو دائما بهذا الغرض: يطلب منهم أن يُجيبوا عن أسئلة معينة تخص إنشاد بيت شعر على كيفية معينة أو إعراب خاص أو السؤال عن معناه أو معنى مفردة معينة وهكذا وهذا أيضا يكثر مجيئه في كتب الأدب ولاسيما في الأمالي والمجالس.

2) **تقنيات السماع** : قد يكون السماع أيضا:

أ- **سلبيا:** أي بدون تدخل من المتحري يكتفي فيه بالسماع لما يقوله المورد وتسجيله فقط.

ب- أو **نشيطا:** يتدخل المتحرى وينشط فيه فلا يكتفي بالسماع والتسجيل بل يبادر بإلقاء الأسئلة على المورد ويكوّن ذلك حوارًا.

---

(7) - بالفعل فقد أخبرنا الأصمعي أنه قام بعدة رحلات إلى البادية (انظُر أمالي المرتضى 1، ص 398 : «ثم رجعت إلى البصرة فمكثت بها حينا ثم قدمت البادية فإذا أعرابي... »). ولا شك أن اللغويين الكبار قاموا أيضا بعدة رحلات في حياتهم.

أ – **السماع بدون تدخل المتحري (إلا القليل) أو الاستلغاء :**

في هذا النوع من السماع يريد اللغوي أن يتحصل في غالب الأحيان على معطيات لغوية جديدة من فصحاء العرب في جهة معينة أو قبيلة أو بطن معين. فهذا يدخل في السماع الشامل الرامي إلى الجمع الواسع للمعطيات اللغوية. وكثيرًا ما يحصل هذا السماع بالمصادفة فيكون المسموع تلقائيًا وأكثر عفوية من السماع الذي يُثيره اللغوي بأسئلته. فقد يمرّ المتحرى على شخصين يخاطب أحدهما الآخر في ظرف من ظروف الحياة اليومية أو رجل أو امرأة وهما في حديث منفرد أو يخطب على منبر فيسارع بكتابة ما سمعه من الكلام. وجودة هذا النوع من المسموع عالية جدا لأنه يحصل في أحوال خطابية طبيعية وتثيرها أحداث الحياة العادية. فهذا النوع من الكلام الذي يتصف بالعفوية المطلقة والأصالة اللغوية الحقيقية المنبثقة من الواقع يزْخَر به كتاب سيبويه والكثير من كتب اللغة القديمة– واختفى تماما بعد زوال الفصاحة السليقية. ففي الكتاب نجد من هذا المسموع في مثل هذه العبارات: «إِتِ السوقَ وأنك تشتري لنا شيئا»(1، 463)و«مُطرنا الزرع والضَرْع»(1، 79) و«ما جاءت حاجتك»(1، 24) و«بُسط عليه مرّتان»(1، 117) و«لقد علمت أيَّ حين عُقْبتي»(122) و«ادفعْ الشرّ ولو إصبعا» (136) وغير ذلك كثير. وسيبويه لا يلتزم هو أو شيوخه بذكر الأحوال الخطابية التي وردت فيها هذه العبارات أي الملابسات الخاصة بكل واحدة منها لأن كتابه كتاب نحو قبل كل شئ وليس من الكتب المسماة بالأمالي أو المجالس .

وهذا السماع يسّميه اللغويون القدامى **استلغاء.** جاء في اللسان: قال أبو سعيد: إذا أردت أن تنتفع بالأعراب **فآستلْغِهم أي اسمع من لغــاتهم من غير مسألة** (اللسان مادة (ل غ و).

فأمّا كتب الأمالى فَتحْكِى الكثير مما يحصل في مثل هذه الأحوال من التخاطب الجاري في الحياة اليومية. وهذه بعض «المقامات» التي ذكرها:

- رجل ينصح صديقا له ثم حديث شيخ مسنّ (الأمالي، 1، 14)
- شابّ عاشق يقول شعرا (37)

- مخاصمة بين امرأة وزوجها (104) وثناء زوجة على زوجها (221) واختصام أعرابيين (137)
- خطاب أعرابي في مسجد (113)
- رجل يذم رجلا آخر(130) وحكمة يقولها أعرابي في موضوع الصداقة (214)
- حديث أعرابي مع حضري (222)
- مشاورة أعرابي لابن عمّ له (2-80)
- وَعْظ أب لابنه (194)
- وصية أم لابنها قبل سفره (2، 79)
- كلام أعرابي تعلق بأستار الكعبة (2، 55) وأعرابي آخر عشية عرفة (2،318)
- إنشاد أعرابية شعرا وهي ترقّص ابنها (2، 293)
- امرأة عند قبر تبكي وتنشد (2، 321) وغير ذلك

وتكثر في الأمالي الأوصـــاف لمختلف الأشياء والأحداث **كوصف أنواع المطر** (الامالي: الأوصـــاف لمختلف الأشياء 1، 169 و171 و173) وكوصف أعرابي لقومه(1، 139) ووصف رجل لأولاده (52) ووصف ناقة (1، 213) وعنــز (2، 6) وخيل (51) وإبل (51) وغير ذلك كثير جدا.

هذا ويكثر ذكر الحكايات عن الأعراب في كتب الأدب- والراوي المنسوب إليه هو غالبا الأصمعي- فمن هذه الكتب «العقد الفريد» لابن عبد ربه وقد خصّص فيه بابا كاملا «لكلام الأعراب» (الجزء 3 ، 418-496). فكل أنواع الأحاديث في مقامات جد متنوعة يعرضها ابن عبد ربه في هذا الفصل. وذكر الكثير من مؤلفي الكتب الأدبية كلام الأعراب في مؤلفاتهم. وينبغي أن نلاحظ أن هذا النوع من الحديث **غايته التسلية وليس العلم** إلا القليل ولذلك فلا يمكن أن نثق بما تحكيه هذه الكتب من الأخبار مما جاء في المُلَح والطُّرَف وقد

اتبعهم في ذلك الكثير من مؤلفي الامالي والمجالس. وأدل دليل على ذلك هو الشكل القصصي الذي تتصف به غالبا الحكايات المنسوبة غالبا إلى الأصمعي. فالذي نأخذ به من هذه الحكايات هو في كتب الأدب **الموضوعات التي تطرق إليها الأعراب** في مختلف مخاطباتهم **لا مضمون الحكايات**.وتختلف المجالس والامالي عن هذه الكتب الأدبية في أنها كتب لغة قبل كل شئ وما روى فيها من اللغة أكثره موثوق به وكذلك هي الموضوعات الخطابية ولكن لابد من التحفظ فيما يخص الأخبار التي تروى فيها بشكل القصص ومنها الملح. ولا نستبعد أن يكون الأصمعي روى ذلك وربما على هذا الشكل في بعضها إلا أنه لم تكن الملح في يوم من الأيام إلا حكايات للتسلية ولو خالطها شئ من الصحة.

ب – السماع النشيط:

إن لتدخّل المتحرى في أثناء سماعه للمورد مهمّ جدا. وقد يتوقف كل ما سيحصل عليه من المعطيات على كيفية تدخّله. وفي ذلك علم وتمرّس يكتسبه المتحرى بطول مخالطته للأعراب ومباشرته لهذا العمل. ولا شك أن أبا عمرو بن العلاء قد كان له خبرة كبيرة في ذلك لطول إقامته بين العرب الفصحاء وكذلك كل من تتلمذ عليه.

وفي هذا التدخل طريقتان:

1– **الإثارة الإيحائية** وهي التي يسميها اللغويون القدامى **بالتلقين**

2– **مجرّد السؤال عن كل ما يخص استعمال اللغة ومعاني مفرداتها وتراكيبها**

1– أما الطريقة الأولى فتجري كالتالي:

يبادر اللغوي باستنطاقه المورد وحثّه على الكلام أو إنشاد الشعر أوكِلاهُما معا من جهة وحمله على التطرق لموضوع معيّن لإجراء حديث معه في حدود هذا الموضوع الذي يهم اللغوي. ولا يقصد من ذلك في هذه الطريقة أن يجيب المورد عن سؤال معين بل المقصود يبقى هنا الحصول على نص أو عدة نصوص عفوية مثل ما هو جارٍ في السماع السلبي. والفارق بينهما هو في حمل اللغوي للمورد على علاج موضوع معين. ولا يوحي إليه إجابة

معينة لسؤاله بل يريد فقط الإتيان به إلى ميدان معيّن من الحياة لهدفين اثنين: إما الحصول على مفردات وتراكيب لهجية وغير لهجية (اللغات) تخص حقلا دلاليا معينا وإما إحداث نصوص تتضمّن حلاً عفويا لقضية نحوية أو لغوية أو دلالية لم تزلْ غامضة لعدم وجود نص عند اللغوي في ذلك.و المتحري لا يريد إجابة صريحة من المورد حول هذه القضايا بل يريد نصًّا يشتمل على المفردة أو التركيب الذي يبحث عن صيغته أو مدلوله وذلك في استعمال الفصحاء الحقيقي المسموع منهم مباشرة وبهذه الطريقة. فتكون حجة له. وتتكون هذه **النصوص المثارة** ذوات مواضع شتى أيضا إلا أنها مقصودة في ذاتها وقد تكون حكايات يحكيها المورد حول موضوع خاص أو أوصاف خاصة وقد تكون نصوصا محفوظة كالشعر والآيات القرآنية. وفي هذه الحالة الأخيرة يكون مقصود اللغوي السماع لقراءة معينة أو لإنشاد شعر على صورة خاصة أيضا.

وتشبه هذه الطريقة إلى حدّ بعيد **الاستجواب الموجّه** الذي يمارسه الصحفيون أو الباحثون في العلوم الاجتماعية خاصة.

ومن أمثلة ما جرى عند اللغويين العرب من ذلك نذكر:

«الحديث» الذي أجراه أبو عمرو بن العلاء وهو في اليمن[8] مع غلام. قال: «رأيت باليمن غلاما من جَرْم يَنْشُدُ عنزًا له فقلت له: **صفها** يا غلام فقال: حسراء مقبلة شعراء مُدْبرة...» (أمالي القالي1، 34).

ولقاؤه بأعرابي في مكة.قال: «لقيت أعرابيا بمكة فقلت له: ممن أنت؟ قال: أسدي. قلت: ومن أيّهم؟ قال: نهدي. قلت من أي البلاد قال: من عمان. قلت: فأنّى لك هذه الفصاحة؟ قال سكنّا قطرًا لا نسمع فيه ناجخة التيّار. قلت: **صِفْ** لي أرضك. قال: سيفٌ أَفْيَح وفضاء صحيح وجبل صَرْدَح ورمل أصبح. قلت: فمالُك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت عن الإبل؟ قال: إن النخل حملُها غذاء وسَعفُها ضِياء وجذعُها بناء وكربُها صِلاء وليفُها رِشاء وخوصُها وعاء وقروُها إناء» (ذيل الأمالي،16).

(8) - اليمن الشمالي الناطق بالعربية الفصيحة.

وفي حمى الربذة لقي الأصمعي أعرابيا فصيحا فأراد أن يستنطقه. قال: «قلت لأعرابي بحمى الرَّبَذة: ألك بنون؟ قال: نعم وخالقهم لم تَقُم عن مثلهم مُنْجبة. فقلت: **صفهم** لي فقال: جَهْمٌ وما جَهْم! يُنْضِي الوَهْم ويصدّ الدهْم ويَفْرِي الصفوف ويَعُلّ السيوف. قلت: ثم من؟ قال: غشَمْشَم وما غَشَمْشم آمالُه مُقْتَم وقِرنه مُجَرْجَم.... قلت: ثم من؟ عَشْرَّب وما عشرب! ليثٌ مُحرَّب وسمام مُقشَّب ذِكْرُه باهر وخَصْمُه عاثر... قلت: فصف لي نفسك فقال...» (الأمالي،1،52) [9].

إن الكثير مما جرى في هذه الحكايات وخاصة الأسئلة قد اختصر اختصارًا فاللغويون الذين رووها وأملوها في حلقاتهم التعليمية تعنيهم بصفة خاصة النصوص اللغوية التي سمعوها هم أو شيوخهم فحذفوا كل ما يزيد عليها. ولذلك كانت الأسئلة وموضوع الحديث مختصرة بلا مزيد عليه[10].

ويلاحظ أن في كل مشهد من هذه المشاهد يكون المورد قد أغراه المتحرى أيما إغراء ليطلق لسانه: فقول أبي عمرو للأسدي: أنَّى لك هذه الفصاحة؟ هو نوع من الثناء ثم كذلك هو الاهتمام الذي أبداه إزاء العنــز المفقود فلعل عنده علم بمكان وجودها فينطلق بذلك لسان الغلام.

فإن كان الذي روى هنا وفي غير هذا المكان لا يمكن أن نتأكّد من صحته فإن **حدوث مثل هذه اللقاءات والأهداف منها وكيفية حدوثها ثم اللغة التي احتوت عليها النصوص** فكل ذلك لا يمكن أن تُنكر صحته **لاستمراره وثبوته** في جميع ما وصل إلينا من مثل هذه الروايات وفي جميع كتب اللغة (ونعني بذلك **الموضوعات والأطر العامة للقاءات ومحتواها**

---

(9) – يكثر مجيء مثل هذه الأحاديث الوصفية فيما دوّنه اللغويون وتمتاز عن غيرها بانتهاء الحديث دائما إلى هذه العبارة: **صف لي** بعد أن يكون المتحرى أثار كلام المورد وأغراه لكي ينطلق في الوصف بإسهاب لشيء معيّن. فهي بمنزلة ختامَ لما مرّ من الأسئلة.

(10) – ويدل على ذلك ههنا ما أبداه أبو عمرو من الإعجاب بنصاحة الأعرابي بعبارة جدّ مختصرة ومثل هذا الإعجاب يعبّر عنه عادة بأكثر من ذلك. وقد سبق أن شككنا في صحة نسبة هذا القول إلى أبى عمرو بن العلاء لبقاء عرب عمان آنذاك في أكثريتهم على فصاحتهم في ذلك الزمان الغابر. وهذا الشك لا يمّس صحة ما رُوى من طريقة الاستجواب.

اللغوي[11]. ومهما كان فيجب أن ننتبه لا إلى الحادث في ذاته بل إلى مجرى هذه الأحداث فيما تتفق فيها وهذا هو المهم.

وكان يلجأ اللغوي في محاولته الحصول من المورد على النصوص المطلوبة إلى نوع من الإثارة قويّ وناجع وهو أن يذكر له نصًّا معينا أو يقص عليه قصة أو أي شئ يثير اهتمام المورد ويحمله على التطرق إلى نفس الموضوع بقصة يقصها عليه مماثلة لما يسمعه من المتحري. وهذه الطريقة كانت من أنجع المُثيرات في الواقع (انظر مثالا لذلك في الأمالي،2،83).

وكثيرًا ما كان يقصد المتحري أن **يسمع من المورد كيفية تأديته لنص محفوظ** وقد يكون للتأكد من كثرة أو من قلة وجود تأدية معينة لبيت شعر أو قراءة آية قرآنية. إلا أنه كانت قد جرت العادة عند جميع المتحرين أن يلقوا مثل هذه الأسئلة في جميع تحرياتهم تقريبا: «أتنشد شيئا من أشعار قومك»؟ (الأمالي، 66) «وأَتُنْشِدُ شيئا من أشعار العرب؟» «ويا أبا دينار هل تقرأ من القرآن شيئا»؟ (مجالس العلماء،264).

وهناك نوع آخر من الأسئلة للحصول على نصوص تخص موضوعات معينة وهي الأسئلة عن آراء المورد في أشياء مختلفة. فمن خلال الآراء التي يبديها من الاهتمام لأنها تخصه وهذا حافز آخر، يتحصل به المتحرى على كلام يجد فيه ما يبتغيه من اللغات والاستعمالات الخاصة. وذلك مثل هذا السؤال: «أي شيء أمتع؟» (1،214) «وقلت لأعرابي: ما تقول في المراء» (1،254) وغير ذلك.

2- أما في النوع الثاني من الطريقة **وهو السؤال المباشر في استعمال اللغة** فيختلف فيه غرض المتحرى. فالذي يقصده هنا ليس الحصول على نصوص جديدةلم تسمع أو على تأدية نص محفوظ بل يريد أن يحصل على كيفية استعمال المورد لشيء بعينه مباشرة لا من

---

(11) – لوجود هذه المفردات في كتب اللغة الموثوقة. أما ما لم يرد منها فيها فلا بد من رفضها وهي على كل حال قليلة جدا.

خلال كلامه العفوي (الذي يثيره المتحرى). فهو يُلقى عليه سؤالاً مثل: «كيف تقول» فالأسئلة لها هنا شكل آخر ويجيب المورد بما يعرفه من لغته أو يعرّف المتحرى بأسماء المسميات التي تنتمي إلى لغته أو كيفية نطقه لصوت من أصوات لغته وهكذا. وبما أن المورد لا علم له بالنحو وبمصطلحات النحو فإن اللغوي يتحاشى أن يلقي عليه سؤالا يحتوي على كلمات مثل المبتدأ والخبر والهمز والإدغام (انظر فيما يلي). فالأهداف التي يرمى إليها اللغوي هي ههنا:

- الحصول على معلومات من المورد عن استعماله للغة كما قلنا.

- اختبار صحة ما تحصّل عليه من المعطيات اللغوية في السابق.

- اختبار افتراضات افترضها في تحليله وتفسيره للظواهر اللغوية. وبصفة خاصة الاستثبات عما لا يزال عنده غامضا من استعمال العرب بشيء معين.

هذا وكان لهم نوعان أيضا من الأسئلة المتعلقة باللغة وهما:

- **السؤال التخييري:**

- **السؤال التلقيني أو الإيحائي:**

ففي النوع الأول يخيّر المتحرى المورد بين استعمالين محتملين (أو قد سُمِعا بالفعل). ومثال ذلك السؤال الذي ألقاه أبو عمرو بن العلاء: «قال أبو عمرو بن العلاء لأبي خيرة: كيف تقول: حفرتُ إراتِك. فقـال: حفرت إراتَك. قال: فكيف تقـول: استأصل الله عِرْقاتِهم أو عرقاتَهم؟ فقال: استأصل الله عرقاتَهم. فلم يعرفها أبو عمرو» (مجالس العلماء،5).

وأما المثال الثاني فقد ذكره سيبويه. قال: «ونظير هَيْهات وهَيْهاةَ في اختلاف اللغتين قول العرب: استأصل الله عرقـاتِهم واستأصَل الله عرقاتَهم... **وكُلًّا سمعنـا من العرب**» (2،48). ونشك في أن يكون أبو عمرو لم يعرف اللغة الثانية وقد كانت شائعة في زمانه لأنها بمنـزلة هيهاتَ. وكذلك ما يحكيه ابن السكّيت عن كلمة إنْفَحة. قال: «**وحضرني أعرابيان** من بني كلاب. فقال أحدهما: إنفحة وقال الآخر: مِنْفحة. ثم افترقا على أن يسألا

جماعة الأشياخ من بني كلاب فاتفق جماعة على قول ذا وجماعة على قول ذا وهما لغتان» (إصلاح المنطق،175،176)

وهذا النوع من السؤال ما كان يستعمل إلا إذا لم يكن هناك احتمال آخر. وقد يذكر بعض الموردين استعمالاً ثالثًا غيرهما. وذلك مثل ما قيل عن الخليل وهارون[12] أنهما اجتمعا فقال أحدهما: برِق البَصَر والآخر بَرَق. فطلع عليهما أعرابي من بني فزارة فسألاه فقال: «لا أقول شيئا مما قُلتما ولكني أقول: بلق البصر» (مجالس العلماء،248).

أما السؤال الثاني فهو إما اختبار في الحقيقة وإما نوع من الإثارة: يقدم فيه المتحرى كلاما كاملا للمورد بدون أي تعليق. وفي كلا الأمرين يريد المتحرى أن يثير إما رفضا للعبارة من قبل المورد أو عبارة أخرى على مثالها وإما عبارة مخالفة تماما للعبارة الأولى المعروضة عليه. ومثال ذلك فيما يخص العبارة الاختبارية ما رواه ابن السكيت عن الأصمعي أنه قال: لا يُقال «أرْعَد و أبْرَق». وحكى اللغتين أبو عبيدة وأبو عمرو [الشيباني] واحتج على الأصمعي ببيت الكميت:

أرعِدْ وأبْرِق يا يزيـــ　　　　دُ فما وعيدُك لي بضائرْ

فقال: «ليس قول الكميت بحجة هو مولّد...» (إصلاح،193)

وروى صاحب مجالس العلماء هذا الحادث (بالكثير من التشويه كما رأيناه) وأضاف: فجاءنا أعرابي من بني أبى بكر بن كلاب... بدوى... فسألته (أي أبو حاتم): كيف تقول أرعدت وأبرقت؟ قال أبو زيد... دعوني أسأله وأتَوَلّى السؤال فأنا أرفق به فقال له: كيف تقول في التهدّد إنك لَتَبْرُق وتَرْعُد. فقال: أفي الجخيف تعني أم في الوعيد. أقول إنك لتُبْرِق لي وتُرعِد...» (مجالس، 142-143)[13].

---

(12) – معاصر لسيبويه وهو من القراء.
(13) – سبق أن ذكرنا هذه الحكاية في المقدّمة وكان ذلك بصدد ما رواه ابن دريد عن الأصمعي عن أبي حاتم من حكمه على الكميت بأنه غير حجة بالتمام وهو غير صحيح بدليل استشهاده هو نفسه بشعره !

أما النوع الثاني **وهو السؤال التلقيني** فهو عبارة عن إيحاء أو مجرَّد اختبار ففي الحالة الأولى: يوحي السائل إلى المورد أن يقول شيئا من الكلام على صيغة معينة. فكأنه يُلقّنه بدون أن يُشعره بذلك فيوجّه إليه كلاما بدون تعليق. ففي الحالتين الذي يريده السائل من المورد هو أن يردّ الفعل إما بالرفض الصريح لما سمعه على أنه ليس من كلام قومه أو يُعيد ما قاله السائل تأكيدا لمحتواه غالبا وفي نفس الوقت بالرضى الضمني للفظه وشكل الكلام الأول -وقد يأتي بكلام مصوغ على نفس الصيغة فيكون ذلك مثل الإقرار بالفعل لا بالقول على أن هذا الضرب من الكلام هو من كلام قومه.

وقد ينبِّه اللغوي على أن الذي سمعه تحصل عليه بدون **تلقين** وهذا هو طبعا في غاية العفوية. يقول سيبويه: «حدثنا يونس أنه سمع من العرب من يقول: «عَلَيْكَنِي» **من غير تلقين** ومنهم من لا يستعمل ني ولا نا في ذا الموضع»(1، 382) ويقول أيضا: «وسمعنا من العرب من يرويه ويروى القصيدة التي فيها هذا البيت **لم يُلقّنْه** أحدٌ هكذا» (1، 227).

وأحسن مثال للسؤال التلْقيني هو هذا الذي جاء في مجالس العلماء أيضا: اختلف أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر في جواز رفع خبر «ليس» مع الاستثناء فأجازه أبو عمرو وقال: ليس في الأرض حجــازي إلا وهو ينصب ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع «(مجالس، 1) فطلب أبو عمرو من تلميذين له أن يذهبا ليختبرا أبا مهدي (مرّ ذكره قريبا)» فقال لهما أبو عمرو «فَلَقِّنَاه» الرفع (هذه عبارة الراوي) فإنه لا يرفع واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب»(2). فقال للأول: «ليس الطيبُ إلا المسكُ» فقال: أتأمراني بالكذب على كَبْرَة سنّي فأين الجادي... وأين... وأين. [فقال أحدهما]: «ليس الشراب إلا العسلُ «قال: فما يصنع سودانُ هَجَر مالهم شراب إلا هذا التمر؟ [قال أحدهما]:فلما رأيت ذلك منه قلت: ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها. قال: «هذا كلام لا دَخلَ فيه. ليس ملاك الأمر إلا طاعةَ الله والعملَ بها **فنصب** (!) [قال الســائل:] ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ الله والعملُ بها» ورفعت فقال: لا: ليس هذا من لحني ولا من َلحن قومي«قال: فكتبنا ما سمعناه منه... (3) [قال:] ثم أتَيْنا المنتجع... ولقَّناه وجهدنا به... فلم ينصب وأبي إلاّ الرفع»(4).

ولا شك أن هذا النوع من السؤال كان يحصل كلما أراد اللغوي- أو الفريق من المتحرين- أن يتأكدوا من وجود لغة معينة تنتمي إلى قبيلة معينة وإلى كل أفرادها أو إلى بعضها وأنها تخالف في ذلك الاستعمال اللهجي لقبائل أخرى أو بعض الأفراد منها.

وأما الإيحاء والتلقين فكان يحس اللغوي بخطر ما قد يُحدثه من سوء التفاهم كما كان الحال في هذه الرواية. وقد يقل في بعض الأحوال هذا الذي يتخوفون منه. فيلقون على المورد أسئلة في صميم الموضوع الذي يهمُّهم من اللغة واستعمال العرب كالسؤال الذي ألقاه أبو حاتم على أم الهيثم: كيف تُصغّرين «شيرة» فأجابت على الفور شُيَيْرة. ولم يكن من السهل أن يسأل العـــادي من العرب أو الأعراب بهذا النوع من الأسئلة الخـــاصة باللغة. فاستعمال اللغوي لما اصطلح عليه مع غيره من الألفاظ مع هؤلاء الأعراب كان يؤدي غالبا إلى حالات من سوء التفاهم أكثرها تحمل على الضحك وذلك مثل ما ذكروه في كتب الأدب من هذا النوع من الالتبـــاس. يحكي المبرد وهو بصدد الكلام عن فعل استخذى: «زعم الأصمعي أنه شك فيها وأنه أحب أن يستثبت أهي مهمـــوزة أم غير مهمـــوزة. قال: فقلت لأعرابي: أتقول: استخذيت أم استخذأْت؟ قال: لا أقولهمـــا. قلت: ولم؟ فقال: لأن العرب لا تستخذي». وهذا غير مهموز» (الكامل، 1، 89، 3)[14] .

وقد كان أبو عمرو يلجأ أيضا إلى التحري بالمراسلة. فقد حكى أبو حاتم قال: «وكان أبو عمرو يكتب إلى عكرمة بن خالد في مكة فيسأله عن الحروف» (مراتب،35) والمشهور عن «الحروف» أنها القراءات القرآنية. ويؤيد هذا ما جاء في كتاب السبعة لابن مجاهد: «قال سفيان بن العلاء أخو أبى عمرو بن العلاء: كان أبو عمرو إذا لم يحجّ أمرني فسألت عكرمة بن خالد المخزومي عن الحروف» (84). وهذا أولى لأن أبا عمرو ممن عرضوا القرآن على عكرمة وقد توفى في 115 وتلاعُب صاحب الأغاني بالحقيقة جعله يخلط بين عكرمة وبين الحارث بن خالد العـــاصي ولى مكة وهو أخوه[15] (كما جعل اسم أخيه معادًا).

---

(14) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط. مصر.

(15) - وهذا من فضائح صاحب الأغاني فعكرمة هذا قرأ عليه أبو عمرو القرآن والحارث أخوه وقد ولد أبو عمرو حوالي 70 فكان في سنة 75 حين ولى الحارث بن خالد مكة ابن خمس سنين! ولو فرضنا أنه ولد قبل ذلك فكيف يمكن أن يكاتب شاب لا شأن له والى مكة ويسأله عن الحروف -وهو شاعر وليس من القراء -وقد روى هذا الحادث ابن مجاهد مثل ما رواه صاحب المراتب.

III – تقنيات الكتابة:

كتابة المسموع ومختلف أنظمتها في زمان التحرّيات:

سبق أن قلنا في الباب الثالث أن اعتماد العلماء العرب في أخذهم عن فصحاء العرب على السماع المباشر وحده (والسماع عن الشيوخ الثقات أصحاب السماع المباشر أيضا) لا يعني أبدا أنهم كانوا يمتنعون تماما من اللجوء إلى الكتابة. فمقصودنا من ذلك هو أن السماع كان بالنسبة لهم المصدر المشروع الوحيد في تحرياتهم وتدوينهم كتابيا لهذا المسموع كان لهم عونا فقط للحفاظ عليه. فالمكتوب هنا هو مجرد تسجيل لما سُمع مثل ما يسجّل اليوم من الكلام بالآلات المسجلة والأصل هو المنطوق المسموع من العرب ليس إلا.

أما نفورهم الشديد لما كانوا يسمونه «بالصُّحُف» وما احتوته من الشعر واللغة ويشمل هذا النفور كل اللغويين الأوائل إلى غاية ابن السكيت والطوسي فالسبب في ذلك هو، كما قلنا، وقبل كل شيء لعدم ثقتهم على الإطلاق بما كانت تحتوي عليه هذه الصحف من شعر لم يقله أحد ممن نسب إليه وكلام منثورلم يُسمع من **فصحاء العرب** مباشرة (من حكايات تخصّ قدماء العرب وغيرهم) بل تناقله الأخباريون ويختلط فيه الصحيح والزائف.

وهناك سبب آخر غير هذا الذي ذكرناه وهو الخوف من التصحيف –وهو مشتقّ من «الصحيفة»– وله أهميّته وخطورته إلا أنه لا يبلغ من الخطورة ما يبلغه عندهم النصّ المزيّف المختلف الذي لم يقله العرب أما المصَّحف أي المغيَّر فقد يكون برفقته الصحيح.

وقد رأينا أن الاستهتار بالقصص والطُرَف تغلّبَ حتى على بعض اللغويين أو من يقاربونهم من الأدباء فاتخذوا الصحف –وكانت قد جددت وبُسِطت– مصدرًا هاما لمعلوماتهم.

صحيح أن الكتابة كانت قد انتشرت بكيفية سريعة جدا بظهور الإسلام وإقامة الدولة الإسلامية وخاصة في زمان ظهور الورق المسمى بالكاغدِ وانتشار صناعته في سمرقند(16)

(16) – دخل الكاغد إلى سمرقند بعد سنة 134 من الصين. وفرضه هارون الرشيد على الدواوين وعمّم استعماله.

وفي العراق ووافق ذلك ظهور التآليف الهامة الأولى عند الفقهاء واللغويين وغيرهم (حَوالي منتصف القرْن الثاني وبعده). وكثيرًا ما يحكى عن المتحرين اللغويين التزامهم الدائم بكتابة كل ما يسمعونه من فصحاء العرب. فهذا ابن الأعرابي يقول في نوادره: «كنت إذا أتيت العُقيلي لم يتكلم بشيء إلا كتبته. فقال: ما ترك عندي قابَّة إلا اقتبَّها ولا نقارة إلا انتقرها» (المزهر، 2،304). وفسّر ذلك هكذا: «ما ترك عندي كلمة مستحسنة مصطفاة إلا اقتطعها ولا لفظة منـــتقاة إلا أخذها لذاته» (اللسان مادة: قبّ وهامش 1 من المزهر نفس الصفحة). وقال ثعلب عن أبي عمرو الشيباني أنه«دخل البادية ومعه دستيجان حبرًا فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب» (إنباه،1، 259). وقد مرّ بنا بعض ما أخبروا به من كتابة المسموع[17].

فمما لا شك فيه أن الكتابة كانت عند جميع المتحرين ملازمة لسماعهم كما سبق أن رأينا ولا نتصور أن يسمع المتحري تأدية كلام بحث عنه وتعب من أجل الحصول عليه بالكيفية التي وصفناها ويتّكل مع ذلك على ذاكرته فقط للحفاظ عليها.إلا أنه لا بد من التأكيد **أن السماع هو الأصل دائما** والغاية من كل تحرٍّ ثم المنطلق في كل نظر في اللغة.

فمشافهة الفصحاء من العرب تأتي دائما في المرتبة الأولى وقد لاحظوا أن هذه المشافهة تساعد على استكشاف الحروف وقد تعجز الكتابة عن تصوير كل أنواع الأصوات على الرغم من وجود كتابة صوتية عند اللغويين منذ زمان الخليل. فهذا سيبويه يقول: «فأما الذين يمططون-وعلامتها واو- وهذا تُحْكِمه المشافهة...» (2،297). وهذا ينطبق أيضا على اختلاس الحركة [18]. يقول الجاحظ بهذا الصدد: «ذكر الحروف التي تدخلها اللُّثغة... فأمَّا التي هي على الشيـــن المعجمة **فذلك شئ لا يُصوّره الخط** لأنه ليس من الحروف المعروفة وإنما هو مخرج من المخارج والمخـــارج لا تُحصى ولا يوقف عليها» [19] (البيان، 1، 34).

(17) - مجالس العلماء، 4 و 5 والقالي في نوادره، 183 وغير ذلك.
(18) - نظام الكتابة الصوتية عند قدماء اللغويين العرب.
(19) - ذكرنا جزءا من هذا الكلام فيما سبق. يعني الجاحظ أن هذه كيفية خاصة في النطق بالحرف وهي ما يسمّيه «مخرجا» (وهو مصدر ميمي ههنا).

كان للعرب في زمان نزول القرآن نظام من الكتابة ورثوه من الآراميين (خلافا لما راج قبل اليوم عند الاختصاصيين في اللغات السامية). وكان جدّ ناقص إذ كان يتكوّن جوهريا من علامات للصوامت مثل الأبجدية الفينيقية وهي أصل كل الأبجديات في العالم. ولم يُدْخَلْ بعدُ الإعجام المميز بين الحروف المتشابهة في شكلها الخطي. ومثل هذا النظام ما كان يستطيع أن يفي بما يحتاج إليه الباحثون العرب وخاصة المتحرون الذين كانوا يسمعون من العرب أنواعا مختلفة من الأصوات اللهجية. وكل هذه النقائص سيجد لها العلماء حلولا في سنوات قليلة بعد بداية الخلافة الأموية. فقد نسب المؤرخون إلى أبي الأسود الدؤلي وفريقه وضعهم لأول مرة لعلامات خاصة لها شكل النقط تضاف إلى الحروف ويكون موضعها هو المميز: أمام الحرف الضمة وفوقه الفتحة وتحته الكسرة.وللتنوين نقطتان في إحدى هذه المواضع الثلاثة.

وحسّن القراء بعد ذلك هذا النظام الخطي الخاص بأصوات الحركات وكل هذا كان يختص به المصحف دون غيره.

وكُتب للخليل بن أحمد الفراهيدي أن يخترع نظامًا آخر للمصوتات والأصوات الأخرى غير المصوّت.فهو الواضع لما سمي منذ ذلك الوقت بـــ«شكل الشعر». وكان في أول الأمر قد أدخل على نظام النقط تحسينات مفيدة وأدخل اللون فمثل الهمزة التي لم يكن لها علامة ما خلا الألف في بداية الكلمة جعل لها نقطة باللون الأصفر. ويحكى الذين كتبوا ترجمته أنه ألف كتابًا في النقط (الفهرست 71 والدانى، المحكم، 6و9). إلا أن النظام المسمى بشكل الشعر كان أوفق وأكثر وضوحا. فجعل للضمة واوًا صغيرة فوق الحرف وللفتحة ألفا مبطوحة فوق الحرف وللكسرة يـــاء مختصرة تحت الحرف وكرر هذه العلامة للتنوين وزاد على ذلك علامة الهمزة وهي ع مختصرة وللتشديد ش مختصرة. وتسمية هذا النظام بهذا الاسم لدليل واضح على أنه **اختراع لكتابة ما كان يجمعه المتحرون الأولون** ومنهم الخليل، من الشعر وكانوا أحوج الناس إلى ذلك.

فبذلك تحوّلت الكتابة العربية من الرموز المتشابهة الملتبسة المتكونة فقط من الحروف الصوامت (وكانت النصوص المكتوبة بها ألغاز حقيقية)، إلى نظام واف يستجيب لكل ما يقتضيه الأداء من الاختلاف في المخارج. وهذا عجيب جدا أن يحصل على يد رجل واحد.

ولم يكتف الخليل بهذا الاختراع المفيد بل تجاوزه إلى مستوى أعلى من ذلك فقد أحس أن العلامات التي اخترعها لا تصوّر إلا أجناسا من الأصوات أي جنسًا للفتحة وهو ما يسمى بالفونيم فهناك الفتحة الممالة إمالة متوسطة وأخرى شديدة وهناك الفتحة العادية غير الممالة والفتحة المفخمة وغير ذلك.وكل ذلك لا يُصوره الخط ويحتاج اللغوي إلى علامات خاصة لكتابة هذه الأصوات التي هي تنوعات صوتية. ولم يسبق الخليل إلى اختراع مثل هذه الكتابة الصوتية في تاريخ الكتابة. ولم تظهر أول كتابة صوتية حقيقية مع رواجها عبر العالم إلا بعد قرون.

وقد أضاف إلى ذلك اختراعا آخر مكملا له وهو كتابة خاصة تبرز الإيقاع الحاصل في الشعر بالمجموعات الموزونة وذلك بإلغاء الفراغات في الكتابة بين الكلم وإبقائها بين هذه المجموعات.كما بيّن بالكتابة كل ما يُنطق بالفعل:كنُونٍ ساكنة للتنوين وحرفَيْن ظاهرين للمدغم وغير ذلك.

وفي الختام فلا بد من الملاحظة أن هذا النظام للكتابة الصوتية مع الكتابة العادية الفونولوجية، تعكس تماما تصوّر العرب لنظام العربية: نظام واحد تتخلله تنوّعات في التأدية.

(أنظر فيما يلي جدول النظام الفونولوجي وجدول نظام التنوعات)

I – نظام الكتابة العادية (الفونولوجية)

		العلامات الخطية		
		مدرسة أبي الأسود (النقط)	**مدرسة الخليل (1)**	**مدارس القراء (1)**
الصوامت	– ب، ج، د...	الأبجدية القديمة + الإعجام الكامل	كذلك	كذلك
	– الهمزة	تكتب في الابتداء فقط على شكل ألف فقط	عين مختزلة فوق السطر وتحته: ع ← ء	نقطة باللون الأصفر فوق السطر أو تحته (1)
	– التشديد	لا علامة له	شين مختزلة: ش ← ّ فوق الحرف	كذلك
	– التنوين	تكرار النقطة	تكرار علامة الحركة	علامة أبي الأسود
المصوتات	– المصوتات الثلاث:			
	– الضمة	نقطة أمام الحرف : الرحمن.	واو صغيرة فوق الحرف: ـُـ	إبقاء نظام أبي الأسود والنقط للمصوتات باللون الأحمر
	– الفتحة	نقطة فوق الحرف : الرحمن	ألف مبطوحة صغيرة فوق الحرف: ـَـ	
	– الكسرة	نقطة تحت الحرف : الرحمن	شكل الياء المبطوحة تحت الحرف: ـِـ	
	– السكون	عدم العلامة (3)	دائرة صغيرة: الرحمنْ	عدم العلامة في العراق ودائرة صغيرة خارج العراق

(1) أنظر المحكم للداني.
(2) نفس المرجع، 19.
(3) عدم العلامة ههنا علامة (كعلامة المذكر بالنسبة إلى علامة المؤنث).

II – نظام الكتابة بالتنوعات الصوتية (وجوه الأداء)

		العلامات الخطية	
		مدرسة الخليل	مدارس القراء
تأديات خاصة بالصوامت	الهمزة المسهلة (بين بين)	– عدم العلامة: رأيت ⟵ رايت	– نقطة باللون الأحمر فوق الحرف الحامل للهمزة عند الخليل
	– النون المخفاة	– عدم السكون على النون: ينصُر، عنَك	– نقطة باللون الأحمر فوق الحرف الذي فوقه الهمزة
	– الحرف المدغم كتنوع[1]	– عدم العلامة على الحرف المدغم + علامة التشديد على الحرف المدغم فيه: رددت	– نفس العلامة
	– النون المدغمة: بغنة بدون غنة: – تنوعات أخرى[2]	– علامة السكـون على النـون + تشديد على الحرف التـالي: منْ ربِّهم – عدم السكون على النون + علامة التشديد التالي: من ربّهم – الحرف فوقه الحرف الذي له الصفة الزائدة: يصدق، أشدَق	– لا علامة لها في النص القرآني عند القراء
تأديات خاصة بالمصوتات	– الألف الممالة: e – إشمام الضم كسرا[3] – إشمام الكسر ضما[4] – ألف التفخيم – المشبع[5]	نقطة تحت الألف: بالنهار نقطة تحت الواو: مذعور نقطة أمام الحرف: قيل. واو فوقها ألف: صلوة، زكوة واو أو ألف أو ياء فوق الحرف	نفس العلامة نفس العلامة نفس العلامة نفس العلامة كذلك
	– المختلسة(5)	عدم العلامة	كذلك
	– المرام (الوقف)	خط مبطوح فوق الحرف	نفس العلامة مع زيادة النقط
	– المشمّ بالإشارة(5) (في الوقف)	نقطة فوق الحرف	نفس العلامة
	– السكون (في الوقف)	حرف خ فوق الحرف	عدم العلامة

(1) – المقصود هنا ليس الإدغام الذي تضبطه قاعدة كـ: ردّ بل الإدغام الأدائي مثل إدغام الدال في التاء بعد قلبها تاء في رددت.
(2) – كل الحروف المشربة صفة حرف آخر كالصاد المجهورة في يصدق وكالجيم التي كالشين في أشدق.
(3) – يسمى ذلك ابن جنى الواو المشوبة كسرا(سر الصناعة 53/1) ويقول عنها سيبويه «كأنك تروم الكسرة»(270/2).
(4) – عند ابن جني: الكسرة المشوبة ضمًا (نفس المصدر).
(5) – هذه العلامات أشار إليها سيبويه(282/2).

تعليقات على نظام التنوعات الصوتية

1) ما يسميه سيبويه بالمُشْبَع من الحركات (من أصواتها) يقابله المُختلَس (أو المُخْفَى). فبما أن المختلس هو الذي أُخْفِي صوته لسرعة الأداء حتى أشبه الساكن (وليس مثله) فالمشبع إذن هو النطق بصوت الحركة بدون مدّ (حركة عــادية). وعلامته واو مثل يضربــها وياء: من مأمنك (الكتاب، 2، 297).

2) إن إضعاف الصوت في الرّوْم وضم الشفتين في الإشمام هما تنوّعان في الوقف ويقابلهما مجرّد التسكين. وعلامة الأول: خط فوق الحرف وللثاني: نقطة والثالث التسليق حرف الخاء (الكتاب، 2، 281-282).

3) لكلمة «إشمام» ثلاثة معان مختلفة تماما: فقد تدل على إشمام الضمة كسرًا (u > ø) والعكس: إشمام الكسرة ضما (i > ü) (الخصائص، 3، 121 وسر الصناعة، 1، 59، 60) وأخيرًا ما ذكرناه آنفا: تحريك الشفتين بدون صوت في الوقف. وقد أكّد الكوفيون أن هذا ينطبق أيضا على الكسرة: جرّ الشفتين بدون صوت في الوقف.

4) إن رسم الهمزة بُني على لغة الحجاز وهو التسهيل ويكون في الوسط وفي نهايتها و... النطق بها بتخفيف الشدة حتى كأنها صوت حركة فقط. ولذلك تكتب على حرف المد المناسب لحركتها أو حركة ما قبلها مثل شأن وسأل و لَؤُمَ وسئِم وشُؤْم.

5) الحروف المسماة بالفرعية المستحسنة هي التي سمعت من عدد كبير من الفصحاء السليقيين (كما حدّد ذلك فيما سبق). ولهذا فلا تجوز في كلام فصيح إلا الحروف الأصلية وهذه التنوعات الستة ليس غير.

الخاتمة

لأول مرة في تاريخ اللغات وتاريخ العلوم حاولت جماعة من أهل المعرفة باللغة أن يتعرّفوا مباشرة وفي عين المكان على ما كانت عليه اللغة التي كانت تعنيهم وما احتوت عليه من ألفاظ وعبارات بمدلولاتها وذلك بالسماع الفعلي من أفواه الناطقين بها وهذه اللغة هي العربية التي نزل بها القرآن وهؤلاء اللغويون هم علماء العربية من القرنين الثاني والثالث الهجريين. وكان في الوقت نفسه أوسع سماع لغوي حصل في التاريخ إذ لم يسبقهم إليه أحد من علماء اللغات الأخرى وإلى مثل هذا التدوين اللغوي الذي بلغ من الضخامة ما يفوق إلى الآن كل أنواع المدونات اللغوية. وهو أول تحرّ ميداني شهده العالم لأن كل ما رووه عن اللغويين الذين سبقوا العرب من هنود ويونان فهو عمل كان يرمي إلى تدوين لغتهم المقدسة أو الأدبية انطلاقا من النصوص المكتوبة إذ كانت قد اختفت اللغة المعنية في المشافهة. ودراسة هذه النصوص من الناحية اللغوية كان يسميها اليونانيون فيلولوجية. أما العرب فمن الظلم والإحجاف أن نسمي ما قاموا به من البحوث في لغتهم فيلولوجية (كما يفعله أكثر المتسشرقين) فإنهم تناولوا بالدراسة النص القرآني المنطوق واستقراؤهم له أداهم على الفور إلى النـزول إلى الميدان والسماع من أفواه هؤلاء الناطقين الذين نزل القرآن بلسانهم. وقد بادروا إلى ذلك من زمان جدّ مبكر فقد اهتم عبد الله بن عباس، كما هو معروف، بتفسير بعض الكلمات من الكتاب الكريم باللجوء إلى الشعر العربي وتتلمذ مؤسس الجغرافية اللغوية العربية[1] أبو عمرو بن العلاء على أصحابه.

(1) – وهي حقيقة تاريخية جغرافية لغوية لأن ما سُمع ارتبط بأماكن معينة تقطن فيها قبائل معينة وأكبر متجول فيها وهو الأصمعي قد وصفها كلها وصفا دقيقا بكتابه «جزيرة العرب» واعتمد كل الجغرافيين عليه بعده.

وتجوّل اللغويون العرب في أكثر الأقاليم من شبه جزيرة العرب ولم يتركوا أي بطن وأي قبيلة إلا سمعوا من أفرادها خلافا لما قاله الفارابي في نصه المشهور وأكبر دليل على ذلك هي النصوص نفسها فيكفي أن نتصفَّح المدوّنة العظيمة من النصوص التي وصلت إلينا ومن الشعر خاصة لنتبين أن أكثر القبائل العربية لها من يمثلها فيه ولو بشاعر واحد. ولا يمكن أن يكون سمع كل هذا في مكان واحد أو أماكن قليلة بل في كل الأماكن التي توجد فيها رواة القبيلة من «أهل العلم بالشعر» كما يقول ابن سلام الجمحي. ثم ما سمع من الكلام المنثور هو أيضا كثير جدا خلافا لما راج في زماننا من الأوهام حول اعتماد النحاة العرب على الشعر وحده مع شيء قليل من النثر. وقد رأينا أن كل ما اطرد من المقاييس عند سيبويه فقد مثل له بأمثلة نثرية كثرت حتى بلغت ما يفوق أربعة آلاف مثال فمن أين له هذه الأمثلة لو لم يكن سمع كلّ ما هو على مثالها ولا شك أنه كان كثيرا جدا إذ المثال الواحد يحتاج ليصير قاعدة أن يُسمع من المئات من الناطقين ولسيبويه عبارات صريحة تدل على ذلك وهو ثقة. وهذا زيادة على المئات من العبارات النثرية التي أوردها كما سمعها هو أو شيوخه. وهذا ليس خاصا بسيبويه وحده.

وكان عملهم هذا علميا بحتا من حيث الموضوعية ومن حيث دقة المناهج التي ساروا عليها. أما الموضوعية فتتمثل في تصوّرهم الواضح أولا للمعيار اللغوي أي الكيان اللغوي الذي عزموا على وصفه وتدوينه وثانيا لكيفية التعرّف على الناطقين بهذا المعيار. ولجأوا في ذلك إلى مقاييس موضوعية وأولها هو المرجع لهذا المعيار فقالوا: «...هي اللسان الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم» وهذا يشمل بالطبع كل العرب الذين تكلموا بهذا اللسان قبلهم وأهم من هذا من لم تتغيّر لغته منهم بعدهم. والمقياس الذي اعتمدوا عليه في ذلك مفهوم «الفصاحة» وكانوا يميّزون به الناطقين بالعربية الذين لم تتغير لغتهم عن عربية القرآن عن غيرهم كما قلنا. وفصحاء العرب عندهم هم «الموثوق بعربيتهم الذين ترضي عربيتهم» لهذا السبب. فهم كل من سلِم من اللحن وهو الخروج عما

هو متواضع عليه عند الفصحاء وهو بالتالي كل ما «ليس من كلام العرب» أي كل عبارة **لا تنتمي إلى مجموع العبارات** التي تواضعوا عليها إفرادًا وتركيبا ودلالة أو لا ينتمي مثالها إلى مُثُل العربية. وكانوا يشترطون على الناطق الذي يُؤخذ بلغته أن تكون العربية هي لغة منشأه خوفًا من أن تظهر على لسانه عند الكلام العفوي هذا الذي «ليس من كلام العرب».

وتمسك اللغويون في أخذهم عن العرب بمبدأ آخر صارم وهو الاعتماد أساسًا **على السمع والمشافهة** والامتناع المطلق من الرجوع إلى ما هو مكتوب وكانوا يسمون المصادر المكتوبة «بالصحف» ويحطون من قيمة كل ما أخذ عن هذه الصحف من الشعر واللغة. وقد حاولنا أن نبين أن ليس المكتوب كمكتوب هو الذي كان يخيفهم ويريبهم بل ما كان رائجا من ذلك في ذلك الزمان من كتب الأساطير والحكايات عن قدماء العرب وغيرهم وما حُشيت به هذه الصحف من الشعر المصنوع أو المنحول. ثم هناك سبب آخر وهو أن المصدر الموثوق الوحيد من حيث اللغة ومن حيث أصالة الشعر كان عند فصحاء العرب يتناقلونه جيلا بعد جيل وفي وسط خاص وهم «أهل العلم بالشعر». أما فيما يخص كلام العرب فلا يعقل أن يؤخذ بشيء من ذلك إلا بالسمع والمشافهة «إذْ لا يحكم ذلك إلا المشافهة» كما يقول سيبويه. وزاد من جاء بعده كسبب تفادي خطر التصحيف. وأكّد على ذلك ابن قتيبة وسكت عما سبق أن ذكرناه! وموقفه بذلك مريب كما رأينا.

أما فيما يخص الثقة فيما يُروى فكان لهم مقياس علمي اعتمد عليه جميع العلماء قديما وهو أن يكون للرواية أكثر من مصدر (أن تصدر من أكثر من وجه وموثوق) فكل ما هو «مجتمع عليه» كما كانوا يقولون- بما في ذلك القراءات القرآنية- فلا مَرَدّ له أبدا.

ومقياس آخر لا يقل موضوعية عن هذه المقاييس هو الاعتماد على **كثرة المستعملين** للعبارة الواحدة مع التنبيه على قلتهم بالنسبة لعبارة أخرى وهذا الذي يشير إليه سيبويه-في كل صفحة من كتابه: «هذا عربي كثير وهذا أكثر وأعرف وهذا قليل أو لا يكاد يعرف». فإذا كثر كثرة لا مزيد عليه قال: **هو أعرب** وهو الذي يمثل عنده لغة «عامة العرب». فهذا المقياس هو الذي يجعل من موقف اللغويين العرب موقفا علميًا بحتًا لأنه بُني على أن اللغة

ظاهرة اجتماعية فلا بد أن يكون الكلام المدون منها والأصول المستخرجة منه تمثّل حقّ التمثيل استعمال جماعة الناطقين بها لا استعمال بعض الأفراد. وهذا ليس معناه أنهم استهانوا باللغات[2] أي بتأديات خاصة وقد تكون مطردة أو كثيرة. بلى، فقد نبّهوا على وجودها ولم يستقبحوا منها إلا التي خرجت في الوقت نفسه عن القياس وعن الاستعمال إلا القليل وهو في الحقيقة **استقباح كافة المستعملين**. وسمى الشائع من العبارات والمطرد في الاستعمال بالأفصح والأعرف والأعرب. وغيره سموه لغة وليس بالضرورة أداء لهجيا بل هو طريقة في الكلام قد توجد هنا وهناك أو تنفرد بها بعض الجماعات.

وعلى هذا فالمعيار اللغوي الذي حدده العرب للعربية لا يشبه أبدًا المعيار اللغوي الذي يخص طبقة اجتماعية معينة في مجتمع ما كالبرجوازية أو الطبقة الحاكمة أو أي شريحة اجتماعية أخرى. فالمعيار العربي عند لغويينا هو «لغة عامة العرب» أو «لغة الكافة» كما يقول ابن جني. وهو **معيار موضوعي** لأنه معيار للغة الأغلبية لا لفئة قليلة. **وهذا المبدأ هو الآن المعمول به في وصف اللغات:** فلا توصف لغة إلا إذا حُدِّد كيانها الجغرافي ومجموعة الناطقين بها واعتبار الأكثر الأغلب من ضروب كلامهم مع التنبيه على القليل في الاستعمال.

وقد شاعت في زماننا بعض التصورات الخاطئة حول هذا المعيار وحول ما قام به اللغويون من أعمال. من ذلك:

القول بأن اللغويين العرب لم يتفطَّنوا إلى وجود لغة مشتركة، في ذلك الزمان، خاصة بالإنتاج الأدبي وهي عند الكثير من معاصرينا لغة القرآن ولغة الشعر ووجود لهجات منفصلة عنها يتخاطب كل قوم منهم بإحدى هذه اللهجات. وبالتالي أخطأوا الغرض تماما عندما خلطوا في وصفهم لما ظنوا أنه لغة واحدة بين «الفصحى» و«اللهجات» فجاءت أوصافهم مضطربة وهذا بعيد عن الوصف العلمي في زعمهم.

---

(2) – وقد أساء الكثير من معاصرينا فهم ما قصدوه من كلمة «لغة».فالذي تبيَّن لنا هو أن اللغة لا تدل، عند سيبويه مثلا، على اللهجة أي اللسان القبلي أو المحلي بكامله بل على كيفية استعمال العرب أو جماعة منهم لوحدة لغوية واحدة كما تدل أيضا على طريقة الكلام عموما. وقد سبب هذا التوهم وغيره الاعتقاد الراسخ بوجود لهجات بجنب العربية الفصيحة لا كتنوعات جزئية.

وقد حاولنا أن نبيّن أن هذا الذي يسمونه باللهجات موجود على حدّ سواء في التخاطب (قديماً) وفي القرآن وفي الشعر فلا تنفرد بما هو لَهجيّ لغة التخاطب أبدا والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ثم لا توجد تأدية لهجية إلا ولها شاهد شعري عليها. ولا يمكن أن نفسر ذلك برجوع العربي إلى سجيته لأنه لو كان الأمر كذلك لتغلبت «السجية» على اللغة الأدبية وغزتها بالتالي لغة التخاطب منذ الجاهلية إلى زمان سيبويه. ويتناسى هؤلاء المدّعون أن العرب كانوا أُمِيِّين واللغة الأدبية المنفصلة عن لغة التخاطب تنشأ غالبا بتعميم الكتابة والثقافة المكتوبة في مقابل اللغة الملحونة وبالتالي تبتعد عن لغة التخاطب. ثم حاولنا أن نبين أيضا أن نظام اللغة في العربية القديمة واحد لا يختلف في التخاطب والنص القرآني والشعر وأدل دليل على ذلك هو أن سيبويه عندما يصف ضربا من الكلام مأخوذًا من لغة التخاطب فإنه يتمكن غالبا من الإتيان بما يماثله في القرآن وفي الشعر والعكس فكثيرا ما يقول: «ومثل ذلك في الشعر ونظير هذا في الكلام ونحو هذا في القرآن». فهذا يدل على أن نظام اللغة العربية كان موحدا في جوهره كرفع الفاعل ونصب المفعول وتصريف الأفعال في95% منها ماضيا ومضارعا وأمرا ودخول أداة التعريف والتنوين والصفة والإضافة وكذلك كل ما اطَّرد في الاستعمال مهما كان هذا الاستعمال وهو كثير جدا بل هو أكثر ما تتصف به العربية .

أما «اللهجات» فلم نجد منها إلا تأديات معدودة بالنسبة إلى كل قبيلة وكيف يمكن أن نسمي لهجة أي لسانا قبليا أو إقليميا هذه التأديات القليلة التي وصفت بها لغة هذيل ولغة ربيعة؟. أما تميم والحجاز فهي تسمية لعدد كبير من القبائل وإذا قارنا هذه التأديات بين هاتين المجموعتين من القبائل فهي ضئيلة أيضا بالنسبة أولا لما اطرد استعماله من العبارات والصيغ النحوية الصرفية وثانيا لما اطرد في الاستعمال من المفردات. ولمسنا ذلك في العدد الضئيل من لغات القرآن واللغات عامة بالنسبة إلى لغة عامة العرب.

ومن الأوهام الخطيرة أيضا نذكر ما ادّعاه بعضهم من أن اللغويين العرب اعتمدوا أكثر على الشعر في سماعهم وفي استنباطهم للقواعد وتجاهلوا أنّ لغة الشعر غير لغة النثر. وهذا غير صحيح لأن نظام اللغة واحد كما بيناه ثم يَختص الشعر برُخص سموها بالضرورات

الشعرية وهي من جملة ما يُرخَّص للشاعر المرتجل في استعماله لما يُعتبر أصلا من حيث الاشتقاق أو التفريع من الأصول كفكّ المدغم وكالفصل بين الجار والمجرور وصرف ما لا ينصرف وهي أشياء معدودة محصورة وهذا لا يعني أنه يجوز للشاعر أن يخرج عن نظام اللغة فيلحن. وقد قالوا هم بأنفسهم: «يقولون [أي النحاة] **ليس الشعر حجة في النحو لأن الشاعر يضطرّ فيُلْجِئه الاضطرار إلى أن يقول ذلك**» (النقائض، 2-552،551). فامتناع الاحتجاج به يخص فقط الضرورة لا غيرها مما يجئ مماثلا لما في النثر. وأما كثرة استشهادهم بكلام العرب فهو **لأنه كان مجالا مفتوحا من الاستعمال** في زمان الفصاحة العفوية: يرجع اللغوي إلى فصحاء العرب للسماع في أي وقت. أما القرآن الكريم فهو مخاطبة الخالق للخلق بالعربية فمجاله خطاب له حدّ أي له بداية ونهاية. ومع ذلك فكل الأصول النحوية الأساسية قد استنبطت في وقت مبكر جدا من التصفح للنص القرآني.

وقالوا أيضا أنهم اعتمدوا على البدو في سماعهم فالذي وصفوه هو لغة البداوة فقط! ولا يحتاج هذا الادعاء إلى ردّ فالنصوص التي جمعوها شاهدة هي وحدها على وجود الكثير من الكلام والشعر المنسوب إلى أهل الحضر وسبب سوء الفهم هنا هو كالعادة عدم الرجوع إلى النصوص مع الاعتماد على ما يوجد في كتب الطبقات وقد ظهرت هذه الكتب بعد أن أصبح أهل البدو هم أصحاب الفصاحة السليقية فالسماع عند مؤلّفي كتب الطبقات هو السماع من الأعراب فقط لزوال الفصاحة السليقية من الحضر في زمانهم.

هذا وقد بيَّنا أيضا أن اللغويين سمعوا في العصر الأول الروايات المختلفة للبيت الواحد واختاروا منها ما كان حجة لما قالوه وقد يستشهدون بالرواية الأخرى لنفس البيت لاحتجاج آخر وهذا شيء مشروع جدا لأن الكلام المسموع الذي لا يكون حجة على شئ قد يُسمع من جهة أخرى بصورة أخرى تكون حجة على ذلك ويدخل في مجموع الكلام الذي سُمع واسْتُقرِئَ ولوحظ اطراده. وقد ظلم بعض القدماء من اللغِويين الأدباء سيبويه في اتهامهم إياه بتغيير نص البيت وهو برئ كما بيّن ذلك جميع من دافع عنه كابن ولاد وابن السيرافي

والشنتمرى وغيرهم وما قالوه في ذلك أن العربي الفصيح إذا غيّر ما يرويه فكلامه حجة مثل ما كان عليه البيت قبل أن يغيّره. ولا يُعقل أن تكون الدواوين التي صنعت بعد سيبويه بكثير (كلها) هي الحاكـم في ذلك (وبالأحرى كتب الأدب!) **لأن مصدرهـا الموثـوق الوحيد هو ما رواه النحويون واللغويين وحدهم** فما يرويه سيبويه وهو ثقة هو أقدم بكثير وقد سمعه مباشرة من العرب أو من شيوخه فهو المصدر الأول ولذلك ما أتى به سيبويه وشيوخه أجلّ مصدر وأوثقه فعدم وجود رواية له في ديوان صنعه السكري مثلا ليس دليلا على عدم صحته كشاهد. ولا بد من التحفظ التام مما قاله المبرد في ذلك وابن قتيبة (والناقل عنه العسكري) إذ **خالفوا بذلك كل العلماء.**

وتطرقنا بعد هذا إلى التحريات الميدانية التي قام بها اللغويون من سنة 90 تقريبا إلى غاية القرن الرابع وبينا أن جلّ ما حُصد من اللغة ينحصر في زمان اللغويين الكبار من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء وفي ذلك الزمان أيضا تم الاستقراء لكلام العرب ونتائج ذلك العمل السماعي الاستقرائي العِمْلاق نجدها محصورة كلها في كتاب سيبويه فيما يخص النحو وهو مع ذلك أول كتاب في النحو ولم يسبقه أي كتاب يماثله في عظمة محتواه.

وحاولنا أن نبيّن في هذا الفصل الرابع والأخير كيف تم هذا السماع عبر الجزيرة العربية ومن هم الأشخاص الذين تجولوا فيها وسمعوا بالفعل وسكتنا عن اللغويين الذين اعتمدوا فقط على السماع من شيوخهم. ثم ذكرنا أهمّ المناطق والأماكن التي أجروا فيها تحرياتهم ولاحظنا أن القدماء من تلاميذ أبي عمرو مثل الخليل ويونس وأبي الخطاب وعيسى بن عمر قد غطوا مساحات واسعة جدا. وقد اعتمد على سماعهم سيبويه كثيرًا وكذلك فعل الأصمعي وربما يكون هذا الأخير قد فاق كل اللغويين في تجوله عبر الجزيرة إلا أنه قد نسب إليه أبو الفرج الاصبهاني وغيره من المؤلفين غير النزهاء أقوالا وروى عنه من الحكايات ما لا أساس له من الصحة وما يقوله عنه أيضا ابن دريد (وهو من شيوخ أبي الفرج) هو أيضا مريب إذ يختلط فيه الصحيح بالزائف. فيجب أن ينظر في كل ذلك ولا يعتمد

عليه إلا فيما لا يخالف الأحداث التاريخية الحقيقية وما استمرّ واطّرد في هذه الحكايات من موضوعات الحوار ومن أنواع الأسئلة. أما ما احتوت عليه من اللغة والشعر فالمرجع في ذلك كتب اللغة الموثوقة والدواوين التي صنعها العلماء في القرن الثالث مثل السكري وغيره ليس إلا. وهذا يخص تلك الحكايات لا ما آحتوت عليه أمهات المصادر مثل كتاب سيبويه.

وقد لاحظنا المستوى العالي الذي كان تتصف به مناهجهم في التحري وطرائق السماع وتشدّدهم في قبول المسموع. وهذا دليل على تحرجهم الكبير وكذلك حذقهم ومهارتهم في الحصول على المعطيات اللغوية. فلم تكن هذه المناهج بدائية أبدا كما يدعيه بعضهم وكما حاولنا أن نبينه ويدل على ذلك التصفح الواسع لكتب اللغة الموثوقة. ويُتحفظ هنا أشدّ التحفظ مما ذكره المتأخرون من اللغويين من المسموع إذ لم يسمعوه مباشرة وذلك إذا لم يثبت عند الذين سمعوا من العرب وشافهوهم أو لم يُسند المتأخرون رواياتهم إلى هؤلاء الذين شافهوا العرب والزائف فيما رواه هؤلاء المتأخرون مع الأسف موجود.

هذا وقد كان هذا الذي قاموا به من التحريات **بديعا** حقا ولا عجب في ذلك فهم كلهم مبدعون لأنهم ظهروا في عصور الإبداع رحمهم الله رحمة واسعة.

وقد استقرى علماء العربية الأولون كل هذا المسموع لاستنباط الثوابت وتفسير كل ما شذّ عنها تفسيرًا علميا دقيقا-وقد بدأوا بالنصّ القرآني كما قلنا قبل السماع لكلام العرب- واحتاج هذا العمل الكبير إلى تحليل واسع لكل ما سُمع ودُوّن وما استخرج منه من قوانين وكان تحليلا عميقا جدا واعتمدوا في ذلك على وسائل عقلية راقية وهو نوع من المنطق الرياضي كانت لا تعرفه الأمم التي سبقت العرب ونكتفي بهذه الإشارات الخاطفة إذ سنلتزم بتحليل هذه الوسائل العقلية الخاصة وسنحاول أنْ نكشف عن ماهيتها وخصائصها وعما ذا كانت النتائج (وسيكون عنوان هذا العمل: «منطق العرب في علوم اللسان») إن شاء الله أن يُطيل العمر وهو العليّ القدير.

فهرس الأعــلام

الألـف

- الأباء بن قيس: 103
- أبان بن ثعلب: 297.
- أبان بن سعيد بن العاص: أبو الوليد: 106
- إبراهيم أنيس: 149.
- إبراهيم بن سعد: 201
- إبراهيم بن عبد الله الطالبي (بن الحسن بن علــي بن أبي طالب): 121
- إبراهيم بن عبد الله: 311
- إبراهيم ابن هرمة: 121
- الأبرق الحِّري: 83
- أبَيّ بن سُلميّ: 84
- أبيّة بنت عقبة الطائي: 116
- الأبيرد بن المعذّر اليربوعي: 114
- الأثرم: 125
- ابن الأثير: 38
- الأجدع بن خشرم: 118
- الأجدع بن مالك الهمداني: 104
- الأحبش التميمي: 85
- أحمد بن يحي ثعلب: 145، 296.
- أبو أحمد العسكري: 288، 289.
- ابن أحمر الباهلي: 145
- الأحمر بن جندل: 85
- ابن أحمر الكناني: 90
- الأحمر بن مالك الطائي: 116
- الأحوص بن عبد الله بن محمد: 118
- الأحوص: 122
- أُحيحة بنُ الجُلاَّح: 74، 92.
- الأخزم السّنْبسي: 88
- أبو أخزم: 88
- الأخضر بن هبيرة: 84
- الأخطل الضبعي: 99، 111.
- الأخْطل بن حماد بن الأخطل بن ربيعة:
- الأخطل بن ربيعة (حفيد النمِر بن توّلب): 101، 114.
- الأخطل بن غالب: 114
- الأخطل: 12، 68، 69، 287، 357.
- الأخفش الأوسط (أبو الحسن سعيد بن مســعدة): 13، 43، 46، 121، 157، 166، 167، 192، 197، 212، 269، 276، 302، 306، 313، 341، 344، 375.
- الأخفش الصغير: 256، 279، 294، 318.
- الأخنس بن شهاب: 80
- الأخوص الرياحي: 223
- الأخوص اليربوعي: 102
- الأخيل الطائي: 88
- أدهم بن أبي الزّعراء: 116
- أدهم بن محرز: 120
- أُديم بن مرداس التميمي: 101
- أربد بن شريح: 84
- أربد بن قيس العامري: 101
- أرسطو: 374، 377.
- أرطأة بن سُهيَّة: أبو الوليد: 101
- أروى بنت عبد المطّلب: 106
- الأزق الهمداني: 119
- أزهر بن أرطأة بن سبحان: أنَس بن زُنَيْم اللّيثي: 106
- الأزهري أبو منصور: 127، 346، 355، 362، 363.
- أسامة بن حبيب: 103
- أسامة بن لؤي: 88
- أبو إسحاق: 344
- ابن إسحاق: 292، 293، 300.

- ابن أبي إسحاق (عبد الله): 181، 185، 256، 338.
- الأسحم بن الحارث: 88
- الأسد الرّهيص: 88
- أسد بن ناعصة: 89
- أسد بن يعمران: 106
- الأسعر الجعفي: 94
- الأسفع الأرجي: 94
- الأسلوم اليامي: 94
- أسماء بن خارجة: 114
- أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق: 106
- إسماعيل بن يسار: 120
- أبو الأسود الدؤلي: 69، 115، 338، 391، 393.
- الأسود بن زمعة: 103
- الأسود بن عامر الخزاعي: 104
- الأسود بن قطبة: 115
- الأسود بن يَعْفُر : 85، 256.
- أسيد بن أبي إياس الدؤلي: 115
- الأشتر النخعي، مالك بن الحارث: 104
- الأشعث بن قيس بن معد يكرب: 117
- الأشعر الغطفاني :يزيد بن سنان: 84
- الأشعرالرّقبان الأسدي: عمرو بن حارثة: 87
- الأشلّ البكري: 110
- الأشهب بن الحارث الغنوي: 101
- الأشهب بن رميلة: 102، 114.
- ذو الإصبع الطائي: 116
- ذُو الإصبع العدواني:حُرثان بن حارثة: 81
- الأصفهاني (أبو الفرج): 16
- الأصفهاني لغدة: 352، 353، 354.
- الأصم الضبي: 114
- الأصمّ بن مالك: 120
- الأصمعي: 12، 13، 14، 15، 40، 70، 73، 77، 120، 126، 145، 170، 172، 225، 257، 264، 279، 286، 291، 294، 296، 297، 298، 299، 303، 304، 305، 306، 307، 309، 313، 339، 343، 347، 350، 351، 352، 354، 355، 356، 358، 359، 361، 363، 364، 366، 367، 371، 375، 376، 380، 381، 386، 403.
- الأضبط بن قُرَيْع: 73، 85، 86.
- ابن الأعرابي: 12، 43، 156، 235، 291، 294، 297، 300، 304، 324، 339، 343، 347، 355، 360، 390.
- الأعرج المعنيّ الطائي هو عدي بن عمرو: 102
- الأعزّ بن السليك: 79
- الأعسر الأزرقي: 120
- الأعشى التغلبي: 111
- أعْشى باهِلة: 82
- أعشى بن أبي ربيعة: 111، 122.
- أعشى بني أسد: 87
- أعشى بني الحرماز: 102
- أعشى بني ضورة: 111
- أعشى بني عوف الشيباني: 78
- أعشى طرود: 112
- أعشى عكل: 114
- الأعشى ميمون: 14، 297، 299، 304.
- أعشى همدان: 69
- أعصر بن سعد: 75، 76.
- الأعلم الشنتمري: 277، 279، 334، 402.
- الأعلم الهذلي : حبيب بن عبد الله: 91
- الأعنق بن الباهلية: 84
- الأعور النبهاني: 116
- الأعور: 278
- الأغطش: 311
- الأغلب العجليّ هو الأغلب بن عمرو: 99
- الأغلب الكلبي (بشر بن حزرم): 83
- الأغلب بن نباتة الأزدي: 117
- أفلح بنّ يسار :أبو عطاء السندي: 121
- أفنون التغلبيّ: 80

- الأفوَه الأَوْدي: 94
- الأفوه: 314
- الأقرع ابن معاذ:113
- الأقرع بن حابس: 105
- الأقيبل القيني: 118
- الأقيشر الأسديّ: 87
- إلياس: 80
- إلياس بن مضر: 114، 126.
- امرؤ القيس الكلبي :بن حُمام بن مالك: 93
- امرؤ القيس بن حجر: 14، 68، 73، 78، 88، 97، 223، 255، 281، 284، 298، 299، 304، 305، 312، 317، 339.
- امرؤ القيس بن عابس بن المنذر الكندي: 102
- امرؤ القيس بن عانس (كندة): 105
- امرؤ القيس بن عدي: 115، 118.
- امرؤ القيس بن كلاب: 83
- امرؤ القيس بن مالك: 95
- الأموي (أبو أحمد عبد الله بن سعيد): 343
- أمية بن أبي الصَّلت: 312
- أميّة بن أبي عائذ العمري: 117، 121.
- أمية بن حرثان بن الأسكر: 103
- أمية بن أبي عائذ: 117
- أميمة العبشمية: 91
- أبو أناس الدؤلي أو الديلي: 103
- ابن الأنباري (أبو بكر): 9، 40، 157، 296.
- أنس بن مالك: 201
- أنس بن مدرك: أبو سفيان: 105
- أنس بن نواس بن شيحان المحاربي: 100
- أنطوان مايي: (A. MEILLET): 270
- أنيف بن حكيم الطائي: 116
- أنيف بن زُبّان: 88
- أُهبان بن كعب: 92
- أوس بن ثعلبة التميمي: 102
- أوس بن جبناء: 114
- أوسْ بن حارثة: 88
- أوس بن حجر: 85، 314.
- أوس بن غلفاء: 85
- أوس بن مغراء القريعي: 102، 114.
- ابن أوفَى: 112
- أوفى بن حجر: 116
- أوفى بن مطر: 85
- إياس ابن الأرتّ: 88
- إياس بن الأنف: 116
- إياس بن سهيم: 103
- إياس بن قبيصة: 88
- إياس بن مالك بن عبد الله الطائي: 102
- أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي: 106
- أيوب بن خولي: 119

البـاء

- باعث بن حويص: 88
باعثُ بن صَريم: 78
- بثينة بنت حباب: 118
- بجير بن أوس: 85
- بُجير بن الحصين: اللّجلاج الذبياني: 101
- بُجير بن العوّام: 91
- بجير بن بجرة: 116
- بجير بن زهير ابن أبي سلمى: 100
- بُجير بن عبد الله: 83
- بجير بن عنمة: 88
- بجير بن لأي: 79
- البحتري: 127
- بداء بن سليمان: 94
- بدر بن سعيد: 87
- بدر بن عامر: 117
- بُديْل بن أم أصْرم: 105
- البراء ابن قيس: 85
- البَراء الضَّبِّيّ: 84
- البراء بن وفيد العُذري: 104

- البراق بن روحـــان: 79
- برة بن الجحدر : 116
- البُرج بنُ مُسْهِر: 88
- أبو بردة: 311
- برْدع بن زيد بن النعمان: 104
- البرك وهوعوف بن مالك: 78
- بروكمان: 300
- برير بن خضير الهمداني: 119
- البُريق الهذلي، عياض بن خويلد: 103
- البسوس بنت منقذ: 85
- بشار بن برد: 14، 40.
- بشّار بن جُمانة: 83
- بشامة بن الغَدير: 84
- بشامة بن الغدير الذّبياني: 114
- بشر ابن الأجدع الهمداني: 119
- بشر الغريري: 116
- بشر الملقطي: 116
- بشر بن أبي خازم: 87، 220.
- بشر بن رُديح (أو دريح): 100، 112.
- بشر بن سليمان: 113
- بشر بن سوادة: 80
- بشر بن صفوان: 113
- بشر بن عبد الرحمن: 118
- بشر بن عُليق: 88
- بشر بن عمرو: 78
- بِشر بن أبي عوانة العبديّ: 80
- بشر: 314
- بشير بن عقربة:أبو اليمان الجهني: 106
- بطّال بن معاوية: 113
- بعيث بن حريث: 111
- البغدادي (عبد القادر): 283
- بقيلة الأصغر: 113
- بُقَيْلة الأكبر:أبو المنهال: 106
- بكر بن جبلة: 105
- أبو بكر الصّدّيق: عبد الله بن عثمان (أبو قحافة): 106
- البكري: 352، 355.
- بكير أصمّ: 78
- بلال بن أبي بُرْدَة: 13، 343.
- بلال بن جرير: 115
- بَلعاء بن قيس: 90
- بنت بجير بن عبد الله: 83
- البهدلي عمرو بن عامر (أبو الخطاب): 367
- البهلول بن بشر: 111
- بهيج بن مسرور: 83
- بهيس بن هلال: 84
- أبو البيداء الرياحي: (أسعد بن عصـــمة): 126، 367.
- بيهس العُذري: 95
- أبو بيهس: 102
- بيهس بن صهيب: 119

التاء

- تأبّط شراً(ثابت بن جابر): 82
- تليد الضبيّ: 114
- أبو نَمارة بن مالك: 94
- أبو تمام: 127
- تميم بن أُبَيّ بن مقبل: 100
- التّوْأم اليشكري معاصر لامرئ القيس: 78
- توبة بن الحمير: 113
- توبة بن مضرّس: 85
- التوّزي: 344

الثاء

- ثابت بن أبي ثابت: 343
- ثابت بنَ وعلة: 117
- ثابت قطنة: 117

- أبو ثَرْوان العُكْلي: 369
- ثعلب (أبو العبـــاس): 178، 179، 193، 296، 297، 299، 303، 343، 358، 368، 376، 390.
- ثَعلبة بن العبدي: ثعلبة بن حزن: 80
- ثعلبة بن صُعيْر: 95
- ثعلبة بن صغير بن خزاعي القضاعي العدري.
- فاتك بن زيد العَنْسي (عنس من مذحج): 108
- ثعلبة بن صُغير: 85
- ثُمامة بن أُثال،أبو أمامة بن نعمان: 106
- أبو ثوابة: 126
- ثوب ابن النار: 78
- ثوب بن شحْمة: 85
- ثور بن ثلدة: 102
- ثور بن مالك: 102

الجيـم

- أبو جابر: 88
- جابر ابن فطن: 85
- جابر بن حريش: 98
- جابر بن حُنَيّ السفاح التغلبيّ: 80
- جابر بن رألان السِّنبسي: 88
- جابربن ثعلبة الجرمي: 88
- الجـــــاحظ: 12، 14، 25، 26، 28، 29، 34، 36، 40، 44، 48، 51، 52، 53، 54، 55، 59، 60، 62، 69، 70، 126، 136، 137، 157، 162، 178، 190.
- الجاربردي: 37
- الجارود بن أبي سبرة: 358
- جارية بن مشمِّت: 85
- جامع بن مرخية: 113
- جان سيجي: (Jean Seguy): 374
- جاير: (R.Geyer): 277
- جبل بن الجوّال: 105
- جبلة بن مالك: 88
- أبو جُبيل البرجُمي: 85
- جبيهاء الأشجعي: 113
- الجحّاف بن حكيم: 112
- جَحْدر ابن ضبيعة: 78
- ابن جحفل اللبيني: 113
- جُحَيْش بن حرشف: 94
- جدي بن الدّلْهات: 76
- جديمة بن وائلة الشاكري: 94
- جذيمة الأبرش: 72، 73، 74، 76، 97.
- الجّراح بن عمرو: 94
- أم الجرّاح العدوية: 114
- أبو الجراح (جرو بن قطن العقيلي): 369
- جرانُ العَوْد النّمريّ: الحارث بن عامر: 85
- الجرجاني (عبـــد القـــاهر): 36، 38، 60، 61، 62، 168.
- جرفاس بن عقبة: 114
- الجرمي (أبو عمر): 276، 314، 344.
- الجرنفش بن عبدة: 116
- جروة بن يزيد: 116
- جَريبَة بن أوس: 85
- جرير بن الخطفى: 126
- جرير بن عطية: 114
- جريـــــــــر:12، 14، 220، 278، 287، 301، 357.
- جزء بن ضرار: 101
- ابن الجزري: 337
- جسّاس بن مرّة: 78
- أبو جسيس الجواد: 94
- جُشَيْش بن نمران: 85
- الجعد بن ضمام: 117
- أبا جعفر الرؤاسي: 340، 342.
- جَعْفر بن الربيع: 83
- جعفر بن ٌعرار: 94
- جعفر بن عفّان: 116

- أبو جعفر الكوفي: 306
- أبو جعفر المدني: 337
- جعونة بن مَرْثد: 104
- جفنة بن قرّة: 113
- أبو جُلَيْحة بن أحمد: 83
- جليلة بنت مرّة: 78
- جمال الدين بن مالك: 202
- الجمحي(محمد ابن سلام): 15، 72، 75، 163، 189، 256، 292، 294، 313، 338، 342، 357، 375، 398.
- الجموح بن عمر الفهمي: 117
- الجميح الأسدي (منقد بن الطمّاح) : 87
- أبو جميل: 125
- جميل بثينة: 118، 250.
- جناد بن واصل: 302، 394.
- جندب بن خارجة: 88
- جندب بن عمّار: 105
- جُندب بن العنبر: 85
- أبو جُنْدب بن مُرّة: 91
- جندل بن الراعي: 13
- جندل بن المثنى: 114
- جَنوب أخت عمرو ذي الكلب: 91
- ابن جني (أبو الفتح عثمان): 130، 134، 131، 132، 135، 146، 157، 162، 163، 164، 184، 197، 198، 279، 281، 285، 346، 376.
- جهم بن خلف المازني: 367
- جَهْم بن شبل: 101
- جهنّام البكرى (عمرو بن قطن): 78
- الجهيش بن أويس: 105
- جوّاس بن ثابت: 118
- جوّاس بن نُعَيْم: 85
- الجوهري أبو نصر اسماعيل بن حماد : 128، 346.
- أبو الجويرية العبدي: 111
- جيرو(P.Guiraud): 204
- جيليرون (Gilliéron): 374

الحاء

- حابس بن سعد: 105
- حاتم الطائي: 87، 116، 299.
- حاجب الفيل: 114
- حاجب بن حبيب: 87
- حاجب بن زرارة: 85
- حاجز بن عوف: 89
- الحارث بن جَبَلة: 93
- الحارث بن جحدِم: 119
- الحارث بن حلزة: 72، 78.
- الحارث بن خالد العاصي:388
- الحارث بن خالد بن العاص: 117
- الحارث بن خالد : 117، 122.
- الحارث بن زهير: 83
- الحارث بن سميّ بن روّاس: 119
- الحارث بن صريم الأصغر: 94
- الحارث بن ظالم: 84، 86.
- الحارث بن عُباد: 78
- الحارث بن عمرو: 105
- الحارث بن كعب الشيني: 111
- الحارث بن كعب المذحجي: 94
- الحارث بن كلال: 105
- الحارث بن كلدة: 100
- الحارث بن مالك: 102
- الحارث بن مُرّ : 88، 94.
- الحارث بن نُهَيْك: 86
- الحارث بن هشام: 103
- الحارث بن همام: 78
- الحارث بن وعلة: 95

- الحارثة بن بدر: 84
- حارثة بن بدر الغداني: 115
- حارثة بن صخر القيني: 118
- حارثة بن لأم: 88
- حازم بن أبي طرفة: 90
- الحازمي: 350
- حاطب بن مالك: 85
- حامل بن حارثة: 88
- الحُباب بن المُنْذر: أبو عمرو: 106
- حُباب بن بكير: 83
- حبال الكلبي : حبال بن حِسْل: 93
- حبشة بن سلول: 74
- حَبَشِية بن سلُول: 92
- حبناء: 120
- حبيب بن خُدرة أو جَدرة: 108
- حبيب بن عوف العبدي: 111
- حبيبة بنت عبد العزّى: 84
- حبيش الأسدي: 102
- حبيش بن عبد الله: 94
- الحجّاج بن علاط . حُرَيث بن زيد الخيل:106
- الحجاج بن علاط البهزي: 112
- الحجاج بن يوسف: 40، 331، 337، 338.
- حجل بن نضلة: 82
- جحدر بن معاوية: 114
- حجر بن خالد: 79
- حجر بن قحطان الوادعي: 119
- حَجْل بن نَضْلة: 82
- حُجَيّة بن المضرَّب: 88
- الحُجيجة الشيبانية: 78
- حُديج بن حبيب: 84
- الحذر بن زياد: 106
- حُذيفة بن أنس: 103
- حذيفة بن بدر: 95، 104.
- حراب بن الورد: 94
- حران بن عمرو: 84
- حرب بن ريطة: 105
- أبو حردبة: 114
- حُرقة بنت النعمان: 89
- حريّ بن ضمّرة: 85
- حري بن عامر: 88
- حريث بن زيد الخيل: 105
- حريث بن محفّض المازني: 102
- حُرَيْثة بن عَمرو: 85
- ابن حزم: 96، 318.
- حزن بن جناب: 85
- الحزين الديلي: 115
- حسام بن ضرار: 118
- حسّان بن ثابت الأنصاري: 106
- حسّان بن حنظلة: 88
- الحِسْل بن حاتم: 94
- أبو الحسن الأثرم: 320، 343
- الحسن البصري: 317، 337.
- الحسن بن سهل: 344
- الحسن بن عمرو: 113
- الحسن: 40، 293.
- حُسيل بن سُجَيْع: 79
- حسين النصار: 202
- الحسين بن مُطير الأسدي: 121
- الحشاش الاصغر: 94
- الحُصين بن الحُمام: 84
- حصَين بن المنذر: 111
- حصين: 115
- الحضرمي بن عامر: 105
- حُضين بن المنذر الرقاشي: 123
- حطائط بنْ يعفر: 85، 86.
- حطّان الأعسر: 117

- حطّان الإيّادي: 117
- الحطيئة: 72، 170، 268.
- يحي بن أبي حفصة: 120
- الحكم بن عبدل: 116، 122.
- الحَكَم بن عمرو: 96
- الحكم بن معمر الخُضْري (خضر "محارب قيس"): 120
- أم حكيم: 113
- ابن أمّ الحكم: 279
- حكيم بن جبلة: 106
- حكيم بن جذيمة: 86
- حكيم بن مالك: 113
- حكيم بن معاوية: 114
- حُلَيل بن حبشية: 92
- حماد الراوية: 293، 294، 296، 297، 301، 303، 304، 305، 306، 311.
- حمام بن قبيصة: 113
- حَمَد الجاسر: 345
- حمراء بنت ضمرة: 85
- حمصيصة بن شراحيل: 78
- حميد بن الأرقط: 114
- حميد بن ثور: 106
- حُميد بن قيس الأعرج: 337
- حميد بن مالك الأرقط:102
- حميدة بيت النعمان: 118
- جِناك بن سنّة: 83
- جِناك بن كلاب: 83
- أبو الحنّان: زياد بن علبة: 91
- أبو الحنان الهذلي: 91
- أبو حنبل: 88
- أبو حنش (عُصْم بن النعمان): 82
- حنظلة بن أبي عفراء: 88
- حنظلة بن ثعلبة: 79
- حنظلة بن سيار: 99
- حنظلة بن شرقي:105
- حنيف بن عمير: 99
- أبو حنيفة الدينوري: 345
- حوثرة بن وداع: 116
- الحَوفزان: 78
- الحويرث الراسبي: 117
- حيّان بن ربيعة: 88
- حيّان بن ظبيان: 112
- حيّان بن قرط: 86
- حية بن خلف: 88
- أبو حية النميري (الهيثم بن الربيع): 113، 120.
- أبو حية النميري الثقفي: 113

الخاء

- خالد ابن صعب: 119
- خالد بن الصَّقْعَب: 93
- خالد بن المهاجر بن خالد: 117
- خالد بن جعفر: 83
- خالد بن زهير من بني مازن بن معاوية بن اسعد: 103
- خالد بن كلثوم: 298، 342، 375.
- خالد بن مالك: 86
- خالدة بنت نضلة: 87
- خالدة بنت هاشم: 91
- ابن خالويه:47، 141.
- خباب بن عديّ: 116
- خداش بن بشر (البعيث المجاشعي): 114
- خِداش بن زُهَيْر: 72، 82.
- أبو خراش الهذلي، خويلد بن مرّة: 103
- خَراشة بن عمرو: 83
- ذوالخرِق: 80
- ذو الخرق بن شُريح: 86
- ذو الخرق الطّهوي : خليفة بن حمل: 81

- الخِرنق بنت بدر: 79
- أبو خزابة التميمي: 115
- خزاعي بن عثمان: 106
- خُزَر بن لوْذان السدوسي: 80
- خُزَيمة بن ثابت (ذو الشهادتين): 118
- خزيمة بن ثابت الفاكه: 120
- خُزيمة بن نهد: 75، 93.
- الخشخاش بن الحباب: 185
- أبو الخطاب: 32، 68، 154، 185، 257، 306، 314، 340، 367، 403،
- أبو الخطاب عمرو بن عامر البهدلي: 126
- خُطام المجاشعي: 86
- خطيم بن نويرة العبشمي: 114
- الخفاجي (ابن سنان): 38، 59، 60.
- خفاف بن عمير بن الحارث: 116
- خفاف بن عبد الله: 102
- خفاف بن عمير بن الحارث: 116، 120.
- خُفاف بن مالك: 86
- خفاف بن مالك التميمي: 102
- خفاف بن نَدْبَة أبو خراشة السلمي (سليم "قيس"): 106
- خفاف بن نضلة: 105
- خلبفة بن عاصم: 83
- خلف الأحمر: 12، 70، 3.
- خلف بن خليفة: 112
- خلف بن خليفة الأقطع: 108
- الخليل بن أحمد: 77، 138، 142، 151، 156، 160، 176، 195، 198، 199، 232، 256، 263، 320، 322، 338، 341، 350، 362، 373، 374، 376، 377، 386، 392، 393.
- الخليل بن فرود: 88
- خميصة بن جندل: 78
- خنافر بن التوام: 105
- الخنساء: 105
- الخنساء بنت أبي سُلْمى: 91
- خوّات بن جُبير: 104
- خولى بن سهلة: 88
- خُويلد بن نفيل: 83
- أبي خيرة (أفار بن لُقيط): 145، 366، 367، 385.

الدال

- أبو دؤاد: 189
- أبي دؤاد الإيادي: 67، 73، 298، 307، 308.
- أبو داود الأعرابي: 368
- ابن داود ابن تميم ابن نويرة: 313
- داود بن حمل: 94
- داود بن سَلْم الأدلم: 108
- داود بن عقبة العبدي: 111
- داود سلوم: 113
- أبو الدبّية: 88
- دختنوس بنت لقيط: 86
- درّاج بن زرعة بن قطن: 13، 113.
- دِرْهم بن زيد: 92
- درواس: 367
- ابن دريد: 15، 56، 192، 309، 345، 358، 364، 403.
- دُريد بن حَرْملة: 84
- دعامة بن المسيّب: 116
- دعامة بن النديّ: 116
- الدعجاء بنت وهب: 82، 101
- أبو الدُّقَيْش القناني: 367
- دكين بن رجاء الفقيمي: 114
- ابن الدّمَينة: 111
- ابن دُمَينة (عبد الله بن عبيد الله): 121
- أبو دهبل الجمحي: 117
- دَوْسَر بن ذُهَيل: 80
- دُويد بن الصِّمَّة: 82

- دُويد بن زيد: 93
- دويد بن زيد بن نهد: 74، 75.
- دوير بن دؤالة: 82
- دُوَيْلة الشبامي: 94

الذال

- أبو ذؤب: 172
- أبو ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد: 103
- ذؤَيْب بن زُنَيْم: 86
- ذئيب بن كعب بن عمرو: 73
- ذباب: 105
- ذباب بن فاتك: 105

الراء

- رؤاس بن تميم: 104
- رؤبة بن العجاج الباهلي: 14، 40، 112، 114، 120، 224، 311، 324، 326، 340، 343، 366، 367.
- رؤبة بن عمر بن الظهير التغلبي: 111
- رابعة العدوية: أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدويّة 108، 114.
- راشد بن حفص: 105
- راشد بن شهاب: 78
- الراعي النميري: 113
- رافع بن عَمير: أبو الحسن الدليل: 102
- رافع بن هُريم: 86، 102
- الرباب بنت امرئ القيس بن عدى: 118، 120.
- الربيع بن زياد: 83
- الربيع بن ضبع: 220
- الربيع بن ضُبَيع: 84
- أبو ربيعة: 368
- ابن أبي ربيعة: 221
- ربيعة بن أبيّ: 101
- رُبيعة بن أسعد: 87
- ربيعة بن أمية بن أبي الصّلت: 100
- ربيعة بن حَوْط: 105
- ربيعة بن طريف: 86
- ربيعة بن مقروم: 101
- ربيعة بن مُكدّم: 90
- ربيعة بن نزار بن سعد بن عدنان: 99، 110.
- الرّحال القُريشي (سامة بن لؤي): 91
- الرحّال بن عتبة: 83
- رحمة بن المفرَّج: 113
- رزاح بن ربيعة: 93
- رشيد بن رُمَيض: 100
- ابن رشيق: 12
- رفاعة بن وائل: 119
- رفيع الوالبي (عمار بن عبيد): 119
- الرّقاد بن المنذر: 84
- ذو الرقيبة :مالك بن عامر: 83
- رقيبة الجرمي: 116
- رقيع بن أقرم: 116
- رُقَيقة بنت أبي صَيْفي: 106
- الرماني (أبو الحسن): 17، 55.
- ذو الرّمّة: 14، 114، 220.
- ابن رُميلة : سعنة 84
- أبو رهم بن معمر: 105
- الرّهين بن سهم المرادي: 119
- ابن الرُوَّاع: 87
- رَوْح بن زنباع الجُذامي: 96
- ابن الرومي: 127
- رُوَيْشد بن كَثير: 88
- رياح بن الأعلم: 83
- ريجيس بلاشير (R.Blachere): 63، 175، 178،179 .
- ريش.بن لغب: 82
- رَيْطة بنت عجلان: 91

الزاي

- زامل بن غفير: 88
- زاهر أبو كِرام: 86
- الزباء: 308
- زبّان بن سيّار: 84
- ابن زَبابة: 79
- الزبرقان بن بدر: 105، 313.
- أبو زبيد الطائي: المنذر بن حرملة: 102
- الزبيدي: 297
- الزبير بن بكار: 299، 300، 343.
- الزبير بن عبد المطلّب: 91، 103.
- الزجاج: 277، 281، 284، 334.
- الزجاجي: 193، 315، 377.
- الزركشي: 202
- أبو الزعراء: 311
- زفر بن الحارث: 113
- زفر بن يزيد: 102
- الزّفيان التميمي (عطاء بن أسَيْد): 114
- زكرياء [عليه السلام]: 173
- زمّل بن عمرو: 105
- زميل بن أبير: 114
- أبو الزهراء: 113
- زهير بن أبي سلمى: 72، 91، 222، 262، 278، 296، 299، 303، 339.
- زهير بن جناب: 74، 76، 93.
- زُهير بن مسعود: 84
- زياد الأعجم: 59، 120، 123.
- زياد الأعسم: 111
- زياد الملقطي: 88
- أبو زياد الطائي: 116
- أبو زياد الكلابي (يزيد بن عبد الله): 354، 368.
- زياد بن الأشهب: 83
- زياد بن زيد: 118
- زياد بن عديّ بن حاتم: 116
- زياد بن منقذ: 115
- أبو زيد الأنصاري: 43، 125، 151، 168، 170، 171، 188، 235، 236، 246، 256، 256، 265، 276، 279، 294، 306، 308، 313، 339، 343، 355، 359، 366، 372، 386.
- زيد الخيل: 105
- زَيد الفوارس: 84
- زيد بن الأزور: 108
- زيد بن ثابت: 201
- زيد بن عبد الله الراسبي: 117
- زيد بن علي بن الحسين: 117
- زيد بن عمرو: 90، 94
- زيد بن كثوة العنبري: 126
- أبو زيد المازني (محمد بن حسب): 126
- زينب اليشكرية: 78
- زينب بنت الطثرية: 113
- زينبْ بنت العوّام: 103

السين

- سارية بن زُنَيم: 106
- ساعدة بن العجلان الهذلي: 103
- ساعدة بن جُؤية الهُذلي: 103
- سالم ابن رافع: 104
- سالم بن أبي الجعد الأشجعي: 113
- سالم بن رماح: 113
- سالم بن وابصة بن معبد: 116
- سبيع بن الخطيم التيمي: 114
- سجاح بنت الحارث: 102
- السجستاني (أبو حاتم): 14، 48، 69، 125، 157، 276، 298، 304، 309، 344، 368، 386، 388، 360.
- سحبان وائل: سحبان بن زفر بن إياس الوائلي: 101

- سحيم بن الأعرف: 115
- سحيم بن وثيل الرياحي: 102
- ابن السراج (أبو بكر): 30، 277، 281، 335، 376.
- سراقة ابن مرداس الأصغر: 117
- سُراقة الأكبر بن مرداس: 92
- السرى بن عبد الرحمن الأنصاري: 122
- أبو سروة السنبسي: 88
- أمّ سرياح: 13
- سريرة: 311
- سريع بن عمران الصاهلي: 91
- سطيح الكاهن: 89
- سعد ابن عُبادة الخزرجيّ، أبو ثابت: 107
- سعد المعطّل: 103
- سعد بن أبي وقّاص أبو إسحاق القرشي الزهري: 107
- سعد بن الربيع بن عمرو: 106
- سعد بن المتنحّر: 280
- سعد بن خيثمة بن الحارث الأوسيّ الأنصاري: 106
- سعد بن زيد مناة: 86
- سعد بن مالك: 72، 76، 78، 107.
- سعد بن يكرب الحميري: 74
- سُعْدَى بنت الشمَرْدل: 73
- أبو سعيد : 379
- أبو سعيد الخدريّ سعد بن مالك: 107
- أبو سعيد الضرير: 343
- سعيد بن جبير: 337
- سعيد بن قيس بن زيد الأصغر الملك الهمداني: 104
- السّفاح بن بكير: 115
- أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب: 107
- سُفيان بن أرْحب: 129
- سفيان بن العلاء: 388
- سُفيان بن مجاشع: 86
- السكري (أبو سعيد): 77، 172، 272، 297، 298، 300، 302، 316، 345، 379، 403، 404.
- السكوني: 351، 354.
- ابن السكيت (أبو يوسف): 13، 15، 27، 28، 43، 45، 47، 48، 121، 125، 126، 170، 171، 234، 235، 236، 237، 265، 294، 296، 297، 298، 300، 302، 304، 306، 324، 340، 343، 345، 369، 375، 386، 389.
- سكينة بنت الحسين: 118
- ابن سلام (أبو عبيد القاسم): 201، 334، 375.
- سلاّم بن عمرو: 88
- سلاَمة بن جَنْدل: 88
- سلامة بن عامر: 113
- السُّلَكَةُ أمّ السُّليك: 86
- سلمة بن عياذ: 105
- سلمة بن عياض: 105
- سلمة بن هاران: 119
- سلمة بن يزيد بن مشجعة:106
- سلمى بن مقعد: 91
- سَلْمى بنت عدي بن الرقاع: 117
- سلول بن مرّة بن صعصعة: 113
- السليك بن السُّلكة: 86
- سليم بن أخضر: 40
- أبو سليمان: 368
- سليمان ذو الدّمْنة: 94
- سُليمي بن ربيعة: 84
- سماك بن حرب: 296، 297، 304.
- أبو سمّال الأسدي: 102
- سمرة بن الجعد: 120
- أبو السَّمح الطائي: 116، 126
- السّمهزي العكلي: 114
- السمهوري: 345

- السَمَوْأل بن غريض: 89
- سُمَيْر الفرسان: 94
- سنان بن الفحل الطائي: 116
- سهم بن أسامة: 117
- سهم بن مرّة: 81
- سواد بن قارب الأزدي السدوسي: 107
- سوادة الحروري: 114
- سوادة بن كلاب: 113
- سوار بن أوفى: 101
- أبو سُواج: 84
- سوسور: 168
- سويد بن أبي كاهل: 99
- سويد بن الصامت سويد بن حارثة بن عديّ (الأنصاري): 104
- سويد بن بُجيلة: 88
- سُوَيْد بن شبيب: 92
- سويد بن صُميع المرثدي: 94
- سويد بن كراع: 114
- سويد بن كراع العكلي: 101
- سويد بن مسعود: 88
- سيّار بن قصير: 88
- سيبويه: 12، 26، 29، 33، 38، 40، 41، 42، 45، 46، 49، 50، 52، 72، 77، 110، 121، 122، 123، 138، 140، 141، 148، 151، 153، 154، 156، 157، 158، 159، 160، 160، 161، 163، 164، 166، 169، 170، 176، 179، 180، 181، 182، 183، 186، 187، 188، 196، 198، 199، 212، 117، 219، 223، 225، 226، 232، 242، 243، 244، 245، 248، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 269، 273، 275، 276، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 293، 294، 305، 306، 309.
- ابن السيرافي: 261، 279، 280، 283، 286، 289.
- السيرافي: 244
- سيف بن عمرو الهمداني: 94
- سيف بن معاوية: 94
- سيف بن وهب: 88
- السيوطي: 47، 67، 178، 346، 364.

الشين

- الشافعي: 157، 161، 190.
- شبيب بن جُعيْل: 80
- شبيب بن عمرو بن كريب: 116
- شبيب بن يزيد (ابن البرصاء): 114
- شُتيم بن خُويلد: 84
- شجاع بن الحارث السدوسي: 107
- الشجري أبو عبد الله العقيلي: 130
- الشّدّاخ بن يَعْمُر: 90
- شداد بن الأسود: 90
- شدّاد بن عارض الجُشَميّ: 107
- الشرعبي الطائي: 116
- الشرقي القطامي: 302
- شريح القاضي: 117
- شريح بن أوفى: 117
- شظاظ الضبّي: 114
- شعبة بن الحجاج: 304
- شُعْبة بن قُمير: 86
- شعيث بن ثواب: 114
- أبو الشماخ: 88
- الشماخ: 72، 317، 322.
- الشماخ ابن ضرار: اسمه مَعقل 101
- **شمَّاش بنِ الأسود: 86**
- الشَمِرُ بن عمرو الحَنَفِيّ: 79
- الشمردل بن جابر: 119

- الشمردل بن شريك: 115
- الشمردل بن عبد الله: 115
- شمعلة بن الأخضر عجلان بن نكرة: 84
- شمعلة بن طيسلة بن جبّار: 112
- شُمَيْت بن زِنْباع: 86
- الشَّنْفَرى: 89
- أبي شهاب: 201
- الشهيد بن حاضر النَّشفي الهمداني: 119
- الشويعر الحنفي (هانئ بن توبة): 111
- الشُوَيْعر محمد بن حُمْران: 94
- شيبـــان التَّيمي: 79
- شيبان بن دثار: 100
- الشيباني (أبو عمـــرو): 43، 291، 294، 297، 298، 303، 304، 309، 340، 343، 347، 355، 386، 390.
- شيبة بن نِصاح: 337

الصاد

- أبي صالح: 201
- صالح بن مخراق العبدي: 111
- الصُحـــاري بن شَبيب: 111
- صُحَيْر بن عُمَيْر: 86
- صخر ابناء حبناء: 115
- صخر بن الجعد الخُضْري: 120
- صخر بنْ عبد الله: 91
- أبو صخر الهذلي: 117
- صرمة بن أبي أنس: أبو قيس: 104
- صعصعة بن صوحان: 111
- صعصعة بن ناحية: 86
- صعوداء (محمد بن هبيرة الأسدي): 303
- صفوان بن المعطّل بن رخصة: 107
- صفيّة القرشية:بنت عبد المطّلب: 107
- الصقيل العقيلي: 126، 368.
- أبو الصّلت بن أبي ربيعة: 92
- الصمّة الأصغر(أبو دريد معاوية بن الحـــارث): 82
- الصمّة الأكبر (بن الحارث بن المعاوية): 82
- الصمة بن عبد الله: 113
- صيفي بن عامر: 92

الضاد

- ضابىء بن الحارث: 102
- ضاحي عبد الباقي: 238
- ضُباعة بنت عامر: 107
- الضحّاك بن سفيان: أبو سعيد الضحّاك بن سفيان 107
- ضرار بن الأزور (أسد): 106
- ضرار بن الخطّاب: 107
- ضرار بن ضبّة: 101
- ضمرة: 73
- ضوء اليشكري (يشكر"بكر"): 107

الطاء

- أبو طالب: 103
- الطبري: 47
- طَرفة الجُذمي: 83
- طرفة بن العبد: 72، 78، 296، 299، 304.
- الطرماح بن الجهم: 116
- الطرماح بن حكيم: 116
- الطرماح بن عديّ الطائي: 116
- الطرماح: 15، 51.
- طُرَيْح الثقفيأبو الصّلت، طريح بن اسماعيل بـــن عبيد بن أسيد: 120
- طريف ابن عديّ بن حاتم الطائي: 116
- طريف العنبري: 86
- الطعان هاشم: 160، 172.

- أبو الطفيل: 69
- طُفيل الغنوي: 299
- أبو الطفيل (عامر بن وائلة): 117
- أبو الطفيل الكناني : عامر بن وائلة: 107
- الطُفيْل بن عمرو الدّوْسي: 107
- الطفيل بن عوف: 82
- الطفيل بن قرّة: 113
- أبو طُفَيْلَة الجرْمازي: 367
- أبو الطَمحاء: 88
- طه حسين: 294
- طهمان بن عمرو الكلابي: 113
- الطوسي: 296، 297، 298، 300، 302، 340، 343، 345، 389.
- أبو الطيب اللغوي: 298، 302، 304، 339.

الظاء

- ظبيان بن كرّاد الإيادي: 107

العين

- ابن أبي عزّة: 103
- عائذ بن نميّ: 81
- عاتكةُ بنْتُ زيد العدوية: 103، 107.
- عاتكة بنت عبد المطلب: 103
- عادل الفريجات: 74، 75، 75.
- عارق قيس بن جَروة: 88
- عاصم بن أبي النجود: 337
- عاصم بن جُوَيْرية: 86
- عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي: 107
- عاصم بن عمرو: 92
- عاصم بن عمرو التميمي: 107
- عاصية البولانية: 88
- علقمة بن مالك: 94
- أبو العالية الرياحي: 337
- عامر بن الحُلَيْس أبو كبير الهذلي: 107
- عامر بن الطرب العدواني: 74
- عامر بن الطُفيل: 100
- عامر بن الظَرب: 78
- عامر بن جُوَين: 88
- عامر بن زيد: 94
- عامر بن عقبة: 112
- عامر بن عمارة بن خزيم: 120
- عامر بن قرّة: 113
- عامر بن كبير الخَصَفي المحاربي (محارب "قيس"): 100
- عبّاد بن شدّاد: 86
- أبو العباس: 282
- ابن عباس: 201، 337، 338.
- أبو العبّاس الأعمى (السائب بن فروخ): 118
- العبّاس بن ربيطة: 81
- عباس بن مرداس: 106، 292.
- عبد الأسود ابن جوين: 88
- ابن عبد البر (أبو عمر): 202
- عبد الحجر بن سراقة: 112
- ابن عبد ربه: 380
- عبد الرحمن ابن عويم بن ساعدة: 116
- عبد الرحمن المعني: 116
- عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: 103
- عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي: 115
- عبد الرّحمن بن أبي عبيد: 119
- عبد الرحمن بن أرطأة (هو عبد الرحمن بن سيحان): 112
- عبد الرحمن بن الأزور الأسدي: 102
- عبد الرحمن بن الأسود: 105
- عبد الرحمَن بن الحارث: 120
- عبد الرحمن بن الحكم: 118

- عبد الرحمن بن حسان: 122، 279.
- عبد الرحمن بن حنبل الجُمَحــيّ جُمح"قــريش"): 107
- عبد الرحمن بن دارة: 112
- عبد الرحمن بن زيد: 117
- عبد الرحمن بن علي: 105
- عبد الرحمن بن عوف: 107
- عبد الرحمن بن قشير: 116
- عبد الرحمن بن ملجم: 119
- عبد الرحمن بن مهدي: 201
- عبد العزّى بن مالك: 88
- عبد القيس بن خُفاف: 86
- عبد الله بن أبي وداعة: 105
- عبد الله ابن رواحة الأنصاري: 107
- عبد الله ابن معاوية: 118
- عبد الله الحارث: 107
- عبد الله بن أبي الأدهم: 105
- عبد الله بن أبي الحوساء: 113
- عبد الله بن أبي بكر الصدّيق: 107
- عبد الله بن أبي حجر المعيدي: 104
- عبد الله بن أبي صبيح المازني: 126
- عبد الله بن أبي مسروح: 115
- عبد الله بن أبي معقل: 107
- عبد الله بن أنيس الجهني أبو يحي: 103
- عبد الله بن الأكبر: 105
- عبد الله بن الحارث: 107
- عبد الله بن الحجاج: 104، 112.
- عبد الله بن الحسين بن حسنون: 202
- عبد الله بن الحشرج: 113
- عبد الله بن الزبعرى: 103
- عبد الله بن الزبير (أبو كبير): 116
- عبد الله بن العجلان: 93
- عبد الله بن جحش: 87
- عبد الله بن جذل: 117
- عبد الله بن خازم: 118
- عبد الله بن خثمة، أبو خيثمة: 104
- عبد الله بن خذف: 102
- عبد الله بن خليفة البولاني 102
- عبد الله بن ربعى: 116
- عبد الله بن سَلَمة: 89
- عبد الله بن سوار: 185
- عبد الله بن ظاهر: 125
- عبد الله بن عباس: 253، 397.
- عبد الله بن عتبة: 117
- عبد الله بن عمر العبْلي: أبو عدي الأموي 121
- عبد الله بن عمرو: 102
- عبد الله بن عنمة: 101
- عبد الله بن فضالة: 115
- عبد الله بن قازم: 118
- عبد الله بن كثير: 337
- عبد الله بن كيسبة النهدي: 105
- عبد الله بن مالك: 106
- عبد الله بن مالك الأرحبي: 107
- عبد الله بن مسلم: 115
- عبد الله بن همّام: 113، 287.
- عبد الله بن وهب: 107، 117.
- عبد الله بن يزيد: 120
- عبد الله ذو البجادين: 107
- أبو عبد الله الشجري: 130
- عبد المسيح بن حكيم: 78
- عبد المسيح بن عمرو: 102
- عبد المطلب بن هاشم: 91
- عبد المطلب: 73
- عبد الملك بن عبد العزيز: 104
- عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الحلاّج: 104
- عبد مناف بن ربْع: 91
- عبد هندَ بن زيد: 80
- عبدة بن الطبيب: 102

- أبو عبيد: 350، 352.
- أبو عبيدة (معمر بـن المثنـى): 13، 43، 44، 121، 125، 151، 190، 236، 287، 291، 294، 296، 297، 299، 300، 303، 304، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 313، 314، 315، 324، 339، 343، 355، 357، 358، 366، 367، 375، 386.
- عُبيد القشيري: 83
- عبيد الله بن الحرّ: 119
- عبيد الله بن زياد بن أبيه: 110
- عبيد الله بن عبد الله: 117
- عبيد الله بن عتبة: 117
- عبيد الله بن قيس الرّقيـات: 118، 120، 282، 283.
- عبيد الله بن عمر: 111
- عبيد الله الطريد: 113
- عبيد المحاربي: 100
- عبيد بن أوس: 115، 116.
- عبيد بن أيوب: 115
- عَبيد بن الأبرص: 76، 87.
- عُبيد بن شرية: 296، 302.
- عُبيد بن عبد العُزّى: 89
- عبيد بن ماويّة: 88
- عبيد بن معاوية: 116
- عبيد بن وهب:86
- أبو عبيد الثقفي: 100
- عُبيدة بن ربيعة: 86
- العبيدي: 322
- العتابي: 35، 54، 55.
- أبو العتاهية: 40
- عُتيبة بن الحارث: 86
- عتيبة بن مرداس: 102
- عثعث بن عُمر: 102
- عثمان الهمداني: 119
- عثمان بن الحويرث: 91
- عثمان: 71، 201، 255.
- أبو عُثمان الأشنانديّ: 359
- أبو عثمان المازني: 344
- أبو عثمان سعيد بن ضمضم: 126
- العجاج: 14، 51، 115، 221.
- العجير السلولي: 255
- العُجير بن عبد الله: 113
- العدل بن الحكم: 86
- عدنان: 292
- أبو عديّ الأزدي: 117
- عديّ بن أمية: 84
- عدي بن الربيع: 103
- عديّ بن الرّعْلاء: 93
- عدى بن الرِّقاع: 96
- عدي بن حاتم الطائي: 106
- عديّ بن حمار: 88
- عَديّ بن خَرَشَة: 92
- عدي بن زيـد: 86، 116، 117، 299، 298، 307، 308، 309.
- عدي بن كعب: 105
- عدي بن نوفل: 91
- عدي بن وداع الأعمى: 115
- العديل بن الفرخ: 111
- أبو عرار عمرو بن شأس: 102
- عرّام بن الأصبغ: 125
- عرّام بن المنذر: 102
- العرجي: 118
- عَرعَرة بن عاصية: 81
- عرقل بن الخطيم: 114
- عروة بن أدية: 115
- عروة بن أذينة: 117
- عروة بن الورد: 83، 298.
- عروة بن زيد الخيل: 107
- عروش بنُ المفترش: 105
- العُريان الجرمي: 95

- عزّة بنت جميل: 117
- ابن عساكر: 14
- أبو العسوس: 116
- عصام بن عُبَيْد الزمّاني اليمامي: 79
- عِصمة بن حدْرة: 86
- عِصمة بن حُيَيّ: 84
- عطاء بن أبي رباح: 337
- عطارد التميمي: 106
- عطارد بن قران: 115
- العطّاف الكلبي: 83
- ابن عطية: 194
- عطية بن سمرة: 120
- ابن العفي: 113
- عفراء بنت مهاصر: 118
- العقار بن سليل: 94
- عقال ابن خويلد بن عامر: 100
- عقبة بن رؤبة بن العجاج: 120
- عُقْبة بن عامر: أبو حمّاد 107
- عُقْبة بن كلاب: 83، 101.
- عُقَيبة الأسدي: 219
- عُقيبة بن هبيرة: 102، 287.
- عقيل بن زياد: 117
- عُقَيْل بن العَرَنْدس: 83
- عقيل بن علّفة المريّ: 112، 114
- العقيلي: 44، 367.
- عكرة بن سباع: 105
- عكرمة بن خالد: 315 ،360، 361.
- عكرمة بن عامر: 105
- عكرمة مولى ابن عباس: 337، 338.
- العلاء بن الحضرمي: 106
- عُلاثة بن جُلاَس: 86
- علباء بن أرقم: 78
- علقمة الفحل: 86
- علقمة بن سهل: 102
- علقمة بن عبده الفحل:297
- علقمة بن عديّ: 116
- علقمة بن مالك: 94
- علقمة ذو جدن: 119
- علي بن أبي طالب أبو الحسن الهاشمي: 107
- علي بن الغدير: 112، 287.
- علي بن حمزة البصري: 284
- علي بن زيد: 84
- علي بن عُمَيْرة: 95
- عليّ بن معدان: 116
- عمّار ذو كبار: 119
- أبو عمارة بن أبي طرفة: 117
- عمارة بن الوليد: 103
- عُمارة بن عُبَيْدس: 94
- عمارة بن عقيل (بن بلال بن جرير): 126، 278، 368.
- عمر بن أبي ربيعة: 14، 69، 118، 122، 186.
- عمر بن أوس بن عصبة: 111
- عمر بن الخطاب: 100
- عمر بن الهذيل العبدي: 111
- عمر بن حُكَيْم بن معيَّة: 115
- عمر بن حنظلة: 115
- عمر بن لجأ 114
- عمر بن مرة: 78، 119 .
- عمران بن حطّان: 111
- عمرة أم عمران: 117
- عمرة بنت دريد: 112
- عمرة بنت مرداس: 112
- عمرو ابن الزبير بن العوام: 118
- عمرو ابن خالد: 79
- عمرو ابن ذؤاب: 94
- عمرو ابن ربيعة: 78
- عمرو الأصم: 78
- عمرو الرحّال: 99

- عمرو بن أبي الجبر: 102
- عمرو بن أبي حمزة: 105
- عمرو بن أبي ربيعة: 111، 186.
- عمرو بن أبي عمارة: 89
- عمرو بن أُبَيْر: 86
- عَمرو بن أحمر أبو الخطاب الباهلي: 101
- عمرو بن أُحيحة: 104
- عمرو بن أحيحة سعيد بن العاص: 107
- عمرو بن أسوى بن عِسَّاس العبديّ: 80
- عمرو بن أشَيم الحُدّاني: 89
- عمرو بن أُمامة: 89
- عمرو بن أنس: 88
- عمرو بن أهبان: 87
- عمرو بن أوس: 95
- عمرو بن الأبجر: 88
- عمرو بن الأسلع: 83
- عمرو بن الأسود: 84، 86، 93.
- عمرو بن الأشعر: 87
- عمرو بن الإطنابة: 92
- عمرو بن الأيهم: 111
- عمرو بن البراء : 83
- عمرو بن الجموح: 107
- عمرو بن الجَوْن: 84، 89.
- عمرو بن الحارث: 88
- عمرو بن الحارث الهمداني (عمرو بن براقة): 104
- عمرو بن الحارث: 79، 92، 105.
- عمرو بن الحرّ: 85
- عمرو بن الحصين: 119
- عمرو بن الحَمِق: 106، 107.
- عمرو بن الخَثارم البُجَليّ: 95
- عمرو بن الدّاخل: 91
- عمرو بن الذّارع: 79
- عمرو بن العاص: 107
- عمرو بن الغَوث: 88
- عمرو بن الفرزدق: 113
- عمرو بن الفضفاض: 92
- عمرو بن القباع: 115
- عمرو بن المُراد: 93
- عمرو بن المُسبَّح أو المشيّح: 108
- عمرو بن المستوغر بن زمعة: 102
- عمرو بن النبيت: 88
- عمرو بن الوليد: 118
- عمرو بن امرئ القيس: 92
- عمرو بن بياضة: 78
- عمرو بن ثعلبة: 78
- عمرو بن ثمامة: 78
- عمرو بن جبلة: 78، 104.
- عمرو بن جَعدة: 92
- عمرو بن حارثة: 87
- عمرو بن حباشة: 78
- عمرو بن حرثان: 112
- عمرو بن حسان: 83
- عمرو بن حكيم: 87، 115.
- عمرو بن حلزة: 78
- عمرو بن حُممَة الدّوسي: 89
- عمرو بن حنثر: 80
- عمرو بن حنظلة: 115
- عمرو بن حوط: 86
- عمرو بن خويلد: 83
- عمرو بن دويرة: 119
- عمرو بن ذَكْوان الحضرمي: 95
- عمرو بن ذكينة: 115
- عمرو بن رئاب: 116
- عمرو بن رباءة المُرهبيّ: 94
- عمرو بن رفاعة: 92
- عمرو بن رياح: 118
- عمرو بن زهرة: 78
- عمرو بن زياد: 94
- عمرو بن زيد: 93

- عمرو بن سالم: 107
- عمرو بن سعيد بن العاص: 118
- عمرو بن سفيان السلمي أبو الأعور: 100
- عمرو بن سلمة الأرحبي: 105
- عمرو بن سلمة الكلابي: 101
- عمرو بن سنان بن الأهتم: 106
- عمرو بن سنَة: 118
- عمرو بن سيّار: 84
- عمرو بن سيّار السكونيّ: 88
- عمرو بن شُبَيْل: 107
- عمرو بن شجيرة: 79
- عمرو بن شراحيل 78، 93، 94.
- عمرو بن شفيق: 91، 99.
- عمرو بن شَمر: 79
- عمرو بن شيبان: 78، 117.
- عمرو بن صيفي: 92
- عمرو بن طلّة بن معاوية بن عمرو: 92
- عمرو بن عامر: 90، 120.
- عمرو بن عبد الجن التنوخي: 74
- عمرو بن عبد العُزَى: 79، 91 .
- عمرو بن عبد العزيز: 88
- عمرو بن عبد الله: 79، 103.
- عمرو بن عبد الله المرادي: 79
- عمرو بن عبد مناف: 91
- عمرو بن عبد وُدّ: 93
- عمرو بن عديّ : 74، 76، 81، 89، 97.
- عمرو بن عروة: 93
- عمرو بن عُزَيّة : 88
- عمرو بن عصم: 79
- عمرو بن عكَبّ: 79
- أبو عمرو بن العلاء: 12، 13، 14، 40، 43، 69، 70، 98، 121، 125، 136، 139، 145، 151، 163، 171، 179، 185، 187، 188، 254، 256، 257، 264، 276، 293، 294، 297، 298، 299، 300، 301، 303، 304، 306، 310، 311، 312، 313، 321، 323، 335، 337، 338، 339، 340، 342، 347، 349، 350، 353، 358، 361، 363، 364، 365، 366، 377، 382، 383، 385، 387، 388، 397، 403.
- عمرو بن عمّار : 88
- عمرو بن عمرو بن عدس: 81
- عمرو بن عوف: 94
- عمرو بن غَنَمْ: 88
- عمرو بن فُرصة: 78
- عمرو بن قبيصة التميمي: 102
- عمرو بن قُدامة: 95
- عمرو بن قِراد: 120
- عمرو بن قُرَيط: 83
- عمرو بن قِعاس المُراديّ: 94
- عمرو بن قُعَيْط: 93، 95.
- عمرو بن قميئة:72، 73، 78، 103.
- عمرو بن قيس: 94
- عمرو بن كلثوم: 80، 90، 297.
- عمرو بن لأي: 78
- عمرو بن مالك: 78، 79، 94، 103.
- عمرو بن مبردة: 112
- عمرو بن مخلاة الكلبي: 118
- عمرو بن مرّة الجُهني: 78، 107.
- عمرو بن مرة النهدي: 108، 119.
- عمرو بن مرثد: 79
- عمرو بن مسعود: 78، 100.
- عمرو بن معاوية: 113
- عمرو بن ملقط: 88
- عمرو بن موهبة: 86
- عمرو بن ناشرة: 78
- عمرو بن هُمَيْل: 91
- عمرو بن هند: 89
- عمرو بَن وَدْعان 85
- عمرو بن يثربي الضبيّ: 101

- عمرو بن يزيد: 119
- عمرو بن يسار: 88
- عمرو ذو الكلب: 91
- عمرو بن الجون: 89
- أبو عِمْر العُقيلي: 126
- أبو عمرو المدني: 306
- أبو العَملَّس: 88
- أبو العَمَيْثَل: 344
- عمير بن جعيل: 80
- عُمير بن ضابئ: 115
- عُمير بن عِمارة التيميّ: 79
- عُمَيْرة بن طارق: 87
- عنبرة بن الأقرش: 100
- العنبر بن عمرو: 74
- عنترة بن الأخرس: 102
- عنترة بن شدّاد: 83
- ابن عنقاء الفزاري: 84
- العوّام ابن المضرّب: 115
- العوّام الشيباني: 78
- العوّام بن جهل: 105
- العوّام بن عقبة: 115
- العوّام بن عقبة بن كعب: 115
- عوانة بن الحكم الكلبي: 282
- العَوْراء السليطية: 87
- عَوسَجة بن نصْر: 83

عوف الكاهن: 92
- عوف بن الأحوص: 83
- عوف بن الغامديّة: 81

عوف بن المنتفق: 82
- عوف بن عبد الأحمر: 117
- عوف بن عطية: 85، 102.
- ابن عون: 40
- عون بن عبد الله: 103، 117
- عويج بن ضُريس: 116
- عويف القوافي: 114
- عيّاش الضبي: 114
- عياص بن دُرّة: 88
- عياض بن ديهث: 86
- عياض بن كلثوم: 83
- أبو العيال الهذلي: 103
- العيزار بن الأخنس: 116
- عيسى بن عمرو الثقفي: 154، 173، 185، 306، 310، 314، 340، 364، 387.
- عيسى بن عمير: 113
- عيسى بن فاتك: 110
- أبو العيناء: 185، 343، 368.
- عيينة بن مرداس: 112

الغين

- غالب بن الحرّ: 116
- غالب بن عثمان: 119
- غزال علا همداني: 105
- غزية بن جشم: 88
- غسان بن ذهيل السليطي: 115
- غطفان بن أنيف الفهري: 103
- غطيف بن حارثة: 105
- غلفاء بن الحارث: 88
- غنيّة أمّ الحُمارس: 364
- غنية بنت عفيف: 88
- أبو الغول: 171
- غيلان بن سلمة: 96، 100.

الفاء

- فؤاد سزكين: 295، 297، 298، 299.
- فاتك بن منذر: 113
- الفارابي (إسحاق بن إبراهيم): 66، 67، 68، 335.
- الفارابي:96، 132، 183.

- ابن فارس:56، 179، 180، 193.
- الفارسي (أبو علـــي): 281، 282، 284، 285، 376.
- الفارغة بنت معاوية: 83
- فاطمة بنت ربيعة أم قرفة الكبرى: 101
- الفـــــراء: 9، 43، 44، 45، 47، 121، 166، 173، 192، 209، 212، 236، 247، 256، 288، 302، 306، 313، 331، 332، 334، 340، 342، 368، 369.
- فرات بن حيّان: 105
- الفرار السلمي وهو جبان بن الحكم: 100
- أبو فراس: 127
- فراس الخزاعي: 104
- فراس بن خندق القيسي (قيس ثعلبة): 311
- فرنسوا الأول: 20
- أبو الفرج: 287
- الفـــرزدق: 12، 13، 115، 218، 219، 223، 264، 277، 301، 311، 340، 357، 366.
- فرعان بن الأعرف التميمي: 101
- فرعون: 53
- فروة بن مسيك: 106
- فروة بن نوفل: 113
- فضالة بن شريك: 116
- فضالة بن عُميْر الليثي: 108
- فَضالة بن هند: 87
- أبو الفضل إبراهيم: 298
- الفضل بن العباس: 118
- الفضل بن عبّاس بن عبد المطلب: 108
- الفضل بن عبد الرحمن: 121
- الفضل بن محمد بن العلاف: 360
- أبو الفضل الرياشي: 170، 344.
- أبو الفضل الكناني: 86، 90
- الفظ بن مالك: 93
- الفِنْد الزِمّاني: 74، 76، 79.
- فهر بن سلمى: 73

القاف

- القاسم بن أمية بن أبي الصلت: 106
- القاسم بن الربيع:أبو العاص 108
- القاسم بن عمر: 118
- القاضي عبد الجبار: 54، 61.
- القالي (أبو علي): 351، 358، 360.
- قبيصة بن النصرانيّ 95
- قتادة بن دعامة: 293، 311.
- قَتَادة بن مَسْلَمة: 79
- القتّال الباهلي: 82
- القتّال البجليّ السُحميّ: 95
- القتال السكوني: 88
- القتّال الكلابي أبو المسيّت هو عبد الله بن محبب بن المضرّحيّ: 101
- ابـــن قتيبـــة: 120، 277، 282، 285، 286، 289، 299، 302، 307، 308، 309، 399، 403.
- قتيبة بن مسلم: 123
- قتيلة بنت النضر: 103
- القحيف العقيلي: 113
- قدامة بن الأحرز: 113
- قدامة بن موسى: 118
- قُدَد بن عمّار بن مالك: 106
- قُراد السّدوسي: 80
- قراد بن أجدع: 93
- قُراد بن العيّار: 120
- قُراد بن حَنَش: 84
- قراد بن حنيفة: 86
- قران الأسدي: 87
- قُرّان بن رُؤبة: 85
- القرطيّ: 83
- قرواش بن حواط: 85
- قريط بن أنيف: 86
- القزويني: 38

- قُسّ بن ساعدة: 89
- قسامة السِّنْبسي: 88
- قَسي بن مُنَبِّه: 81
- قُشير بن عُطيّ: 83
- القطامي (عمير بن شُيَيْم): 111
- القطامي: 122
- القطامي الضبعي: 99
- القطامي الكلبي: 118
- قطبة بن زيد: 100
- قطرب: 341
- قطري بن الفجاءة: 102
- أبو قطيفة: (عمرو بن الوليد): 117
- القعقاع بن النار: 78
- القعقاع بن ربيعة: 83
- قعنب بن حبيب: 113
- قعنب بن ضَمْرَة: 114
- القفطي: 358، 369.
- أبو قلابة الطّابخي: 91
- أبو قلابة الهذلي: 75، 76.
- القلاخ بن جناب: 115
- قيس بن الحدادية: 299
- قيس بن الخَطيم: 89
- قيس بن العيزار: 172
- قيس بن العَيْزارة: 91
- قيس بن مكشوح: 108
- قيس بن ثعلبة: 78
- قيس بن بحر (أشجع): 106
- قيس بن ذريح: 117
- قيس بن رفاعة الواقفي: 104
- قيس بن زهير أبو هند: 141
- قيس بن سعد أبو الفضل: 108
- قيس بن سمي: 102
- قيس بن عاصم: 106
- قيس بن مسعود: 78
- قيس بن مُقَلَّد: 87
- قيس بن هلال: 87
- قيس نُشبة: 106
- ابن قيس الرقيات: 122
- قَيْل بن عمرو: 86

الكاف

- كبد الحَصَاة: 79
- كبشة بنت رافع: 108
- كبشة بنت معد يكرب: 95، 106
- أبو كبير الهذلي: 91، 166، 220.
- ابن كثير: 350
- كثير بن عبد الله: 101
- كثير عزّة: 118
- كثير: 262
- كُرْز ابن علقمة: 104
- كرز بن عميرة: 116
- كريماس: (A J.Greimas): 267
- الكسائي: 43، 162، 235، 256، 258، 306، 331، 332، 342، 343، 363، 377.
- كعب بن أبي نُمَيْر: 82
- كعب بن الأجدم: 90
- كعب بن الحارث: 82
- كعب بن المخبَّل: 118
- كعب بن جُعَيْل التغلبي: 100
- كعب بن ذي الحبكة: 104
- كعب بن زهير بن أبي سُلْمى: 100، 303.
- كعب بن سعد الغنوي: 101
- كعب بن عميرة: 116
- كعب بن مالك أبو عبد الله: 108
- كعب بن معدان الأشقري: 117، 123.
- كعب: 72
- ذو الكف الأشلّ: 79
- كلاب بن مُرة: 74، 76.
- ذو الكلاع: 105

- أبو كلبة التيمي: 79
- الكلبي: 201
- الكلْحبة العُرَيْني : هُبيرة بن عبد المناف: 87
- كلدة بن عبد مرارة: 74
- كَلدة بن عبدة: 87
- كليب بن أسد: 106
- كليب بن نَوفل: 87
- الكميت بن ثعلبة: 87، 116.
- الكميت بن زيد: 15، 116.
- الكميت بن معروف: 102
- الكميت: 122، 221، 311، 386.
- كندة بن هذيم: 116
- كهمس بن عثمان: 111
- الكيذبان عمرو بن عدي: 81
- ابن كيسان: 296، 377.

اللام

- لبيد: 72، 122، 165، 219.
- لبيد بن ربيعة: 106
- لبيد بن عُطارد: 86
- اللَّبيني المتنخس: 113
- لجيم بن صعب: 78
- أبو اللَّحَّام: 80
- اللحياني بن المبارك: 235، 265، 343.
- اللعين المنقري: 115
- لقيط بن الربيع: 103
- لقيط بن زرارة: 86
- لقيط بن يعمر: 89
- ابن لُقَيْم العبسي: 108
- لَمْس بن سعد: 92
- لوط الطائي: 88
- الليث: 142
- ليلى الأخيلية: 113
- ليلى العامرية: 112

الميم

- ابن أبي ميّاس المرادي: 119
- المؤرج السدوسي: 344
- المأمور بن ثَبراء: 94
- مارتيني (A. Martinet): 269
- مازن بن الغضُوبة ابن غراب: 106
- المازني: 276، 279، 280، 281، 344، 376.
- مالك ابن عمير: 106
- مالك المزموم: 110
- مالك بن أسماء: 108
- مالك بن التيهان: أبو الهيثم مالك بن التيهان: 108
- مالك بن الجلاّح : 112
- مالك بن الحارث: 13، 104.
- مالك بن الصمصامة: 113
- مالك بن العَجْلان: 92
- مالك بن الوضّاح: 116
- مالك بن جَحْوان: 87
- مالك بن حريم أو صريم الهمداني: 105
- مالك بن حطّان: 86
- مالك بن حمار: 84
- مالك بن حيّان: 88
- مالك بن خالد: 91
- مالك بن خياط: 85
- مالك بن زغبة: 82
- مالك بن عامر: 83، 106.
- مالك بن عمرو الثقفي: 108
- مالك بن عميلة: 91
- مالك بن عوف: 106
- مالك بن قيس: 118
- مالك بن معاوية: 83
- مالك بن ملالة: 94

- مالك بن ملاين: 94
- مالك بن نمط: 106
- مالك بن نويرة: 102، 306.
- أبو مالك عمرو بن كركرة: 344، 365، 367.
- المبرد (أبو العباس): 35، 48، 55، 69، 126، 176، 179، 202، 260، 273، 276، 277، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 334، 344، 368، 376، 388، 403.
- مبشر بن هذيل: 84
- المتلمّس: 72، 79.
- متمّم بن نويرة: 102
- متمّم: 313
- المتنبي (أبو الطيب): 127
- المتنخل الهذلي: أبو أثيلة مالك بن عويمر: 103
- المتنكِّب: عدي بن عمرو: 98
- متمم بن نويرة: 316
- المتوكل اللّيثي: 117
- المتوكل بن عياض: 113
- المتوكل: 126
- المثقّب العَبْديّ: عائذُ بن محصن بن ثعلبة: 80
- المثلّم بن المُشجَّرة: 85
- المثلّم بن حذافة: 103
- المثلّم بن رياح: 84
- المثلّم بن عامر: 85
- أبو المثلّم الهُذَلي: 91
- المثلّم بن عمرو: 89
- المثلّم بن قرط: 93
- المثنى بن الحارث: 99
- المثنى بن معروف: 116
- مجّاعة بن مرارة: 99
- ابن مجاهد: 188، 388.
- مجاهد بن جبر: 337، 338.
- المِجدام التميمي: 86
- مجفية بن النعمان العتكي: 104
- مجمّع بن هلال: 79
- المجنون القشيري : كهيل بن مالك 83
- أبو المجيب الرّبعي: 126، 352.
- محارب بن دثار: 111
- محارب بن قيس الكُسعيّ: 95
- المجالد بنْ ذي مران: 119
- محراب بن الزبيد: 103
- المُحَرّث بن زبيد: 91
- مُحرز بن المكَعْبر: 85
- محرز بن قتادة بن سلمة: 99
- محرز بن قرّة: 113
- المحرزي العكلي: 101
- المحلّق بن حنتم: 93
- محمد بن إسحاق: 292
- محمد بن أسلم: 104
- محمد بن إيّاس: 105
- محمد بن الحسن: 360
- محمد بن السائب الكلبي: 302
- محمد بن المنتشر: 119
- محمد بن بشير: 112
- محمد بن حبيب: 298، 300، 301، 316.
- محمد بن دأب: 294
- محمد بن سهل: 294
- محمد بن عبد الملك: 369
- محمد بن علي: 66، 189.
- محمد حلمي موسى: 205
- محمد خير الحلواني: 9
- محمد فؤاد عبد الباقي: 205
- محمد محمد حسين: 297
- أبو محمد الفقعسي: 116
- أبو محمد عَبد الرحمن بن أبي بكر: 118
- محمود شاكر: 343

- المحيا بن لغط: 94
- ابن مُحيْصن: 337
- المخبّل السعدي: 101
- أبو المختار: 311
- مختار بن وهب القشيري: 113
- مخرّم بن حزن بن زياد: 94
- المخضّع القيسي: 80
- مُدْرك بن عبد العُزّى: 94
- المذنوب الهمداني: 119
- مراد الطائي: 88
- المرار الأسدي: 220
- المرار الفقعسي: 116
- المرار بن سلامة: 79
- المرار بن منقذ: 115
- أبو مرة: 126
- مُرة بن ذهل: 78
- مرة بن محكان: 115
- مرّة بن همّام: 78
- المرتضى: 355، 360.
- مرداس بن خُذام: 114
- مرداس بن همّاس: 116
- المرزباني: 14، 15، 16، 299، 302.
- المرقّش الأصغر: 79
- المرقّش الأكبر: 79
- المرقش: 73
- المرناق: 88
- أبو مُرهب [رَتْبيل الدبيري]: 368
- مروان بن سُراقة: 82
- مروان بن عمير: 119
- مروان بن مالك: 116
- أبو مروان: 105
- مروان: 14
- مريزيق القشيري: 113
- مريم زوج المختار: 120
- مزاحم بن الحارث: 113
- مزاحم بن عمر: 113
- مزرّد بن ضرار: 101
- مزرد: 72
- مزيد بن الحارث: 113
- مسافر بن أبي عمرو: 118
- مُسافع بن حُذيفة العبسي: 83
- مسافع بن شريح ("جشم" غطفان): 101
- مسافع بن عياط: 103
- المُستَنير بن طُلبة: 83
- المستوغر بن ربيعة: 74
- المِسجاج الضبّي: 85
- أبو مسحل: 39، 344، 359، 365، 369.
- مسروق بن الأجدع: 119
- مسروق بن ذي الحارث: 119
- مسعود بن بكير: 116
- مسعود بن خرشة: 115
- مسعود بن عبد الله: 88
- مسعود بن عقبة: 114
- مسعود بن مالك: 116
- مسعود بن معتب التجيبي: 102
- مسكين الدارمي: 69، 115.
- مسلم بن جبير: 120
- مُسلم بن عَسْكر: 83
- مسلم بن عياض: 105
- مسلم بن معبد الوالبي: 116
- مسلم بن يزيد: 100
- مسلية بن حدان: 106
- مُسهر بن عمرو: 85
- المسيّب بن الرَّفل: 93
- المسيِّب بن علس: 72، 78.
- المشعان: 120

- المشمرج بن عمرو: 95
- مصاد بن جناب: 87
- مصعب ابن الطفيل: 113
- مِصقَع بن حسين: 83
- أبو المصك الطائي: 116
- مضرحي بن حُريث: 83
- مضرحي بن كلاب: 115
- مضرّس بن ربعي: 87، 116.
- مضرّس بن قرط المزني: 118
- مطرود بن كعب: 92
- المطلب بن عبد مناف: 91
- معاذ بن جوين: 116
- المعان بن روق: 119
- معاوية بن أبي سفيان: 99
- معاوية بن أوس: 87
- معاوية بن الحارث: 87
- معاوية بن الحكم: 108
- معاوية بن جعفر: 105
- معاوية بن حُذيفة: 84
- معاوية بن حصن: 84
- معاوية بن دومان: 94
- معاوية بن عادية: 114
- معاوية بن عبد الله: 118
- معاوية بن عمرو: 81
- معاوية بن قشير: 83
- معاوية بن مالك: 80، 83.
- معاوية: 178، 280، 302.
- معبد الخزاعي: 92
- معدان بن أوس الطائي: 116
- معدّان بن جواس: 102
- المعذل بن عبد الله: 115
- المعرور التّيْمي: 85
- معروف بن أبي هند: 85
- معروف بن عمرو: 88
- معروف بن قدامة: 83
- المعطل الهُذلي: 91
- مُعقَّر البارقي: 89
- معقل بن خويلد: 103
- ابن مجمّع: 87
- معقل بن عامر: بن نمير 87
- معقل بن عبد خير: 119
- معقل بن عوف: 84
- معقل بن وهب: 85
- معن بن أوس المزني: 103
- المعيوف بن يحي: 119
- مغلّس بن لقيط: 87
- المغيرة ابن حبناء: 115
- ابن مفرّغ الحميري: 302
- مفروق بن عمر: 78
- المفضل الضبي: 62، 171، 264، 291، 294، 296، 298، 300، 303، 305، 309، 311، 312، 313، 339، 343، 347، 375.
- المفضّل النّكريَ: بن معشر بن أسحم: 80
- المفضل بن سلمة: 345
- ابن مقبل: 256
- أبو المقدام الجرمي: 119
- المقداد بن جسّاس: 116
- مقعد بن شماس: 88
- مكرز بن حفص: 103
- مكرمة بنت الكحيل: 113
- ملحان الطائي: 106
- ملحمة الجرمي: 119
- المُمزّق العبديَ: 80
- ابن المناذر: 48
- منازل بن فرْعان: 101

- منتجع (أو المنتجع بن نبهان): 71، 83، 367، 387.
- المنتخّل الهذلي: 91
- المنخّل اليشكري: 78
- المنذر بن أبي حمضة: 105
- المنذر بن حرام: 92
- المنذر بن وبرة: 104
- المنصف الضبي : يزيد بن عبد الله: 85
- أبو منصور الأزهري: 127، 352، 355.
- منصور بن المسجاح: 85
- منصور بن سحيم: 105
- المنصور: 369
- ابن منظور: 214
- منظور بن سحيم: 102
- منفوسة بنت زيد: 85
- منقذ بن عطاء: 113
- المنهال الشيباني: 111
- مُنير ابن صخر: 117
- أبو مهدي (أو أبو مهدية الباهلي): 157، 366، 387.
- المهلّب: 123
- المهلهل بن ربيعة: 68، 72، 73، 76، 77، 80، 131، 323.
- موسى بن جابر: 99
- موسى بن عمران: 53، 173، 217.
- موسى بن يسار: 117
- موسى شهوات: 118
- ابن ميّادة (الرماح بن أبرد): 120
- ميّة بنت ضرار: 85، 101.
- مية بنت طلبة: 115
- ميسون بنت بجدل: 118
- ميمون بن عائذ: 83
- ميمون بن عامر: 113

النون

- نائلة بنت الفرافصة: 104
- النابغة الجعدي أبو ليلي (حسان بن قيس): 72، 108
- النابغة الذبياني: 72، 84، 112، 296، 313، 313.
- النابغة الشيباني: 111
- نابغة بني قتال: 84
- ناصر الدين الأسد: 396
- نافع بن الأزرق: 111
- نافع بن سعد: 88
- نافع بن لقيط الفقعسي: 116
- ناهض بن ثومة: 125
- نبيه بن الحجّاج: 103
- أبو النجم العجلي: 56، 111، 165، 170.
- النحاس (أبو جعفر): 47، 283، 285.
- ابن النحاس: 298
- ابن النديم: 16، 298، 299، 301، 347، 367.
- نسير ابن ثور: 99
- أبو النشناش النهشلي: 101
- أبو نصر الباهلي: 343
- نصر بن حجاج: 100
- نصر بن عاصم: 337
- نصر بن مضر (رهمج): 126
- نصر بن يسار: 117
- الجوهري أبو نصر: 128، 346.
- نصر (أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الفزازي): 358
- نصيح بن نهيك (بن قعنب): 113، 126.
- النضر بن شميل: 341
- النظار الفقعسي: 116
- النعمان بن المنذر: 89
- النعمان بن بشير: 118
- نُعيْم بن عتاب الرياحي: 87

- نفيع بن سالم: 112
- نفيل بن حبيب الخثعمي: 95
- نقيع بن جرموز: 5
- أبو نمارة بن مالك: 94
- نمران بن أبي نمران: 119
- نهار بن توسعة: 112، 123.
- نهار بن حرب: 106
- نهشل بن حريّ: 101
- نهشل بن زيد : 367
- أبو نواس: 40
- نوال بن الثغاء: 113
- النوبَختي: 16
- نوح بن جرير: 115

الهاء

- هارون بن سعد: 111
- هارون: 53
- هارون: 386
- أبو هاشم: 54
- هاشم بن حَرْملة: 84
- هاشم بن عبد مناف: 73
- هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الملقب بالمرقـال: 108
- هانئ بن خطّاب الأرحبي: 119
- هبار بن الأسود: 103
- الهُبَل بن عامر: 93
- هبيرة بن أبي وهب: 103
- هبيرة بن أخنس: 105
- هبيرة بن المفاضة: 100
- الهَجَري (أبو علي هارون بن عيسى): 345
- الهدْم بن امرئ القيس: 92
- الهذيل بن مشجعة: 88
- الهذيل بن هبيرة: 100
- ابن هَرْمة: 124
- هُرَيْم بن جوّاس: 86
- هزال التميميّ: 86
- هشام ابن الكلبي: 73، 299، 302، 307.
- هشام بن الوليد: 118
- ابن هشام اللخمي: 46
- هفنر: 13
- هلال بن رزين: 85
- أبو هلال العسكري: 59، 60، 403.
- همّام بن رياح: 87
- همّام بن مُرة: 78
- الهمداني (الحسن بن أحمد): 128، 131، 354.
- همرشتروم (Hammartröm): 374
- هميان بن قحافة: 115، 171.
- هند الهمدانية: 119
- هند بن الحارث: 103
- هند بن خالد: 81
- هند بنت أثاثة: 103
- هند بنت عتبة: 103
- أبو الهندي الرياحي: 69
- هُنى بن أحمر: 74
- هُودان بن الوازع: 83
- الهيبّان: 82
- أم الهيثم: 364، 388.
- الهيثم بن عدي: 296، 304.
- الهيردان: 115

الواو

- ابن أبي وهب: 103
- وائل بن شرحبيل: 79
- أبو الوازع الراسبي: 117
- وبرة بن الجحدر: 116
- أبو وجرة السلمي: 112
- أبو الوجيه: 126
- وجيهة بنت أوس الضبيّة: 101

- ودّاك بن ثُميْل: 86
- ودعَان بن مُحْرِز: 84
- وَرْد الجعدي: 83
- الورد بن علي: 113
- ورقة بن نَوْفَل: 91
- وزار التّيــمــي: 74
- الوزير أبي سعيد الآبي: 185
- وضّاح اليمن: 119
- وعلة بن الحارث: 93، 95.
- الوقيّ بن الأعلم: 94
- ابـــن ولاد: 261، 278، 284، 285، 376، 402.
- الوليد بن جابر: 106
- الوليد بن حنيفة: 115
- الوليد بن عقبة: 103
- الوليد بن محصن: 102
- الوليد بن يزيد بن عبد الملك: 118
- الوليد بن يزيد بن معاوية: 117
- الوليد بن يزيد: 96
- وهْب بن منبه: 302
- ابن الوَهل المُريحيّ: 83
- وهيبة بنت عبد العزى: 91

الياء

- ياقوت الحموي: 346، 351، 355.
- يحي ابن وائل: 119
- يحي بن أبي حفصة: 120
- يحي بن طالب: 105
- يحي بن عرْوة: 116
- يحي بن متى: 304
- يحي بن نوفل: 119
- يحي بن يعمر: 51، 337، 338.
- أبو يحي اللاحقي: 280، 281.
- يزيد بن ثمامة: 86
- يزيد ابن الجدعاء: 111
- يزيد بن الحارث بن رويم: 99
- يزيد بن الحكم الثقفي: 118، 277.
- يزيد بن الصَعِق: 83
- يزيد بن الصّقيل العقلي: 108
- يزيد بن الطثرية: 113
- يزيد بن حنظلة المكسَّر: 79
- يزيد بن خالد: 114
- يزيد بن حذّاق العَبْديّ: 80
- يزيد بنَ ذ رَح: 88
- يزيد بن ضبة الثقفي (يزيد بــن مقســم): 108، 118.
- يزيد بن عمرو: 88
- يزيد بن فسْحُم: 92
- يزيد بن قنافة: 88
- يزيد بن قَهْرة: 86
- يزيد بن مُخرَم: 94
- يزيد بن معاوية: 117
- يزيد ذو القفـــا: 94
- اليزيدي (أبو محمد): 235، 236، 337.
- اليزيدي أبو عمر: 340
- أبو يعقوب: 360
- ابن يعقوب المغربي: 38
- يعلى بن مسلم الأزدي: 117
- ابن يعيش: 228
- يوسف بن سعد: 313
- يونس بن حبيب: 32، 154، 155، 166، 185، 236، 256، 262، 276، 293، 306، 312، 313، 314، 318، 320، 326، 338، 340، 343، 359، 364، 387، 403.
- يونس بن متى: 297

فهرس المراجع

أ- المصادر والمراجع باللغة العربية:

الآمـدي (أبو القاسم)، المؤتلف والمختلف، تحقيق ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت، 1411هـ=1991م.

إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، القاهرة، 1965م.

ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق م.م.عبد الحميد، القاهرة، 1358هـ=1339م.

إحسان عباس، شعر الخوارج (تحقيق)، دار الثقافة، بيروت، 1923م.

أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، مصر، 1980م.

الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة)،

- كتاب القوافي، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مطابع دار القلم، بيروت، 1394هـ=1974م.
- معاني القرآن، تحقيق فايز فارس، الكويت، 1979م.

الأخفش الصغير، كتاب الاختياريْن، تحقيق فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1404هـ=1984م.

الأزهري (أبو منصور)،

- تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1964-1967م.
- علل القراءات، تحقيق نوال بنت ابراهيم الحلوة، الرياض، 1411هـ.

الأصفهاني (أبو الفرج)، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1927 وما بعدها.

الأصفهاني، لغدة (الحسن بن عبد الله)، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، الطبعة الأولى، 1968م.

الأصمعي (أبو سعيد)،

- كتاب الإبل، في الكنز اللغوي، تحقيق أوغست هفنر،بيروت، 1903م.

- الأصمعيات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1962م.
- كتاب الأضداد، طبعة بيروت، 1913م.
- كتاب خلق الإنسان، في الكنز اللغوي.
- كتاب النبات ، تحقيق عبد الله يوسف غنيم، القاهرة، 1972م.

الأعشى ميمون، ديوانه، تحقيق ر.جاير R.Geyer، فيينا، 1972م.

الأعلم الشنتمري، النكت في شرح الكتاب، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، الكويت، 1987م.

امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1959م.

ابن الأنباري(أبو البركات)، نزهة الألباء في طبقات الأطباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1967م.

ابن الأنباري (أبو بكر)، إيضاح الوقف والابتداء (جزآن)، تحقيق محي الدين عبدالرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة الترقي، دمشق، 1390هـ=1971م.

أيمن محمد ميدان، شعر تغلب في الجاهلية، ماجستير، دار العلوم، 1986م.

البحتري، الحماسة، بيروت، 1910م.

بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بيروت، 1934م.

بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، بيروت.

البغدادي (عبد القادر)، خزانة الأدب (4 أجزاء)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ومكتبة الخانجي، 1387هـ=1967م.

البكري (أبو عبيد)، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، 1945-1949م.

البلاذُري (أحمد بن يحي)،

- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1987م.
- فتوح البلدان، مطبعة السعادة بمصر، 1959م.

أبو تمام، الحماسة ، شرح التبريزي، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1938م.

التهانوي (محمد بن علي الفاروقي)، كشاف اصطلاحات الفنون، طبعة الهند، 1862م.

ثعلب (أبو العباس)، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1369هـ.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)،

- البيان والتبيين (4 أجزاء في مجلدين)، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1984م.
- الحيوان(7 مجلدات)، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1940-1947م.

الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز، محمد رشيد رضا، القاهرة، 1335هـ.

الجرجاني (علي بن عبد العزيز)، كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق عبد العال الصعيدي، مكتبة علي صبيح، القاهرة، دون تاريخ.

جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، 1957م.

ابن الجزري (أبو الخير شمس الدين)، غاية النهاية في طبقات القراء (مجلدان)، القاهرة، 1351هـ.

الجمحي (ابن سلام)، طبقات [فحول] الشعراء، جزآن، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، 1952م.

الجندي (أحمد علم الدين)، اللهجات في التراث (جزآن)، الدار العلمية للكتاب، ليبيا، 1398هـ=1978م.

ابن جني (أبو الفتح عثمان)،

- الخصائص (3 أجزاء)، محمد علي النجار،القاهرة،1386-1389هـ.
- سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1985م.
- المحتسب (جزآن)، تحقيق علي النجدي وعلي النجار وعلي شلبي، القاهرة، 1386-1389هـ.
- المنصف (شرح تصريف المازني)، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، 1373هـ=1954م.

حاتم صالح الضامن، شعراء مقلون (تحقيق)، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة النهضة العربية، بغداد، 1987م.

ابن حزم الأندلسي،

- الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق زكريا علي اليوسف، القاهرة، 1345-1347هـ.
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، 1962م.

حسن موسى الشاعر، اختلاف الرواة في شواهد سيبويه، دار البشير، عمان، 1992م.

حسين حسنين، أعلام تميم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980م.

حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، دار المعارف، القاهرة،1959م.

حسين النصار، المعجم العربي، القاهرة، 1375هـ=1956م.

حمزة الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق محمد أسعد طلس، مجمع دمشق، 1968م.

أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، مطبعة السعادة، القاهرة، 1328هـ=1910م.

خديجة الحديثي، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، جامعة الكويت، 1399هـ= 1973م.

الخطيب القزويني، الإيضاح (شرح التلخيص)، في شروح التلخيص، القاهرة، 1937م.

الخفاجي (**ابن سنان**)، سر الفصاحة، أ.الصعيدي، القاهرة، 1372هـ=1952م.

الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد، 1980م.

د.جمعة، شواهد الشعر في كتاب سيبويه، القاهرة، 1409هـ.

الداني (**أبو عمرو**)، المحكم في نقط المصاحف، دار الفكر، المطبعة العلمية ، دمشق، 1407هـ=1986م.

ابن دريد (**أبو بكر**)،

- الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1311هـ=1991م.
- جمهرة اللغة (4 مجلدات)، كرانكو، حيدرآباد، 1351هـ.

الذهبي (**أبو عبد الله**) ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال (مجلدان)، تحقيق علي البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1328هـ=1963م.

الرازي (**أبو بكر**)، التفسير الكبير (32 جزء في 14 مجلدا)، القاهرة، الطبعة الأولى، دون تاريخ.

الرازي (**ابن أبي حاتم**)، الجرح والتعديل (9 أجزاء)، حيدرآباد، الهند، 1271هـ=1952م.

الرماني (**أبو الحسن**)، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق م.خلف الله وم.زغلول سلام، القاهرة، دون تاريخ.

رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.

الزبيدي (**أبو بكر**)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1973م.

الزجاج (**أبو إسحاق**)، معاني القرآن وإعرابه (5 مجلدات)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ= 1988م.

الزجاجي (أبو القاسم)،

- الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، القاهرة، 1378هـ=1959م.
- مجالس العلماء (نسب إليه)، تحقيق عبد السلام هارون، الكويت، 1962م.

الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، القاهرة، دون تاريخ.

الزركشي (بدر الدين)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1376هـ=1957م.

الزمخشري (جار الله)، الكشاف عن حقائق التنزيل، القاهرة، 1954م.

زهير بن أبي سلمى، ديوانه (شرحه لأبي العباس ثعلب)، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق، بيروت، 1402هـ=1982م.

أبو زيد الأنصاري (سعيد بن أوس)، كتاب النوادر في اللغة، تحقيق سعيد الخوري الشرتوني، بيروت، الطبعة الأولى، 1894م.

السجستاني (أبو حاتم)،

- كتاب الأضداد، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، 1991م.
- كتاب المذكر والمؤنث، تحقيق عزة حسن (عن نسخة فريدة مخطوطة)، دار الشرق العربي، بيروت-لبنان، حلب-سورية، دون تاريخ.

ابن السراج (أبو بكر)، الأصول في النحو، مخطوطة المكتبة العامة بالرباط رقم 326 أوقاف.

السكري (أبو سعيد)، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار فراج، مكتبة العروبة، 3 أجزاء ، القاهرة، 1965.

ابن السكيت (أبو يوسف يعقوب)،

- إصلاح المنطق، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعـارف بمصر، 1949م.
- كتاب القلب والإبدال، تحقيق أ.هفنر، بيزيش، 1906م.

ابن سلام (أبو عبيد القاسم)،

- الغريب المصنف، تحقيق محمد المختار العبيدي، بيت الحكمة، قرطاج، 1989م وما بعدها.
- فضائل القرآن، تحقيق أحمد الخياطي (دبلوم الدراسات الإسلامية العليا)، دار الحديث الحسنية، الرباط، 1407هـ=1986م.

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان)، الكتاب، طبعة بولاق، 1316-1317هـ.

ابن السيرافي، شرح أبيات سيبويه، تحقيق محمد على الريح هاشم، دار الفكر، القاهرة، 1974م.

السيرافي (أبو سعيد)، شرح الكتاب (8 أجزاء)، معهد المخطوطات العربية من 79 إلى 88.

- الأجزاء: VIII-VI-II-I ، مخطوطة مكتبة سليم آغا، اسطنبول، رقم1158-1161.

السيوطي (جلال الدين)،

- شرح شواهد المغني، مكتبة دار الحياة، بيروت، وطبعة أخرى بتحقيق ظافر فركوجان، دمشق، 1966م.
- المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد البجاوي ومحمد الفضل ابراهيم، القاهرة، جI الطبعة الثانية، وجII الطبعة الأولى، دون تاريخ.

الشافعي (الإمام)، الرسالة، تحقيق أحمد محمود شاكر، القاهرة، 1940م.

ابن الشجري (أبو السعادات هبة الله)، مختارات شعراء العرب، المطبعة العامرة، 1306هـ.

الشيباني (أبو عمرو)، كتاب الجيم، تحقيق إبراهيم الأبياري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة لشؤون لمطابع الأميرية، القاهرة، 1394هـ=1974م.

الصولي (أبو بكر)، الأوراق، القاهرة، 1936م.

ضاحي عبد الباقي ، لغة تميم، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1405هـ=1985م.

الطعان هاشم ، الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، وزارة الثقافة، بغداد، 1978م.

أبو الطيب اللغوي

- مراتب النحويين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، دون تاريخ.
- كتاب الإبدال، تحقيق التنوخي، ج II، دمشق، 1960م.

ابن عطية، كتاب المباني، المنشور في كتاب "مقدمتان في علم القرآن"، تحقيق ارثر جفري.

عادل الفريجات، الشعراء الجاهليون الأوائل، بيروت، 1996م.

عبد البديع صقر، شاعرات العرب، المكتب الإسلامي، دمشق، 1967م.

عبد الجبار القاضي، المغني في إعجاز القرآن، القاهرة، 1960م.

عبد الحميد المعيني، شعر تميم في العصر الجاهلي (جمع وتحقيق)، نادي القصيم الأدبي، السعودية، 1982م.

ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، القاهرة، 1940-1953م.

عبد الرحمن الحاج صالح،

- بحوث ودراسات في علوم اللسان، الجزائر، 2005م.
- مفهوما الحركة والسكون وتكنولوجيا اللغة، في بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (جزآن)، الجزائر، 2005م.
- مدخل "لغة"، في دائرة المعارف الإسلامية، ليدن النشرة الجديدة.
- النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1964م.

عبد العزيز الفيصل، شعراء قشير في الجاهلية والإسلام(جزآن)،مكتبة الحلبي، القاهرة، 1978م.

عبد المعين الملوحي، أشعار اللصوص وأخبارهم (جمع)، دار طلاس، 1988م.

عبده بدوي، الشعراء السود، الهيئة المصرية العامة، مصر، 1973م.

أبو عبيدة (معمر بن المثنى)،

- الديباج، تحقيق عبد الله الجربوع وعبد الرحمن بن العثيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1991م.
- مجاز القرآن (جزآن)، تحقيق فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1374هـ=1974م.
- نقائض جرير والأخطل (جزآن)، تحقيق أنتوني أشلر بيفان، ليدن، 1905م.

عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، 1378هـ=1958م.

العجاج، ديوانه (برواية الأصمعي)، تحقيق عزة حسن، دار الشرق العربي، 1416هـ=1995م.

العسقلاني (ابن حجر)، الإصابة في تمييز الصحابة، المكتبة التجارية، القاهرة، 1939م.

العسكري (أبو أحمد)، [شرح] ما يقع فيه التصحيف والتحريف، تحقيق السيد محمد يوسف، دمشق، 1401هـ.

العسكري (أبو هلال)، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى بابي الحلبي، القاهرة، 1371هـ=1952م.

علي بن حمزة البصري ، التنبيهات على أغاليط الرواة، تحقيق محَمد أسد طلس، دمشق، 1968م.

أبو علي القالي،

- كتاب الأمالي، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1996م.

- كتاب النوادر، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1373هـ=1953م.

أبو العَمَيْثَل، المأثور في اللغة، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، 1988م.

عيضة عبد الغفور الصواط، شعراء ثقيف في العصر الأموي، نادي الطائف، السعودية، 1987م.

الفارابي (أبو نصر)، كتاب الحروف ، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق ، بيروت، 1986م.

الفارابي (إسحاق بن إبراهيم)، ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار عمر وأ.أنيس، القاهرة، 1394هـ=1974م.

ابن فارس (أحمد)،

- الصاحبي، السلفية، القاهرة، 1328هـ=1910م.

- مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، عيسى بابي الحلبي بمصر، الطبعة الأولى، 1366-1369هـ.

الفارسي (أبو علي)، الحجة في علل القراءات، تحقيق ع.ن.ناصف وعلي النجار وع.شلبي، القاهرة، 1966م.

فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي وزملائه، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ابتداء من 1403هـ=1983م.

الفراء (أبو زكريا يحي بن زياد)، معاني القرآن، ج1و2 تححقيق محمد علي النجار، القاهرة، 1955-1966م، وج3 تحقيق عبد الفتاح اسماعيل شلبي وعلي النجدي الناصف، 1973م.

ابن الفرج المعافى النهرواني، الجليس الصالح (4 أجزاء)، تحقيق محمد مرسي الخولي، عالم الكتب، بيروت، 1313هـ=1993م.

ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)، الشعر والشعراء، جزآن، تحقيق أحمد محمد شاكر،القاهرة،1364-1369هـ.

القرشي (ابن أبي الخطاب)، جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، مصر، 1967م.

القفطي (علي بن يوسف)، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1950م.

ابن كثير، فضائل القرآن، مطبعة المنار، 1347هـ.

لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1922-1925م.

المبرد (أبو العباس)،

- الفاضل، تحقيق الميمني، القاهرة، 1375هـ=1956م.
- الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دون تاريخ.
- المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، 1385-1388هـ.

ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1972م.

محمد حلمي موسى، ألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، 2000م.

محمد صبري، الشعر الجاهلي وأعلامه، القاهرة.

محمد العيد الخطراوي، شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج، دار القلم، بيروت، 1980م.

المرتضى (الشريف)، أمالي المُرتَضى، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1387هـ=1967م.

أبو مسحل الأعرابي، كتاب النوادر، تحقيق عزة حسن، مجمع دمشق، 1961م.

المسعودي (أبو الحسن)، مروج الذهب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1377هـ=1958م.

المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، 1942م.

ابن منظور، لسان العرب، بيروت، 1955-1956م.

ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر،الطبعة الثالثة، 1956م.

نايف معروف، ديوان الخوارج (تحقيق)، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م.

نجيب البهبيتي، تاريخ الشعر العربي، دار الكتب المصرية، مصر، 1950م.

النحاس (أبو جعفر)،

- إعراب القرآن (5 مجلدات)، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، 1405هـ.
- شرح شواهد سيبويه، تحقيق زهير غازي، النجف، 1974م.

ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد بن علي، طبعة طهران، 1350هـ=1971م.

نوري حمودي القيسي،

- شعراء إسلاميون (تحقيق)، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة النهضة العربية، بغداد، الطبعة الثانية، 1984م.
- شعراء أمويون (تحقيق)، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة النهضة العربية، بغداد، الطبعة الثانية، 1985م.

هاشم عطية وإبراهيم مصطفى، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي والإسلامي، القاهرة.

الهَجَري، التعليقات والنوادر، القسم الثالث:اللغة والمواضع، تحقيق حَمَد الجاسر، شركة العبيكان، الرياض، دون تاريخ.

وفاء السنديوني، شعر طيّئ وأخبارها في الجاهلية والإسلام، دار العلوم، الرياض، 1983م.

أبو العباس ابن ولاد، كتاب الانتصار، دار الكتب، تيمورية، 705 نحو.

الوزير أبو سعيد الآبي، نثر الدر (8 أجزاء) تحقيق على محمد قرنة ، 1995م.

ياقوت الحموي،

- معجم الأدباء، نشر الرفاعي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1936-1938م.
- معجم البلدان (7 أجزاء)، دار صادر، بيروت، 1993-1995م.

ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح (حاشية على شرح القزويني)، القاهرة، دون تاريخ.

أبو البقاء يعيش بن علي، شرح المفصل (10 أجزاء)، القاهرة، دون تاريخ.

يوسف خليف، الشعراء الصعاليك، دار المعارف، مصر، 1959م.

يوهان فك، العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، الخانجي، 1400هـ=1980م.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

A.HADJ-SALAH, La notion de syllabe et la théorie cinético-impultionnelle des phonéticiens arabes, *Al-Lisāniyyāt*, Institut de Linguistique et de Phonétique , Université d'Alger, Vol 1, n°1, 1971, pp.63-83.

A. J. GREIMAS, Sémantique structurale , Larousse, Paris, 1966.

A. MARTINET, Eléments de linguistique générale, A.Colin, Paris, 1960, 2ème ed, 1967.

A.MEILLET, Linguistique historique et linguistique générale, Champion et Klincksieck, Paris, 1921-1936, 2ème vol, t.I , rééd, 1958, t.II, rééd, 1952.

F.FRANCOIS, La description Linguistique, Le Langage, Encyc. de la Pléiade, Gallimard , Paris, 1968.

R.BLACHERE, Histoire de la littérature arabe, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1952-1966.

فهرس الموضوعات

المقدمة 07

أصول البحث العلمي في التراث اللغوي كما يجب أن تكون في نظرنا 09

الباب الأول

العربية ومعيارها اللغوي: محاولة تحديده بمقاييس موضوعية

الفصل الأول: مفهوم الفصاحة 29

I - تحديد مفهوم الفصاحة كمصطلح نحوي لغوي 29

II - تطور مدلول الفصاحة كمصطلح عند اللغويين في القرن الثالث وما بعد ذلك............ 42

1- معنى اللغة الفصيحة 42

2- معنى اللغة الجيدة (أو العالية) عند علماء القرن الثالث 46

3- تحول مسمى «العربي الفصيح» في القرن الثالث وحصره في البدوي صاحب غريب. 50

III - الفصاحة في اللغة: المفهوم الوضعي (غير المصطلح عليه عند النحويين) 53

IV - تطور مفهوم الفصاحة عند البلاغيين 59

كيف فُهم كلام الجاحظ في الفصاحة والبلاغة في القرن الرابع 59

الخلاصة: حقيقة الفصاحة اللغوية كمقياس وقيمة هذا المقياس العلمية 61

الفصل الثاني: المقاييس المكانية الزمانية للفصاحة السليقية 65

I - المرجع الزماني المكاني الأساسي 65

II - ثلاث حقائق يجب الانتباه إليها 69

1 - لم تكن الفصاحة مقصورة في القرنين الأول والثاني على أهل البدو 69
2 - لم تكن الفصاحة مقصورة على القدامى من العرب.............................. 70
3 - لم تكن الفصاحة مقصورة على العرب الأقحاح 71
III - التطور الزماني المكاني للفصاحة 72
1 - الشعراء الأوائل ومشكلة اللغة القديمة 72
2 - أقدم ما وصل إلينا من الشعر بالعربية الفصيحة 74
IV - التطور المكاني الزماني للفصاحة السليقية ابتداء من زمان المهلهل 77
- الفترة الأولى 77
- الفترة الثانية 98
- الفترة الثالثة 110
- الفترة الرابعة 125
الخلاصة 131
الفصل الثالث: المقاييس الصورية اللسانية للفصاحة 135

الباب الثاني

اللغة العربية وأسطورة «اللغة المشتركة الأدبية» بإزاء اللهجات العربية

الفصل الأول: أدلة تعارض هذا القول 151
أولا: شهادة القرآن التاريخية 152
ثانيا: ما كان يقصد من كلمة لغة في زمان سيبويه 153
ثالثا: وقوع التفاهم وحقيقة اللهجات العربية 162
رابعا: قول سيبويه وزملائه: ومثل ذلك في القرآن أو الشعر أو الكلام 164

خامسا: اللغات في الشعر العربي وفي القراءات 168
سادسا: التخاطب بالفصحى قديما وأقوال المستشرقين 174
أ – توهم المستشرقين وأتباعهم من العرب 174
ب– معنى «اللغة الرديئة» عند علماء العربية 178
ج– لغة التخاطب عند فصحاء العرب هي الفصحى المتصفة بالإدراج الدائم 184
الخلاصة: موقف عامة العلماء القدامى من العربية وتعاملهم معها.......................... 189
الخاتمة: تصور العلماء العرب: كانت العربية تكوّن لسانا واحدًا مع تنوّع محلّي وغير محلّي. 195
افتراضات العلماء العرب حول أصول العربية وتحوّلها عبر الزمان 196
الفصل الثاني: الأدلة الإحصائية 201
I – اللغات في القرآن الكريم 201
1 – المستوى الإفرادي 202
2 – المستوى الصرفي النحوي من لغات القرآن 209
II – إحصاء «اللغات» في لسان العرب وما جاء في كتاب «لهجات الفصحى» من الوحدات
اللهجية 213
III – توافق البنية التركيبية باطّراد: بين لغة التخاطب القديمة ولغة القرآن ولغة الشعر...... 215
الخاتمة 225
IV – ماهية التنوعات الصوتية في اختلاف الأداء ومدى اتساع ذلك 225
1) النظام الصوتي العربي وتنوعاته الفصيحة 227
2) التنوعات الصوتية في ظاهرة الإبدال وغيرها من الظواهر الصوتية.......................... 233
الخلاصة 244
3) التنوع الصوتي في الأنظمة الصرفية 245

الخاتمة 248

الباب الثالث

السماع اللغوي

الفصل الأول: محتوى المسموع وخصائصه 251

I – أما النصوص المحفوظة 252

– علم العرب محفوظ متوارث: مفهوم التوارث في البيئة الفصيحة 254

– استخلاص مما سبق لمبادئ السماع عند علمائنا القدامى 257

II – النصوص الحرة العفوية 262

الفصل الثاني: مقاييس الصحة لمحتوى المسموع 267

I – المقاييس العامة 267

أ- خصائص المسموع اللغوي العربي ونقد المفهوم البنوي للمدونة 271

ب- الاعتراضات على الشواهد (الحجج) والمسموع عامة: ما قيمتها العلمية........................ 275

1- التعسف في رد الرواية : اشتهر بذلك المبرد وحده 276

2- ما قاله ابن قتيبة ومن جاء بعده 285

II – المقاييس التاريخية لصحة الرواية 291

1- دواوين الشعر الجاهلي: 294

2- توضيحات هامة حول هذه الدواوين 303

3- مصادر الأشعار في كتب اللغويين والنحويين 305

– شعر عدي بن زيد وأبي دؤاد الأيادي وما قاله عنهما ابن قتيبة 307

III – مناهج توثيق النصوص عند النحاة العرب وتحقيقها 310

الفصل الثالث : المسموع والشواهد 317

I - المسموع المسقرى غير الشواهد 317
- الدليل الأول على اتساع المادة اللغوية التي نظر فيها النحاة 318
II - بيان حقائق 325
1- اعتماد النحاة على النثر أكثر من اعتمادهم على الشعر 325
2- سماع الكوفيين من كلام العرب المنثور 331
3- السر في اعتماد النحاة أكثر على كلام العرب 333

الباب الرابع

التحريات اللغوية الميدانية ومناهجها

المشاهدة المباشرة: كيف تم السماع من أفواه العرب

الفصل الأول: أصحاب التحريات والسماع من اللغويين من البداية إلى القرن الرابع 337
القرنان الثالث والرابع 344
الفصل الثاني: البيئة الطبيعية للتحريات وأوصاف المساهمين فيها 347
I - مناطق السماع وأماكنه 347
1) المناطق الهامة 349
2) أماكن اللقاء الخاصة 359
الفصل الثالث: العنصر البشري في التحريات الميدانية 361
I - اللغوي المتحري: أوصافه 361
II - المُورد: أوصافه وما يشترط فيه من شروط 363
III - انقسام الموردين إلى معتَمَدين وعارضين وإحصاء الصنف الأول 365
الفصل الرابع: منهجية التحري اللغوي الميداني وتقنياته 371

I – هل كان المتحرون عند سماعهم يأخذون ويتركون؟ وكيف كان ذلك 371
1) أغراض التحري 371
2) السماع ملازم له الإحصاء عند القدامى 372
II – منهجية التحري 377
1) أنواع التحري 377
2) تقنيات السماع 378
أ- سلبيا 379
ب- أو نشيطا 381
III – تقنيات الكتابة: 389
كتابة المسموع ومختلف أنظمتها في زمان التحريات 389
الخاتمة 397
فهرس الأعلام 405
فهرس المراجع 435
فهرس الموضوعات 445

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية- الجزائر-
2012
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie -
Bp 75 Z.I Réghaïa Tél (021) 84 85 98 / 84 86 11

ولد بمدينة وهران، درس في مصر وفي بوردو وباريس. تحصل على التبريز من باريس ودكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة باريس –السوربون– كان أستاذا بجامعة الرباط سنة 1961م إلى سنة 1962م، وبجامعة الجزائر بعد ذلك، وصار مدير معهد العلوم اللسانية بالجزائر، ثم مدير مركز البحوث العلمية لترقية اللغة العربية، وعيّنه الرئيس عبد العزيز بوتفليقة رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية سنة 2000م. وهو عضو في المجامع الآتية: دمشق وبغداد وعمان والقاهرة. ويشرف على مشروع الذخيرة الدولي.

إن علماء اللغة العرب هم أول من قام في التاريخ بتدوين اللغة بالسّماع المباشر في عين المكان للنّاطقين بها، وقد تعرَّضوا لكلّ أو لأكثر قبائل العرب. وكان ذلك على مراحل وعلى مقياس فصاحة أفرادها وهي عندهم صفة الذي لا ينطق إلا بلغة منشئه ولم تتغير لغته. ومرجعهم هو لغة القرآن وكل النّاطقين السّليقيين بهذه اللغة. وبين المؤلف أن ما شاع من اقتصارهم على البدو وعلى الشعر القديم منه وتخليطهم بين لغة مشتركة أدبية مفترضة واللّهجات يكذبه التّصفح الكامل للنصوص والنظر الدّقيق فيها. وبُعد النّظر في مقاييس العلماء لتصحيح المعطيات تناول المؤلف موضوع التّحريات الميدانية فأحصى المتحرّين والأماكن التي تجولوا فيها وذكر أوصاف المتحرّي والمورد، كما وصف مناهج التحرّي اللغوي واستخرج من ذلك بعض الأصول التي اعتمدوا عليها.

ISBN:978-9931-00-171-3

9 789931 001713